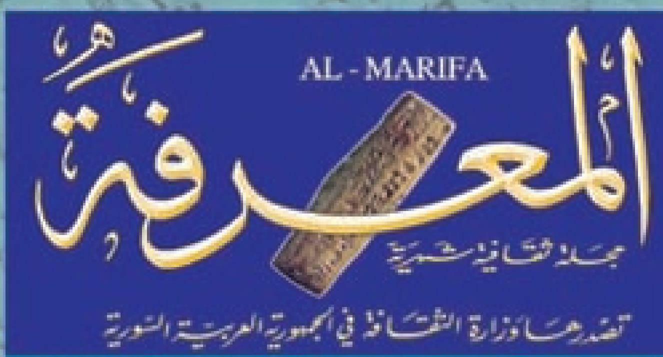


العدد ٥٦٠ - السنة ٤٩ - جمادى الأولى ١٤٣١ هـ - أيار ٢٠١٠م

تأسيس علم العمران

افتتاحية العدد

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

استانبول عاصمة الثقافة الأوروبية
د. علي القيّم — رئيس التحرير

الأصول السورية للموسيقا الكنسية
فايز مقدسي

الدور الإنساني للمدرسة في النظام الرأسمالي
د. علي وطفة

الإنسان ومسؤولية اللسان
عبد الباقي يوسف

فلسفة الذكاء الصناعي
وسيم طاهر حسن

رؤية مضللة للتقدم العلمي
ترجمة: موسى ديب الخوري

مع امتداد الطريق
د. عبد الكريم الأشتر

أثر الحكايات العربية في أدب القص الغربي
ترجمة: رافع شاهين



تأملات - للفنانة غادة دهني

الإبداع

حين تعبت | شعر | سليمان العيسى
هم يعشقونك | شعر | محمود مفلح
بيرامس وتيسبي | قصة | وصفية محيك
ذاتيات رجل حاول النهوض | قصة | ابراهيم عواد خلف

كتاب الشهر

بلاد الرافدين وعيلام
عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

حوار العدد

مع الأديب حسين الحموي





العدد ٥٦٠ السنة ٤٩ - جمادى الأولى ١٤٣١ هـ - أيار ٢٠١٠ م



- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتّاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية

- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠ـ ٤٠٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٤٠٠٠ـ ٦٠٠٠ كلمة

- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:

اسم المؤلف ـ عنوان الكتاب ـ مكان الطباعة وتاريخها ـ رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً

ترجو المجلة من كتابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم

- ترجو المجلة أن ترد الإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها

- تلتزم المجلة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها. ولا تُعاد لأصحابها

- يُرجى توجيه المراسلات إلى المجلة على العنوان التالي:

الجمهورية العربية السورية ـ دمشق ـ الروضة ـ رئيس تحرير مجلة المعرفة ـ تلفاكس ٣٣٣٦٩٦٣

سعرُ النسخةِ ٢٥ ل.س أو مَا يُعادلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارجَ القطر

www.moc.gov.sy

الإشراف الطباعي : مطابع وزارة الثقافة

في هذا العدد

كلمة الوزارة

تأسيس علم العمران

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

استانبول عاصمة الثقافة الأوروبية

د. علي القيّم
رئيس التحرير



الدور الإنساني للمدرسة في النظام الرأسمالي الجديد	د. علي أسعد وطفة	١٦
في مفهوم الثقافة السياسية ووظائفها	د. حكيمة بوبعيو	٣٢
وليم شكسبير والسيكولوجية الأخلاقية	د. غالب سمعان	٤٣
رؤية مضللة للتقدم العلمي	ترجمة: موسى ديب الخوري	٧٠
سن الرشد	باكير محمود باكير	٩١
الإنسان ومسؤولية اللسان	عبد الباقي يوسف	١٠٣
فلسفة الذكاء الصناعي	وسيم طاهر حسن	١٢٨

الإبداع

شعر :

حين تعبث	سليمان العيسى	١٤٩
هم يعشقونك	محمود مفلح	١٥٣

قصة :

بيراموس وثيسبي	وصفية محبك	١٥٦
رثائيات رجل حاول النهوض	إبراهيم عواد خلف	١٦٢

آفاق المعرفة

مع امتداد الطريق .... د. عبد الكريم الأشتر ١٧٠

البحوث العلمية عماد التطور التقني والتنمية .... د. أحمد غنام ١٨٠

التكنولوجيا الحديثة ودورها في هيكلة الاقتصاد (الإسرائيلي) ..د. حسين إبراهيم ١٨٩

نماذج في رثاء مدن وممالك أندلسية .... د. فورار محمد بن لخضر ٢٠٣

العبودة والعمل .... د. علي أبو عساف ٢١٥

أضواء على مدينة بصرى .... د. خليل المقداد ٢٢٠

البحتري وأبو تمام .... د. محمد يقوته نور ٢٤١

المرأة والقرار الثقافي .... د. بغداد عبد المنعم ٢٥٢

الفن.. وفلسفة الخط العربي .... معصوم محمد خلف ٢٦١

أطياف ذكريات .... جميل حسن ٢٧٥

غوركي يتحدث عن تشيخوف .... نصر الدين البحرة ٢٨٦

سهرة فكرية مع أوراق العمر .... سمية اليونس غانم ٢٩٢

رائد الشعر التعبيري (جورج تراكل) .... محمد جدّوع ٣٠٣

الأصول السورية للموسيقى الكنسية .... فايز مقدسي ٣١٣

الحب في بعض القصص القصيرة في سورية .... سلوم درغام سلوم ٣٢٦

أثر الحكايات العربية الشعبية على أدب القص الغربي .... ترجمة: رافع شاهين ٣٣٢

الوقاحة الفكرية .... أحمد مثقال قشعم ٣٣٨

حوار العدد

حسين حموي: شاعر و٢١ كتاباً .... إعداد: عادل أبو شنب ٣٥٢

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي.................................... إعداد: أحمد الحسين ٣٦١

كتاب الشهر

بلاد الرافدين وعيلام....................................... محمد سليمان حسن ٣٧٧

آخر الكلام

سباق الفئران.. رئيس التحرير ٣٨٢



الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

تأسيس علـم العمــران

لم تكن الدراسات الاجتماعية التي سبقت ظهور مقدمة (ابن خلدون) تستخلص قوانين للظاهرة الاجتماعية، وإنما كانت تكتفي بوصفها على نحو ما فعل (ابن حزم) في كتابه الشهير (الملل والنحل) أو ما فعل ابن مسكويه في كتابه (تهذيب الأخلاق) أو الغزّالي في كتابه (الأحكام السلطانية)، أو الطرطوشي في

(سراج الملوك) فمثل هذه الكتب الشهيرة في تراثنا الثقافي تقع ضمن الدراسات التاريخية أو الوعظية بينما نجد علم العمران على النحو الذي أسسه ابن خلدون يدرس الاجتماع الإنساني كما يدرس علماء الطبيعة القوانين الناظمة لحيوية الطبيعة وهذا البحث عن القانون الناظم غائب حتى عن كتب هامة في التاريخ الإنساني مثل جمهورية أفلاطون أو كتاب الأخلاق لأرسطو أو كتاب المدينة الفاضلة للفارابي فهذه الكتب وأمثالها تبحث عما ينبغي أن يكون عليه المجتمع حتى يصير فاضلاً.

لقد كان ابن خلدون أول من اكتشف أن للظاهرة الاجتماعية قانوناً مثل قوانين الطبيعة والرياضيات وكان كل من قبله يظنون أن ظواهر الاجتماع خارجة عن نطاق القوانين، ولا تخضع إلا لرغبات القادة وتوجيهات الزعماء والمشرّعين،وقد أدرك ابن خلدون أنه بهذا الاكتشاف يبتكر علماً ولكنه يقول بتواضع شديد (كأن هذا علم مستقل، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني) ويقول في موضوع آخر من المقدمة (كأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة وما أدري ألغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم؟) ويبرز تواضعه الجم في قوله (ولعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا، والحكماء في أمم النوع الإنساني كثيرون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل.

ولقد فهم كل من قرأ المقدمة منذ أن كتبها ابن خلدون أن الرجل يقدم نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه تواضع العلماء وهذا التواضع سمة ظاهرة عند علماء العرب والمسلمين عبر التاريخ. ولقد بدأ ابن خلدون مقدمته بخطبة الكتاب ثم قدم فصلاً عن التاريخ وعمّا وقع فيه المؤرخون من مغالطات، ثم قدَّم بحثاً عن طبيعة العمران فيه ستة بحوث رئيسة تحدث فيها عن البداوة وعن نشأة الدول ثم عن الخلافة والمراتب السلطانية، ثم تحدث عن (البلدان والأمصار وسائر

العمران، وعن المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، ثم عن العلوم وأصنافها، وعن التعليم وطرائقه، وسوى ذلك مما يتعلق بحياة المجتمع، وقد عكس بذلك وعيه الدقيق لاتساع الظاهرة الاجتماعية، والظواهر المتصلة بطرق التجمع الإنساني، موضحاً أثر الجغرافيا في تكوين الظاهرة، وهذا ما سمّاه عالم الاجتماع الشهير دوركهايم (المورفولوجيا الاجتماعية) أو علم البنية الاجتماعية، وقد توهم دوركهايم أنه أول من تنبه إلى هذا العلم، ولم يفطن إلى أنّ ابن خلدون سبقه إلى ذلك قبل خمسمئة عام.

ولعلَّ تأمل عناوين فصول المقدمة يكشف تحديد ابن خلدون الدقيق لنواظم القانون الاجتماعي، وحسبنا تأمل مثل هذا العنوان (الظلم مؤذن بخراب العمران) أو (وفور العمران آخر الدولة) أو (الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء) وسوى ذلك كثير مما يجسد خلاصة القانون ولا سيما في حديثه عن الظواهر السياسية أو الاقتصادية أو اللغوية أو الدينية.

وهو في تحذيره للمجتمع من الاستسلام لمن يغلبه، ينذر الأمة المغلوبة بالفناء المادي موضحاً أن خضوع الأمة لغيرها من الأمم، لا يؤثر في حريتها واستقلالها فحسب وإنما يؤدي إلى فناء معنوي ومادي، وهو يبرهن على ذلك بحقائق علم البيولوجيا وبالقياس المنطقي، ويقول: (والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك الغالب أمر الأمة عليها، وصارت بالاستعباد آلة لسواها فيقصر الأمل ويضعف التناسل) فيصير المغلوبون أكلة لكل آكل.

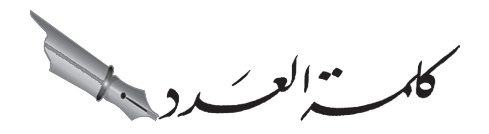
ومن أبرز خصائص مقدمة ابن خلدون فضلاً عن تقديمها علم العمران الجديد تأسيسها لأسلوب جديد في الكتابة العربية وعرضها للعديد من العلوم والفنون وهو لا يمر عليها مروراً عابراً وإنَّما يفصل القول فيها وفي مناهجها وطرائق الانتفاع بها.

وابن خلدون في مقدمته يجسد ظاهرة الحضارة العربية الإسلامية ذاتها،

في كونها استيعاباً لحضارات الأمم التي سبقت وإضافة إبداعية عليها، وفي أنها ليست مجرد نقل لعلوم الآخرين كما يزعم بعض الحاقدين..

ولقد قلت في حديث سابق، إن الناس نسوا كتاب ابن خلدون «العبر، وديوان المبتدأ والخبر» وتوقفوا عند مقدمته الشهيرة. ولكن الكتاب واحد من أهم مراجع التاريخ ومصادره، وفيه دراسة هامة مفصلة لتاريخ العرب والعجم والبربر، وفيه نوع من السيرة الذاتية وهو (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً) وهو رواية طريفة لحياة ابن خلدون المليئة بالأحداث وبالتجارب يعرض فيها كل مشاهداته بدقة المؤرخ وأمانة العالم، وقد ألحق ابن خلدون هذه الدراسة بكتاب العبر الذي سيبقى في تراثنا العربي ذا خصوصية متفردة في كونه يقدم ثلاثة كتب، أهمها المقدمة التي حملت ابتكار علم العمران، وثانيهما كتاب التاريخ المفصل، وثالثهما سيرة ابن خلدون.





كلمة العدد



استانبول عاصمة الثقافة الأوروبية

د. علي القيّم
رئيس التحرير

تعود فكرة اختيار مدن من الدول غير الأعضاء في الاتحاد الأوروبي، لتكون على مدى سنة كاملة، عاصمة أوروبية للثقافة، إلى عام ٢٠٠٠، وقد وقع الاختيار رسمياً على مدينة استانبول التركية في عام ٢٠٠٦، لتكون تلك العاصمة عام ٢٠١٠.. وهكذا انطلقت منذ منتصف شهر كانون الثاني فعاليات ونشاطات هذه السنة الأوروبية التي تشتمل على نحو /١٧٠/

حدثاً ثقافياً، وأكثر من /٥٠٠/ من المشاريع التراثية والحضارية والتظاهرات الفنية المتعددة..

يتنازع هذا الحدث رغبة تركية تهدف إلى التدليل على طابع المدينة الثقافي الأوروبي، التأكيد على تجذّرها الأوروبي، ولكن أين المهرب فاستانبول شرقية الطابع، في جميع ملامحها التاريخية والعمرانية، ومنذ عقود تدق حكومتها الباب الأوروبي، دون جدوى، ومع ذلك خرج سكان استانبول إلى الشوارع ليدشّنوا مدينتهم كأول عاصمة للثقافة في أوروبة، من خارج الاتحاد الأوروبي.. لقد انطلقت الألعاب النارية بسخاء في سماء المدينة الرائعة التي كانت عاصمة للإمبراطوريتين البيزنطية والعثمانية، وتعالت أصوات الموسيقا ونجوم الغناء التركي، بمشاركة أكثر من خمسة آلاف شخصية محلية وعالمية.

بعيداً عن السياسة وعن رغبة رجب طيب أردوغان: «إن استانبول دليل حي على أوروبيّة تركيا، وأنها جزء طبيعي من أوروبة» فقد استعدت هذه المدينة التاريخية الجميلة لهذا الحدث بترميم آثارها البيزنطية، مثل «آيا صوفيا» و«قصر قوبكابي»، وافتتاح متاحف جديدة، وترميم الآثار الإسلامية، وتجديد معبد يهودي، وتمَّ استلهام حفل الافتتاح من الطرق الصوفية، وإيقاعات رقص المولوية.. وكل ذلك تمَّ تحت شعار سوف يرفع عالياً حتى نهاية عامنا الحالي: «ليس هناك مدينة في العالم تثير الإلهام مثل استانبول»، و«استانبول مدينة العناصر الأربعة» في تحية لفلاسفة الإغريق القدامى، الذين عاشوا في شرق تركيا بدءاً من القرن السابع قبل الميلاد، وفسّروا بنية الكون، بالعناصر الأربعة (التراب- الهواء- الماء- النار) والتي أثّرت بالحضارة الغربية والشرقية، وبقيت معتمدة حتى تاريخ بدء الثورة العلمية في القرن الثامن عشر، وقد توزعت الأنشطة الثقافية والفنية على أربعة أقسام، يحمل كل منها اسم عنصر من العناصر الأربعة، وكانت البداية من التراب (من ١كانون الثاني إلى ٢٠ آذار) وحمل هذا القسم شعار «التقاليد والتحوّل» وضمّ ستة معارض، وعدداً متميزاً من العروض

الموسيقية..

القسم الثاني حمل اسم (الهواء) من ٢١ آذار إلى ٢١ حزيران، وقد وضع له شعار «الرسالة السماوية» وسيضم عدداً من المعارض، التي تعرّف بالآثار الدينية التاريخية الإسلامية والمسيحية الموجودة في استانبول، إضافة إلى عدد كبير من الأفلام وعروض الهواء الطلق..

القسم الثالث (الماء) من ٢٢ حزيران إلى ٢٢ أيلول، وسيتم فيه إلقاء الضوء على مدينة استانبول بوصفها جسراً يربط بين آسيا وأوروبة، حيث سيتم إطلاق معرض «أوروبة في البوسفور» وستكون الفرصة متاحة للفنانين من جميع أنحاء أوروبة لعرض إبداعاتهم الفنيّة على عوامات وجسور صغيرة بمحاذاة مضيق البوسفور، وغيرها من النشاطات.

القسم الرابع (النار) من ٢٣ أيلول إلى ٣١ كانون الأول، وسيحمل شعار «صياغة المستقبل» وسيكون من أهم نشاطاته «بينالي استانبول الدولي الحادي عشر» و«البينالي المعماري» وصياغة المستقبل المخصصة للأطفال.



زرت استانبول ثلاث مرات بين (٢٠٠٣ و٢٠٠٧) بصفتي عضواً في مجلس إدارة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، المعروف باسم «أرسيكا» التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وقد تمَّ انتخابي في «كوالالامبور» من قبل /٥٤/ دولة عربية وإسلامية، وكان أول ما فكّرت فيه عندما حطّت الطائرة السورية في مطار استانبول، هل ستكون هذه الفرصة كافية للتعرف على مدينة قديمة، حديثة، شرقية، غربيّة، علمانية، وإسلامية.. مدينة بدأ الاستيطان البشري فيها منذ الألف الثاني قبل الميلاد، تحت اسم «بيزنطيوم» واختارها الإمبراطور الروماني «قسطنطين الأكبر» عاصمة للإمبراطورية عام /٣٣٠م/ وأعطاها اسمه لتصبح «القسطنطينية»، وانتقلت إلى السيادة العثمانية

في عهد السلطان محمد الفاتح عام /١٤٥٣م/ وحملت منذ ذلك التاريخ اسمها الحالي استانبول، وأطلق عليها لقب «الأستانة والباب العالي» وأصبحت عاصمة للخلافة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول عام ١٥١٦م..

منذ الوهلة الأولى شعرت أنني أحتاج إلى فرصة أكبر، والوقت ضيّق، واجتماعات المجلس (صباحية ومسائية) ومع ذلك حاولت اغتنام الفرص ما أمكن في ساعات الصباح الأولى، وفي ساعات المساء، التي عرفتني على ساحة «تقسيم» والأزقة المتفرعة من شارع الاستقلال، الأشهر في هذه المدينة التي يلتقي في جنباتها الضوء والعتمة، والجسر الذي يفصل استانبول الآسيوية عن استانبول الأوروبية.. لقد قطعت المسافة مشياً على الأقدام، وهبطت السلالم لأجلس في مطعم أسفل الجسر، يقع بين قارتي آسيا وأوروبة، وكانت لحظات مفعمة بحضور آسر للزمن الذي يتوقف هناك..

في استانبول لا يشعر المرء بالغربة، لأن الحياة تدبّ في شوارعها وأسواقها التجارية ومعالمها التراثية والعمرانية.. اجتماعاتنا كانت تتم في قصر يلدز الشهير، مما جعلنا نعيش حالة من الوجد، والرغبة الشديدة في التعرف على معالمه وروائع التحف والآثار الموجودة في غرفه وخزائنه.. ومنه كان المنطلق للتعرف على مبنى «آيا صوفيا» الذي يعد أول كنيسة شرقية لها صبغة عالمية، وأكبر معبد للعالم المسيحي حتى فتح المدينة من قبل السلطان محمد الفاتح.. لقد جعل منها الإمبراطور «جوستنيان» تحفة معمارية بيزنطية خالدة، أنفق على عمارتها /٣٢٠/ ألف رطل من الذهب، وأصبحت عمارتها الضخمة مصدر إلهام عدد من المعماريين العثمانيين في عمارتهم للمساجد، وقد تحول هذا الصرح الحضاري إلى مسجد، وإلى متحف في زمن مصطفى كمال أتاتورك، ويعد من أهم معالم استانبول التاريخية والعمرانية، التي لايضاهيها جمال آخر..

خلال فترة حكم السلطان محمد الفاتح، التي دامت نحو ثلاثين عاماً، بني في استانبول نحو /٣٠٠/ مسجد، ويعد مجمع الفاتح أول مجمّع معماري يظهر على أراضي الإمبراطورية العثمانية في استانبول، وقد بناه عام ١٤٧٠م، ويتكون من مبانٍ

عديدة، يتوسطها الجامع الضخم..

أما مجمّع السليمانية، الذي بناه السلطان سليمان الأول، فيعكس بقوة وجلاء، عظمة السلطنة العثمانية، حيث ترتفع فيه نحو /٤٠٠/ قبة من أحجام مختلفة، لثمانية عشر بناء تشكّل المجمّع الضخم..



من يتجوّل في استانبول القديمة، يجد التشابه الواضح مع عدد من العواصم والمدن العربية التقليدية مثل: دمشق وحلب والقاهرة وتونس والدار البيضاء.. إنه سحر الشرق الذي ما يزال يرخي بظلاله الوارفة على الأبنية والقصور والمساجد والساحات والشوارع والأسواق والحمامات، وأماكن صناعة وبيع الحرف التقليدية التي تجذب الزوار والسياح القادمين من شتى أرجاء العالم، والذين يتوقع أن يصل عددهم إلى أكثر من عشرة ملايين زائر في عام ٢٠١٠ .. وتعد هذه العناصر التقليدية لمدينة استانبول أحد أهم عناصر الدعاية السياحية العالمية، لعاصمة الثقافة الأوروبية.. التي تعاني من اختناقات مرورية، مثلها مثل: دمشق والقاهرة وبيروت وطهران وغيرها..

الجهات المعنية عن المدينة القديمة في استانبول، لم تستكن لهذا الأمر الذي أرهق أصحاب القرار في عواصمنا العربية التقليدية فقد قامت بلدية استانبول بدراسة شاملة لشبكة شوارع المدينة القديمة، وقد وجدت في الزيارة الأخيرة أن الحلول بدأت تأخذ طريقها، فقد منعت حركة مرور المركبات، ورصّفت الشوارع بالحجارة التقليدية، وأدخلت القطارات الكهربائية، صديقة البيئة، بخط طوله/١٢/كم، وتمَّ الاستغناء بشكل كامل عن حافلات النقل العام الأخرى في المدينة القديمة..

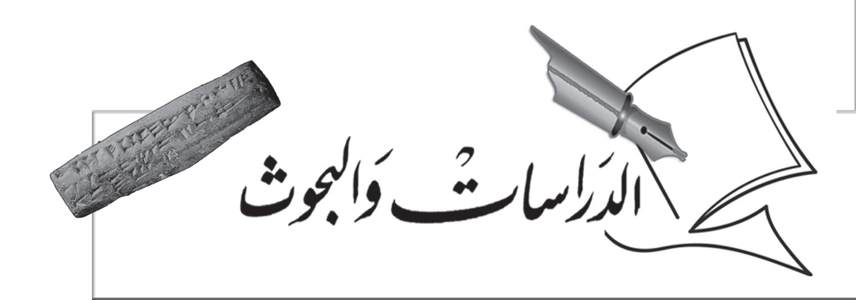
استانبول مدينة كبيرة، عدد سكانها يتراوح بين (١٥ و١٧) مليون نسمة، وتعدّ المركز الاقتصادي والتجاري والصناعي والمالي والثقافي والسياحي الرئيس لتركيا.. لذلك ليس غريباً أن تكون مركز الاهتمام والرعاية والتأثير القوي في حياة جيراننا الأتراك، الذين يعدّون مدينتهم دائماً من المدن التي أثرت أيضاً تأثيراً قوياً في حضارة أوروبة

وثقافتها.. ربما طابعها السياحي يضعها في قمم المعالم السياحية، ولكن أوروبة لا تزال –حتى الآن- ترفض الاعتراف بأوروبيتها. واختيارها عاصمة للثقافة الأوروبية، عزز الأمل عند الأتراك بقرب انضمامهم إلى الاتحاد الأوروبي الذي بدأت مفاوضات الانضمام إليه رسمياً منذ عام ٢٠٠٥.

«أورهان باموق» الأديب التركي الحائز على جائزة نوبل للآداب، والذي تحضر استانبول في كثير من أعماله، وخاصة كتابه «الذكريات والمدينة» قد يكون أسعد الناس لأن مدينته أصبحت محط اهتمام عالمي، وهو الذي كشف أسرارها وألغازها، وقدّم عنها صورة بالغة الثراء، عن جوامعها ومآذنها وقبابها وجسورها وشوارعها وأزقتها الخلفية، وحركة المدينة المعاصرة، وقام بتسجيل الوهج الذي يحيط بالروح الخالدة لاستانبول، وأحوالها الملونة والواسعة..

«باموق» من مواليد هذه المدينة في عام ١٩٥٢، وهو الأدرى بشعابها.. لقد كبر وكبرت معه أحلامه وأشواقه وتوقه إلى وسع العالم كله.. في صغره كانت استانبول مدينة بسيطة ومتعبة، يبلغ عدد سكانها مليون نسمة، وبعد أكثر من نصف قرن، تحوّلت حاضرة مساحتها مضاعفة عشر مرات، ومحاطة بأحياء غريبة ومتباعدة، تكبر المدينة مثل الناس، وتكبر روحها، ويبقى الوهج في المدينة القديمة، وفي معالمها الخالدة التي تدلنا على استانبول التاريخ والعمارة والحضارة..





- الدور الإنساني للمدرسة في النظام الرأسمالي الجديد .... د. علي أسعد وطفة
- في مفهوم الثقافة السياسية ووظائفها .... د. حكيمة بوبعيو
- وليم شكسبير والسيكولوجية الأخلاقية .... د. غالب سمعان
- رؤية مضللة للتقدم العلمي .... ترجمة: موسى ديب الخوري
- سن الرشد .... باكير محمود باكير
- الإنسان ومسؤولية اللسان .... عبد الباقي يوسف
- فلسفة الذكاء الصناعي .... وسيم طاهر حسن



الدور الإنساني للمدرسة في النظام الرأسمالي الجديد؟

د. علي أسعد وطفة *

تشهد الأنظمة التربوية العالمية، منذ ثمانينات القرن الماضي حتى اليوم، نسقا متواترا من الإصلاحات التربوية التي تشكل في جوهرها استجابة موضوعية لمتطلبات الاقتصاد الرأسمالي الليبرالي الجديد. وفي ظل هذه الإصلاحات التربوية المتعاقبة وجدت المدرسة نفسها في أحضان السوق الاقتصادي الرأسمالي تخضع لقوانينه وتتفاعل مع معطياته وتستجيب لمتطلباته، وهي في دائرة التجاوب مع النظام الاقتصادي الجديد بدأت تمارس

** باحث وأستاذ في جامعة الكويت.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي

دورها الرأسمالي في نسق فعاليات تربوية ثلاثية الاتجاه، فهي في البداية، تقوم بتزويد السوق الاقتصادية بكفاءات قادرة على التكيف مع مختلف الظروف المتغيرة للحياة الاقتصادية الرأسمالية في عصر العولمة، ثم، تعمل بالتالي، أي في المرحلة الثانية، على بث ثقافة الاستهلاك بين المتعلمين وبناء الإنسان المستهلك بامتياز لتشجيع دورة الإنتاج الرأسمالية، وأخيرا، تعمل في المرحلة الثالثة من تطورها، على تحقيق الاندماج الكلي في آلية السوق الرأسمالية متحولة بذاتها إلى مؤسسة رأسمالية بنيوية بامتياز(١).

لقد كانت العلاقة التاريخية ما بين النظام الرأسمالي والمدرسة في الماضي علاقة إشكالية إذ لطالما حاولت المدرسة أن تنفلت من عقال هذه الرأسمالية المتوحشة لتمارس دورا ثقافيا إنسانيا يتجاوز حدود السوق وآليات اشتغاله، وقد حققت نجاحا كبيرا في مراحل تاريخية معينة وفي مناطق محددة من العالم، ولكن النظام الرأسمالي لم يكف أبدا عن محاصرة المدرسة والعمل على توظيفها في خدمة دورته الرأسمالية، وقد عرفت هذه العلاقة بين المدرسة والنظام الرأسمالي أطوارا عديدة تتصف بطابع التشاكل والتعقيد والتغاير.

أما اليوم فإن النظام الرأسمالي الجديد المزهو بانتصاراته فيما بعد الحداثة يطالب المدرسة بتحقيق هدفين أساسيين: يتمثل الأول في إنتاج أناس مؤهلين جيدا لأداء أدوار رأسمالية تسويقية للنهوض بقدرات النظام الرأسمالي. بينما يتمثل الثاني في إنتاج طبقة عمالية بروليتارية قادرة على الوفاء بمتطلبات هذا النظام وتلبية احتياجاته(٢). ووفقا لهذا الدور الثنائي الجديد للمدرسة، يمكن التمييز بين مرحلتين أساسيتين متضافرتين وظيفيا: في المرحلة الأولى يتم إخضاع المدرسة لمنطق الرأسمال وقانونياته الخاصة، أي، تعليم الأفراد وفقا لمتطلبات الحياة الرأسمالية المتغيرة عبر الزمان والمكان. وفي المرحلة الثانية تُطالب المدرسة بالعمل على إنتاج طبقة عاملة وتزويدها بالقدرة على إعادة إنتاج نفسها رأسماليا. وهذه الفعاليات لا تتم على نحو انسيابي، لقد قاومت المدرسة وما زالت تقاوم، وارتدت هذه المقاومة تاريخيا حلة الصراع الطبقي الذي اتخذ متراسا له بين جدرانها. وما زالت هذه المدرسة تصادم وتناضل للمحافظة على دورها الإنساني، ولكنها اليوم وفي دائرة هذا الصراع الطبقي تجد نفسها تحت قصف ثقيل لعولمة جارفة متوحشة لا تهادن تعمل على تفكيك المدرسة وتفريغها من مضامينها الإنسانية.

وإنه لمن المؤكد أن تاريخ تطور المدرسة لا ينفصل عن الصراع بين القوى الاجتماعية والسياسية، حيث كانت المدرسة ساحا للصراع الشرس بين أيديولوجيات فكرية وسياسية متضاربة متناقضة. وقد عرفت المدرسة تاريخيا ثلاث مراحل تاريخية متعاقبة في ظل النظام الرأسمالي:

في المرحلة الأولى، تمَّ تأسيس المدرسة من قبل البرجوازية كمؤسسة تربوية منفصلة عن وظيفة الإنتاج الرأسمالي لأداء أدوار أيديولوجية ضد الإقطاع والبروليتاريا في آن واحد. حيث قامت بتحويل المدرسة إلى أداة أيديولوجية من أجل فرض هيمنة الثقافة البرجوازية في مجال العمل والحياة والإنتاج. والمدرسة في هذه المرحلة مطالبة إضافة إلى بث المعرفة العلمية بالعمل على بناء «مواطنين صالحين» يتمثلون الأخلاق البرجوازية، ويقاومون احتمال وجود ثقافة عمالية مستقلة.

وفي المرحلة الثانية، عهد إلى المدرسة بعملية تزويد النظام الرأسمالي باليد العاملة المؤهلة والكفاءات والخبرات العلمية الضرورية من أجل تطوير الصناعة وتنمية المؤسسات الرأسمالية. وفي هذه المرحلة لم تعد وظيفة المدرسة قاصرة على بث القيم البرجوازية حيث أصبحت معنية منذ اللحظة -إضافة إلى وظيفتها الأيديولوجية -بتطوير المعرفة العلمية الضرورية في عملية الإنتاج الرأسمالية حيث تؤدي دوراً اقتصادياً رأسمالياً يتميز بدرجة كبيرة من الوضوح.

وفي المرحلة الثالثة، بدأت عملية دمج المدرسة في العملية الإنتاجية وتحويلها إلى مؤسسة رأسمالية ترتبط جوهريا بعجلة الإنتاج الرأسمالي والصناعي. حيث بدأت المؤسسات الرأسمالية نشاطا واسعا لدمج المدرسة كليا في نسق الحياة الوظيفية للمجتمع الرأسمالي الصناعي وتلبية احتياجاته التربوية والاستهلاكية. وبعبارة أخرى بدأت المدرسة تتحول إلى أداة رأسمالية بوظائفها وبنيتها وأدوارها التربوية، وهذا ما يمكننا أن نطلق عليه رأسملة المدرسة[٣].

المتطلبات التربوية الجديدة:

لقد أدت التحولات التكنولوجية والتقانية المتسارعة في ظل العولمة الرأسمالية الجديدة إلى تغير في متطلبات النظام الرأسمالي ،حيث اشتد الطلب الرأسمالي على القوى العاملة المرنة القادرة على التكيف في مختلف الظروف المتغيرة، والقادرة على تلبية حاجات الرأسمالية الجديدة. وقد فرض هذا الاحتياج الجديد



نمطا جديدا من التفاعل بين المدرسة والنظام الرأسمالي، فلم تعد الأولوية لعملية تحويل المعرفة والثقافة كما كان هو الحال في المدرسة التقليدية، حيث بدأ الاهتمام يُعطى لعملية بناء المرونة الوظيفية والقدرة على التكيف مع المستجدات الاقتصادية والتكنولوجية للعصر الجديد عن طريق التأهيل التربوي، وهنا بدأ التركيز على المهارات والمرونة والفاعلية والمبادرة، حيث احتل هذا الجانب مركز الصدارة والأولوية في المدرسة الرأسمالية المعاصرة التي بدأت تستجيب مباشرة للحاجات الاقتصادية والمهنية المباشرة للنظام الرأسمالي الجديد.

فالتحولات التي شهدتها القوى المنتجة أدت إلى تعديل النظام التربوي وفقا للمعايير الجديدة. ومما لا شك فيه أن ظهور التكنولوجيا الجديدة للمعلوماتية ووسائل الاتصال، وتطور إمكانية الفرد للعمل المشترك في الجماعة، فرض على المدرسة العمل على تعزيز القدرات على التكيف والاتصال والفاعلية.

ومما لاشك فيه أن النظام الصناعي القائم على التقسيم التايلوري التقليدي للعمل يمكنه أن يتوافق مع نظام تربوي يعتمد مبدأ الكفاءة والجدارة. ولكن الحال مختلف جدا اليوم عما كان عليه العهد التايلوري حيث يفرض النظام الرأسمالي القائم على النظام المدرسي ويطالبه بأن يحدث في ذاته منظومة من التحولات الجديدة تتوافق مع متطلبات الرأسمال الجديد وطبيعته الحداثية المتجددة. ووفقا لهذه الضرورة الرأسمالية الجديدة يجري الحديث عن عمليات وفعاليات تربوية جديدة تعمل على تزويد النظام الرأسمالي

الجديد باليد العاملة الماهرة المتكيفة والقادرة على التجاوب مع معطيات الإنتاج الرأسمالي والتكيف مع مختلف التحولات المستجدة في هذا النظام، وهذه العملية ليست سوى جزئية واحدة في نظام التغيرات والوظائف الجديدة التي تؤديها المدرسة وفقا للوضعيات الرأسمالية الجديدة[٤].

فالنظام الرأسمالي الجديد يعمل على تحقيق التوازن التربوي بين الوظائف المطلوبة وبين مستوى التأهيل، وهو يرفض تأهيلا تربويا يتجاوز حدود الوظائف المطلوبة في ميدان العمل والحياة الرأسمالية. ولا يأتي هذا الرفض لأن التأهيل العالي مكلف اقتصاديا بل لأن ذلك يؤدي إلى ضجر العمال ونفورهم وعدم ارتياحهم وهذا الأمر يرتبط بوضعية قوة العمل وطموحاتها وفاعليتها في ميدان العمل والإنتاج. ويمكن ملاحظة هذا الوضع في عملية تعميم التعليم في بعض المراحل ومن ثم العمل على تحديده في بعض المستويات لمنع ما يسمى بالتأهيل الزائد.

لقد أدت التحولات الراديكالية التي فرضها الرأسماليون على المدرسة إلى حرمانها من خاصة الاستقلال التربوية وأضعف دورها الإنساني الذي يتعلق ببناء الثقافة والمعايير والقيم، وهنا يمكن القول بأن المدرسة تتصدع تحت الضربات القوية لمعاول الرأسمالية الجديدة، حيث تفصل المدرسة عن سياقها الحضاري والإنساني من أجل التكيف لمتطلبات الرأسمال ومقتضياته. وهذا التحول الجديد في دور المدرسة ووظيفتها يشكل جوهر الإصلاحات التربوية الجارية خلال السنوات الأخيرة المنصرمة فالإصلاحات التربوية القائمة إصلاحات يفرضها النظام الرأسمالي ويعمل على دعمها وتعزيز مسارها. ويمكن القول في هذا السياق بأن فكرة الإصلاح الأساسية تقوم على تحقيق استقلال المدرسة عن السلطة السياسية المركزية وذلك من أجل إفساح المجال للمنطق الرأسمالي بالحضور والتقدم. ويمكن أن يلاحظ هذا الأمر في ولادة فروع دراسية جديدة متعددة الاتجاهات متوافقة مع الحاجات الجديدة للمجتمع الصناعي. لقد شكلت الإصلاحات التربوية في حقيقة الأمر قصفا تمهيديا لعولمة رأسمالية تسعى إلى تفكيك المدرسة وابتلاعها إشباعا لجشع الوحش الرأسمالي إلى القوة والثروة والسلطة، وعلى هذا النحو وفي دائرة هذا القصف الرأسمالي للمدرسة تتموضع الإصلاحات التربوية الجديدة التي تهدف إلى تحقيق مبدأ الإدارة اللامركزية، والاستقلال الذاتي، والتطوير المدرسي،

وتخفيف العبء المدرسي، ودمج المدرسة في سوق العمل والإنتاج، ومن ثم تحقيق مبدأ الدمج التقاني واحتواء التدفق المعلوماتي، وتحفيز التعليم، وتطوير القطاع الخاص، وهذه الإصلاحات جميعها تصب فيما يسمى اليوم برأسملة المدرسة أو تسويقها أو تحريرها وفي كل هذا وذاك يتجلى الوجه الأسطوري لعولمة رأسمالية متوحشة.

فالمدرسة -مدرسة اليوم- تتحول إلى مؤسسة تؤدي دورها ووظيفتها في خدمة الرأسمال الجديد أكثر من أي وقت مضى، وهي في سياق دورتها التربوية هذه تعمل اليوم على إنتاج وإعادة إنتاج رأسمال بشري يوظف في خدمة الحاجات المتنامية للصناعة الرأسمالية، وهي وفقا لهذا الدور بدأت تفقد دورها الثقافي والإنساني بوصفها مؤسسة منتجة للقيم والدلالات والمعاني، حيث يعمل النظام الرأسمالي ومن أجل المحافظة على قوته واستمراره على وضع برامج واستراتيجيات للإصلاح التربوي بالطريقة التي تجعل المدرسة أكثر قدرة على التجاوب والاستجابة مع متطلبات الرأسمالية الجديدة لتحقيق التوازن الرأسمالي المطلوب في العملية التربوية للمدرسة برمتها.

السياق الاقتصادي الجديد:

تشهد الحياة الاقتصادية الجديدة في المجتمعات الرأسمالية تطورات خاطفة وصاعقة في مختلف تجلياتها التربوية والإنسانية ويمكننا أن نميّز نسقا من السمات الأساسية التي تسم الأوضاع الاقتصادية الجديدة.

السمة الأولى، ارتباط الاقتصاد بالتقدم التكنولوجي: يرتبط الاقتصاد الجديد اليوم ارتباطا حيويا بالتقدم التقني والإبداع التكنولوجي، حيث تتراكم المعلومات والمعارف التي تؤدي بدورها إلى تسارع في إيقاعات التطور التكنولوجي، ويلاحظ في هذا السياق تنامي حدة التنافس الاقتصادي الذي يحرض عملية التسارع وزيادة النمو في معدلات الاستهلاك والإنتاج في مجال الحياة الاقتصادية عبر دورات متسارعة للسوق العالمية المتنامية. ويضاف إلى ذلك كله بأن المناخ الاقتصادي الصناعي والتكنولوجي قد تحول إلى مناخ متغير غير مستقر وسديمي بصورة لم يسبق لها مثيلا في تاريخ الحياة الاقتصادية، حيث تقلصت القدرة على التنبؤ إلى حدودها الدنيا.

السمة الثانية: عدم استقرار سوق العمل، حيث يتسم السوق بطابع التغير السريع

وعـدم الاستقـرار في معـدلات التوظيف. فالعمال والموظفون يجدون أنفسهم مكرهين علـى تغيير وظائفهـم ومراكزهم الوظيفية باستمـرار. حيـث تتغـير طبيعـة العمـل وماهيته، فمن جهة، هنـاك تنامي كبير في عدد المتخصصين في المعلوماتية والمهندسين والمتخصصـين في الصيانـة وإدارة شبكات الكمبيوتر. وهذا هـو الجانب الأكثر تطورا في سـوق العمـل. ومن جهة ثانيـة، هناك تنامي كبـير في الوظائـف الثانوية التي لا تحتاج إلى أي تأهيل. ففي إحدى الدراسات التـي أجرتهـا وزارة شـؤون الموظفـين في الولايـات المتحدة الأمريكيـة في الفترة بين ١٩٩٨-٢٠٠٨، تبيّن أن أكثر الوظائف أهمية من حيث العدد كانت وظائف المدى القصير والمتعلقة بالتدريـب المهني. ويلي هذه الفئة وظائـف البائعين، والحراسـ، والمساعدين الطبيين، وموزعي المـواد الغذائية (فهناك ٢٥٠٠٠٠ وظيفـة جديدة في هـذا القطاع فحسب). فسوق العمـل هنا لا يتطلب كما يبدو تأهيـلا عاليا يتعلق بهذه الوظائف بل اتساع في الطلب عليها كميا.

السمـة الثالثـة: وتتمثل في تخلي الدولة عـن القيـام بالخدمـات العامـة، فالقوى الاقتصاديـة تضغط علـى الدولة من أجل تقليصـ الضرائـب. وهكذا فـإن القطاع الاقتصـادي يشهد حالة مـن التغاير وعدم الاستقرار وعدم القدرة على التنبؤ وازدواجية التأهيل المهني، وتنامي الأزمات التي تمتص المال العـام (مثل الأزمـة الاقتصادية التي بدأت عام ٢٠٠٨).

هذه الوضعيات الاقتصادية بما تنطوي عليـه مـن أزمـات وتوتـرات وانقطاعات ومفاجآت وتطورات تشكل مقدمات أساسية لإعـادة النظـر في السياسيـات التربويـة القائمة وتوجيه القطاع التعليمي نحو غايات وأهداف وممارسـات جديدة تتعلق بالطلب على الكفـاءات والخبرات التـي يقتضيها سوق العمل.

المدرسة في خدمة السوق:

من الطبيعي أن تتأثر المدرسة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة، فالأزمات الاقتصادية المتعاقبة والتحولات الرأسمالية المتواتـرة تنعكسـ مباشـرة في وظيفـة المؤسسات التربوية والتعليمية. فهناك اليوم مـن ٥٠٪ إلى ٦٠٪ مـن الوظائـف التي لا تحتـاج إلى تأهيل عال، وهـذا الوضع يعني أنه ليس مجديا اقتصاديا أن تقوم المؤسسات التعليمية بتكثيف التعليم وتقديم تعليم عالي للجميع. وهـذا يعني أن السياسات التربوية بدأت تتجه إلى تقليص نفقات التعليم العام وهذا يـؤدي في الغالب إلى تقليص نوعيته.

لقد بـيـنّ الخبراء (التربويـون) في عدد من المؤتمرات بأن البلدان الصناعية قد وصلت إلى الحد الأعلى الممكـن من تعميم التعليم وأن عـدد الطلاب في المدارسـ وصل حدّه الأقصى خلال السنوات الثلاثين الماضية.

لقد تغـير النظام المدرسـي القائم من الداخل والخارج حيث ركزت المدرسة خلال العقود الثلاثة الماضية على أهمية التطوير النوعـي للمدرسـة. والآن يعمـل النظـام الاقتصادي بمواصفاته الجديدة على تغيير المدرسة وفقا للمصالح الاقتصادية والحالة الأوروبية تمثل نموذجا واضحا لهذا الجانب الاقتصادي في وظيفة المدرسة.

في عـام ١٩٨٩ نشـرت المجموعـة الاقتصادية الصناعيـة الأوروبية (ERT، European Round Table) تقريرهـا الأول حـول التعليم وخلاصته الأساسية: أن التربيـة والتعليم يشـكلان استثمارا حيويا واستراتيجيـا من أجـل نجـاح المؤسسات الاقتصاديـة في المستقبل «ومن هذا المنطلق بـدأ التطـور التقني والصناعـي للشركات والمؤسسات الأوروبية يطالب أنظمة التعليم بتجديـد سريـع في المناهـج وفي مضامين العملية التعليميـة في المدارس والمؤسسات. وقـد أعلنـت هـذه المجموعـة بـأن تأثير الصناعة في التعليم محـدود ولاسيما فيما يتعلق بالمناهج والمضامـين، وأن المعلمين لا يمتلكون فهما كافيـا للأوضاع الاقتصادية ولقطاع الأعمـال ولمفهوم الريع الاقتصادي كمـا أنهـم لا يدركـون تنامـي الحاجات الاقتصاديـة للمرحلة الجديدة التي تتصف بالتدفق الاقتصادي[٥].

المرونة التربوية:

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن تحقيق المواءمة بين نظـام التعليم والتأهيل وبين اقتصـاد سديمي متغير غـير مستقر يعـاني من عدم القدرة علـى التنبؤ بدرجة لم يسبق لها مثيـلا في التاريخ الاقتصادي؟ وغالبا مـا تكون الإجابة عن هـذا السؤال بالقـول: إن النقصـ في القدرة على ضبط هذه الفوضى يتطلب منـا التكيف مع هذه الوضعيـة. والكلمة المفتاح لهـذه الوضعية التوازن بين المؤسسات التعليمية والمؤسسات هي المرونة «flexibilité».

فالعمال والخـبراء والعاملون في الحقل الصناعي والإنتاجي مطالبون اليوم بتطوير أنفسهـم والتكيف مـع أوضـاع اقتصادية وإنتاجيـة متغيرة باستمـرار. فالتكنولوجيا تتغير، والإنتاج يتغير، وبالتالي فإن الوظائف والمهمات تتغـير أيضا، وهـذا التغير يتسم بطابـع التسارع والاستمـرار، وبالتالي فإن التنافس يجعل الوظائف غير مستقرة ومتغيرة

بصـــورة دائمة. وهـــذه الــدورات المتعاقبة من التغير والتغاير تقتضـــي إعادة التأهيل والتدريب والتدوير في الوظائف وهذا يكلف كثيرا من الوقت والمال. ووفقا لهذه الصورة فـــإن تأهيل العمال وفقـــا لمتطلبات الإنتاج الجديـــد وآلياته يمثل استثمارا ثقيل الوطأة وطويل الأمـــد ويؤخر العمليـــة الإبداعية. إن تضاعف النفقـــات وزيادتها الناجم عن عملية التدوير في اليد العاملة والتكنولوجيا يجعل من التكاليف باهظة جدا. وينتج عن ذلك أن التكنولوجيـــا المستخدمة وتعقيدها المتنامي يجعل المعرفة أمرا في غاية الأهمية ويجعل التأهيل المهني مهما بدرجة لم يسبق لها مثيلا.

والسؤال أيضا كيف يمكن إيجاد الحلول لهـــذه المعضلة؟ هل يمكن حـــلّ المسألة عن طريق التعليم والتدريب مدى الحياة؟ ذلكم هـــو الحل الـــذي تقترحه منظمـــة التعاون والتنمية الاقتصاديـــة OCDE[٦]. وتنطلق هذه الفكرة من أن الإعداد والتدريب للحياة المهنية لا يجب أن يكـــون نهائيا حيث يجب علـــى العاملـــين متابعة تأهيلهـــم المهني مع مستجـــدات العمل والتطـــور خلال حياتهم المهنيـــة بكاملها مـــن أجـــل المحافظة على سوية إنتاجهـــم وقدرتهم على الاستمرار في وظائفهم. وهذا الأمر يتضمن ثلاثة أشياء: القـــدرة علـــى التكيـــف Adaptabilité، والمسؤوليـــة Responsabilisation، والحرية Dérégulation.

القدرة على التكيف:

في البداية يجب إعادة النظر في البرامج والمناهج التعليميـــة الأساسية من أجل رفع مستـــوى القدرات عند العمـــال في مواجهة الوضعيات المهنية المتغيرة راديكاليا. والأمر يتعلـــق - كمـــا يوصـــي المجلـــس الأوروبي الموحـــد Conseil européen réuni في امســـتردام عـــام ١٩٩٧ - بتأكيد وتعزيز القـــدرات المهنيـــة والاجتماعيـــة وتكييف العمال بصورة أفضل من أجل سوق العمل، ومن هذا المنطلق توضع الأساليب والطرائق التربويـــة القائمة علـــى تكديس المعارف في قفص الاتهام.

ووفقا لهـــذه الوضعية فإنه يتوجب على جميع العاملين أن يكونوا قد تعلموا وبصورة مسبقـــة تطويـــر قدراتهم وفقـــا لمعطيات التطور التكنولوجـــي وأن يكونوا قد تعلموا أيضا مبادئ التفاعل والتواصل بين الإنسان والآلـــة عبر الشاشـــات ولوحـــات التحكم. وهناك أيضا مسألة إدماج الميديا والوسائط التكنولوجيـــة في المؤسسات المدرسية. وهنا يأتي التأكيد على أهمية غرس روح الابتكار المتعلقـــة بالتكنولوجيا الجديـــدة وتوظيفها

في خدمة التأهيل المهني على مدى الحياة. وذلك كله من أجل ضمان عملية تدوير وتجديد متسارع للمرونة المهنية القصوى للعاملين، وهؤلاء يتوجب عليهم استخدام الحواسيب والشبكة المعلوماتية من أجل تجديد معلوماتهم وخبراتهم من المهد إلى اللحد du berceau au tombeau. ويغدو من السهل الضغط على العاملين من أجل المحافظة على مستوى تأهيلهم المهني وقدرتهم على المنافسة في مجال اختصاصاتهم حتى أثناء عطلهم الأسبوعية وفي أوقات فراغهم وذلك بحثهم على استخدام الحواسيب والشبكات وهذا كله يؤدي إلى تنمية روح المسؤولية المهنية عند العاملين فيما يتعلق بخبراتهم ومستوى تأهيلهم.

عندما يصبح المواطن مستهلكا:

تمثل مسألة تنمية الاستهلاك وبناء الإنسان المستهلك القضية الأساسية في عصر العولمة والرأسمالية الليبرالية الجديدة، ولأن الطابع الاستهلاكي للمجتمع يمثل ضرورة اقتصادية للرأسمالية الجديدة فإن النظام الرأسمالي يؤكد على ضرورة قيام المؤسسات التعليمية بتنمية الجانب الاستهلاكي في شخصية المتعلمين.

لقد بينت الوقائع بأن الكابح الأساسي لنمو التجارة الإلكترونية عبر الإنترنت هو من طبيعة سيكولوجية أكثر من كونه من طبيعة تقنية. فمنذ التسعينات بدأت اللجنة الأوروبية تشعر بالقلق حيث تبين لها بأن القارة الأوروبية تأخذ مكانا متدنيا جدا في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات TIC قياسا إلى الدول الأخرى النشطة في هذا الميدان، وبينت هذه اللجنة أن الدول الأوروبية ستعاني كثيرا في هذا الميدان ما لم تستطع الأنظمة التربوية والتعليمية أن تواكب ما يحدث من تطورات متسارعة في هذا القطاع. وهذا يعني أنه إذا كان القطاع التربوي لا يوظف هذه التكنولوجيا فإن السوق الأوروبية سيكون متأخرا ومتخلفا في سوق المعلوماتية.

ففي القمة الأوروبية في ليسبون Sommet européen de Lisbonne عام ٢٠٠٠ فرض هذا السؤال نفسه بصورة رئيسية في المؤتمر: كيف يمكن تجاوز التأخر الأوروبي في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات TICكما في مجال التجارة الإلكترونية؟ وفي معرض الإجابة أجمع المؤتمرون على ضرورة الإدماج الشامل لتكنولوجيا المعلوماتية والاتصال في المؤسسات المدرسية والتعليمية.

تحرير المدرسة:

يعرف النظام العالمي الجديد بمفاهيمه الجديدة ولاسيما مفهوم التحرير Dérégulation الذي يأخذ مناحي متعددة أبرزها: تحرير التجارة، تحرير الصناعة، تحرير الاقتصاد، وتعني هذه الكلمة كسر الحواجز والحدود التي تعيق حركة الرأسمال الجديد أفقيا وعموديا ومنحه الحرية المطلقة للحركة والعمل وإفلاته من قبضة الدولة. ويبدو اليوم أن أحد المفاهيم الأكثر جدة يظهر إلى الوجود وهو تحرير المدرسة Dérégulation de l'école وهذا يعني كسر الحواجز والحدود بين السوق والمدرسة ومن ثم فصل المدرسة عن الدولة وعولمتها أي إخضاعها لقوانين السوق العالمية.

عندما يتم وضع الأهداف التربوية وبناؤها اليوم يطرح السؤال التالي نفسه: كيف يمكن تنظيم التعليم وإدارته كي يتم تحقيق هذه الأهداف؟ وبعبارة أخرى كيف يكون العمل من أجل تحقيق هذه الأهداف المحددة وإنجازها؟ ومن جديد سنجد الإجابة (من قبل الذين يهيمنون ويرسمون للمدرسة خططها وأهدافها) بأن هذا يكون بتحقيق مبدأ المرونة والحرية والمسؤولية.

وهذا يعني أنه لا يكفي للعاملين أن يكونوا مرنين متكيفين بل يجب على النظام التربوي نفسه أن يكون كذلك وأن يصل إلى درجة أكبر من المرونة والكفاءة والقدرة على التكيف والتجاوب.

فمنذ عام ١٩٨٩ أعلنت المجموعة الصناعية الأوروبية بأن الإدارة المدرسية تعاني من ضغوط وإكراهات وقيود بيروقراطية، وبالتالي فإن الممارسات الإدارية تتميز بالصلابة والتشدد وهذا يعيق الإدارات المدرسية من التكيف مع ضرورات التغير الناجمة عن التطور السريع للتقانة الحديثة وللصناعة العالمية(٧). وهذا يتوافق مع توصيات منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية Organisation de coopération et de développement économique، التي تؤكد على أهمية تكيف النظام المدرسي مع التقانة والتكنولوجيا، كما تركز على ضرورة توظيف الكفاءات والمهارات الخاصة بالتقانة والتكنولوجيا الاتصالية وامتلاك التجهيزات الضرورية المتعلقة بها. فاستقلال المدارس والمؤسسات التعليمية يسمح لها بأن تعقد شراكة حقيقية مع المؤسسات الإنتاجية. وبالتالي فإن هذه الشراكة تسمح لما يسمى

«بـروح المؤسسـة الاقتصاديـة l'esprit d'entreprise» بالدخول إلى هذه المدارس والمؤسسات التعليمية بنجاح وفعالية[٨].

وتجب الإشارة هنا إلى أن المرونة المطلوبة للعمالـة لا يمكن أن تقف عند حدود مهنية واضحـة المعالم. والمهم في هـذا الأمر قبول الأنمـاط الجديدة التنظيميـة للعمل والتي تتمثـل في تدفـق الإنتـاج وانسيابيته، وفي العمل المستمر حتى في الليالي المظلمة وفق دوريات عماليـة متعاقبة. وهذا كله يتطلب توليد حسـ المسؤولية عند العمال أي إقناع العمـال بأن مصالحهـم تتناغم مع مصالح العمل وأربابه.

استلاب المدرسة:

لقد أفرغت العولمـة المؤسسة المدرسية الكلاسيكيـة مـن مضامينهـا وقيمهـا الإنسانيـة، وقد عفا الزمن علـى المدرسة التقليدية فأصبحت خارج السياق التاريخي لدورها الإنساني في عصـر العولمة والميديا والاتصـال[٩]. فالتربيـة تتم اليـوم بصورة مختلفة عن ذي قبـل إذ تحدث غالبا خارج جـدران المدرسـة والمؤسسـات التعليميـة الكلاسيكيـة، وهذا يفرض علـى المدرسة أن تكـون أكثر انفتاحـا ومرونة وقدرة على الإبـداع والمشاركة في الفعاليـة الحضارية للمجتمعـات الإنسانية في عصر العولمة[١٠].

فالتعليـم الخاصـ يمارسـ دوراً كبيراً في تسويق المدرسة كما يقـول الأنكلوساكسون. فالطلـب على التأهيل مـدى الحياة أصبح اليوم ضرورة عولميـة حيث يتم التأكيد على المهـارات والكفـاءات الاقتصادية للأفراد. فالنفقـات العالمية في مجـال التربية تصل اليوم إلى أكثر مـن ٢٠٠ مليار دولار. وهذا يعنـي أن قطـاع التربية يمثـل اليوم مجالا اقتصاديا بالـغ الخطورة والأهمية ولاسيما في زمن اللاستقـرار الاقتصادي والأزمات الاقتصاديـة التي تواجه الحيـاة الإنسانية المعاصرة.

تتجه عملية بنـاء الصناعة التربوية في القـرن الحـادي والعشرين التـي تتمثل في عمليات التوظيـف والاستثمـار والتسويق إلى ترسيـخ وجودها عـبر عملية الدمج في المؤسسات المدرسية. وهناك من يؤكد اليوم علـى وجود حملة واسعة لتخصيص التعليم العـام بطريقة تضع هذا التعليم في مضمار السـوق الاقتصادية وتخضعه لمبدأ التسويق الرأسمالي. وتتحرك هذه العملية تحت تأثير قناعة الآباء والأمهات اليوم بضعف إمكانية التعليـم العام وعـدم قدرته علـى مواكبة معطيات العصر ومتطلباته. ووفقا لذلك فإن الأسر التـي تمتلك القدرة على تمويل تعليم أبنائها غالبا ما تتجه نحو المدارس الخاصة

أو ما يمكــن أن يطلق عليه اليــوم «التربية بيزنس» أي التربية التي تعد الأطفال للقيام بأدوار رجال الأعمال في المجتمع لاحقا.

ويصعب اليوم في حقيقة الأمر الحصول علــى تقديرات كليــة في المستــوى العالمي، ولكن من السهــل أن نعرف أمورا كثيرة عن تطور الصناعة التربوية في الولايات المتحدة الأمريكيــة نفسها حيث قفزت الاستثمارات في التعليم إلى ٨٢ مليار دولار في عام ١٩٩٨ موزعــة إلى ٢٤ مليــار كمنتجــات صناعية مدرسيــة، و٣٠ مليــار خدمــات مدرسيــة وتربويــة، وأخــيرا ٢٨ مليــار دولار أنفقت على ميزانية المدارس[11]. ويتضح أيضا عبر دراســات وإحصائيات في مختلــف البلدان الصناعيــة أن المؤسســات التعليمية تتحول بطريقة متسارعة وهائلة إلى نوع من السوق الرأسمالية. لقد بينت دراسة إحصائية تزايد أعداد الطلاب الأمريكيــين الذين يتابعون دروسهم عبر الإنترنت حيث وصل هذا ٢، ٢ مليون في عام ٢٠٠٢، وهذه النسبة تعادل ١٥ من عــدد الطلاب في الجامعات الأمريكية. وتتنبأ هذه الدراســة بأن عدد المسجلين في هــذه الدروس سيكون قد وصل إلى ٨٥٪ في اللحظة الراهنة وبالطبع فإن هذه الدروس مأجورة حيث يتم الدفع عبر الإنترنت.

وإنــه لمن المفــرح حقا أن تكــون خزائن المعرفة اليوم في متناول الجميع ولكن يجب ألا ننســى بأن هذه المعلومــات ليست دائما مجانية وأن هذه المعلومات تطرح في الأسواق وأن من يريــد الحصول عليها يتوجب عليه أن يدفع ثمنها.

وهنــاك اليوم سوق مهــم جدا في حقل التعليم يتمثل في التعليم عن بعد: ويعمل هذا السوق الكبير على تقديم دروس ومحاضرات عبر الإنترنــت من أجــل التحضير لمختلف الامتحانات، حيث تشــير الإحصائيات إلى انفجــار في أعداد المنتسبــين إلى هذا النوع مــن التعليم حيث قفــزت الأرقام من ٥٠٠ ألف مستفيد إلى ٧٠٠ ألف خلال عقد واحد مــن الزمن في الولايات المتحــدة الأمريكية وحدها.

عولمة مدرسية:

ومهما يكن الأمر، فإن الفائدة الحقيقية للإنترنــت، في مستوى التعليم المسوق، تبقى فعالــة في مستوى بث المعلومــات وإيصالها في أقصر وقت في مختلــف أنحاء المعمورة. وهناك اليوم مؤسسات معنية بتحرير السوق العالميــة إزاء الخدمات التربوية مثل منظمة التجارة العالمية والبنك الدولي.

ويسعــى البنــك الدولي اليــوم إلى فتح أبــواب التعليم العالي والثانــوي على جشع القطــاع الخاصــ. والحجة التــي يتبناها

البنك العالمي هي أن البلدان النامية في أمس الحاجة للعناية بقطاع التعليم ومحو نسبة الأمية الكبيرة المتفشية فيها، وهذا يعني أن البنك لا يعطي لدعم التعليم العالي في هذه البلدان فيتركه لقمة سائغة للقطاع الخاص. ومن جهة أخرى يرفض البنك العالمي إلغاء ديون هذه البلدان المتفاقمة ويعمل على توجيه الإنفاق العام نحو التعليم الأساسي. أما في مستويات التعليم الأخرى غير الأساسية فيفضل البنك أن تكون من نصيب التعليم الخاص حيث يمكن تمويل هذا القطاع للقيام ببناء المؤسسات أو العمل على تحقيق إيرادات إضافية خاصة بهذا القطاع.

ففي يونيو (حزيران) عقد البنك الدولي ندوة في واشنطن في شركة التمويل الدولي (Société de Financement Internationale وكان عنوانها واضحا: فرص الاستثمار في القطاع التربوي الخاص في البلدان النامية Opportunités d'investissement dans l'éducation privée dans les pays en développement. وقد قامت هذه الشركة على الأثر ببناء مؤسسة خاصة متخصصة بالمعلومات والمشاريع والدراسات الخاصة بتطوير الاستثمار الخاص في مجال التعليم في البلدان النامية وفقا لأعلى المستويات الممكنة. ويلاحظ في هذا السياق أن البنك الدولي ومؤسسة التمويل الدولية من أكبر الرعاة للتعليم في فانكوفر في كندا.

خلاصة: إن تكييف التعليم مع التوقعات الجديدة للقوى الصناعية والمالية الكبرى ينطوي على نتيجتين كارثيتين: تحويل المدرسة إلى أداة توضع في خدمة المنافسة الاقتصادية من جهة، وتعميق اللامساواة الاجتماعية في مجال الوصول إلى المعرفة من جهة أخرى.

وكما تدل المعطيات يتطور التعليم الحالي وفقا لمعايير السوق، وهو في سياق تطوره هذا يفقد طابعه المعرفي الإنساني أي التعليم الذي يمكنه أن يقدم رؤية للعالم وأن يمكن رواده من فهم وتمثل الدلالات والمعاني الإنسانية، أي هذا التعليم الذي يمكّن المتعلم من امتلاك المهارات الأساسية للاستمرار في الوجود واتخاذ المواقف الحية في مجال الحياة. فالمؤسسات المدرسية في ظل السوق تتعرض إلى أكبر درجة من درجات الاستغلال الرأسمالي المعاصر، وهي إضافة إلى ذلك تُجرد من أسلحتها وقدراتها التي كانت تعتمدها في النضال الثقافي من أجل تحقيق القيم الإنسانية. فالمدرسة في سياق

هذه الـدورة الرأسمالية تتحول إلى مؤسسة منتجة لقيم العالم الرأسمالي وتصوراته الاجتماعية. وهي في صورتها الرأسمالية هذه تمارس دورها المؤلم في حرمان الشرائح الأوسع في المجتمع من إمكانيات التعليم الحقيقي، فهي تقدم تعليما محدود الكفاءة والإمكانية إلى أبناء العمال والمهمشين الذين يجب تحويلهم إلى قوة عاملة منتجة وإلى مادة خام في دورة الإنتاج الصناعي الجديدة للمجتمع الرأسمالي، وهي في الوقت نفسه تشجع بعض روادها من الطبقات العليا في المجتمع على استنفار طاقاتهم وقدراتهم العقلية والذهنية والإبداعية لتوظيفهم في مجال المنافسة العالمية في مستوى الإبداع العلمي في مختلف الاتجاهات.

وفي هذا السياق فإن عملية تحرير التعليم على مبدأ تحرير التجارة أي جعله حرا وخاصا وإخراجه من دائرة التقاليد وخارج سلطة الدولة، والعمل على خصخصة مختلف المؤسسات التعليمية في المجتمع عوامل تشكل التربة الخصبة التي تنمو فيها اللامساواة الاجتماعية والطبقية وتتحول بالتالي إلى نوع من اللامساواة إزاء المعرفة والمدرسة.

ووفقا لهذه التطورات الجديدة فإن المدرسة العامة الحكومية ستقتصر في تعليمها على الجوانب التي تحقق فقط نموا اقتصاديا في السوق العالمية وهذا هو ما تصرح به منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية Organisation de coopération et de développement économique وهذا يعني أيضا بأن التعليم سيركز على الطلاب الذين يستطيعون في المستقبل أن يحققوا نجاحا إبداعيا في مجال الحياة الاقتصادية والعلمية وأنه سيهمل كليا مختلف الجوانب الثقافية والإنسانية التي ترتبط بالإنسان والوجود والمعاني.

الهوامش:

١- علي أسعد وطفة، التسويق الرأسمالي للمدرسة: النموذج الرأسمالي الجديد للتربية في زمن العولمة، التربية القطرية، العدد ١٦٣ السنة السادسة والثلاثون، ديسمبر ٢٠٠٧ (صص ٩٢-١٠٨).

٢- - انظر : علي أسعد وطفة، علم الاجتماع المدرسي: بنيوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها، مكتبة الطالب، الكويت، ٢٠٠٣.

٣- علي أسعد وطفة، التسويق الرأسمالي للمدرسة: النموذج الرأسمالي الجديد للتربية في زمن العولمة، التربية القطرية، العدد ١٦٣ السنة السادسة والثلاثون، ديسمبر ٢٠٠٧ (صص ٩٢-١٠٨).

٤- علـي أسعد وطفة ، سوسيولوجيا المدرسة، مجلـة المعلم العربي، مجلة تربوية فصلية محكمة تصدر عن وزارة التربية في سورية: مركز البحوث التربوية، وزارة التربية في سورية، العدد الثاني ١٩٩٤(صص ٣٠-٤١).

5- OCDE, Politiques du marché du travail: nouveaux défis. Apprendre à tout âge pour rester employable durant toute la vie. Réunion du Comité de l'emploi, du travail et des affaires sociales au Château de la Muette, Paris, 1415- octobre 1997, OCDE/GD(97)162.

6- Organisation de coopération et de développement économique.

7- Table ronde des industriels européens, Education et compétence en Europe, Etude de la Table ronde européenne sur l'éducation et la formation en Europe, février 1989.

٨- علـي أسعد وطفة، المدرسة المدججة بالتكنولوجيـا: أين هو الجانب الإنساني، مجلة الطفولة العربية، المجلد العاشر، العدد ٣٩، يونيو، ٢٠٠٩ت، صص ١٠٩-١٢٣.

9- OCDE, Analyse des politiques d>éducation, Paris ,1998.

10- Commission européenne, Rapport du Groupe de Réflexion sur l'Éducation et la Formation «Accomplir l'Europe par





في مفهوم الثقافة السياسية ووظائفها «من وجهة نظر اجتماعية»

د. حكيمة بوبعيو ❋

توطئة:

في مفهوم الثقافة.

لعلَّ مفهوم الثقافة في بعده العام والشامل يقتضي الوقوف عند مختلف الحقول المعرفية، حيث يخضعه كل حقل إلى العلاقة التي تربط الثقافة بذلك الحقل المعرفي، ومن ثم قد يتعذر الإلمام. بمختلف التعريفات، كما أنه قد يبعدنا عن الغاية المرسومة في مثل هذه المقالة العلمية، لذا حبذنا أن نتناول

❋❋ أستاذة علم الاجتماع بجامعة باجي مختار عنابة.

العمل الفني: الفنان رشيد شمة.

وجهاً من أوجه هذه الثقافة، وذلك في ضوء عدد من التعريفات التي لا تخرج عن النظرة الاجتماعية، وفي مقدمة هذه التعريفات تعريف «إدوارد تيلور» «E. B. Tylor» الذي يجمله في عدد من المعارف المتداخلة والمعتقدات والفن والأخلاق وبعض الآفاق والقيم الإنسانية: «هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع»[1].

والواقع أن هذا التعريف يتسم بشيء من العمومية والزئبقية، صحيح أنه تعريف وصفي وموضوعي بعيد عن المعيارية، ويمكن حصر هذا التعريف في بعدين هامين، البعد الأول يحدد خصائص الثقافة في مجال التعبير عن شمولية الحياة الاجتماعية للإنسان، في حين يتلخص البعد الثاني في كون الثقافة تتحقق بالاكتساب وهي ذات بعد جماعي.

أما «كلوكهورن» «C. kllikhohn» فيراها منحصرة في «وسائل الحياة المختلفة التي توصل إليها الإنسان عبر التاريخ والمتضمنة العقلي واللاعقلي، التي توجد في وقت معين والتي تكون وسائل إرشاد سلوك الأفراد في المجتمع»[2]

ويبدو هذا التعريف الذي يقسم الثقافة إلى ما توصل إليه الإنسان من وسائل الحياة المختلفة عبر التاريخ بكل ما تحمله من عقلي ولا عقلي، يحاول أن يحدد ذلك المخزون الثقافي بما أنجزه هذا الإنسان من أشياء وما توصل إليه من إنجازات صناعية، في حين يتمثل اللاعقلي فيما تلقنه من علوم نقلية وطقوس ميثولوجية دخلت هي الأخرى في لا شعوره وأضحت جزءاً هاماً من مكوناته الثقافية والمعرفية.

ويتضمن التعريف السابق أيضاً تحديد الأداء الوظيفي للثقافة من حيث كونها الموجه والمرشد في سلوك الفرد ومن ثم العلاقات الاجتماعية.

أما غاي روش «G. Rocher» فيعرفها على أنها «.. مجموعة متداخلة أساليب التفكير والمشاعر والأفعال التي تتشكل بدرجة معينة والتي تكتسب بوساطة العلم والمشاركة من جانب مجموعة الأفراد، وذلك من أجل وحدة هذه الجماعة وارتباطها بصورة جمعية متميزة».[3]

ففي مثل هذا التعريف نلاحظ أن صاحبه ينظر إلى الثقافة على أنها كل ما يتعلق بالإدراك والسلوك والحس، وهو ما يمثل الأبعاد الثلاثة للثقافة.

وما دامت الثقافة لا تخرج عن الأبعاد السابقة، فهي بذلك تمثل مخزون ما يملكه المجتمع من معارف وما يتشربه من مشاعر

وأحاسيس وما يقوم بـه من أفعال وسلوك، تتنوع الثقافة وتتعدد أبعادها لدى كل مجتمع من المجتمعات.

الثقافة السياسية:

قد ينسجم مصطلح الثقافة مع ذاته ويأخذ مفاهيمه المختلقة حين يكون مصطلحاً عاماً غير مرتبط بصفة أخرى أو مصطلح آخر، غير أن هذا المصطلح قد يتداخل مع مصطلح السياسة مثلاً. فالثقافة حين ترتبط بالسياسة، ويتعالق المصطلحان معاً فإن معناها يشق طريقه نحو عالم من المفاهيم الجانبية، فالثقافة السياسية تمثل حقلاً معرفياً -هو في حد ذاته- جانب من الثقافة وفي الوقت نفسه هو أحد العناصر الدالة على حقيقة ترابط الظواهر وتحديداً هنا الظواهر الثقافية والظواهر السياسية.(٤)

ويعود الاهتمام بهذا المفهوم إلى نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات من القرن العشرين حين تصدره مجال علم السياسة، وعدّ وقتئذ تحولاً جذرياً في دراسة المؤسسات الرسمية إلى دراسة السلوك غير الرسمي، وأضحى الاهتمام منصباً على الجانب الحيوي وأساس التفاعل في تلك المؤسسات، وعليه فإن جهود الباحثين اعتنت عناية فائقة بمفهوم الثقافة السياسية ليكون القصد من وراء ذلك محاولة إدراك البعد الثقافي في السياسة.(٥)

ويبدو أن الأمر ليس ببعيد عن عالم الاجتماع الذي كان اعتماده بمفهوم الثقافة السياسية نابعاً من إقراراه بأن كل منظومة سياسية مرتبطة أصلاً بمنظومة من القيم والتصورات؛ بثقافة المجتمع.

وقد ظهرت مجموعة من التعريفات التي حاولت أن تؤسس مفهوماً متقارباً للثقافة السياسية بصفته مصطلحاً حديثاً جاء نتيجة التفاعلات الثقافية والتداخلات التي عرفها عالم السياسة في مجتمعنا المعاصر. فكان من ضمن هذه التعريفات ما ذهب إليه «فيليب برو» بأنها (مجموعة معارف ومعتقدات تسمح للأفراد بإعطاء معنى للتجربة الروتينية لعلاقتهم بالسلطة التي تحكمهم كما تسمح للمجموعات باستخدامها كمراجع لتعريف كل منها بهويتها).(٦)

إنما يبدو جديدا هنا ليس كون الثقافة السياسية هي مجموعة معارف ومعتقدات. فذلك تحصيل حاصل، إنما الجديد هو تلك العلاقة التي تمتلكها التجربة الروتينية للأفراد في تعاملهم مع السلطة الحاكمة. حيت تسمح تلك الثقافة بتجديد الأطر، وتحديد القيم التي يتعامل في ضوئها الأفراد مع السلطة، فيكون بذلك الفرد عارفاً بحقيقة حجمه في خضم تلك العلاقة.

وهناك من ينظر إلى الثقافة السياسية على أنها: «مجموعة المعارف والرؤى والقيم والمعتقدات والاتجاهات والمشاعر السائدة لدى أفراد مجتمع معين أو مجموعة معينة تجاه شؤون الحكم والسياسة».(٧)

ويتجلى من التعريفين السابقين أن الثقافة السياسية تجسد الثقافة المحددة والموجهة لعلاقة الأفراد بشؤون السياسة وأنظمة الحكم.

وتكاد جل التعريفات تتفق مع ما ذهب إليه المعجم الحديث للتحليل السياسي، حيث يعرف الثقافة السياسية بأنها: «النموذج الشامل للاتجاهات والقيم والمواقف والعقائد التي يتبناها الأفراد الذين هم أعضاء مجتمع سياسي».(٨)

علاقة الثقافة السياسية بالأيديولوجيا:

مما يجدر التنويه به منذ البدء أن الثقافة السياسية والأيديولوجيا مفهومان قائمان بذاتهما، إلا أنهما يتماهيان في بعض المنعرجات، ويتداخلان تداخلاً يكاد يصعب



الفصل بينهما حين يتماسان في المعتقد السياسي والعنف الرمزي.(٩)

فالأيديولوجيا تعني فيما تعنيه: «منظومة التمثلات التي تعمل في مجال المعتقد السياسي والعنف الرمزي، تحدد في حقيقة الأمر على أساس عمل تفكيري نظري ومذهبي كالليبرالية الاقتصادية، الاشتراكية الثورية.. لتسند إلى مؤلفات كبيرة في تاريخ الفكر السياسي، ويجمع الكثير من المفكرين (كارل ماركس، تالكوت بارسونز، ريمون

بودان وغيرهـم) على أن الأيديولوجيا تمثل أفـكاراً خاطئة ومقطوعة مـن الملموس بل إنها تختص وترتكز على الضلال».[10]

ولهـذا فهي تغذي، الصـراع والمعارضة بين الفاعلـين السياسيين وتشحن الملتزمين بها بالعنف الرمزي.[11]

إن الأيديولوجيا-حسـب هذا المنظور- هـي في الواقع مجموعة أفـكار صادرة عن فلاسفة ومفكرين مثلت رؤى مذهبية صبت في آليـات فكرية عمليـة، وقدمت وجهات نظـر اقتصاديـة سرعـان مـا تحولت إلى نظريات فكرية مرتبطة بعلاقات الإنتاج، إلا أن سـوء تقديراتها للمنعكسات الناتجة عن بعض سلوكاتها ومراميها وعدم اقترابها من الواقـع الإنساني في مختلـف تعاملاته، ولّد شيئاً من المقت والصراع ضد تلك النظريات المذهبية.

ويبدو أن مصطلح الثقافة السياسية جاء كردة فعل مقابل الأيديولوجيا ليعكس الرغبة في الانتقـال من ثقافة الصـراع والتصادم إلى ثقافة التوافق والمصالحة»[12]، ويطمس بذلك مصطلح الأيديولوجيا السياسية الذي أصبـح لا يتماشى والتحـولات الاجتماعية والسياسية العالمية الراهنة.

وفي ضـوء ما سبق يمكن تحديد الثقافة السياسيـة وفق المنظور التـالي: «مجموعة متداخلـة من أساليـب التفكـير والمشاعر والأفعال التي تمثل نموذجاً يتبناها الأفراد لتمكنهـم من إدراك ذواتهـم والتعبير عنها وممارسة الاختيـارات المحـددة لعلاقتهم بالسلطة الحاكمة.

مقاربة الثقافة السياسية:

يمكـن النظر إلى الثقافة السياسية على أنها متغير أو عامل وسيط بين النظام العام السائـد ومختلـف البنى المكونـة له، وبين السلـوك الفعلي في الحيـاة اليومية. ومن هنا فإن هذه الثقافـة هي النتيجة المباشرة للنظام العام السائد، تستعمل كأدوات تنظم العلاقات فتوسع الواقع وتعمل على إجلائه في صـور معينة أو تبحث عن إحلال التغيير فيه، وهي بذلك علـى صلة بالواقع بل إنها تنبثق منه.[13]

و تبـدو الثقافة السياسية على شيء من التعقد على أثر ذلك الارتباط الحاصل بين موضـوع الثقافة في حد ذاتها والذي يحتاج إلى نظـرة شمولية، وبين الظاهرة السياسية المتميزة -هي الأخـرى- لتعقدها الخاص، وذلك ما يجعلها مقاربة إلى التحليل العلمي الذي مكن من كشف أبعادها وتفسيرها.[14]

تعكس الثقافة السياسية منظومة تفاعل الأفراد بصفتهم وكلاء اجتماعيين يتبادلون التأثر والتأثير فيما بينهـم في إطار أوضاع اجتماعية، أو كما يسميها بورديو «الميدان»، أي ميدان التأثير والتفاعل..

وهــذا التفاعــل وإن كان في وســط اجتماعي واحد فهو ينبعث من أنماط حياة مختلفة. وبغض النظر عن المستوى التعليمي أو مستوى التقدم التقني أو حتى نوع النظام السياســي، فإن هذه الأنمــاط تأخذ صوراً مختلفة من الثقافــات السياسية المتنافسة، وتتضــح في الواقــع في أنماط مــن التوجه نحــو القضايا السياسيــة والعمل السياسي بما يشــكل مجموع السلوكيــات والتوجهات نحــو السلطة؛ أي ما تفعله أو ما يتوجب أن تفعله.(١٥)

وفي ضوء ما سبق، فــإن تحليل الثقافة السياسية ينبغي أن ينطلق من النظرة الكلية للميدان حســب أبعاده الثلاثــة المتمثلة في الأوضاع -الفاعلين- الممارسات.

أولا/ الأوضــاع الاجتماعية والسياسية:

و تحدد هذه الأوضاع مستويات ثلاثة:

أ. مستوى الرهانات:

وينحصر في عدد من المؤشرات المرتبطة بالطابــع الرمــزي للأوضــاع الاجتماعية السياسيــة، وتساهــم كل الأطــراف فيما يتصل بها من معان ومعارف ودلالات حيث تتحدد الأهــداف المقصودة ولذلك نلاحظ أن الأفراد البعيدين عن النهج الديمقراطي لا يرتقون إلى فهم الجدل والنقاش القائمين أثنــاء الحملات الانتخابية على سبيل المثال لا الحصر.

ب. مستوى القواعد:

ويتضمــن القوانين التنظيمية والقواعد الأخلاقية والأعــراف والمعتقدات، ويتحدد مــن خلالهــا ما هــو شرعي ومــا هو غير شرعي.

ج. مستوى توزيع موارد السلطة:

ويقصد بــه مدى التكافؤ بــين الأفراد مــن حيــث الوصــول إلى المــوارد المختلفة للسلطة كالأموال ووسائل الاتصال والإعلام وسبله.(١٦)

وفي ظل هذه المستويــات الثلاثة يتجلّى الوضــع الاجتماعــي السياسي في مظهرين أساسيين:

- التنافس والصراع حول تطبيق قواعد وآليات الفعل والمشاركــة السياسية، خاصة مع وجود متناقضات أيديولوجية عقائدية يصعب في كنفها الاجتماع والتوافق.

- مــدى المجازفــة والمبــادرة في إطار علاقــات التفاعل والمحدد له هــو القابلية للتوقــع والتي لا يمكــن أن تتحقق ما لم تكن عناصر الوضــع ومحدداته جليــة للفاعلين جميعاً.

ثانياً/ الأفراد المتفاعلون:

ويتجلــى التفاعــل في خضــم الحيــاة السياسيــة من جــراء المبــادلات السلوكية

المتعددة بما فيها السلبية من صمت وامتناع أو جــدل مستمر بين الأفــراد والجماعات حيث يكــون لتلك المبــادلات وذلك الجدل الأثــر الواضح في إحلال أوضــاع وأساليب دون أخرى من التفاوض الاجتماعي.[١٧]

ونجد في هــذا المقــام قضيتــين لهما أهميتهما في التفاعل ونتائجه وهما الحرية والاستعــدادات: أمــا الحريــة فإنها تتعلق بحريــة الفرد ومدى قدرتــه على الاختيار في تفاعلــه وإتيانه لأي سلوك، ويكون بذلك واحداً من مظهرين:

– تقريــر المطالب: ويتــم ذلك بناء على حســاب واع للتكاليــف والمزايــا وتحديــد استراتيجــي للغايات ولا يتم ذلــك إلا بعد تقييــم المــوارد المتوفرة في الواقــع وترتيبه للأهداف حسب الأولوية. ثم تقريره للمزايا المتاحة والإشباعات المتوقعة.

– ويأتي الخضوع الذي يتمثل لدى الفرد عندمــا تقيد حريتــه في التفاعــل بما يتم وضعه من ضوابط محــددة للأدوار وكابحة للمبــادرة الاختيارية، ممــا يضطره إما إلى الرضوخ والامتثال أو الثورة حيث ينتهك تلك الضوابط والحدود.[١٨]

في حــين أن الاستعــدادات تتضمــن مجموعــة المعارف والمــوارد الفكرية القابلة للتعبئة فضلاً عن مجموعة الميول العاطفية للقيام بسلوك ما، وهي تتشكل من الخبرات المكتسبة بدءاً من الطفولة إلى مرحلة النضج في ظــل التجــارب التي يخوضهــا الأفراد ضمــن جماعتهم حيــث تتدخــل عمليات التكييــف الاجتماعي في صقلهــا وبلورتها في الواقع الاجتماعــي. ولا ريب أن الحرية والاستعدادات يتدخــلان بصفتهما عاملين أساسين في تحديد احتمال الأفراد لمواقفهم في الأوضاع السياسية القائمة، سواء بالمبادرة الاختياريــة المبنية علــى التقدير الواعي أو بالخضوع لمحــددات الــدور المشروطة من قبل. ومــع ذلك يظــل الاحتمــال مرهوناً للواقع الملموس ومــا ينتج عنه لدى الأفراد من إشباعات يتوقعون تغطيتها لحاجاتهم.

ثالثاً/ الممارسة:

تتضمن الممارسة أشكال السلوك الناتجة عن سلسلة من الإجابات والنوايا والتوقعات التــي قد تجد لها انطلاقــاً لما تضفيه على المستويين الإدراكي والحسي محلاً في الواقع يبعث على التفاعل الاجتماعي.

إن أشــكال السلــوك ومختلــف الأفعال الناتجة عن الفاعلــين السياسيين (الدولة، الأحزاب، الشعب) تنتج آثارها على مستوى النشــاط الاجتماعــي ويجــدر التنبيه إلى أن الممارســة الفردية قد تماثــل الممارسة الجماعية حيث إن النشاط الفردي للبعض قد يخلــق التشييع الاجتماعــي للآخرين؛ ذلــك أن الظاهــرة الاجتماعيــة السياسية

ولئن كانت نتيجة جماعية فهي في الأصل لا تخرج عن كونها أفعال فردية مجتمعية مولدة لدينامية ونشاط تتجلى واقعياً في آثار جماعية ومما يزيد من فاعلية النشاط الفردي ذلك التفاعل الذي تحققه وسائل الإعلام من خلال نشرها للأفكار والوقائع والتمثلات المختلفة.[١٩]

في ماهية الثقافة السياسية ووظائفها:

يمكن النظر إلى الثقافة السياسية على أنها تمثل الجانب السياسي من الثقافة العامة وهي بهذا المعنى جزء لا يتجزأ من تلك الثقافة التي تحمل الخصائص ذاتها تؤثر فيها وتتأثر بها. إنه الجزء المتعلق بالحياة السياسية في علاقتها بالحاكم والمحكوم ومن ثم يمكن تحديد أهم عناصرها ممثلاً في القيم والمعايير والمواقف والاتجاهات.

أولاً/ عناصر الثقافة السياسية:

أ. القيم:

وهي تلك التصورات الإدراكية المميزة للفرد أو الشخصية أو لجماعتها وبوساطتها يتم الاختيار بين البدائل. إن القيم تمثل إطاراً مرجعياً للضبط الاجتماعي في المجتمع وتحدد سلوك الأفراد وردود أفعالهم، كما أنها تحدد التأثير الملائم للمواقف المشتركة لأفراد المجتمع. ثم إن القيم الموجودة لدى الإنسان هي نتاج للثقافة والنظم المجتمعية بمختلف تفاعلاتها مع شخصية الفرد.

أما الأبعاد التي يمكن تحديدها للقيم فهي على التالي:[٢٠]

- إنها مفهوم يحتوي على عنصر معرفي.
- بحكم أنها مرغوب فيها فهي تحتوي على عنصر انفعالي.
- ومن حيث تأثيرها في الانتقاء فهي تحتوي على العنصر النزوعي.

ب. المعايير:

وهي عبارة عن قواعد للسلوك العادي وعناصر أساسية لتحديد الأدوار الاجتماعية من حيث كونها تضع التوقعات والمجال الذي يمارس فيه دوره وهي التي تعكس قيم المجتمع الأساسية.[٢١]

ت. المواقف:

وهي اتجاهات الشخص نحو المؤسسات أو الأشياء أو تقييم ذلك الشخص؛ إنها حياة ذهنية تستنتج من السلوك.

ث. الاتجاهات:

يشير الاتجاه إلى تنظيم عدد من المعتقدات المتعلقة بموضوع معين وهي غالباً ما ترتبط بموقف محدد أو موضوع بالذات ولهذا تجد عددها كبيراً مقارنة بالقيم التي يقل عددها.[٢٢]

ثانياً/ محددات الثقافة السياسية:

يمكن تحديد مضمون الثقافة السياسية في العناصر التالية:

١- الحرية والإكراه:

بما أن الثقافة السياسية تؤكد على قيمة الحرية فإن طاعة الفـرد للسلطة الحاكمة تكـون على أساس الاقتنـاع وليس الخوف. ويكـون بذلك لدى الفـرد إحساس بالقدرة علـى التأثير في مجريات الحيـاة السياسية والمشاركـة الإيجابية أو قد تؤكد على قيمة الإكراه، وفي مثل هذه الحالة غالباً ما ينصاع الفرد للسلطة بدافع الخوف لا اقتناعاً. ومن هنـا يفتقد الإحساس بالقـدرة على التأثير السياسي.(٢٣)

٢- الشك والثقة:

يمثل عنصر الشك أو الثقة لدى السلطة الحاكمة عنصـراً جوهرياً من عناصر الثقة السياسيـة ويتوقف مدى ثقة الفرد أو مدى شكه في السلطة على طبيعة سلوك الحكومة إزاء الأفراد ومدى استجابتها لمطالبهم، وكلما انخفضـت الثقة بين الأفراد فإن ذلك يقلل من ثقتهم في حكومتهـم. وتنتشر الثقة بين الأفراد والجماعـات المختلفة مع الخطوط الأولى للاتصال حيث يفضل الفرد مسايرة الآخرين في مجال الحياة السياسية، فيترتب علـى ذلك تقبـل واسع للحـوار والتفاوض والحلول الوسطى والمصالح العامة.(٢٤)

٣- المساواة والتدرج:

إمـا أن تؤكـد الثقافـة السياسية على المساواة ومراعاة العدالـة بين الأفراد وإما أن تميـز بينهم لتجعل المعيار في ذلك درجة المشاركـة السياسيـة في المجتمـع كلما زاد الإحساس بالمساواة بين أفرادها.(٢٥)

٤- الولاء المحلي والولاء القومي:

يتجـه الفرد بولائه نحو الدولة ككل بما يتضمنه ذلك من شعـور بالمسؤولية العامة، وإعـلاء المصلحـة العامة علـى المصلحة الخاصـة ويلي ذلـك الاهتمـام بالقضايا القومية التي تتجـه نحو المبادئ والأهداف التي تتجـاوز الوطن الإقليمـي إلى مختلف المشارب والقضايا القومية بما فيها من لغة وثقافة وعناصر الديـن والعرق واللغة التي تتجاوز القضايا المحلية للوصول إلى تحقيق الآمال القومية.

ولمـا كانت الثقافة السياسية هي المحدد لعلاقة الفرد بالعمليـة السياسية والسلطة الحاكمـة تحديـداً؛ أي سياسـة السلطـة الحاكمة وممثليها فهناك من يحدد عناصر الثقافة السياسية انطلاقاً من:

أ. تـوقـعـات الأفـراد بخصوص القرارات السياسية؛

حيـث إن توقعاتهـم أو معتقداتهـم تنصـرف أساسـاً إلى مخرجـات الحكومة في إطـار اهتمامهـا بنشاط هـذه الأخيرة من دلالات مبرزة لأهـداف وغايات النظام السياسـي التـي تشكل في حقيقتهـا أعباء تقابلها مطالب شعبية. ونشاط الحكومة أو

أجهزة السلطة عموماً يتضمن تنظيم سلوك أعضاء المجتمع السياسي واستخراج الموارد المادية منه -مستحقات ضريبية وغيرها- وهو الجانب من النشاط الذي لا يرتضيه المواطن بسهولة وهنا تتأكد ضرورة الاعتقاد في شرعية الجهاز السلطوي في صنع القرارات السياسية؛ إذ إنه كلما اتسع مدى الاعتقاد في شرعية السلطة وقراراتها زاد تقبل وامتثال أفراد المجتمع لها.[٢٦]

ب. توقعات الأفراد من عمليات صنع القرار:

إن ما يدركه الفرد ويعتقده بشأن صنع القرارات السياسية التي يتخذها الجهاز السياسي من حيث تقبل المشاركة وتحفيزها يجسد عنصراً هاماً من الثقافة السياسية ومحدداً حقيقياً لاتجاهها، فتكون سلبية حين يكون الأفراد بمعزل عن العملية السياسية أو بعيدين عنها، إما بسبب تجاهلهم لكيفية اتخاذ القرار وأساليب المشاركة في صنعه أو أثناء شعورهم بعدم الجدوى من المشاركة في حد ذاتها، وتكون إيجابية حين يتأكد لديهم جدوى المشاركة ويتمكنون من سبلها.[٢٧]

الهوامش والإحالات:

١- دوني كوش (Deny cuche) مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق٢٠٠٢، ص٢٠.

٢- المرجع نفسه، ص٢١.

٣- عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع السياسي، النشأة التطورية والاتجاهات الحديثة والمعاصرة، دار النهضة العربية، بيروت لبنان ط١ السنة ٢٠٠١، ص٤٣٥.

٤- دوني كوف، مرجع سابق، ص١١٠.

٥- المرجع نفسه، ص١١١.

٦- إدوارد بانفيلد السلوك الحضاري والمواطنة، ترجمة سمير نصار دار النشر الأردن، ط١، ١٩٩٥، ص٢١٣.

٧- أحمد وهبان، التخلف السياسي والتنمية السياسية، الدار الجامعية مصر، ٢٠٠٢، ص١٣٠.

٨- جورج روبرت وأليستر إدوارد، المعجم الحديث في التحليل السياسي، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلدي، الدار العربية للموسوعات، بيروت ط١، ١٩٩٩، ص٣٢٥،٣٢٦.

٩- إدوارد بانفيلد، مرجع سابق ٢٠٦.

١٠- المرجع نفسه، ص٢٠٦.

١١- عبد الله محمد عبد الرحمن، مرجع سابق ص٤٣٧.

١٢- محمد سبيلا، للسياسة بالسياسة في التشريح السياسي، أفريقيا الشرق المغرب ٢٠٠٠، ص٦٣.

١٣- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، م.و.د.ع. ط٣، ١٩٨٦، ص٣٢٣.
١٤- فيليب برو، علم الاجتماع السياسي، تر.محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص٥٣٩.
١٥- مايـكل تومسون، وآخـرون، نظرية الثقافة، تر.علي سيد الصاوي، سلسلة عـالم المعرفة، رقم٢٢٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧.
١٦- فيليب، المرجع السابق، ص٥٤١-٥٤٢.
١٧- ماكل تومسون وآخرون، المرجع السابق.
١٨- فيليب برو، المرجع السابق، ص٥٤٤.
١٩- المرجع نفسه، ص٥٥٠-٥٥١.
٢٠- أحمد مصطفى خاطر، تنمية المجتمعات المحلية المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص٢٠٢.
٢١- المرجع نفسه، ص١٩٣.
٢٢- المرجع نفسه، ص١٣٩.
٢٣- عبد الهادي الجوهري: دراسات في علم الاجتماع السياسي، زهرة الشرق، القاهرة، ١٩٨٤، ص١٢٩.
٢٤- المرجع نفسه، ص١٣٠.
٢٥- المرجع نفسه، ص١٣٠.
٢٦- المرجع نفسه، ص٣٨
٢٧- المرجع نفسه، ص٣٨-٣٩.





وليم شكسبير والسيكولوجية الأخلاقية

د. غالب سمعان *

يعرُضُ الكاتب الإنكليزي وليم شكسبير William Shakespeare (١٥٦٤-١٦١٦) في مسرحيته (الملك لير King Lear) لنوعين من النماذج البشرية، يُغلِّب الأول منهما الاعتبارات الأخلاقية على المنافع الأنانية الفردية، وهو يضمُّ الملك لير وابنته الصغرى كورديليا، إضافة إلى اللورد جلوستر وابنه الشرعي إدجار، واللورد كِنْت، ودوق أولباني زوج جونريل الابنة الكبرى للملك، بينما يُغلِّب الثاني منهما المصالح والمنافع الأنانية اللاأخلاقية على

** كاتب وناقد سوري.

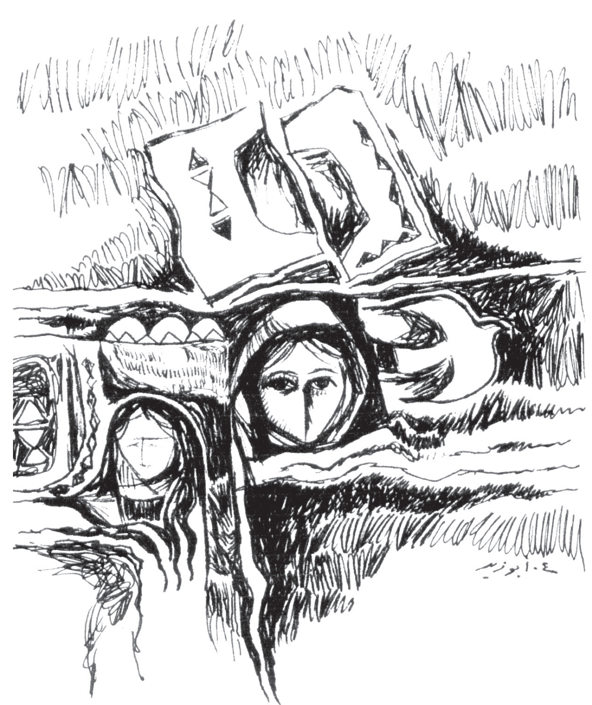
العمل الفني: الفنان عبد المعطي أبو زيد.

ما عداها، ويضـرب عُرض الحائط بالقيم الأخلاقيـة التقليدية، ويتصـرَّف بطريقة دالة علـى تجاهـل شامل لهـا، وهنا يعثر القـارئ على ابنتي الملـك العاقتين جونريل وريجان، وعلى إدمونـد الابن غير الشرعي للورد جلوستر، إضافة إلى زوج الابنة ريجان دوق كورنوول. والواقـع أن النماذج النفعية تعتنق مبدأ «الغاية تبرِّر الوسيلة» الذي أعلنه المفكر الإيطالي نيقولا ماكيافيلي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩-١٥٢٧) في كتابـه (الأمير)، والأكثر صوابا أنها تتصرف بطريقة تلقائية، تدفعها إلى اعتنـاق المبدأ المذكور، سواء أعلنته أو لم تفعل بصورة جليَّة، ويبدو أن نيقولا ماكيافيلي امتلك تكوينا غير أخلاقي تماماً، أو هو على ما يُقال واقعي إلى حدود سافـرة، وعلـى الرغم من هـذه الحقيقة فإنـه لم يتهجَّم على الأخلاقيـة، ويستهزئ بهـا، ويتَّهمها بأنها تعرقـل ارتقاء الإنسان، مثلمـا فعـل الفيلسوف الألمـاني فريدريك نيتشة Friedrich Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠)، وهذا يعني أن هذا الفيلسوف تشبَّع على الأرجح بالأخلاقية، واختبرها، وارتكس ضدَّهـا، كمـن يُحـاول طردها مـن عالمه الجواني، واستطاع تحقيق النجاح في مسعاه، على خلاف النماذج الأخلاقية التي تورَّطت في الانطواء عليهـا، ولم تستطع الفكاك من أسرهـا، على ما هو عليه الحال لدى النبيَّة سيبيل Sibyl التي التقاها الشاعر الروماني الأخلاقي فيرجيل Virgil (٧٠-١٩ ق. م.) في العـالم السفلي. وفي هـذا السياق تجدر الإشارة إلى أن مـن ينطوي على الأخلاقية يستطيـع اكتشاف الأخلاقيـة ومكنوناتها، والارتكاس ضدهـا، إن هو امتلك المقوِّمات اللازمة لهذا الإنجـاز، أما من يُراهن على المُداهنة والملق في ميدان السياسة وغيره من الميادين، كالمفكر الإيطالي نيقولا ماكيافيلي، وابنتي الملك جونريل وريجان، وابن جلوستر غير الشرعـي إدموند، فلن يكون قادرا على إنجاز شيء مما استطـاع إنجازه فريدريك نيتشة، من ناحية نظرية مجرَّدة على الأقل. على أن الشخصيات المسرحية اللاأخلاقية ترتكـس ارتكاسـاً عنيفاً تجـاه الأخلاقية التي يمثلهـا الأب، وتتغير من الداخل تغيرا شامـلا، لتصبـح أفعالهـا الأنانيـة نتيجة طبيعيـة للتحوير الطارئ عليها، أي إن هذه الأنانية ليست أصيلة في تكوينها القبلي، في

حين أن النماذج الأخلاقية تكون غير قادرة علـى الارتكاسـ ضد الأخلاقيـة، بل على الاكتفاء بالتشبُّع بها. وتبقى تنظيرات نيقولا ماكيافيلي أكـثر اتساعاً مـن الدائرة التي انطوت عليها مكنونات النماذج اللاأخلاقية، التي اندفعت وراء السلطـة والمنافع المادية في مسرحيـة (الملك لير)، على الرغم من أن المفكِّر الإيطالي اعتبرهـا من واقع خبراته، الحوافز البشرية الجوهرية، في الوقت الذي داوم فيـه وليم شكسبير علـى اعتبار رجل السياسة والحرب الأجدر بأن يكون على رأس السلطـة أخلاقياً ماورائياً. وفي كل الأحوال يبقى نيقولا ماكيافيلي مفكِّراً سياسياً واقعياً، وليسـ إنساناً أنانياً فردياً، وهناك من دافع عن الأنانية كالسفسطائيين Sophists في الفلسفة اليونانية القديمة، غير أن المفكِّرين من أمثـال جورجياسـ Gorgias (٤٨٣-٣٧٥ ق. م.) وبروتاغوراسـ Protagoras (٤٩٠-٤٢٠ ق. م.) كانـوا دون أدنـى شك، أرفع منزلة بكثير من مجرد أنانيين فرديين، وأيضـاً دافع الفيلسـوف الألماني فريدريك نيتشة عن الأنانية القادرة على تخليق النمط الإنسـاني الأرقى، وانتقـد بطريقة عنيفة، أنانية الإنسان المريضة، أي إنه انتقد أنانية وفرديـة نماذج كإدمونـد وجونريل وريجان ودوق كورنوول. وفي نظامه الأخلاقي اعتبر الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨-١٨٦٠) أن أسوأ البشـر من الناحيـة الأخلاقية، من يتصف بالفظاظة والأنانيـة، وأن الأفضل من هذا أن يكـون الإنسان مالكا القدرة على الإتيان بأفعال العدالـة والإحسـان، والقيام بأداء زهدي أصيل. ويبدو أن إدموند ارتقى قليلاً من الناحية الأخلاقيـة، عندما تراجع عن أدائـه اللاأخلاقي، لدى دنو أجله، واعترف بوجـود العدالـة الإلهية، في حـين تقدَّمت جونريل وريجان إلى أقصى درجات الفظاظة والأنانيـة، ولم تمتلكا القـدرة على التراجع باتجـاه أدنى قدر مـن الأخلاقيـة، وهذا التقدم يعني تلقائياً أن الاعتقاد الماورائي لم يعد موجوداً، وأنهما من الناحية الاعتقادية اندفعتـا باتجاه أداء إلحـادي، مثلما اندفع «ماكبـث Macbeth» في مسرحيـة وليـم شكسبير الأخرى، باتجاه اختبار الإرادة التي تستبطن كيانه، باعتبارها عمياء وغير عاقلة وشريـرة، إلى أن عمَّم خبرته هذه، وأعلن أن

تعميمهــا يعني أن يأتي الدمار على كل شيء، وأخــيراً على نفسه، وهو ما يعني فناء العالمين.

وفي المسرحية يقــرِّر الملك لير، وقــد تقدَّم بــه العمــر، أن يتنازل عن سلطاتــه لبناته الثلاث، ويعقد اجتماعــاً في قصره لهــذه الغاية، ويطلب إليهنَّ أن يتحدثن عن مدى حبِّهــن، وإعزازهن له، كي يمنحهنَّ أراضي المملكة، وسلطاته، بالتساوي فيمــا بينهــنَّ، غــير أن طبيعتــه الأخلاقيــة الغافلــة عــن التفكير المنطقي، والبصيرة النافذة، تجعله عاجزاً عن معرفــة الحقائق، التي تنطوي عليها كل منهــنَّ، فالبنتان الكبريان جونريل وريجان أنانيتان ونفعيتان وماكرتان، على خلاف كورديليا الصغرى، التي تتصف بأخلاقيَّة كاملة، وبعيدة عن أن تكون ماكرة ومُنافقــة، وكلٌّ من الفريقــين يدفع الآخر باتجــاه التوحُّــد، أكثر فأكثر، مــع الطبيعة الجوانيــة التي يتصف بهــا، وهي الطبيعة التي تعنــي الاستعداد القبلي، الذي ينطوي عليه كل فريق. ومما هو معروف عن الكاتب



الروســي الأخلاقــي ليــون تولستوي Leo Tolstoy (١٨٢٨-١٩١٠) تهجُّمــه علــى وليــم شكسبير، واعتباره مــا حدث إمكانية غــير قائمــة في الواقع، علــى أن الحقيقة ليست علــى هذه الصــورة، ووليم شكسبير كتب ما كتبه داخل ثنائية الخير والشر، التي انتمــت إليها كتابات الكاتب الروسي، ويبدو أنه استطــاع إدراك الجوانب السيكولوجية، وما تنطوي عليه الأخلاقيــة من إمكانيَّات بأكثر منــه، وفي هذا السياق تبدو العقلانية الأخلاقيــة أقــدر بأشواط مــن الأخلاقية

المحرومــة إلى درجة كبيرة مــن العقلانية، على كشف الحقائق الإنسانية، فالشاعر أبو العلاء المعــري (٩٧٣-١٠٥٨) امتاز بصفات أخلاقية وإراديــة، وبقدرات عقلانية كفيلة بالوقوف في وجه أيَّة إمكانيَّات غير طبيعية، على ما هــو ظاهر في ديوانه (سقط الزند) وتحديــداً في قصائده الرثائيــة والفخرية، ويبدو أن وليم شكسبير امتلك قدرات عقلية كافيــة كي يعــبِّر عن مكنوناتــه الأخلاقية، وأن ليون تولستــوي افتقدها على ما يبدو. ومن الطبيعي أن يكــون الصراع الأخلاقي السيكولوجي المُستــتر، بين البنتين الكبريين والبنــت الصغــرى، خافياً عــن الملك لير، ومداركــه، والسبب في ذلك هــو أخلاقيَّته الغافلــة، وتكوينه العاطفــي المعنوي، الذي يجتذب العقل والمُخيِّلــة إليه، ويمنعهما من رؤيــة الأشياء على حقيقتهــا، ومن ثم فإن الاختلافــات في الطبائــع تتكشــف تماماً، وتبتــدئ التراجيديــة الأليمــة بالتوالي، في حلقــات موصولة إلى نهاياتهــا. وإن افتقار البنتــين الكبريــين جونريــل وريجــان إلى الأخلاقية الحقيقية، يجعلهما قادرتين على النفاق والريــاء ببراعة وسهولة، الأمر الذي يمكِّنهمــا مــن التعبير عن حبِّهمــا الكاذب لوالدهما، تعبيراً ناجحاً، وهو ما يطلبه الوالد الملك، الذي أصبح عاجزاً عن تبيُّن الحقائق التــي تتخفَّى وراء الكلمــات والتعابير، وما هذه الكلمــات والتعابير غير الحقائق ذاتها وفــق تقديراته، ومن ثم فإنــه يمنح البنتين الماكرتــين سلطاته، ويطلــب إليهما اقتسام المملكــة فيما بينهما، ويطرد ابنته كورديليا، ويلعنها، ويؤنِّبها، لأنها لم تتكلم بالطريقة التي أصبــح عاجزا عن تقبُّل أيــة طريقة أخرى غيرها. وعندما يتدخل اللورد كِنْتْ، ويطلب إليه الــتروِّي، والاحتفاظ بملكه، وينبِّهه إلى أن ابنتــه الصغرى هي الأكــثر حبًّا له، فإنه يثــور ويغضب، ويطــرد كِنْتْ مــن المملكة، ويهدده بالقتل، إن تم ضبطه فيها بعد عشرة أيــام، وهكذا فــإن كورديليــا وكِنْتْ يمثلان الأخلاقية الحقيقيَّة الصادقة، على خلاف الأخلاقيــة الغافلة للملك لــير، والأخلاقية الماكرة للبنتين الكبريين جونريل وريجان.

والواقع أن التبايــن والصراع بين نوعي الأخلاقيــة، ليس غريباً مــن منظور فكري تجريــدي، فالنمــوذج الذي يمثلــه كل من الطرفــين يــؤدي إلى الآخــر، بطريقــة أو

بأخرى، وهكذا فإن الأخلاقية الغافلة التي يمثلها الملك لير، تتحول إلى أخلاقية عالمة، يمثلها اللورد كِنْت، والأخلاقية الماكرة التي تمثلها جونريل وريجان، تتحول إلى أخلاقية صادقة تمثلها كورديليا، ونحن واقعون في نطاق الأخلاقية، ولسنا داخل أي نطاق آخر، وما يحدث من تراجيدية، إنما هو واقع داخل نطاق الأخلاقية، وناتج عنها مباشرة، فالأخلاقية السلطوية التي يفرضها الملك لير باعتباره ملكاً وأباً، تؤدي إلى التراجيدية، ومن الطبيعي أن تدعم كل من أنماط الأخلاقية الموصوفة نقيضها، إلى أن تتحوَّل التراجيدية إلى تراجيدية تكرارية، في السياقات الحياتية المتنوِّعة، ومن الطبيعي أن تتشدَّد كل أخلاقية في مواقفها، وهكذا فإن الملك لير يتخذ قرارا بحرمان ابنته كورديليا من حقوقها، ويلعنها، ويطردها، وهو يطرد اللورد كِنْت، ويرفض مطالب أمير بيرجندي الآتي كي يتزوَّجها، الأمر الذي يؤدي إلى فشل المشروع، فالأمير يمثل الأخلاقية التقليدية، وهو غير قادر على فهم ما يدور حوله، أو على فهم معنى الخلاف التراجيدي القائم، على خلاف ملك فرنسا، الذي يُقدِّر مزايا كورديليا، وفضائلها، ويتخذها زوجة له. ومع ذلك فإن سوء التفاهم يظل موجوداً، في العلاقات القائمة، فالملك لير، غير قادر على رؤية الأشياء، بغير الطريقة التي يودُّ رؤيتها بها، والبنتان الكبريان غير قادرتين على رؤية المثال الذي تمثله كورديليا وكِنْت، والملك الفرنسي. ودائماً نعثر في الحياة وتجاربها على نماذج مشابهة، وما يُميِّزها هو الأخلاقية التي تنطوي على النواقص، ففي مسرحية (ماكبث Macbeth) يكون البطل ماكبث وزوجته أخلاقيين، من النوع الذي يعتمد النفاق والرياء، وعندما يتحوَّل ماكبث إلى طاغية، ويستبدُّ بالحكم، تتكشف صفاته السيِّئة، على الرغم من إيمانه بالمُثل الأخلاقية الماورائية، وفي الحوار الذي يدور بين ماكدوف ومالكلم في الفصل الرابع، يبتدئ مالكلم بتعداد صفات ماكبث السيئة، لكنَّ هناك على الدوام من يُسامي القيم الأخلاقية الرفيعة، ويجعلها واقعة تحت لواء المُثل الماورائية، كالكاتب الأخلاقي جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) ولكن تحويل القيم الأخلاقية إلى قيم إطلاقية سلطوية، يؤدي إلى ظاهرة «ماكبث» عندما تعترضها

انتكاسة عنيفة، فالتحويل المذكور ينكص على أعقابه، أي إن السير بالقيم الأخلاقية على هذا المسار السلطوي الذي ينطوي على إكراه إجباري، هو السبب الناجم وراء الرياء والنفاق، على المستوى الأخلاقي، إضافة إلى استعدادات الأفراد وقدراتهم، وتلك العيوب التي لا تنقطع في الحياة، تجد فلاسفة كابن مسكويه (٩٣٢-١٠٣٠) يحاولون مُعالجتها، دون كلل أو ملل، لكنهم في النتيجة والواقع لا يصلون إلى نتيجة ختامية، فالإصلاح يترافق مع عيوب أخلاقية دائمة، على أن طبيعة ابن مسكويه أخلاقية قبليًا، وهكذا فإنه يستطيع القيام بدور تدعيم القيم الأخلاقية، والإبقاء على الكيفيَّات التي يتخذها الانحطاط الأخلاقي، دون أن يكون هادفاً أبداً إلى الإبقاء عليه. ومن ناحية أخرى، لا يستطيع المرء أن يتخيَّل لدى الأخلاقيين المحرومين من العقلانية تماماً، قدرة حقيقية على الرؤية الموضوعية، والواقع أن أية عقيدة أخلاقية ماورائية قائمة في الواقع، تحتاج إلى قادة يقومون على خدمة تعاليمها، وهؤلاء في كل الأحوال تقليديون، ونادرا ما يظهر روَّاد قادرون على إنعاش العقيدة، وإعادة إنشائها، وبث الحياة فيها، كاللبناني جبران خليل جبران، والإنكليزي بيرسي شيلي Percy Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢) والأفغاني جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٨)، وبصرف النظر عن إمكانية أن يكون المرء تقليدياً أو رائدا عظيما، فإن من يمتلكون أهواء أقوى يكونون أسرع إلى ارتكاب المعاصي، والتطهر منها، وإدراك الفضيلة والقداسة، ومن الطبيعي أن ينظر التقليدي إلى هذه النوعية باعتبارها خاطئة، وتبقى هناك إشارات استفهام عندما يمتدحها نموذج أخلاقي متفوِّق على شاكلة جبران خليل جبران.

ومن منظور تجريدي يلعب التقليديون وغير التقليديين، دوراً هاماً في حماية العقيدة وتعاليمها، أما أن يُقال إن أوسكار وايلد Oscar Wilde (١٨٥٤-١٩٠٠) أحبَّ كثيراً، وارتكب المعاصي بإفراط، وتطهَّر منها، وأدرك مرتبة من الفضيلة لم يستطع إدراكها من حاكموه بتهمة اللواطة، وأودعوه السجن، فهو مما يدعو إلى التأمل، لأن التقليديين الذين حاكموه، لم يرتكبوا من المعاصي مثلما ارتكب، والحال كله يُوحي

بأن الــروَّاد الأخلاقيين يفضِّلــون على ما يبدو، من ينطوي علــى أهواء عنيفة، تدفع باتجاه انحطــاط أعظم، وباتجــاه فضيلة أمكن، وهم على غرار التقليديين، يُحذِّرون في الوقــت ذاته من الأهــواء العنيفة، وهذه الحقيقة تعني أن التقليدي يستبطن كيانات من هم غير تقليديين من أمثال جبران خليل جبران، وبيرسي شيلي، ورابندرانات طاغور Rabindranath Tagore (١٨٦١-١٩٤١)، وهذا كله يعنــي أيضاً، أن النماذج البشريــة الأخلاقية السلطوية، تظل عاجزة في تمظهراتهــا وتجلياتها كافة، عن التفكير المنطقي التحليلي الموضوعي، ويمكن النظر إلى السيكولوجيــة البشرية التي تتصف بها كل مــن الشخصيــات، على أنهــا تجليات، تؤلف في مجموعهــا السيكولوجية البشرية الكليَّــة، ولن يكون بالإمــكان الفصل تماماً بــين سيكولوجيــة الملك لــير، وسيكولوجية كل مــن ابنتيــه العاقتين وابنتــه الفاضلة، وهو مســؤول أخلاقياً عــن تخليق النماذج العاقــة، وعــن تخليق نموذج أكــثر اتصافاً بالفضيلة منــه، فالأخلاقيــة التي يتصف بهــا مسؤولة عن توليــد طرفيها البعيدين، ولكنه يفشل في رؤيــة مسؤوليته عن تخليق بناته، ويفشل في معرفة الكيفيَّة التي حدث فيهــا ما حدث. والصــراع أهلي، بمعنى أن الطبائع الموجــودة على المحور السيكولوجي الأخلاقي ذاتــه، تتصارع فيمــا بينها، ولا تختلــف طبائع إدموننــد ودوق كورنوول عن طبائع البنتين العاقتين، وعلى خلافهما فإن دوق أولباني وجلوستر وابنه الشرعي إدجار، ينتمــون إلى الفئة التــي تتصف بالأخلاقية الفاضلة. والهام هنــا أن الأخلاقية لا تأتي علــى المنافــع تمامــاً، وأن الملك لــير يبدو أكــثر اهتمامــاً بها من النمــاذج الأخلاقية الأخرى، كالابنة كورديليا، التي يبدو أداؤها أخلاقيًّــا، دون أي اهتمام بالمنافع الخاصة، وكإدجار الذي لا يبــدو راغبا في الاستئثار بالميراث، دون أخيه غــير الشرعي إدموند. واللافت أن هؤلاء الأخلاقيين يقدِّرون الملك لــير، وميزاته الملكيَّة، التــي تستمد مكانتها وقيمتها، من ميزاته الأخلاقية، على الرغم مــن أنهم جميعاً أقدر علــى الرؤية النافذة منه، وأمتن أخلاقيًّا، على ما يظهر مع تقدُّم الأحداث، وتواليها. ومما لا يمكن الاعتراف به لدى هــذه النماذج الأخلاقيــة، إمكانية

الفصل بين السلوك الأخلاقي، والوجود اليقيني للأرباب، والعدالة الإلهية، فالإيمان قائم بالإله جوبيتر Jupiter والاعتقاد راسخ بأنه يحكم العالم، حكماً أخلاقياً، وأن الأخيار سوف ينتصرون على الأشرار، في هذه الدنيا، فإن لم يحدث هذا، فإنهم سوف ينتقمون منهم، انتقاما رهيبا، في العالم الماورائي.

وهذه الاعتقادات التي تبنَّاها الناس في الحقبة الوثنية، لا تختلف اختلافاً جوهرياً، عما هو قائم في الفكر الأخلاقي الماورائي، والواقع أنه ما من فارق عظيم الشأن من الناحية الجوانية الأخلاقية، بين نماذج الشاعر اليوناني القديم هيزيود (Lived Hesiod (8th Century BC الذي تلقى إلهام ربَّات الفن في سفح جبل هيليكون Helikon والنماذج النبويَّة، والمعروف أن هذا الشاعر اليوناني القديم كتب في (أصل الآلهة)، وخلَّف وراءه قصيدته التعليمية (الأعمال والأيام)، وفيها أعلن جملة من المبادئ الأخلاقية، كالإصرار على العدالة، والاستقامة والشرف، وأنذر من يُخالفون هذه الوصايا بالعقاب الإلهي، في العالم الماورائي، وبصورة عامة، احتوت مؤلفاته على وصايا أخلاقية، واعتقادات ماورائية إيمانية، وأسطورية وخرافية. وفي أجواء شعبية، كتلك التي تعرُضُ لها مسرحية (الملك لير) ثمة وجود لكل هذه الأشياء، والواقع أن سيطرة الاعتقادات الماورائية، والمبادئ الأخلاقية العرفيَّة، على بيئة معينة، تستدعي وجود اعتقادات أسطورية وخرافية أيضاً، في كثير من الأحيان، وأن التهجُّم على ما يبدو غير طبيعي من أساطير وخرافات، لن يؤدي إلى زوالها، وهذا كله لا ينفي إمكانية التفكير العلمي، فما من تعارض بين التفكير العلمي، وأنماط التفكير الأخرى، وهيزيود ذاته، قدَّم معارف علمية زراعية، وغير زراعية، في قصيدته (الأعمال والأيام)، وما من شيء يمنع النماذج التي احتفت بالتفكير الماورائي، كالكاتبين الصوفيين جبران خليل جبران في لبنان، ووليم بليك William Blake (١٧٥٧-١٨٢٧) في انكلترا، أن تحتفي بالتفكير العلمي أيضاً. ومما يرد في المسرحية، يتضح الاعتقاد ليس فقط بالألوهية، بل وبأشياء أخرى، كالكسوف والخسوف والتنجيم، وما تعنيه هذه الظواهر

مـــن معانٍ أو إشارات، ذات طبيعة أخلاقية. وأما التنكـــر للمبادئ الأخلاقية، لدى الابن غير الشرعي إدمونـــد تحديدا، فيترافق مع رفض المبادئ الماورائيـــة، وامتداداتها كلها، وهي حالة تُوحي بأن الكفرة غير أخلاقيين أبداً، على أن انتهاء المسرحية بزوال السلطة من أيـــدي غير الأخلاقيين، وهزيمة إدموند في المبـــارزة مع أخيـــه إدجار، ودنـــو أجله، يدفعـــه إلى إعلان اعتقـــاده بالعدل الإلهي، وهي ظاهرة غير موجـــودة بالضرورة، لدى من رفضوا الماورائيـــات وأخلاقياتها، وأهم ما في الأمر أن إنكار الماورائيات لدى نماذج كالفيلسوف اليوناني أبيقورس Epicurus (٣٤١-٢٧٠ ق.م) والشاعـــر الرومـــاني لوكريتيوســـ Lucretius (٩٦-٥٥ ق. م.) الذي تبنَّى أفكاره، ترافق مع إنكار الأساطير والخرافـــات، والاكتفـــاء فقـــط بالأفـــكار والمُعطيـــات العلميـــة، أو الواقعية الملموسة، وبالفعـــل فإن نماذج طرفة بن العبد (٥٤٣-٥٦٩) في العصـــر الجاهلـــي، وأبي الطيب المتنبـــي (٩١٥-٩٦٥) في العصـــر العباسي، اكتفت بصورة عامـــة، بالمُعطيات الواقعية، وامتلكت تكوينـــاً سيكولوجياً أخلاقيا، أكثر تفوُّقاً مما لدى الملك لير، وأعوانه، وأعدائه أيضاً.

وفي الوقـــت الذي لا تقـــدر فيه فلسفة أبيقورســـ ولوكريتيوســـ علـــى الإساءة إلى المعايـــير الأخلاقيـــة، المدعومـــة ماورائياً، لكونها فلسفـــة حكيمة وزاهدة، على الرغم مـــن إعلانهـــا أن المتعة خيرا، فـــإن تكوين طرفـــة بن العبد، وأبي الطيب المتنبي، تقدر بالفعل، على تقديم بديل ما، وهي أعظم من أن تقترف أخطاء، كتلك التي يقترفها الملك لـــير، وهيزيود، وأمثالهمـــا، وما من إمكانية لديهمـــا، للتراجع لـــدى دنـــو أجلهما، عن المبادئ التي اعتنقاها، فالميزات التي اتصفا بها، أرستقراطية رفيعة، وليست كتلك التي اتصف بها الابن غير الشرعي إدموند. وإنه لمن الخير في مثل هذه الحال، أن يحاول المرء اكتساب ما يفرض علـــى الآخرين احترامه وتقديـــره، ففـــي الوقـــت الذي يستـــاء فيه إدموند من قـــدره، باعتباره ابنا غير شرعي للورد جلوستر، ويبدأ بالتخطيط للاستيلاء على ميراث والـــده، وحرمان أخيه الشرعي منه، وينجح في تدبـــير مؤامرة، تدفع والده إلى مُطـــاردة ابنه إدجـــار، وإلى اختفاء هذا

الابن، وتنكُّره في صورة مسكين مجذوب، فإن نموذج عنترة بن شداد العبسي (٥٢٥-٦١٥) الذي أنجبه أبوه من أَمَة، يحاول جاهدا اكتساب القيم العربية الرفيعة، وإدغامها في تكوينه السيكولوجي الأخلاقي، إلى أن يتمكَّن من انتزاع اعتراف والده به، وإظهار البطولة والكرم والعفة، في ميادين القتال، والمواقف الحياتية المتنوِّعة، وهو ما يفرض احترامه وتقديره، والاعتراف بفضله، وأكثر من هذا، فإن سيرته تصبح على أيدي الناس، سيرة شعبية بطولية، تتوارثها الأجيال، وفي كل الأحوال ما من إمكانية للتعاطف مع النماذج غير الأخلاقية في المسرحية، فاهتمامها بالسلطة والمال، اهتمام غير طبيعي، وغير إنساني، والفلسفة النفعية التي تدافع عن المنافع الفردية، لا تبرِّر سلوكات كتلك التي تصدر عن إدموند، والابنتين العاقتين، ولدى الفيلسوفين الإنكليزيين جيرمي بنتام Jeremy Bentham (١٧٤٨-١٨٣٢) وجون ستيورات مِل John Stewart Mill (١٨٠٣-١٨٧٣) اعتراف بالمنافع الفردية لدى الأول، واهتمام بالمنفعة الجماعية، إن هي تعارضت مع المنفعة الفردية، لدى الثاني، ومثل هذه الفلسفات النفعية الباحثة عن السعادة، لا تذهب باتجاه تخليق نماذج غير أخلاقية، مثلما هو قائم في مسرحية (الملك لير)، وأخطر ما في الأمر، أن تكون البيئة الأخلاقية الماورائية السلطوية، سبباً كامناً وراء تخليق نماذج، انتكست أخلاقها وانحطت، وربما أصبح من الحقائق المقرَّرة أن أخلاقية الملك لير السلطوية الإطلاقية، تدفع باتجاه تخليق لاأخلاقية من هم غير أخلاقيين، في المملكة التي يحكمها، وهيزيود ذاته على ما تروي الروايات، انحدر أخلاقياً قرب نهاية حياته، وأحب فتاة شابة، حبًّا عارماً، وغير شرعي، فبدا كمن يخالف المبادئ الأخلاقية التي دعا إليها، وعلى الرغم من أن الشاعر الفرنسي ألفرد دو موسيه Alfred de Musset (١٨١٠-١٨٥٧) اكتفى في حياته وأدبه، بالتعبير عن عاطفة الحب، أي إنه اكتفى بالحب، الذي كان في حياته شهويًّا دائماً، وأنه ارتقى من الخلاعة والعلاقات العابرة، باتجاه علاقات أوفر نصيبا من الارتقاء، فإنه يبدو أكثر اتصافا بالأخلاقية من هيزيود، لمجرَّد أنه اعتبر الحب فضيلة في حد ذاته، وأضفى

عليه القداسة والسمو، وأكثر من هذا، فإنه لم يتعرَّض للشهوة بإشارات سلبية تدفع باتجاه التقليل من شأنها ونفيها.

وفي هذا السياق، يبدو الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة أكثر سموًّا، عندما أعلن أن النظرة السلبية للشهوة، سوف تنقلب إلى نظرة إيجابية، عندما يتجاوز الإنسان ثنائية الرذيلة والفضيلة، التي انتمى الملك لير إلى فضاءاتها، انتماء كليًّا. ومن ناحية أخرى، فإن الشاعر الإنكليزي الرومانتيكي الراديكالي بيرسي شيلي أحرز تفوقا أخلاقيًّا أيضا، عندما تحرَّر من الاعتبارات الأخلاقية التقليدية، وعندما حرَّر بروميثيوس Prometheus من طغيان الإله زيوس، وهو ما يعني تحريره من طغيان أمثال الملك لير، والشاعر هيزيود، وهذه الخطوة لم يستطع ألفرد دو موسيه، بحكم تكوينه السيكولوجي الأخلاقي الهش، الإقدام عليها أبدا، على أن فريدريك نيتشة فاق بيرسي شيلي في تحرير الذات الإنسانية، من كل ما يكبِّلها، وأثبت أن تكويناً سيكولوجياً راقياً، يفرض أخلاقيات ومعايير راقية، وهكذا فإن تراث شعراء كطرفة بن العبد، وأبي الطيب المتنبي، إنما هو تراثهما الذي أملاه تكوين سيكولوجي إرادي أخلاقي راقٍ، ويبدو أن في العالم ثمة صراع خفي، بين نماذج أخلاقية على غرار الملك لير، وهيزيود، ونماذج أخلاقية ماورائية، كالكاتبين جبران خليل جبران، ووليم بليك، ونماذج أخلاقية أفلاطونية تحرُّرية، وغير محافظة، كبيرسي شيلي، ونماذج إرادية أرستقراطية كأبي الطيب المتنبي، وفريدريك نيتشة، وغيرها من النماذج، التي يمثلها أدباء وفلاسفة، اختلفت فلسفاتهم، وتباينت آراؤهم. والبادي للعيان أن النماذج الأخلاقية المُحافظة، التي يمثلها الملك لير، تسيطر كثيرا جدا في العالم، وأخطر ما في الأمر، أن ينهار العالم نتيجة تخليق نماذج كإدموند، ودوق كورنوول، دون أن يكون قادراً على تخليق نماذج كطرفة، وأبي الطيب المتنبي. ولربما أمكن افتراض وجود نوع من التداخل السيكولوجي بين سيكولوجية الملك لير الذاتية وسيكولوجية بناته، خاصة وأن السلطة التي يمثلها ليست سلطته كملك فقط، بل سلطته كأبٍ أيضاً، والتداخل ذاته يؤدي إلى افتراق سيكولوجي أخلاقي، وهكذا فإن طبائع البنتين الكبريين

تنحــرف باتجــاه الدوافــع السيكولوجيــة الراغبــة في النيل مــن الأخلاقية، بطريقة أو بأخــرى، على حين تتدفــع طبيعة البنت الصغــرى باتجاه الأخلاقيــة الكاملة، التي يعجز عن بلوغها الملك لير نفسه.

وبالمثل يمكن الاعتقــاد بوجود التداخل السيكولوجــي ذاتــه بين الملك لــير واللورد كِنْتْ، الذي يمثــل أخلاقية أكثر اكتمالاً من أخلاقيــة سيِّــده، مما يُمكِّنه مــن اكتشاف حقائق البنات الثلاث مُسبقا، على أن الملك الغافــل لير يرفضــ قبــول النصيحة التي يقدمها اللورد كِنْتْ، ويطرده من بلاطه، ومن المملكــة كلها، ويبدو أن أمد الغفلة قد طال، إلى الحد الذي أصبحت فيه التراجيدية أمراً منتظراً ومتوقعاً تمامــاً، فالملك لا يستطيع إدراك الحقائــق، وهو يتشبَّــث بآرائه كمن يدافع عن أنــاه، دفاعاً مُستميتاً، ولا مهرب منــه، والحدث كله يدل على فشل فاضح في سلطته كملك وكأب، ومن الطبيعي أن يحاول الدفــاع بقدر الإمكان، عما يعتقد أنه نجاح في مشروعه الحياتــي، ولذلك فإنه يرفض النصائــح، ويتصرف بصلف وغرور، ويطرد الفضلاء مــن مملكته، ويستبقــي الأشرار، لكــن الأمــور تتطــور، وتســير إلى خاتمة مطافهــا، ويتأتى للملك لير أخــيراً، إدراك الحقائق التي لم يستطع تبيُّنها طوال حياته. ومرة أخرى، تبدو الأخلاقية السلطوية سبباً كامنــاً وراء الأخطــاء، التــي يقترفها الملك لير، فهي تجعله يحيــا في حالة من الغفلة، وتعرقــل طاقة التخيُّل القــادرة على إدراك النوايا، التي قد تنطوي عليها النماذج التي يتعاطــى معها، وأكثر من هذا فإن الأحداث تُوحي بأنه ممن يتصفون بالسذاجة، وليس من النوع القادر على التفلسف الراقي حول القضايا الإنسانيــة، أو حول أيَّة قضايا في هذا العــالم. وإلى جانب اتصافه بالأخلاقية الزاهــدة، فإن الشاعر العربــي (أبو العلاء المعري) اتصــف بالإراديــة الأرستقراطية، التــي أمكنتــه مــن إدراك كوامــن النفس البشرية، والإمكانيات التــي تنطوي عليها، وأمام العراقيل التــي استُهدفت لها حياته، فإنه اندفع باتجاه التعالي الذاتي، ولم ينحط أو ينحدر مثلما حدث للنماذج البشرية التي انتكست أخلاقيــا في مسرحية (الملك لير)، وفي قصيدته الفخرية (ألا في سبيل المجد) يفخــر بالميزات الأخلاقية التي اتصف بها،

والتي اتخــذت طابعاً إراديــاً أرستقراطياً، أي إنــه تجاوز نمــوذج الملك لــير بأشواط، وفيهــا أيضاً إشارة إلى أنه قادر على معرفة الطبائــع البشريــة، وأمــام إمكانية حدوث انتكاســة أخلاقية جماعية، وهــو ما يتنبأ بــه اللورد كِنْت، والمُهــرِّج تحديداً في إحدى تصريحاتــه، التي تتجلى بانقــلاب المعايير رأسا على عقب، فإن أبا العلاء المعري الذي يلفت النظر إلى هذه الإمكانية، يعزل نفسه، ويتعالى وجدانيــاً وفكرياً وأخلاقياً وإرادياً، إلى درجــة رفيعة، لم يُعبِّر عنها وليم شكسبير أبــدا، في مسرحية (الملك لير)، وهو ما يعني أنــه لم يستطع إدراك هذه الخــبرة بوضوح كافٍ، وأن النمــاذج الأخلاقيــة السلطويــة المغرورة غير قادرة على إدراكها أبدا:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ

عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

أعندي وقد مارست كل خفيَّةٍ

يُصدَّق واشٍ أو يُخيَّب سائلُ

إذا وصف الطائي بالبخل مادرٌ

وعيَّر قسًّا بالفهاهة باقلُ

وقال السُّهى للشمس أنت خفيَّةٌ

وقال الدُّجى يا صبح لونك حائلُ

فيا موت زُرْ إن الحياة ذميمةٌ

ويا نفسُ جدِّي إن دهرك هازلُ

ودائمــا عندمــا يكــون هنــاك تداخل سيكولوجي، فإن النتائج تكون غير محمودة، في كثــير مــن الأحيــان، إلا عندمــا يؤدي التداخل الناجم عن حضور السلطة الأبوية، حضــوراً قوياً، إلى تخليــق أخلاقية فاضلة تماما. وليس هناك ما يمنع وجود مثل هذا التداخل بــين عدد من القــادة التاريخيين وأبنائهم، وفي هذه الحالة، لن يكون بالإمكان تبرئــة أولئك القادة، من النتائج التي ترتَّبت علــى طريقتهــم في التعامــل مــع الشؤون العائليــة، وتلك المتعلقــة بالدولة والمجتمع والناس، فالإمبراطــور والفيلسوف الرواقي ماركوســ أوريليوس Marcus Aurelius (١٢١-١٨٠) أخلاقيــة حقيقيَّة، وهو يمثل في قراراته النموذج البشــري، الذي تتمكن لديه الأخلاقية مــن السيطرة على الدوافع السيكولوجيــة سيطرة تامــة، لكن التداخل السيكولوجي مع السيكولوجية الذاتية التي لابنه كوموديوســ Commodus (١٦١-١٩٢) أدى إلى انحراف الابن انحرافا خطيرا، ونحن هنا نتعامل مع واقعة تستحق التأمل،

فالالتصاق بين سيكولوجية الأب وابنه، وتمتُّع الأب بأخلاقيــة مكتملة، قد يؤدي إلى إلغاء الابن، عن طريق إلغاء دوافعه السيكولوجية، ومــن الطبيعي أن تدافع هــذه الدوافع عن وجودهــا، وتتنكر للأخلاقية تنكراً لا هوادة فيــه، إن هــي استشعــرت الخطــر الذي تتعرَّضــ له حياتهــا. وفي كل الأحوال، فإن قيام دولة على أساســ وجود ملك أخلاقي سلطــوي فاضل، وعلى وجــود رعايا تعتبره راعيــاً وأبــاً، شأن لن يــؤدي إلى تقدُّم هذه الدولة، وربما استطاعت إحراز تقدُّم علمي، غــير أن التقــدُّم الحقيقي، هــو ذاك الذي يطــال المفاهيم الأخلاقية، ويستطيع إدراك الإمكانيــات البشرية المتنوِّعــة، والاعتراف بهــا. ومن ناحيــة أخرى، فــإن الإنجازات العلمية لا ينبغي لهــا أبدا، أن تخدم نظاماً معرفياً أخلاقياً ماورائيــاً، والأجدر بها أن تكــون موضوعة في خدمة التقدم الإنساني، وبالطبــع تبقى إمكانية انهيــار الدولة التي يحكمها نظام أبوي سلطوي قائمة، في حال حدوث اختلال في التــوازن القائم داخلها، وهو الانهيار الذي لا يحدث في الدول التي تحكمها أنظمة ديموقراطية، بالمعنى الأكثر أصالة لهــذه الكلمة، فالواقــع أن الارتقاء الأخلاقي العقلاني، هو الذي يجعل الإنسان قادراً على تجاوز ثنائية الخير والشر بالمعنى المألــوف، أي على تخطي الملك لير والشاعر هيزيود.

ومهما يكن مــن أمر، فإن اللــورد كِنْتْ والابنــة الفاضلة كورديليــا، لا يتخليان عن الملك لــير، وسلوكهما دال علــى انطوائهما على الأخلاقية، انطواء غير قابل للارتداد، فالأخلاقيــة هــي قدرهمــا، ولــن يكــون بإمكانهما التراجــع عنه، وهكذا فإن اللورد كِنْتْ يتنكر، ويُعــاود خدمته للملك، دون أن يكــون هذا الأخــير، على درايــة بحقيقته، ولا يمكــن الفصل بين الأخلاقيــة ومَخَايل السلطان التي تُوحــي بها ملامح الملك لير، علــى ما يرد في حوارهما، لدى محاولة كنت العودة إلى خدمة سيــده، فالأخلاقية ذاتها شرط لا بدَّ من توافره لدى الرجل القيادي، كي يكون مؤهلا للقيام بدوره على أتم وجه، وفي تاريخ الفلسفة يُعــدِّد الفارابي (٨٧٨-٩٥٠) في كتابــه (آراء أهل المدينة الفاضلة) صفــات القائــد الحقيقي، وكلهــا صفات أخلاقية فاضلة، واللافــت أن القدرة على

مباشــرة الأعمال الحربيــة باقتدار، واحدة مــن تلــك الصفــات، وفي هــذا تأكيد من الفارابي، على أن الشر موجود على الدوام، وأن المدينة الفاضلة قد تتعرَّض للاعتداءات اللاأخلاقيــة، وبالرغــم مــن أن الفارابي نمــوذج أخلاقي فاضــل، فإنــه يدافع عن القوة الحربية، وفي هــذا تأكيد أيضاً، على رغبة كامنة في امتلاك القوة، وربما كان من الأفضل أن يكون الكائن البشري قويًّا قبليًّا، لا أن يكون أخلاقيــاً وفاضلاً، ويكتشف أن القــوة لازمة في ميقات تــالٍ. وعندما كتب الشاعر لقيط بن يعمر (توفي ٣٨٠) قصيدة (يــا دار عمرة) التي يحــذِّر فيها قبيلة إياد العربيــة، مما انتــواه كسرى حيالهــا، فإنه أشــار إشارة ذات دلالــة، إلى ضرورة توافر الصفات الأخلاقيــة الحميدة لدى القائد، الذي يعتزمون وضع مقدَّراتهم تحت تصرف قيادته الحكيمة:

فقلدوا أمركم، لله درُّكُمُ

رَحْبَ الذراع بأمر الحرب مُضطلعا

لا مُترفا إن رخاء العيش ساعدَهُ

ولا إذا عض مكروهٌ به خشعا

مُسهَّدَ النوم تعنيه ثغورُكُمُ

يروم منها إلى الأعداء مُطَّلَعا

ما انفك يحلب درَّ الدهر أشطُرَهُ

يكون متَّبِعا طورا ومتَّبَعا

وليس يشغله مال يُثمِّرُهُ

عنكم، ولا ولد يبغي له الرِّفعا

وليس من الضــروري للرجل الأخلاقي، الذي تُوحي ملامحه بكونه سلطاناً، أن يكون كذلك بالفعل، فالفيلسوف اليوناني الرواقي زينــون الأكتيومــي Zeno of Citium (٣٣٦-٢٦٤ ق. م.) أخلاقيــة مكتملــة، وملامحه توحــي بأنه سلطــان، وهو ينظر إلى الأخلاقيــة نظرتــه إلى الشرط الواجب توافــره، كي يكون المــرء سلطانــاً بالفعل، ونظرتــه هذه تمكِّنــه مــن الاستعلاء على السلطان الموجود على رأس الحكم في الواقع الفعلي، ونحن دائماً أمــام مشروع أخلاقي ذي طبيعــة مُتعالية، وهــو المشروع الهادف إلى جعل الرجال القياديين، رجالاً مُكتملين من الناحيــة الأخلاقية، وفي نهاية (موعظة الجبــل) التي ألقاهــا السيــد المسيح على مسامع حوارييه وأتباعه، ثمة إشارة إلى أنهم شعــروا بأنه يكلمهم كمن لــه «سلطان» وفي مناسبة أخرى، دخل مدينة أورشليم بتواضع

ترافق مع احتفاء عامة الناس به، واعتبارهم إياه ملكاً حقيقياً، ووفق جبران خليل جبران فإن يهوذا الأسخريوطي Judas Iscariot أراده أن يكون ملــكاً زمنياً حقيقياً، غير أن السيــد المسيح انتهــره، ورفض أن يقلل من شأن نفسه، ويكون ملكا بهذا المعنى، على ما أورده في كتابه (يسوع ابن الإنسان).

وإنــه لمَّــا يتضح من مسرحيــة (الملك لــير) أن كل تلك المشاريــع الفلسفية، تُعاني من أوجه النقصــان، ووفق فريدريك نيتشة فــإن الأخلاقية تــؤدي إلى تقهقر الطاقات الإراديــة، وفي هــذه الحــال، فــإن نموذج السلطان يصبح أرستقراطياً إرادياً. واللورد كِنْتّ الذي يتعرض للنفي، يرفض في قراراته، مُغــادرة المملكة، ويُعــاود خدمته للملك لير حتى النهاية، وأكثر من هذا كله، فإنه يرفض القيام بأي دور قيادي، عندما تتكامل خيوط التراجيديــة، وتنتهي فصولهــا بموت الملك وبناتــه الثلاث، إضافة إلى الخائنين إدموند ودوق كورنوول، وهو يفضِّــل اللحاق بالملك الذي فارق الحياة، على أن يلعب أي دور في تقرير شؤون المملكة، التــي قوَّضت أركانها الأحــداث التراجيدية المتوالية. واللافت أن من يتقاتلــون ويتنازعون فيمــا بينهم، غير قادرين علــى رؤية أبعاد مــا يعنيه تقاتلهم وتنازعهم، وعــادة ما يكون أصحاب العقول المستقلــة، والتفكير الحر، قادرين على رؤية ما لا يراه اللاعبون في الميدان، وعلى الرغم من هــذا، فإن هــؤلاء اللاعبــين يتغيَّرون، نتيجــة اكتشافهم البطيء لمــا تنطوي عليه ألعابهم من معانٍ، وربما أمكنهم في وقت من الأوقــات، أن يرتقوا قليــلاً، وأن يكفوا عن التقاتــل والتنازع، ويستهزئــوا بما اقترفوه من أعمــال، ووفق هذا المنظور فإن أحداث مسرحية (الملك لير) لا ينبغي لها أن تستثير الشفقــة أو الرعدة التي أقــرَّ دوق أولباني، أنهــا تستثيرهــا، فالواقع أن هــذه المأساة تبعث على التقليل من شأن النماذج البشرية كافة الموجودة فيهــا. وإذا كان قارئ (الملك لير) يستهجــن أداء إدموند، ودوق كورنوول، والبنتين العاقتين، فإن عليه أن يستهجن أداء الملك لير، وأعوانــه أيضاً، فما من قيمة في الواقع للأخلاقيات السلطوية الاستبدادية، وما من إمكانية للارتقــاء الإنساني الراقي في ظلها.

وعلى غــرار اللورد كِنْتّ، فــإن الشاعر

الأخلاقي البهاء زهير (١١٨٥-١٢٥٨) يرتبط ارتباطاً سيكولوجياً أخلاقياً وثيقاً، بالملك الصالح، ويخدم الناس بإخلاص تام، ويتوسَّط لدى الملك من أجل نصرة العدالة الاجتماعية، بطريقة خيِّرة تماماً، وإلى ذلك فإنه يرفض القيام بالدور ذاته، عندما تقع الخيانة، ويستولي على الحكم الملك الناصر، لكنه يعود إلى البلاط، وإلى سالف عهده، مع عودة الملك العادل إلى الحكم، وعندما يموت الملك أخيراً، فإن البهاء زهير يعتزل في داره، إلى آخر أيام حياته، وهو ما يدل على أخلاقية راغبة في أداء دورها الأخلاقي، دون تقاعس أو تردُّد، وغير قادرة على هجران الأخلاقية الأخرى، التي ترتبط بها ارتباطها الوثيق، وفي أشعاره تظهر بوضوح نفحات إنسانية أصيلة:

أنت الحبيب وما لي عنك سلوانُ

وفيك ضجَّ عليَّ الأنس والجانُ

بيني وبينك أشياء مؤكدةٌ

كما علمتَ وأيمان وإيمانُ

فليت شعري متى تخلو وتُنصتُ لي

حتى أقول فقلبي منك ملآنُ

وقد جعلتُ كتاب العَتْبِ مختصرا

إذا التقينا له شرحٌ وتبيانُ

إياك يدري حديثا بيننا أحدٌ

فهم يقولون للحيطان آذانُ

مولاي رفقا فما أبقيتَ لي جلداً

فإنني أيها الإنسانُ إنسانُ

وإنه لمن الأفضل أن يكون الارتباط السيكولوجي الأخلاقي بين الأفراد، وتحديداً بين الوالدين وأبنائهما، أو الرئيس، ورعايا الدولة التي يحكمها، غير موجود بالكيفية التي تعرض لها المسرحية، وإذا كانت الانتكاسة الأخلاقية التي يمثلها إدموند، ودوق كورنوول، والبنتين العاقتين، تؤدي في وقت من الأوقات، إلى قلقلة الارتباط المذكور، فإنه لمن الخير أن تحدث انتكاسات متوالية، إلى أن يتم إحداث شرخ حقيقي في الطبيعة الأخلاقية السلطوية، وهو ما يفسح المجال أمام إمكانية تجاوزها، وتحقيق الارتقاء البشري المأمول، الذي لا يعلم عنه شيئا، من يمتلك تفكيراً حسابياً، وقدرات متواضعة على تخيُّل الأوضاع الإنسانية، كالملك لير، والشاعر هيزيود، وأمثالهما. وفي مسرحية (الملك لير) ثمة إصرار على أن الطبيعة البشرية الحقة،

طبيعــة أخلاقية حتمــا، وأي سلوك بشري يتنافى مع الأخلاقية، هو سلوك يتنافى مع الطبيعة البشرية ذاتها.

والتصــور ذاته موجــود في المنظومات الفلسفيــة الأخلاقيــة، وهنــاك تأكيد في الفلسفــة الرواقيــة Stoicism علــى أن الأخلاقيــة الفاضلة تمثل الطبيعة البشرية، ولن يمثلها شيء آخــر، والحياة وفق العقل أو الطبيعــة، بالمعنى الكــوني والبشري، هي الحياة التــي تسيِّرها الأخلاقيــة الناجزة، ودائمــا يترافــق الخلــل الذي يطــرأ على الأخلاقية جمعيًّا، مع خلل في النظام الكوني كله، وبالفعل فإن وصول العقوق البنوي إلى ذروتــه، واشتداد معاناة الملــك لير وأعوانه في القفــر، واحتدادهــا، احتــدادا أليمــا، يترافق مع خلل في نظــام الطبيعة والكون، ومــا العاصفة بأمطارهــا وبردها وبروقها ورعودهــا، غير دلالة علــى رفض كوني لما حلَّ بالأخلاقية في دنيا البشر. وفي مسرحية (ماكبث) تتكرر الصورة ذاتها، فاغتيال الملك الأخلاقي الفاضل دانكن، على يدي ماكبث الطامــح إلى تقلــد مقاليد الحكــم، عنوة واغتصابا، ودون أدنــى اعتبار للأخلاقية، يترافق هو الآخر، مــع عاصفة عنيفة، دالة على اختــلال العناصر الكونيــة وغضبها، فالطبيعــة البشرية والطبيعــة التي ينطوي عليها الكون بأكمله، طبيعة أخلاقية كاملة، وينبغي لها أن تكون كذلك على الدوام. وإنه لمن اللافت أن نموذج إدموند، أسوأ أخلاقياً، من نموذج الطاغيــة «ماكبث» الذي اقترف الجرائم المتواليــة، وكان على صلة بالأرواح الماورائية الشيطانيــة المدلهمَّة، لدى التأمل في سلوكهمــا واعتقاداتهمــا الأوليَّة، فلقد أنكر إدموند الماورائيات والتنجيم، وإمكانية وجــود أي ارتباط بين الظواهــر الطبيعية غــير المألوفــة، والانحطــاط الأخلاقي في دنيــا البشر، وترافــق إنكاره لهــا كلها، مع انحطاطه الأخلاقي الكامل، في حين عانى ماكبــث من سيطرة لعنة علــى إرادته، ومن صــراع أخلاقي مريــر بــين قيمتي الخير والشر، وبقي على اعتقاداته بوجود الألوهية والعناية الإلهية، والعدالة في العالم الماورائي، وبالقيــم الأخلاقية المألوفــة، دون أن يكون قادراً على إدغامها في تكوينه السيكولوجي الأخلاقي الذاتي، على أن إدموند أعلن لدى دنو أجله، اعترافه بالعدالة الإلهية، في حين

امتزج ماكبث بالإرادة اللاعقلانية العمياء، وأصبح شريراً تماماً، في الوقت الذي أبدى فيه إدموند سلوكاً خيِّراً. ومن الظواهر التي تميِّز الأخلاقية في مسرحية (الملك لير) ظاهرة الحكمة الأخلاقية، على قلة ورودها في السياق السردي للأحداث، وهي الحكمة التي ينطق بها الملك المظلوم لير وأعوانه في بعض الأحيان، ودائما يكون احتداد الصراع بين الأخلاقية، وبين نقيضها الذي يتنكَّر لها، حافزاً يؤدي إلى إنتاجها، وإخراجها إلى حيِّز الوجود، فالملك لير الذي يدخل في حوار أليم مع ابنتيه الكبريين، لا يتمكن من احتمال عقوقهما، ومحاولتهما تجريده من المظاهر كافة، التي ما زال يحتفظ بها، كرمز لسلطته، وفي سياق الحوار الذي يتبدَّى فيه، إصرارهما على ضرورة تخليه عن فرسانه المئة، تتبدل سريرة الملك تبدلاً فاجعاً، وهو يتودَّد إليهما في البداية، ويقرر أن جونريل أكثر حباً له من ريجان، لمجرد أنها أبدت استعدادها لقبوله إن هو اكتفى بخمسين من فرسانه، على خلاف ريجان التي طالبته بإنقاص عددهم إلى خمسة وعشرين، وهو يقرِّر أن الشرير قد يبدو فاضلاً، إذا كان هناك من يزيد شره عليه، وربما استحق بعض المدح، من لا يكون أسوأ البشر. والأمر اللافت أن طريقة الملك لير في التفكير، تظل على حالها، وهي طريقة تعتمد النظر إلى ظواهر الأشياء، وتعجز عن إدراك ما يتخفى وراءها، ورؤياه الفكرية عقلية حسابية من النوع البسيط، والمخيلة غير قادرة على إسعافها، أو على إمدادها بأي عون، على أن الحكمة التي ينطق بها الملك المفجوع، أخلاقية في جوهرها.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذا الملك يتهاوى باتجاه إبداء تودداته الذليلة، أمام ابنتيه، وإعلان استعداده لإظهارها أمام ملك فرنسا، وابنته كورديليا، التي حرمها من الميراث، ومن البركة الأبوية، على أن انحداره باتجاه الانطواء على الذل، يدفع به إلى الغضب الجامح، وإلى صب لعناته على ابنتيه العاقتين، وربما كانت مشاعر الذل التي عانى منها المفكر الفرنسي جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨) سبباً كافيا لدى أنصاره، الذين يشبهونه في تكوينهم، كي يتهوروا في الانتقام من خصومهم، وفي إراقة الدماء،

ومما يقال عن الكاتب المسرحي السويدي أوجست سترندبيرغ August Strindberg (١٨٤٩-١٩١٢) أنه عانى من مشاعر مشابهة، تركت بصماتها على جملة إبداعاته، وعلى تكوينه، وأدائه الحياتي. على أن تعرُّض أبي الطيب المتنبي، لمواقف باعثة على الرضى أو الألم، أدى به إلى إنتاج الحكمة، وإخراجها من مكامنها، على أن حكمة أبي الطيب المتنبي لا تتنكر لما في الطبيعة البشرية من دوافع سيكولوجية، وهي تتعامل مع الحقائق المرفوضة، بوصفها تلك الحقائق الواقعة، التي يتوجب التعامل معها تعاملا واقعيا، أي إن المتنبي لا يستهدف مبدئيا، إقصاء النوازع المرفوضة، العائدة للطبائع البشرية، وللدوافع السيكولوجية، بقدر ما يستهدف إقرارها، والتصرف إزاءها إجرائياً، دون أن يكون هناك أي ميل طوباوي لنزعها من الوجود البشري، واستئصالها تماماً، ونحن أمام حكمة أكثر اتساعاً، وأمام رؤية فكرية أشمل وأكمل، وأمام تكوين أرفع شأناً من أن يكون أخلاقياً سلطوياً، ومن ناحية أخرى، فإنه ليس من النوع القادر على إبداء أدنى قدر من التوددات أو التذلل أمام أعدائه، وليس ممن يهبون بركة، أو يصبُّون لعنة، وهو ما يعني أنه أعظم من نموذج الملك لير بأشواط. ومرة أخرى، يبدو أن النموذج البشري الأكثر ارتقاء في العالم، ليس ذلك النموذج الأخلاقي العربي، كالعالم والمفكِّر الفرنسي بليز باسكال Blaise Pascal (١٦٢٣-١٦٦٢). على أن الملك لير يتراجع عن تودده وتوسلاته، وينقلب إلى النقمة والغضب، في مواجهة عقوق ابنتيه القاسيتين، وهو يهددهما بالانتقام، ويؤكد أن الصبر هو ملاذه الأخير في ورطته، التي انحدرت به إلى قراراتها، والجرح الذي ألَمَّ به، يجعل موقفه من الناحية الأخلاقية، غير قابل للمداواة والتراجع. وعلى غراره فإن الشاعر الشنفرى (توفي ٥١٠) يجد نفسه في موقف مُشابه، فأبناء قومه يؤذونه، ويحجبون عنه حقوقه، وما من سبيل أمامه غير الانتقام من سلوكاتهم اللاأخلاقية حياله، انتقاماً أخلاقياً، وهو يُشير في قصيدته المشهورة (أقيموا بني أمي) إشارة دالة على تجلده وصبره، وعلى غضبه، الذي هو غضب صرف أو شجاعة حقيقية:

فإني لمولى الصبر اجتاب بزَّهُ

على مثل قلب السمع والحزم أفعلُ

فلا جزعٌ لخلة مُتكشفٌ

ولا مرحٌ تحت الغنى أتخيَّلُ

وليلة نحس يصطلي القوسَ ربُّها

وأقطُعَهُ اللاتي بها يتنبَّلُ

دعستُ على غطشٍ وبغشٍ وصُحبتي

سعارٌ وإرزيز ووَجْرٌ وأفكُلُ

فأيَّمت نسوانا وأيتمت إلدة

وعدتُ كما أبدأتُ والليل أليلُ

وفي خاطرته التي حملت عنوان «المليك السجين» والتي أوردها في كتابه (العواصف) يدعو جبران خليل جبران مليكه ذاك، إلى ضرورة التجلد والصبر، وثمة إشارات في أدبه، تدل على تأذيه السيكولوجي، بطريقة أو بأخرى، فالخاطرة التي حملت عنوان «الحيوان الأبكم» والتي أوردها في كتابه (دمعة وابتسامة) تؤكد شيئاً من هذه الحقيقة، وفيها يتعاطف الكاتب مع هذا الكائن الحي الذي ألم به الأذى إلى درجة غير قابلة للإصلاح، وهو ما بدا ظاهراً في نظرات الحيوان الكئيبة، وجبران خليل جبران يتحدث في أحايين كثيرة، بطريقة غاضبة، في خواطره التي تؤلف في مجموعها كتابه (العواصف) وثمة إشارات تدل على رغبة في الانتقام، إلا أنها ليست تلك الرغبة التي يتم إعلانها، والتصريح بها، على ما هو عليه الحال لدى الملك لير، والشاعر الشنفرى. ومن ناحية أخرى، فإن اعتماد الدعاء، وصب اللعنات على البنتين العاقتين جونريل وريجان، إنما هو نتيجة من نتائج الانضغاط الذي تتعرَّض له الأخلاقية، فالملك لير ينظر إلى مشروعه الحياتي، بوصفه مشروعا أخلاقيا في جوهره، وعقوق ابنتيه ليس عقوقهما المفصول عن أخلاقيته، بل هو العقوق الذي يعني فشل مشروعه الأخلاقي، فشلا ذريعا، وانحطام أناه وغروره وصلفه، انحطاما شاملا، الأمر الذي يؤدي إلى اندفاعه باتجاه الدعاء، وصب اللعنات، في مرحلة أولى، وإلى الجنون في مرحلة لاحقة، وعلى الرغم من انطوائه على الأخلاقية، فإنه ليس ذلك الرجل التقي الورع تماماً، وهو مسؤول عن عقوق ابنتيه، مسؤولية مباشرة، وما من شيء يؤكد إمكانية استجابة الآلهة لأدعيته. وعلى خلافه فإن أدعية ابن النحوي (توفي ١١٣٥) الصوفي

الورع، كانت مُستجابة على الدوام، فلقد دعا على ثلاثة قضاة في أوقات مختلفة، فماتوا، ويبدو أن الاعتقادات الأخلاقية الماورائية تستدعي أن يكون هناك أتقياء ورعين، وأن تكون أدعيتهم مستجابة، ومن يُصدِّق هذه الحقيقة، ويفرضها فرضاً على الذات، ليس العقلانية أو الحقائق الواقعية بالضرورة. وفي قصة (كف السعدان) للكاتب الأمريكي و.و.جاكوب (١٨٦٣-١٩٤٣) يضع قديس رُقية على الكف، فيكتسب قدرة خارقة للطبيعة، وإن استهزاء الفتى الشاب بالفكرة، يؤدي إلى علوقه في الآلة الميكانيكية، وإلى موته بطريقة شنيعة، لأنه تجرأ على القدر، وما يمثله من عناية إلهية، لدى اجترائه على ذلك القديس الورع، واستخفافه بالقدرات الخارقة التي يمثلها «كف السعدان».

ووفق التصنيف الذي أعلنه الفيلسوف اليوناني أبيقورس للحاجات البشرية، فإن الحاجات الدنيوية المتمثلة في مئة من الفرسان، لدى الملك لير الأخلاقي السلطوي، وفي حضور الحاشية والخدم، حضوراً دائماً، بأكثر من إرضاء ساذج لتلك المزايا السيكولوجية، الدالة على وجود غفلة عقلية حقيقية، والملك باعترافه، يعتبر أن تلك الحاجات الدنيوية تميِّز الكائن البشري عن الكائنات الحية الأخرى، ومع ذلك فإنها مرتبطة بأناه، ارتباطاً وثيقا، يبدو على حقيقته عندما تحاول البنتان العاقتان تجريده تماماً منها. وعادة ما تعني هذه الأحوال، شيئاً يقينياً، لمن ينتمي إلى تكوين بشري ينطوي على الاعتقاد بها، ولكنها ليست مما يعني شيئا عندما يكون الإنسان كأبي الطيب المتنبي، أو أبي العلاء المعري، وإنه لمن الممكن الادعاء بأن الافتراضات الأخلاقية القبلية، تجعل الكائن البشري في مرتبة بسيطة الشأن، من الناحية المبدئية، وتفسح المجال أمامه، كي يكون في مرتبة أرقى، فالكائن البشري يتصف بالميل إلى اقتراف الرذيلة، أي إلى تلبية متطلبات شهواته، على أن الأخلاقية ذاتها، تحرِّره، إن امتلك الاستعداد الأخلاقي الكافي، وترفعه إلى الأعالي، بل وإلى التوحد مع الفضيلة والمعرفة، واقتناص الروعة الأبدية، لدى إنصاته لصلوات القديس برنار Saint Bernard على ما أعلنه دانتي أليجييري Dante Alighieri (١٢٦٥-١٣٢١) في

(الكوميديــة الإلهيــة). وإذا كان هناك من يعتقد بــأن الفيلســوف اليونــاني سقراط Socrates (٤٧٠-٣٩٩ ق. م.) يتصــف باتــزان النفــس، فــإن هناك من يــرى أنه يتصــف بالاقتــدار الأخلاقــي والفكري، عندما يكون هادئاً، أمــا عندما تعصف به نوبــات الغضب، فإنه يصبــح قبيحا تماما، ويبــدو أن الملــك لير قــد اتصــف بتكوين مُشابه، والواقع أن الأخلاقية التي تصطدم بأية عراقيــل، تدفع بمن ينطوي عليها، إلى الغضب والطيشــ والنزق، نتيجــة القلقلة التــي تبعثها فيها تلــك العراقيل، ومما هو مأثور عن الشاعــر الأخلاقي زهير بن أبي سلمــى (٥٣٠-٦٢٧) احتكامه إلى العقلانية الأخلاقيــة، وإلى توجيــه الشتائم الفاحشة إلى من يرفضــون نصائحه وتوجيهاته، وفي الوقت الذي تكــون فيه الشتائم لدى نماذج الملك لير، والشاعر زهير بن أبي سلمى، على صلة وثيقة بالأخلاقية التي ترفض الشهوات الطبيعيــة، وتنطوي على القيــم الأخلاقية الكابتة لها، فإن أبا الطيب المتنبي يستخدم في شتائمــه اللغة التي يفهمها الآخر، والتي تعني له شيئا معيَّنــا ومُغايرا، لما قد تعنيه، وفق المتنبي ذاته، على ما هو عليه الحال في القصيدة التي هجا فيها ابن كيغلغ.

ومممــا يُميِّز الصلف لدى الملك لير، كونه ارتكاساً سيكولوجيا أخلاقيا، يستعصي على التهذيب الأخلاقي، وهــو لا ينفي نقيضه، الذي يمثلــه التواضع الشامــل، والاعتراف بأن الكائن البشري كأي مخلوق حيواني آخر، وهذه الإشارة ترد على لسان اللورد جلوستر، ويمثلها من الناحية الفعلية، خير تمثيل، ابنه الشرعي إدجــار، الذي يفر هارباً من بطش الأب الأخلاقــي الغافل، الــذي لا يتنبَّه إلى مؤامرة ابنه الآخر إدموند وكيده، وهو الابن الذي أنجبه جلوســتر بطريقة غير شرعية، وإدجــار يلتقي في القفر الملــك الهائم على وجهه، برفقــة صديقه الوفي اللــورد كِنْتّ، والمهــرِّج ذي الأخلاقية القادرة على الرؤية، بأكــثر مما لدى الملك نفســه من قدرة على الرؤية، فإدجار العاري المجذوب، يمثل نفسه حقيقة الإنسان، وفق رؤية الملك لير الفكرية، ومــا الإنسان غــير ذلك المخلــوق البائس، على الرغم مــن كل ما يحيط به نفسه، من مظاهــر الأبَّهــة والسلطان، وهــو يخاطبه بلقب «الفيلسوف» ومــا من غرابة في هذا،

فالفيلســوف في بدايات التفكير الفلسفي، لم يكن يختلف كسيكولوجية، عن السيكولوجية الورعة التقيَّة البسيطة، والكلبيُّون Cynics تحديداً، اعترفوا بالفضيلة، وخرقوا القواعد المرعيَّة، واهتموا بالحقيقة الداخلية، وليس بأية حقائق خارجية، ويبدو أن مظهر إدجار العاري ظاهريا، قد عنى تلقائياً أنه فيلسوف في باطنــه، فالحقيقة الداخلية أعلنت ذاتها أمام ناظري الملك لــير. والأخلاقية تنطوي أيضـــاً على دعــوة إلى التواضع، وهي تذكِّر الإنســان دائماً وأبــداً، بأنه ذلــك المخلوق البائس، ويبــدو أن الشاعر إيليا أبو ماضي (١٨٨٩-١٩٥٧) يمثــل أخلاقيــة مُكتملــة، على الرغم من آرائــه اللاأدرية، وهو يؤكِّد في قصيدتــه التي حملت عنوان (الطين) أن الكائن البشري بائس، وإن مال إلى التسلط، وإحاطــة نفسه بالأبَّهــة والسلطان، وما هو غــير «طين حقير، صال تيها وعربد» ووجب عليه أن يعترف بحقائقه، وأن يتبنَّى التواضع تبنِّيا شاملاً ومخلصاً، ولا رياء فيه:

نسي الطين ساعة أنه طينٌ

حقيرٌ فصال تيها وعربدْ

وكسا الخزُّ جسمه فتباهى

وحوى المال كيسه فتمردْ

ألك القصر دونه الحرس الشاكي

ومن حوله الجدار المشيَّدْ

ذدتني عنه والعواصف تعدو

في طِلابي والجو أقتم أربدْ

فسمعتُ الحياة تضحك مني

أترجَّى ومنك تأبى وتجحدْ

وفيمــا يتعلــق بالدوافــع السيكولوجية الفرديــة المفصولة عن الأخلاقية، والهادفة إلى تحقيــق المنفعة، فإن انتصاراتها مؤقتة، وهـــي انتصـــارات شريــرة في جوهرهـــا، والانتصـــار النهائي لن يكون غــير انتصار الأخلاقيــة عليها، وعلـــى آثامها وشرورها، ومنـــذ البداية يفشل دوق بيرجندي في قبول كورديليا زوجة له، لأنه يمثل المنافع، وكورديليا ذاتهــا ترفضه، ومــا كان يمكنها قبول ملك فرنسا زوجا لها، لو لم يكن أخلاقية مُكتملة، ولو لم يتقدَّم لطلــب يدها مدفوعاً بإعجابه بفضائلهـــا، وميزاتها الأخلاقيـــة الرفيعة، وليس بما قد يخلفه لها والدها الملك لير من ميراث. وفي مسرحية (الزوج المثالي) للكاتب الأيرلنــدي أوســكار وايلد تنتصــر الإرادة الأخلاقية الغائية المثالية، التي يمثلها البطل

روبرت تشيلترن وزوجته، على الإرادة النفعية الأنانيـــة التي تمثلها مســز تشيفلي، وبالمثل فــإن أخلاقية سقــراط وأفلاطون Plato (٤٢٧-٣٤٧ ق. م.) وأرسطــو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) انتصـرت علــى الــرؤى الفكرية الواقعيَّة النفعيَّــة، التي دافع عنها الفلاسفة السفسطائيون، وأحداث المسرحية بأكملهــا، إنمــا هـي ســيرة الصــراع الذي اندلــع بين الأخلاقية، والرؤيــة الارتكاسية اللاأخلاقيــة الانتقاميــة النفعية، وبالطبع فإنه الصــراع الذي ينتهي بهزيمــة الرؤية النفعية، ومــن يمثلها، وبانتصــار أخلاقية أكثر اكتمــالاً من أخلاقيــة الملك لير، وهي الأخلاقية التي أنجبتها إخفاقات الأخلاقية السالفــة، وتجاربها الأليمــة. ودائما هناك اعتبارات تستحــق أن يُوليها المرء اهتمامه، فالفيلسوف الألمــاني فريدريك نيتشة، يرى لدى السفسطائيــين ما هو أعظم شأناً مما لدى الفلاسفة الأخلاقيين، وفي كل الأحوال ليســت الأخلاقيــة السلطويــة التي يمثلها الملك لــير شأناً عظيماً، ومــن المرفوض أن تواصل التحكم بالأفراد، والعلاقات الدولية بــين أمم الأرضــ، تحكما يجعــل إمكانية فهم الأحــداث الفردية والكونيــة، إمكانية غــير قائمة، وبكلمة أخــرى، فإن اعتقادات الأفراد والجماعــات، وأداءهــم الحياتي، أكــثر اتساعاً وتعقيداً من النظرة الأخلاقية التبسيطيــة، وأكــثر احتياجــاً إلى نظرات تتجــاوز النظرات الأخلاقية العرفية، وما لم يستطع الكائن البشــري امتلاك العقلانية، وتجاوز الأخلاقيــة بأفقها الضيِّق، فإنه لن يكون قادرا أبداً، على تجاوز عائلة الملك لير، ولعله مما ينتمي إلى الخطأ، استخدام الكثير من القــادة السياسيين تصريحات أخلاقية، دون أن يكون في العــالم من يؤمن بأنهم قوم أخلاقيــون، والأكــثر أخلاقية مــن هذا أن يكونوا واقعيين وصادقــين مع ذواتهم، ومع من يحتكُّون بهم من جماعات ودول وأمم.

الهوامش:

١- وليم شكسبير، الملك لير، ترجمة وتقديم: محمد عناني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢- مجموعة من المؤلفين، دليل القارئ إلى الأدب العالمي، نيقولا ماكيافيلي، جان جاك روسو، الكوميدية الإلهية.
٣- د. عادل العوَّا، المذاهب الفلسفية، فريدريك نيتشة، أبيقورس، الفارابي، الرواقيَّة، أفلاطون، أرسطو، جامعة دمشق.
٤- د. إبراهيم سكَّر، الإنيادة، فيرجيل، تراث الإنسانية.
٥- د. محمد عبدو النجاري، شكسبير والدراما: صورة أدبية نقدية، دار الحصاد، سورية.
٦- أبو العلاء المعري، سقط الزند، دار صادر، بيروت.
٧- وليم شكسبير، ماكبث، ترجمة: خليل مطران، دار مكتبة الحياة.

٨- جبران خليل جبران، المؤلفات الكاملة، تقديم: ميخائيل نعيمة، يسوع ابن الإنسان، العواصف، دمعة وابتسامة، دار صادر، بيروت.
٩- د. حسن شحاتة سعفان، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه، تراث الإنسانية.
١٠- مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنكليزي، ترجمة: د. عبد الوهاب المسيري ومحمد علي زيد، بيرسي شيلي، وليم بليك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
١١- عبد القادر المغربي، جمال الدين الأفغاني: ذكريات وأحاديث، تقديم: كريم أبو حلاوة، دار البعث.
١٢- الأستاذ رمسيس عوض، صورة دوريان غراي، أوسكار وايلد، تراث الإنسانية.
١٣- رابندرانات طاغور، ديانة الشاعر، ترجمة موسى الخوري وغسان الخوري، دار الغربال، دمشق.
١٤- د. محمد سليم سالم، الأعمال والأيام، هيزيود، تراث الإنسانية.
١٥- د. أحمد عبد الرحيم أبو زيد، عن طبيعة الأشياء، لوكريتيوس، تراث الإنسانية.
١٦- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، طرفة بن العبد، أبو الطيب المتنبي، عنترة بن شداد العبسي، البهاء زهير، الشنفرى، بيروت، لبنان.
١٧- لجنة من العلماء والأكاديميين السوفييت، ترجمة: سمير كرم، جيريمي بنتام، جون ستيوارت مِل، الكلبيُّون، دار الطليعة، بيروت.
١٨- د. علي درويش، الليالي، ألفرد دو موسيه، تراث الإنسانية.
١٩- فريدريك نيتشة، هكذا تكلم زرادشت، الملذات والشهوات، ترجمة: فليكس فارس، دار أسامة.
٢٠- الأستاذ علي أدهم، التأملات، ماركوس أوريليوس، تراث الإنسانية.
٢١- شبكة الإنترنت (باللغة العربية)، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، لقيط بن يعمر، البهاء زهير، الشنفرى، ابن النحوي.
٢٢- مجموعة من المؤلفين، زينون الرواقي، موسوعة المعرفة، المجلد الخامس.
٢٣- القديس متى، إنجيل متى، الاصحاح الخامس والسادس والسابع.
٢٤- إعداد: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، بليز باسكال، سقراط، دار الطليعة، بيروت.
٢٥- شبكة الإنترنت (باللغة الإنكليزية)، و. و. جاكوب، كف السعدان.
٢٦- عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، دار الكتاب العربي.
٢٧- فريدريك نيتشة، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي.
٢٨- إيليا أبو ماضي، الديوان، دار العودة، بيروت.
٢٩- د. عزيز سليمان، الآنسة جوليا، أوجست سترندبيرج، تراث الإنسانية.
٣٠- أوسكار وايلد، الزوج المثالي، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم.
٣١- مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفلسفية العربية، المدارس والمذاهب والاتجاهات والتيارات، السوفسطائيون.
٣٢- أندريه كريسون، شوبنهاور، ترجمة: أحمد كوَّى، دار بيروت.





رؤية مضللة للتقدم العلمي

*
ستيفن واينبرغ
**
ترجمة: موسى ديب الخوري

لقد شهـد مصطلح «النموذج paradigme» الـذي ظهر في الستينات نجاحـاً خاطفاً، لكنه سرعان ما أصبح شعـار تمثيل مؤذ للتقدم العلمي. إن النظريـات تتطور بالنسبـة لمؤلفه توماس كوهـن Thomas Kuhn وفق صـيرورة داروينية محرضها الوحيد هو حل مشاكل تنبثق بشكل مفاجئ. فما الذي صنعناه بالحقيقة الموضوعية للطبيعة؟

لقـد مضى ربع قرن منذ قرأتُ للمرة الأولى كتاب توماس كوهن الشهير بنية الثورات العلمية١. لقد كنا في بداية الستينات نحن الاثنان، كوهن وأنا، في

* حائز على جائزة نوبل في الفيزياء ** باحث ومترجم سوري
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

جامعة بركلي، لكننا لم نكن قد تعارفنا فعلياً. ولم أقدره وأُعجب به إلا فيما بعد عندما وصل إلى Massachusetts Institue of Technology. وقد بدا لي كتابه محرضاً جداً، ولم أكن أنا الوحيد بالتأكيد. لقد أثر في الواقع كتاب بنية الثورات العلمية على تاريخ العلوم أكثر من أي مؤلَّف آخر. وبعد وفاة كوهن عام ١٩٩٦ أشار عالم الاجتماع كليفورد جيرتز Clifford Geertz إلى أن كتاب كوهن كان قد «عمل كمفجِّر لانفجار اجتماعية المعرفة» في دراسة العلم. فقد لعبت أفكار كوهن بالتالي دوراً مركزياً في الجدل الحديث حول العلاقات بين العلم والثقافة، وهو ما سُمي بـ «حرب العلوم».

يصف كوهن في بنية الثورات العلمية تاريخ العلوم كصيرورة دورية. وثمة هكذا فترات «علم عادي»، تتميز بما أسماه حيناً «نموذج» وحيناً «قالب نظامي مشترك». وأياً كانت التسمية المختارة فإنه يستدعي فكرة إجماع وتوافق. وفي الواقع، في فترة علم عادي يميل العلماء إلى الاتفاق حول المسائل الأساسية: ما هي الظاهرات الموافقة، وكيف تُفسَّر، وما هي المسائل التي تستحق عناء العمل على حلها، وما هو حل مسألة؟ وتنتهي فترة علم عادي مع القدوم المفاجئ لأزمة- تجارب تعطي نتائج معارضة للنظريات الموجودة، أو تظهر تعارضات داخلية في هذه النظريات نفسها. وعندها يسود القلق والغموض، وتطبع أفكار غريبة الأدب العلمي. وبعد حين تحدث ثورة: فيهتدي العلماء إلى طريقة جديدة لرؤية الطبيعة، الأمر الذي يولد فترة جديدة من العلم العادي. إذ يكون قد تم تغيير «النموذج».

لنوضح هذه الرؤية من خلال حالة يعلق عليها كتاب «بنية الثورات العلمية» أهمية خاصة. ففي القرن الثامن عشر، وبعد أن كانت النظريات الفيزيائية لنيوتن قد فرضت نفسها بشكل واسع، انفتحت فترة علم عادي في دراسة الحركة والجاذبية. واستخدم العلماء في ذلك الحين النظرية النيوتنية لحساب مدارات الكواكب بشكل أدق فأدق. وقد حصلوا على نجاحات كبيرة، مثل التنبؤ الذي حصل في عام ١٨٤٦ بوجود نبتون وحساب مساره حتى قبل اكتشاف علماء الفلك للكوكب. ونحو نهاية القرن التاسع عشر ولدت أزمة جديدة من العجز في فهم سلوك الضوء.ومن جديد حل تغيير للـ «نموذج» المشكلة وذلك بفضل المراجعة الجذرية التي قام بها أينشتين بين عامي ١٩٠٥ و١٩١٥: فالحركة تؤثر في سيلان الزمن، ويمكن للمادة والطاقة أن تتحول إحداهما إلى الأخرى، وأخيراً فإن الجاذبية

هي انحناء للزمكان. لقد أصبحت نظرية النسبية لأينشتين النموذج الجديد، ودخلت دراسة الحركة الجاذبية في مرحلة علم عادي.

ويمكننا أن نتساءل بشكل طبيعي إلى أي حد توافق هذه النظرية الدورية للثورات العلمية ما نعرفه من تاريخ العلوم. لكنها لا تحمل في ذاتها شيئاً مقلقاً جداً. وفي كل حال فإنها ما كانت لتعطي مؤلفها مثل هذه الشهرة. وفي الواقع فإن ما ظهر ضرورياً جداً بالنسبة لبعضهم، وقابلاً للنقاش جداً بالنسبة للآخرين، هو إعادة اختراع كلمة نموذج (أو مثال) على يد كوهن. وفي الإنكليزية الشائعة فإن هذه الكلمة تعني إنجازاً نموذجياً يخصص كنموذج لأعمال مستقبلية. فبهذا المعنى إنما استخدم كوهن الكلمة في مؤلف سابق٢ مخصص للثورة العلمية الكوبرنيكية- وقد استمر من جهة أخرى في استخدامه بالمصادفة بهذا المعنى بعد ذلك.

وكان جيمس بريان كونان James Bryant Conant، رئيس جامعة هارفارد، أول من نقد الاستخدام الجديد لمصطلح نموذج. وكان كوهن قد بدأ مهنته كمؤرخ كمعاون لكونان مكلف بإعطاء دروس لطلاب المرحلة الأولى- وكان كونان قد طلب منه بخاصة أن يحضر دراسات حالات حول تاريخ الميكانيك. وبعد أن قرأ كونان مسودة لـ «بنية الثورات العلمية» لام كوهن قائلاً: «إن كل شيء يجري كما لو أنك وقعت في غرام هذه الكلمة، فكما لو كان الأمر يتعلق بصيغة سحرية قادرة على تفسير كل شيء وأي شيء كان». وبعد عدة سنوات لاحظت مارغاريت ماسترمان Margaret Masterman أن كوهن كان قد استخدم لفظة نموذج في أكثر من عشرين معنى مختلف. وفي العمق يبدو لي هذا الخلاف حول الكلمة فارغاً. فكوهن محق في القول إن التوافق العلمي لا يرتكز فقط على سلسلة من النظريات الواضحة. فإذا كان يجب وضع تسمية لمجمل المواقف والمواريث التي تتماشى مع فترة علم عادي، فإن لفظة نموذج تؤدي المهمة بقدر ما تؤديها لفظة أخرى غيرها.

وبالمقابل فإن أمراً آخر يكدرني عند إعادة قراءة بنية الثورات العلمية وبعض كتابات كوهن اللاحقة. إنها خلاصاته حول إنجازات العلم، وهي علامات ارتيابية عميقة. فقد جعلت هذه الخلاصات منه بطل الفلاسفة والمؤرخين وعلماء الاجتماع ونقاد العلم الذين، بشكهم بالصفة الموضوعية للمعرفة العلمية، يسرّون بوصف النظريات العلمية كتشييدات اجتماعية لا تختلف كثيراً

بشكل جوهري عن الديمقراطية أو عن لعبة البيسبول.

وكما يرى كوهن فإن المرور من نموذج إلى نموذج يشبه أكثر اهتداء دينياً منه اختياراً حراً لمنطقنا. وبرأيه فإن تغيراً في النموذج يقلب نظرياتنا بحيث أنه يصبح من المستحيل عملياً على عالِم، بعد إحدى هذه الثورات، أن يستطيع الوصول إلى الأمور بالطريقة التي كانت ترى بها تحت النموذج السابق. ويقارن كوهن مثل هذا التغير بالإيهامات البصرية هذه التي تبدو لنا فيها فجأة سلسلة من الأرانب البيض على خلفية سوداء مثل سلسلة من الماعز السود على خلفية بيضاء. ولكن التغير أعمق من ذلك بكثير بالنسبة له هو نفسه، لأنه يضيف: «إن العالِم لا يحافظ على الحرية نفسها مثل المتأثر بوهم بصري القادر على المرور بشكل متناوب من طريقة الروية هذه إلى الأخرى».

إضافة إلى ذلك فإن كوهن يزعم أنه ليست نظرياتنا فقط التي تتغير في الثورات العلمية، بل والمعايير نفسها التي نقدرها بها. وبالتالي فإن النماذج التي تحكم فترتين



متعاقبتين من العلم العادي لا تكونان متقايستين فيما بينهما. ولا يقف كوهن عند هذا الحد: فبما أن تغيراً في النموذج يؤدي إلى الترك الكامل للنموذج السابق، طالما أنه لا توجد معايير مشتركة من أجل الحكم على نظريات علمية طُوِّرت تحت نموذجين مختلفين، فليس ثمة معنى للقول إذاً إن النظريات المعَدَّة بعد ثورة علمية تُضمُّ مع المعارف المكتسبة قبلاً. فلا يمكن الحكم على نظرية إذا كانت صحيحة أم خاطئة إلا

داخل نموذج معطى. ويخلص كوهن في بنية الثورات العلمية إلى النتيجة التالية- بشكل عابر والحق يقال: «من أجل دقة أكبر، يمكن أن نصل إلى التخلي عن فكرة أن التغيرات في النموذج لا تنفك تقرب العلماء (والذين يتبعونها) من الحقيقة». وبعد فترة أطول أشار كوهن في محاضرة ألقاها في هارفارد عام ١٩٩٢ إنه من الصعب تصور ما الذي يمكن أن يعنيه حقاً التأكيد بأن نظرية علمية ما «تقربنا من الحقيقة».

فإذا كان كوهن يقبل بأن التقدم يمكن أن يوجد في العلوم، لكنه يرفض أن يكون هذا التقدم باتجاه أي هدف مهما كان. وهو يستخدم كثيراً مجاز التطور البيولوجي: فوفقه يشبه التقدم العلمي التطور كما كان يفهمه داروين، أي صيرورة غير موجهة نحو أي هدف. ووفقه فإن ضرورة حل المسائل العلمية تشكل محرك الانتخاب الطبيعي للنظريات. وخلال فترة علم عادي ينتهي الأمر بأن تنبثق مسائل غير قابلة للحل في إطار النظريات الموجودة. ومن هنا يتم تكاثر أفكار جديدة؛ والأكثر تأقلماً من بينها مع حل هذه المسائل هو الذي يبقى. وهكذا بحسب كوهن، كما أنه لم يكن ثمة ما هو محتم في ظهور الثدييات في الكريتاسي، ثم في استمرارها وبقائها بعد سقوط مذنب، كذلك فليس ثمة في الطبيعة ما كان يجعل تطور العلم باتجاه معادلات ماكسويل أو النسبية العامة أمراً محتماً. وبالتأكيد، فإن كوهن يعترف بأن نظريات ماكسويل أو أينشتاين أفضل من التي كانت تسبقها، تماماً كما أن الثدييات أظهرت أنها أكثر مهارة من الديناصورات لتستطيع الاستمرار بعد آثار صدمات المذنبات. ولكن الظهور التالي لمسائل جديدة سيحل محلها نظريات جديدة أكثر توافقاً مع حل هذه المسائل، وهكذا دواليك، دون أن ينتج من ذلك أي تحسين إجمالي.

إن تصديق الكذبة أشد صعوبة على العلماء الذين يعتقدون مثلي أن مهمة العلم هي أن يقربنا من الحقيقة الموضوعية. بالمقابل، فإن القائلين برؤية أكثر تشككية بمزاعم العلم يصفقون لذلك بحرارة. فمن وجهة النظر هذه فإن الاستحالة المفترضة لتقدير نظرية علمية خارج إطار نموذجها الخاص يجعلها على قدم المساواة مع أية رؤية أخرى للعالم، أكانت النجامة astrologie أم نظرية الخلق créationnisme. ويشير غياب المعيار الخارجي الذي يسمح بمحاكمة تغير للنموذج أن الثقافة هي ربما التي تفرض بالأحرى وليست الطبيعة المضمون على النظريات العلمية.

ولم يوافــق كوهــن نفســه دائمــاً على الاستخــدام الذي قام به آخــرون لأعماله. ففــي عــام ١٩٦٥ اعترض علــى الوصف الذي قدمه الفيلســوف بول فييربند Paul Feyerabend لبراهينــه علــى أنها دفاع عن اللاعقلانية في العلــم، الأمر الذي بدا لــه «ليس باطــلاً فقط بل وفاحشــاً بشكل أعمــى». وفي عــام ١٩٩١ ذكــر بحــزن في لقاء أجــراه معه الصحفي جــون هورغان John Horgan هــذه التهاني لطالب في الستينات: «شكراً لأنك حدثتنا عن النماذج، سيــد كوهن. فبمعرفة وجودهــا سنستطيع الآن تجاوزها». كذلك فقد ابتعد عما سمي «البرنامــج القوي» في علــم اجتماع العلوم، والذي يرتبط إعداده بشكل وثيق بمجموعة من فلاسفة وعلماء اجتماع العلوم المتخرجين من جامعة إديمبورغ Edimbourg. وهذا البرنامــج الذي تكمن «قوتــه» في تشككيته الجذريــة يريد أن يبين كيــف أن الرهانات والقوى السياسية والاجتماعية تحدد نجاح أو إخفاق النظريات العلمية. وذلكم ما قاله كوهن حوله في عام ١٩٩١: «إنني أنتمي إلى الذين يجدون لا طائل من تأكيدات البرنامج القوي. فالأمر يتعلق بحالة هدم خرقاء».

ومــع ذلك، فقــد أثبت كوهــن في جزء من نظريتــه للثورات العلميــة، مهما كانت تجاوزات المعجبين به، على راديكالية كافية وخاطئة تماماً برأيي.

فمن غــير الصحيــح بدايــة أن رجال العلــم لا يستطيعــون «المــرور بسهولة من طريقــة رؤية إلى طريقــة الرؤية الأخرى»، ويصبحون بعد ثورة علمية غير قادرين على فهم الحالات السابقة للعلم. فلنستعد حالة حلــول الميكانيك النسبــوي لأينشتاين محل النموذج النيوتــوني. فعندما نعلم فيزيائيين شباباً، يكون أول شيء نعلمهم إياه هو دائماً الميكانيــك النيوتوني الجيد القديم. وهم لن ينسوا أبداً طريقة رؤية الكون بمصطلحات نيوتونيــة، حتى بعــد أن يتعلمــوا النظرية النسبية. والبروفســور كوهن نفسه كان قد علَّم الميكانيك النيوتــوني لطلابه في السنة الأولى في هارفارد.

وللدفاع عن موقفــه، يؤكد كوهن أيضاً أن المصطلحــات المستخدمة في رموزنا وفي معادلاتنا لها معانٍ مختلفة قبل وبعد حصول ثورة علمية ما؛ وبرأيه كان الفيزيائيون مثلاً يفهمون أشياء مختلفة تحت مصطلح الكتلة قبــل وبعد ظهور النسبية. ومن الصحيح أن مفهوم الكتلة أصبح مشكوكاً فيه جداً خلال الثورة الأينشتاينية. وخلال فترة معينة جرى الحديث عن كتل «طولانية» أو «عرضانية»، والتي يعتبر أنها تتعلق بسرعة جسيم وتقاوم

التسارعات الموازية أو العمودية على اتجاه الحركة. لكن أمكن حل ذلك كله في النهاية. ولم يعد أحد اليوم يتحدث عن كتل عرضانية أو طولانية. وفي غالب الأحيان، نعني بمصطلح الكتلة «كتلة في حالة السكون»، الأمر الذي يشير إلى خاصية جوهرية للجسم غير مفسدة بالحركة. وهو معنى قريب جداً من المعنى الذي كان للكلمة قبل أينشتاين. فمعاني المصطلحات يمكن أن تتغير إذاً، لكن الأمر يتعلق في غالب الأحيان بإغناء وبزيادة في دقة تعريفها، بحيث لا يتم المساس بقدرتنا على فهم نظريات العصور القديمة للعلم العادي.

فلماذا توصل كوهن إلى الاعتقاد بأن علماء فترة معطاة لا يفهمون نظريات الفترات السابقة؟ ربما كان يجب أن نعزو هذا اليقين إلى تجربته الخاصة كمعلم وباحث في تاريخ العلوم. وفي الواقع كان عليه أن يواجه على الأرجح الطلاب والعلميين الذين كانوا، بتأثرهم بتمثيلات لاتاريخية، لا يعرفون المصادر الأصلية وكانوا مقتنعين بأن علماء الماضي كانوا يتصورون نظرياتهم بمصطلحات قليلة الاختلاف عن المصطلحات المستخدمة في كتبنا الدراسية. لقد أقنعني بشكل خاص كتاب كوهن المخصص لولادة النظرية الكمومية٣ أن ذلك بالضبط كان نوع الأخطاء التي ارتكبتها بمحاولتي فهم الأهداف التي كان ماكس بلانك Max Planck يريد الوصول إليها عندما أدخل مفهوم الكوانتوم.

كذلك فمن الصحيح أن العلماء المغمورين في فترة علم عادي يختبرون أعظم الصعوبات في فهم الأعمال التي أنتجها أسلافهم خلال الثورات العلمية السابقة. فنحن في غالب الأحيان غير قادرين على الشعور بشكل استدلالي بالانقطاع التصوري الناتج خلال ثورة ما. فعلى سبيل المثال، يصعب كثيراً على أحد الفيزيائيين المعاصرين أن يقرأ كتاب المبادئ لنيوتن، حتى في ترجمة حديثة عن اللاتينية. وهكذا فقد لزم الفيزيائي الفلكي الكبير سوبراهمانيان شاندراسخار Subrahmanyan Chandrasekhar سنوات عديدة لينقل منطق كتاب المبادئ إلى شكل يمكن لفيزيائي معاصر أن يستوعبه. وبالمثل، فإن المساهمين في ثورة علمية يعيشون تقريباً في عالمين مختلفين: فهم ينتمون في آن واحد إلى الفترة السابقة من العلم العادي، وهي في طريقها إلى الانهيار، وإلى الفترة الجديدة التي لا يفهمونها بعد تماماً. ولهذا يكون أقل صعوبة بكثير بالنسبة لعلماء يعملون في فترة علم عادي أن يفهموا

نظريـات نموذج قديم بأشكالها المنتهية بعد أن نضجت.

وهــذا هو السبـب أيضـاً في اهتمامي أعـلاه بالحديث عـن الميكانيـك النيوتني بالأحرى من الحديـث عن ميكانيك نيوتن. فنيوتن نفسه في الواقع يُعتبر ما قبل نيوتني في جوانب هامة مثـل أسلوب هندسته على سبيل المثـال. لقد قال جـون ماينارد كينز John Maynard Keynes إن نيوتـن لم يكن أول العلماء الحديثين، بل آخر السحرة. وفي الواقـع، لم تبلغ الفيزياء النيوتنية شكلها الناجـز إلا في بدايـة القـرن التاسع عشر بفضل أعمال لابلاس ولاغرانج إلخ. إن هذه الفيزياء الأخيرة -التي تسبق مع ذلك بقرن كامـل ولادة النسبيـة الخاصـة- هي التي نعلمها اليوم لطلابنا.

ويمكننـا أن نقول ذلك أيضاً عن إدراكنا لإلكتروديناميـكا جيمس كلـيرك مكسويل James Clerk Maxwell. فالكتاب الذي نشره ماكسويـل في عام ١٨٧٣ بعنوان بحث حول الكهرباء والمغنطيسية هو أيضاً صعب الولوج بالنسبة لفيزيائي معاصر. فهو يرتكز في الواقـع على فكرة أن الحقول الكهربائية والمغنطيسيـة تعبر عن توترات في جسم، هو الأثـير، والذي لم نعد نؤمن بـه اليوم. ومن وجهـة النظر هذه كان مكسويـل هو أيضاً ما قبل مكسويلـي. وكان أوليفييه هيفيزيد Olivier Heaviside، الـذي أعطـى لنظريـة مكسويـل شكلها الحديـث، يقول إن مكسويل لم يكن سـوى نصف مكسويلي. ولم تبلـغ النظريـة المكسويليـة -أي نظرية الكهرباء والمغنطيسية والضوء المرتكزة على أعمال مكسويل- شكلهـا المنجَز (المتخلص مـن مرجعيته الأثيريـة) إلا في عام ١٩٩٠، وهذه النظرية الأخيرة هي التي نعلمها اليوم لطلابنـا. وهم يتبعون بعـد ذلك دروساً في الميكانيك الكمومي، حيث يتعلمون أن الضوء مؤلف من جسيمات تدعـى الفوتونات وأن معـادلات مكسويل ليست سـوى تقريبات. ولكـن ذلك لا يمنعهم أبـداً من متابعة فهم الإلكتروديناميك المكسويلي ومن اللجوء إليه عند الحاجة.

وباختصار، فإن تقدير النظريات بعد أن تصل إلى نضجها، وليس في لحظة ولادتها، هو الـذي يسمـح بتحديد ما هـو التقدم العلمي. فإذا كان ثمة معنى ما للتساؤل عما إذا كان اجتياح انكلترا من قبل النورمانديين أمـراً حسنـاً أم سيئاً، فيمكننـا أن نحاول الإجابة بمقارنة المجتمعات الأنغلوساكسونية والنورمانديـة بأشكالها المتطورة- ولنقل في عهـد إدوار المعترف وهنري الأول. وبالمقابل

فإن دراسة معركة هاستينغز Hastings لن توضح مسألتنا هذه في شيء.

ومن الخاطئ تماماً أيضاً التأكيد على أن الثورات العلمية تقلب بالضرورة طريقتنا في برهان نظرية ما، مما يجر هكذا استحالة قياس النماذج. لقد شاركتُ خلال السنوات الأربعين الأخيرة بتغيرات ثورية في المفهوم الذي كان يشكله الفيزيائيون للمركبات الأساسية للمادة، أي الجسيمات الأولية. أما الثورتان العظميان في قرننا، النسبية والميكانيك الكوانتي، فهما سابقتان لعصري، لكنهما لا تزالان قاعدة لأبحاث فيزيائيي جيلي. لقد تغيرت أفكارنا كثيراً، أما عملياً فإننا لا نزال مستمرين في برهان نظرياتنا بالطريقة نفسها: فيتم الاعتراف بنجاح النظرية إذا ما أُسست على مبادئ عامة بسيطة وتأخذ بعين الاعتبار بطريقة طبيعية المعطيات التجريبية. ومع ذلك، فأنا لا أزعم أننا نملك بين أيدينا مرجعاً من القواعد والدساتير التي تملي علينا كيف نبرهن نظرية ما، ولا حتى أننا نملك فكرة واضحة تماماً لما تعنيه عبارة «مبادئ عامة بسيطة»، أو حتى الصفة «طبيعي». إنما أؤكد فقط وأياً كان الأمر أنه لم تحصل تغيرات مفاجئة في برهان النظريات. وفي كل حال، لم تحصل تغيرات بحيث أصبح من المستحيل مقارنة حقيقة النظريات السابقة والتالية لثورة ما.

وعلى سبيل المثال، كان على الفيزيائيين أن يحلوا في مطلع القرن مسألة الطيف الذري، أي الخطوط اللامعدودة الداكنة واللامعة التي تظهر في الضوء الصادر عن غازات ساخنة، عند سطح الشمس، وذلك عندما يحلل مطياف مختلف ألوانها. وفي عام ١٩١٣، عندما بيّن نيلز بور أنه كان بإمكان النظرية الكمومية أن تشرح طيف الهيدروجين، أدرك جميع الفيزيائيين أن هذه النظرية كانت نظرية واعدة إلى أقصى حد. وعندما تبيّن بعد عام ١٩٢٥ أنها قادرة على تفسير طيف أي ذرة كانت أصبحت هذه النظرية موضوع الدراسة الأول لكل فيزيائي شاب. وبالمثل، فإن نحو اثني عشر قياساً لكتل الإلكترونات والجسيمات المماثلة وعدة أنواع من الكواركات هي التي تشغل الفيزيائيين اليوم. فالقيم التي تم الحصول عليها لا تزال تقاوم أية محاولة لتفسيرها. وهكذا فإن نظرية جديدة ستأخذ بعين الاعتبار هذه الكتل في بنيتها سيتم الاعتراف بها فوراً على أنها تقدم كبير. لقد تغيرت المعطيات التي علينا تفسيرها، لكن أهدافنا ظلت نفسها.

ومــع ذلك فالأمــر لا يتعلــق بتأكيد أن شيئــاً مــا كان ليتغير في طريقتنــا لبرهان النظريــات. وفي الواقع فإننــا نجد أنه من المقبــول أكثر اليوم نظريــة فيزيائية ترتكز علــى مبدأ ثبات ما (مبــدأ الثبات يؤكد أن قوانين الطبيعة تظــل متطابقة من وجهات نظر مختلفة) من بدايــة القرن، عندما بدأ أينشتاين يقلق من ثبــات القوانين في حالة تغــير حركة المراقــب. لكن هــذه التغيرات تشهد على تطور وليس على ثورة. فكل شيء يتم كما لو أن الطبيعة كانت تؤثر علينا مثل آلة تعليمية. عندما يصــل أحد العلماء إلى فهم جديد للوقائع، فإنه يختبر سروراً كبيراً، وقد علمتنا هذه المشاعر على المدى الطويل أن نقدّر النظريات العلمية القابلة لتزويدنا بهذا السرور بفهم الطبيعة.

فإذا كانت استحالة قياس مختلف النماذج مفهوماً جذرياً، فإن ما هو أكثر جذرية فكرة أن التغيرات الثوريــة للنموذج لا تقربنا من الحقيقة. ومن أجل دعم هذه الفكرة، يقول كوهن إن كافة معتقداتنــا السابقة المتعلقة بالطبيعــة ظهر في أحد الأيام أنها مغلوطة. فلا شيء يسمح بالتالي بافتراض أن نظرياتنا المعاصــرة يجــب أن تفلت من هــذا المصير نفسه. ومــن الطبيعي أن كوهــن يعرف أن الفيزيائيين الحاليــين يستخدمون النظرية النيوتنيــة للجاذبية أو النظريــة المكسويلية للكهربــاء والمغنطيسية علــى أنها تقريبات جيدة يمكن استنتاجها من النظريات الأصح والأدق. لكننــا لا نعتبرها بالتأكيد على أنها ببساطة خاطئة تمامــاً، بالمعنى الذي نعتبر فيــه خطأ نظرية الحركة لأرسطو ومفهومه للنار كعنصر (مصدر اللهب). ويصف كوهن نفسه في كتابه حول الثورة الكوبرنيكية، دون أن يبــدو منزعجاً من ذلــك، كيف أن بعض العناصر المؤسِّسة للنظريات العلمية تستمر في النظريات التي تحل محلها. ودفاعه عن هذا التعارض في كتابه بنية الثورات العلمية ضعيــف للغايــة: فوفقــه ليــس الميكانيك النيوتنــي والإلكتروديناميــكا المكسويليــة، كمــا نستخدمهمــا اليوم، همــا النظريتان نفسهما اللتان كانتــا موجودتين قبل ظهور النسبية والميكانيك الكمومي. لماذا؟ لأنه كان غــير معروف في حينه أنهمــا لم تكونا سوى مقاربــات. فبالمثل القــول إن شريحة اللحم التي تأكلونها ليســت تلك التي اشتريتموها وذلك بحجة أنكم كنتــم تجهلون أنها كانت مليئة بالأعصاب.

وبشكل أكــثر جدية يجــب التوصل إلى تمييــز واضح بين ما يتغــير وما لا يتغير في الثــورات العلميــة. والحــال أن كتاب بنية الثــورات العلميــة لا يحقق هــذا التمييز.

ثمة في النظريات الفيزيائية الحالية جزء «صلب» (ليس بمعنى «الصعوبة» بل بمعنى «الديمومة»، كما هو حال العظام بالنسبة لعلماء الإحاثة أو الفخاريات بالنسبة لعلماء الآثار). ويتألف القسم الرئيسي من هذا الجزء الصلب من معادلات، من الموافق أن نضيف إليها تحديد القيمة العملياتية للرموز وتخصص أنماط الظاهرات التي تُطبَّق عليها هذه المعادلات. وهناك أيضاً جزء «رخو»: إنها رؤية الواقع التي نفسر بها لأنفسنا لماذا تعمل هذه المعادلات. وهذا الجزء الهش والرخو معرض للتغير؛ فنحن لم نعد نؤمن بتأثير مكسويل، ونعرف أن الطبيعة مكونة من أشياء أخرى غير الجسيمات والقوى كما كان ينظر إليها نيوتن، إلخ.

إن هذه التغيرات في الجزء الهش من النظريات العلمية تعدل أيضاً فكرتنا عن الشروط التي وفقها يكون جزؤها الصلب تقريباً جيداً. ولكن الأجزاء الصلبة من نظرياتنا تكون في مرحلة شبابها عبارة عن نتائج صلبة ونهائية. إن موضة القمصان التي تحمل معادلات ماكسويل تجازف حقاً بأن تنتهي يوماً. أما المعادلات نفسها فلا تجازف بأن تصبح خاطئة، وطالما وُجد علماء سيستمرون في تعليم الإلكتروديناميكا المكسويلية. لقد أعملت الفكر طويلاً، لكنني لم أفهم كيف يمكن القول إن ازدياد الدقة والسداد في الأجزاء الصلبة في نظرياتنا لا يقربنا بشكل شامل من الحقيقة الموضوعية.

ويمكن بالتأكيد لنظريتين متنافستين، يختلف جزآهما الصلبان ظاهرياً، أن يعطيا تنبؤات متشابهة. فمثلاً، كان الكثير من الفيزيائيين البريطانيين في القرن التاسع عشر، يحذون حذو ميخائيل فارادي Michael Faraday فيصفون الظاهرات الكهرمغنطيسية بمساعدة معادلات تتضمن الحقلين الكهربائي والمغنطيسي: بالمقابل، كان الفيزيائيون على القارة الأوروبية يتلاعبون بمعادلات -بالفعالية نفسها- تستدعي قوى تؤثر عن بعد. ولكن في هذا النوع من الحالات ينتهي الأمر عموماً بملاحظة أن سلسلتي المعادلتين تكونان رياضياً متكافئتين، حتى وإن كان يمكن لهذه أو للأخرى أن يكون لها نزعة أعم في نظرية لاحقة. وهذا بالضبط ما جرى بالنسبة للحقلين المغنطيسي والكهربائي بعد ظهور النسبية.

إن بعض عناصر تحليل كوهن حول تغيرات النموذج تنطبق في الواقع على الجزء الهش من نظرياتنا. لكن يبدو لي أن كوهن يبالغ في تقدير الدرجة التي يكون العلماء

الذيــن يعيشون في فترة علــم عادي سجناء نموذجهم فيها. فقد ظــل عدد منهم لفترة طويلة متشككاً فيمــا يتعلق بالأجزاء الهشة مــن نظرياتهــم الخاصة. ويبــدو لي، على سبيــل المثال، أن حكمة نيوتــن «أنا لا أطلق الفرضيــات Newton Hypotheses non fingo» كانت تعني، على الأقل جزئياً، أنه لا ينحاز إلى واقعية القوى الثقالية التي يُفترض أنها تؤثر عــن بعد أكثر مما ينحاز إلى صحة التنبؤات الناتجة عن معادلاته.

وأياً كان الأمر، فيمكن أن أقدم شهادتي حول هــذه النقطة: فــإذا كانــت نظريتنا الحالية حول الجسيمــات الأولية (النموذج المعيــاري) قد سجلــت نجاحــات مذهلة، فإن الفيزيائيــين المعاصرين ليسوا متعلقين بشدة برؤيــة الطبيعة التي ترتكز عليها. إن النموذج المعياري هــو نظرية حقول، بحيث أنه يعتبر المركبات الأولية للطبيعة على أنها حقــول -أي شروط للمــكان بمعزل عن أي اعتبار حول المــادة التي يحتويها- بالأحرى من اعتباره لها كجسيمات. وقد لاحظنا في هذه السنوات العشرين الأخيرة أن كل نظرية مؤسســة علــى الميكانيــك الكمومي وعلى النسبية تأخذ مظهــر نظرية حقول عندما تُجرى التجارب في طاقات منخفضة بدرجة كافيــة. ويعتبر معظــم الفيزيائيــين اليوم النموذج المعياري مثل «نظرية فعالة للحقول» تقدم عند سويات الطاقة المنخفضة مقاربة لنظريــة جوهرية لا تزال غير معروفة حتى الآن، والتي لا تستدعي ربما الحقول أبداً.

فــإذا كان هذا النمــوذج المعياري يشكل نموذج العلــم العادي الحــالي، فهو يشتمل على العديد من العناصر المناسبة، من بينها على الأقــل ثمانية عشر ثابتــاً عددياً، مثل كتلة وشحنة الإلكــترون، والتي تطلب الأمر ملاءمتها تعسفياً من أجل مطابقة النظرية مع النتائج. وإضافــة إلى ذلك فإن النموذج المعيــاري لا يضــم الجاذبيــة. فالنظريون يعرفــون بالتالي أن عليهــم اكتشاف نظرية أكثر إقناعاً، لا يكون النموذج المعياري الحالي سوى مقاربة جيدة لهــا. ومن جهتهم يعمل التجريبيون بــلا انقطاع لاكتشاف معطيات تتعارض مــع تنبؤات النموذج المعياري. وقد أُعلنت حديثاً على سبيل المثال نتائج تجربة تمت تحــت الأرض في اليابــان: وبنتيجتها تملك جسيمــات النيوترينو كتلاً، وهو ما لا تأخــذه النسخة الأصليــة للنموذج المعياري بعين الاعتبــار. فــإن كان البحث عن هذه الكتــل قد بدأ منذ سنوات عديدة، فقد كان منطلقــه هو وأبحاث أخــرى الشك التالي: مهما كانت النظرية القادمة المدعوة لتجاوز نموذجنــا المعياري الحــالي، فسيكون لديها

فرص جيـــدة لتتضمن وجـــود كتل ضعيفة للنيوترينو.

والأمثولـــة التي يجـــب استخلاصها من هذا المثال واضحة: فقد بالغ كوهن فعلاً في التأثير الذي يمارسه نموذجنا علينا، وخاصة الصفـــة اللاإرادية لاكتشـــاف اللاتشابهات والشـــذوذات خلال فترة مـــن العلم العادي. ويخطئ كوهن تماماً عندما يؤكد أن البحث عـــن أنماط جديدة من الظاهرات هو مهمة ليست من العلم العادي في شيء.

إضافة إلى ذلك، فإن رؤيته للتقدم العلمي تضعنـــا أمام لغز. ففي الواقع، لماذا نتمسك بالبحث؟ وإذا كانت نظرية علمية لا تتجاوز غيرهـــا إلا بتفوقها في حـــل مسائل تشغلنا اليـــوم، فلماذا لم نطرد ببساطة هذه المسائل مـــن فكرنا؟ ذلك أننـــا لا ندرس الجسيمات الأولية لأهميتها الجوهرية! فهي على عكس الكائنـــات البشرية مجردة تماماً بحيث أنكم لـــو كنتم رأيتم إلكتروناً واحـــداً لكنتم رأيتم الإلكترونـــات كلهـــا. فما يدفـــع العلماء في أبحاثهم هـــو بالضبط الشعـــور بأنه توجد حقائـــق يجـــب اكتشافها، حقائـــق تضاف بشكل نهائي ما أن يتم اكتشافها إلى المعارف البشرية.

عند قراءتي الأولى لكتاب كوهن، لم يكن وصفه للثورات العلمية هـــو الذي أدهشني أكثر بل معالجته للعلم العادي. ويبين كوهن في الواقـــع أن فترة علم عادي ليست مرحلة ركـــود في شيء، بل تمثل على العكس مرحلة أساسية في التقدم العلمي. وقد بدت لي هذه الفكرة شخصياً هامة في بداية السبعينات، عندما كانت تجري تطورات هامة في فيزياء الجسيمات الأولية وفي الكوزمولوجيا (علم تشكل الكون).

كان غموض رهيب يسود الكوزمولوجيا حتـــى نهاية الستينات. فـــكان كل عالم فلك وكل عـــالم فيزيـــاء فلكية مشـــاركاً بنسخته الخاصـــة، وكان يعتبر نســـخ الآخرين على أنها مجرد عقيدة صرفة وبسيطة. في إحدى مآدب العشـــاء في نيويورك عام ١٩٧٠، كان يجلس إلى جواري علـــى الطاولة الفيزيائي السويدي اللامع هانســـ ألففن Hannes Alfven؛ فاغتنمـــت الفرصة لكـــي أسأله إذا كانت بعض الآثـــار الفيزيائية التي كان خبيراً بها يمكن أن تحصل في بدايات الكون. فسألنـــي عندها إذا كنـــت أطرح السؤال في إطار نظرية الانفجار الكبـــير (البيغ بانغ)؛ وعندمـــا أجبته بالإيجاب، رفض بوضوح أن يمضـــي في النقاش إلى أبعد من ذلك. وكان هذا الانشقاق في الحديث قد بدأ بالتراجع ابتـــداء من عام ١٩٦٥، وهـــو التاريخ الذي اكتُشف فيه إشعاع الخلفية الكونية، وهو أثر

مـــن الفترة التي كان فيهــا عمر الكون نحو مليــون سنة. وقد أجبر هـــذا الاكتشاف كل واحد منـــا (على الأقل تقريباً) على التفكير بجدية ببدايات الكون.

وقد أمكــن القيام بقياســات قابلة لأن تثبت أو تنفي الجـــدالات الكونية، وسرعان ما اكتست نظرية الانفجار الكبير في أقل من عشر سنوات شكلها الحالي، وانتشرت بشكل واســع جداً بين الباحثين. كنتُ في بحث عن الجاذبيــة وبدايــة الكــون (الكوزمولوجيا) أنهيته في عــام ١٩٧١ أصــف كوزمولوجيا البيــغ بانغ بـ «النموذج المعياري»، وذلك لكي أميــز بوضوح واقع أنني لم أكن أعتبرها مثل عقيدة علـــى أي كان أن يقســم بولائه لها، بل مثل قاعدة مشتركة يستطيع الفيزيائيون وعلمــاء الفلــك انطلاقاً منهــا أن يناقشوا حساباتهم وأرصادهـــم الكوزمولوجية. وقد ظل بعض الفيزيائيين والفلكيين المحترمين، مثـــل هانســ ألففــن وفريد هويــل Fred Hoyle غير متفقين مع الاتجاه الذي أُجمع عليه فأصبح أكثر فأكثر عمومية. وقد هاجم بعضهـــم فكـــرة الإجماع نفسهـــا، مدافعين عـــن مثال نوع من الـــدرب المضيء للعلم في تطور دائم، حيث يتابـــع فيه الباحثون كلهم أفكارهـــم الخاصـــة ويمضـــي كل منهم في اتجاهه الخاص. لكن انقطاع الاتصالات بين العلماء يمثل أخطاراً أكبر بكثير من الاعتماد المبكر لإجماع سيظهر في النهاية أنه خاطئ. فالإجماع وحده يسمـــح للعلماء بأن يركزوا على الحسابات والتجـــارب القابلة أن تبين لهـــم إذا كانوا على صواب أو على خطأ وأن تحدد لهم، عبر الفرضيـــة الثانية، الطريق الذي يجـــب اتباعه باتجـــاه إجماع جديد. وهكـــذا يستشهد كوهن محقـــاً بقول مأثور لفرنسيس بيكون Francis Bacon يقول: «تنبثق الحقيقة بسهولة أكبر من الخطأ منها من العماء».

وكانت فيزيـــاء الجسيمـــات الأولية في بداية السبعينـــات تدخل هي أيضاً في فترة علم عادي.ولم يكن الشواش الذي كانت توجد فيه قبل ذلك ناجماً عن نقص في المعطيات، بل علـــى العكس تمامـــاً، من غيـــاب إطار نظري مقنع من أجل تفسير هذه المعطيات. وعندها أدى تقـــدم نظري وبعض التجارب الجديدة إلى إجماع بين فيزيائيي الجسيمات الدقيقة، والـــذي تجسد فيما نسميه اليوم، في هذا المجـــال أيضاً، النمـــوذج المعياري. ومع ذلك ظل بعضـــ الفيزيائيين متشككين بعض الوقت، مطالبين بتجارب إضافية من أجـــل إثبات النمـــوذج أو مترافعين لصالح تفسير آخر للمعطيـــات التجريبية. وعندما كنت أؤكد أن كل تفسير آخر للمعطيات بشع

ومصطنــع، كان بعضهم يرد أنه لم يكن على العلم غير إقامــة الأحكام الجمالية. وكانت هذه الإجابة ستضحك كوهــن، إذ بالنسبة له «يتجاوز دائمــاً فعل المحاكمة الذي يقود العلماء إلى رفض نظرية كانت مقبولة سابقاً المقارنة البسيطة لهــذه النظرية مع العالَم». يمكننا أن نأخذ بعين الاعتبار أية سلسلة من المعطيات في عدد كبــير جداً من النظريات المختلفة. والحسم لصالــح إحداها يجبرنا على تقدير هذا النوع من الأناقة والتجانس والعالميــة التــي تجعلها جديرة بــأن تؤخَذ جديــاً. وكوهن ليس أول من لفت نظرنا إلى هذه النقطة -فقد سبقه بيير دوهم Pierre Duhem وآخرون- لكنه فعل ذلك بطريقة مقنعة جداً.

وفي الوقــت الحالي تنتمــي معارضات النمــوذج المعياري بدرجة كبيرة إلى الماضي. ويعــترف العالم كله عمليــاً أن هذا النموذج يأخذ بعين الاعتبار بشكل صحيح الظاهرات المرصــودة. فنحن نعيش فــترة جديدة من العلــم العــادي؛ فالنظريــون يحسبــون ما يتضمنه النموذج المعياري ويقوم التجريبيون باختبار الحسابات. وكما يقبل كوهن نفسه بذلــك، فهذا نمط العمل الذي يمكن خلال فترة علم عادي أن يجعلنا نكتشف شذوذات تجبرنا على عبور الخطوة التي ستقودنا إلى ما وراء النموذج الحالي.

ومع الأســف، لم تكن هذه الرؤية المفيدة والبصيرة بالأحرى التــي كانت سبب شهرة كوهن. فالجزء الأكثر شهرة من أعماله يبقى وصفــه للثورات العلميــة ورؤيته للتقدم في العلوم. وتحديداً حيث يضل بشكل خطير.

فمــا الذي حــدث إذن؟ ومــا الذي قاد كوهــن خــلال حياتــه إلى هــذا التشكك الجــذري، إلى هذه الرؤيــة الغريبة للتقدم العلمي؟ ليس الجهل بالتأكيد. فمما لا شك فيه أنه استطاع أن يفهم أكثر من أي شخص آخر فصولاً عديدة من تاريخ الفيزياء. لقد اكتشفت مؤشراً حول فكر كوهن خلال المرة الأخيرة التي التقيته فيها. وكان ذلك في عام ١٩٩٢، خــلال احتفال في بــادو Padoue في إيطاليــا، وكان لإحياء الذكرى الأربعمئة للمحاضــرة الأولى التي ألقاهــا غاليليه في جامعة هذه المدينــة. وكان كوهن يروي أنه كان مدرســاً شاباً للفيزياء في عام ١٩٤٧ في هارفارد، وكان يدرُســ فيزياء أرسطو فأتاه حدســ: «كيف كان يمكــن لعبقريته المميزة أن تهجــره إلى هذا الحــد ما أن كان يلتفت باتجاه دراسة الحركــة والميكانيك؟ وبالمثل، إذا كانت عبقريتــه تهجره في تلك اللحظة، فلمــاذا أُخذت كتاباته حــول الفيزياء بهذه

الجديــة على مدى عدة قــرون بعد مماته؟ (..) وفجأة، تجمعت هذه الأجزاء في رأسي بطريقــة جديدة، بحيــث توضعت تماماً في مواضعهــا. وظللــت مذهولاً مــن المفاجأة، لأن أرسطــو بدا لي فجــأة فيزيائياً ممتازاً، إنمــا بطريقة لم أكن قد اعتقــدت أبداً أنها ممكنة».

وقد سألت كوهن ما الذي كان قد فهمه فجــأة بالنسبــة لأرسطو. فلــم يجب على ســؤالي، لكنه كتب لي ليخــبرني إلى أي حد كان لهــذه التجربة أهميــة بالنسبة له: «إن ما قلبته قراءتي الشخصية الأولى (لكتابات أرسطــو في الفيزيــاء) كان فهمــي وليســ تقديري لأعمالــه. وما جعل من هذا التغير أمراً عظيماً حقيقياً بالنسبة لي كان التحول الذي كان يعمله مباشرة في فهمي (وليس هنا أيضــاً في تقديري) لطبيعة النتائج العلمية، وبشــكل خاص جــداً لاكتشافــات غاليليه ونيوتن».

وقــرأت بعد ذلك بفــترة مقالة لكوهن، كتبهــا في عام ١٩٧٧، ويشــرح فيها أنه كان قد تعلم، دون أن يصبــح فيزيائياً أرسطياً، أن يحاكــم كما لــو كان أحــد الفيزيائيين الأرسطيــين، أي أن يــدرك الحركــة كتغير نوعي لجسم ما، مشابه لتغيرات نوعية كثيرة أخرى، بالأحرى منها حالة قابلة لأن تُدرَس لذاتهــا. ظاهرياً، فقد جعــل هذا الاختبار كوهن يعــي إمكانيــة اعتمــاد وجهة نظر كل رجل علــم ندرسه. إننــي أشك أن هذه اللحظــة كانت من الأهميــة في حياة كوهن إلى درجــة أنه أعد مفهومــه لتغير النموذج ابتداء من هذا المرور من الفيزياء الأرسطية إلى الفيزيــاء النيوتنية- أي المــرور (الذي أخــذ في الواقع قروناً عديــدة) من محاولة أرسطو إعطاء وصفاً نوعياً منهجياً ومطلقاً للطبيعــة إلى التفسيرات الكمية التي قدمها نيوتن لظاهرات مختــارة بعناية، مثل حركة الكواكب حول الشمس.

وفي الواقــع، كان الأمر يتعلق فعلاً بتغير في النمــوذج. لكــن يبدو أن كوهــن أراد أن يلصــق هذا النموذج علــى الثورات العلمية الأخرى كافة. ولهــذا فهو يتوافق تماماً مع وصفه لتغير نموذج مــا. فأولاً، من الصعب جداً فعليــاً بالنسبة لعالم معاصــر أن يضع نفســه في الإطار الفكــري لفيزياء أرسطو. وثانياً، فإن تأكيد كوهن على الخطأ اللاحق لــكل رؤيا للحقيقــة، إذا لم تكــن صحيحة للميكانيــك النيوتنــي أو للإلكتروديناميكا المكسويليــة، ينطبــق بــلا أدنــى شك على الفيزياء الأرسطية.

ولكن الثــورات في العلم لا تبدو موافقة لوصــف كوهــن إلا في حالــة الانتقال، في فهمنا للطبيعــة، من السوية ما قبل العلمية إلى العلم الحديث. فولادة الفيزياء النيوتنية

كانت بالتالي نوعاً من التغير الفائق للنموذج. ولكن لم يحصل منذ ذلك الحين أي تعديل في إدراكنا للحركة -لا المرور من الميكانيك النيوتني إلى الميكانيك الأينشتايني ولا المرور من الفيزياء الكلاسيكية إلى الفيزياء الكمومية- يوافق وصف كوهن لتغيرات النموذج.

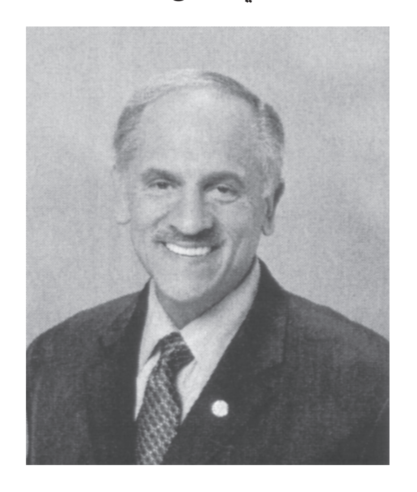
وخلال العشرة أو العشرين سنة الأخيرة من حياته، كرس كوهن نفسه للفلسفة، متعلقاً بشكل أدق باستكشاف معنى الحقيقة والواقع، وهما سؤالان كان قد طرحهما بشكل مختصر قبل ذلك بسنوات في بنية الثورات العلمية. وبعد موت كوهن، كتب ريتشارد رورتي Rrchard Rorty أنه كان «أكثر الفلاسفة الكاتبين بالإنكليزية تأثيراً بعد الحرب العالمية الثانية». والحال أن المواقف الفلسفية لكوهن تتسم بالتشكك الأكال نفسه الذي في كتاباته التاريخية. فقد أعلن مثلاً خلال محاضرة ألقاها في هارفارد عام ١٩٩٢: «إنني أشدد على واقع أنني لست بصدد الإيحاء بوجود واقع لا يستطيع العلم بلوغه. بل أريد بالأحرى أن أقول إن مفهوم الواقع، كما يطرح عادة في فلسفة العلوم، هو مفهوم من المستحيل إدراكه».

وفي رأيي، كان الفيلسوف البراغماتي شارل ساندرز بيرس Charles Sanders Pierce قد أوضح منذ أكثر من قرن معنى مفهوم الواقع. لكنني لست قادراً، لا ذوقاً ولا تربية، على الفصل في النزاعات بين الفلاسفة. ولحسن الحظ فليس ثمة ما يفرض على الفلاسفة أن يملوا كيف يجب أن تطبق حواراتهم على تاريخ العلوم، أو على البحث العلمي نفسه، ليس أكثر مما أنه ليس للعلماء أن يقرروا بأنفسهم استخدام اكتشافاتهم في التكنولوجيا أو الطب.

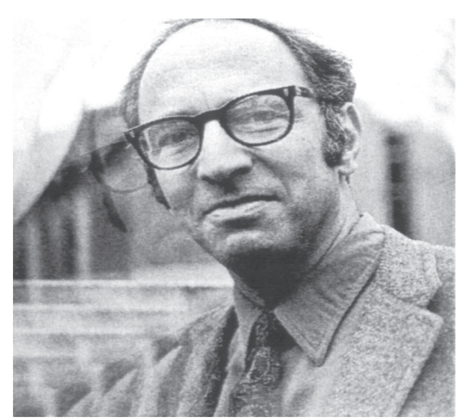
لقد قدمت في موضوع حديث نُشر لي ملاحظة بأن قوانين الطبيعة بالنسبة لي كفيزيائي هي واقعية بالمعنى نفسه (أياً كان هذا المعنى) لواقعية حصى على الطريق. وبعد بضعة أشهر، كانت هذه الملاحظة سبباً ليتهمني فيه الفيلسوف ريشار رورتي بأنني أعتقد نفسي قادراً بما أنني فيزيائي على أن أحسم بسهولة مسألتي الواقع والحقيقة، واللتين كرس الفلاسفة أنفسهم لهما منذ آلاف السنين. وهذا ليس مع ذلك موقفي. فأنا أعرف أنه من الصعوبة بمكان التعبير بدقة ما الذي نعنيه بكلمات مثل واقعي أو حقيقي. ولهذا، فعندما كتبت أن كلاً من قوانين الطبيعة وحصى الطريق واقعي بالمعنى نفسه للمصطلح، فقد تعمدت أن أضيف بين أهلة «مهما كان هذا المعنى». إنني أحترم جهود الفلاسفة من أجل إيضاح هذه المفاهيم، لكنني على يقين أيضاً أن

كلاً من كوهن ورورتي نفسيهما كانا قد استخدما أحياناً خلال حياتهما اليومية كلمات مثل واقعي أو حقيقي دون أن يطرح ذلك أي مشكلة بالنسبة لهما. فلست أرى أي سبب يمنعنا من استخدامهما أيضاً في بعض شروحنا حول تاريخ العلوم. إن الفلاسفة يستطيعون أن يؤدوا لنا خدمة كبيرة في محاولاتهم أن يوضحوا ما نريد قوله بكلمتي واقع وحقيقة. ولكن عندما يؤكد كوهن أنه يصعب عليه بما هو فيلسوف أن يفهم ما تعني اللفظتان حقيقة وواقع، فإن ذلك يبين أنه يعاني هو شخصياً من صعوبات مع هذين المفهومين، وليس أكثر من ذلك.

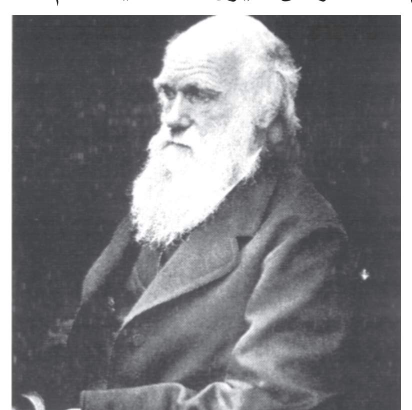
وفي الختام، أريد أن أصف فكرتي الخاصة عن التقدم العلمي. فكما سبق وقلت، يستخدم كوهن التحول الذي في التطور الدارويني: أي تحول التحسين غير الموجَّه نحو أي هدف كان. إن التحول ليس سيئاً شرط أن نعدل فيه تعديلاً طفيفاً: فتقدم الفيزياء يشبه تقدم التطور إنما بشكل تراجعي. فكما أن أصول البشريات والثدييات الأخرى ترجع إلى مخلوق أشعر من الحقب الكريتاسي، كان يبذل جهده للإفلات من الديناصورات، ومثلما على غرار هذا المخلوق ترجع الديناصورات كافة والحياة كلها على الأرض على الأرجح إلى «كرية ذرية قبيل بلازمية أولية»، كذلك فقد رأينا علوم البصريات والكهرباء والمغنطيسية تتصهر في عصر مكسويل لتشكل ما نسميه اليوم بالإلكترودايناميكا، ثم شهدنا خلال السنوات الأخيرة الإلكترودايناميكا تتصهر مع نظريات قوى طبيعية أخرى لتشكل النموذج المعياري للجسيمات الأولية. ونحن نأمل أن الخطوة الكبيرة القادمة إلى الأمام للفيزياء ستصهر نظرية الجاذبية وكافة فروع فيزياء الجسيمات الأولية في نظرية واحدة موحدة. وبهذا الهدف إنما نعمل ونصرف الأموال المساهمة. وعندما نكتشف هذه النظرية فإنها ستصبح عندها جزءاً من وصف حقيقي للواقع.



ولد ستيفن واينبرغ في عام ١٩٣٣، وكان زميلاً لتوماس كوهن في بداية الثمانينات عندما كان كل منهما أستاذاً في مؤسسة ماساشوستس للتكنولوجيا.

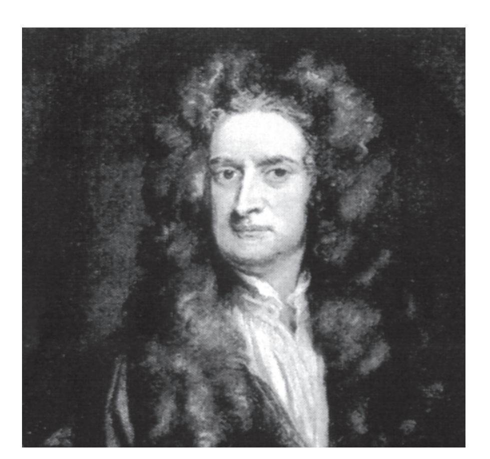


ولـد توماس كوهن في عام ١٩٢٢، وقدم أطروحة الفيزياء النظرية في جامعة هارفارد بعد الحرب مباشرة. وقد تُرجم كتابه الشهير الذي ظهر في عام ١٩٦٢ بعنوان بنية الثورات العلمية إلى خمس وعشرين لغة وبيع منه أكثر من مليون نسخة في العالم.

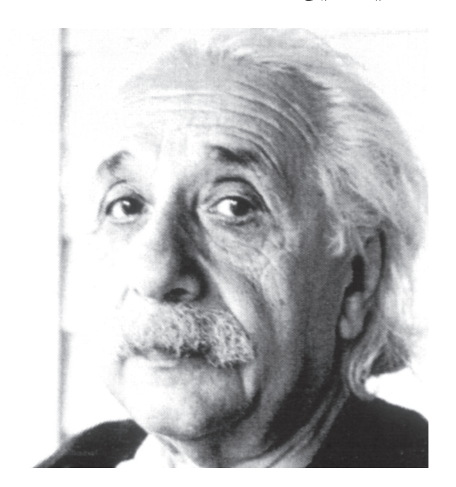


هل يمكن لمفاهيم أعدها شارلز داروين من أجل فهم تطـور الأنواع الحية أن تطبق على النظريات العلمية؟

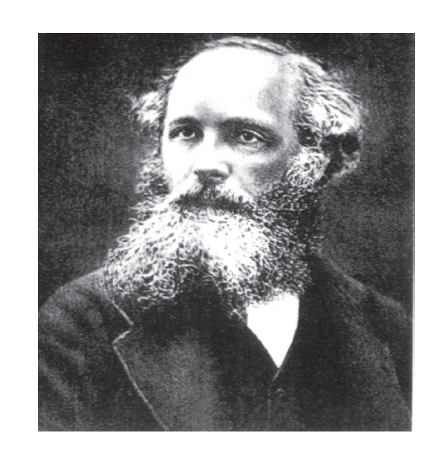
نيوتن



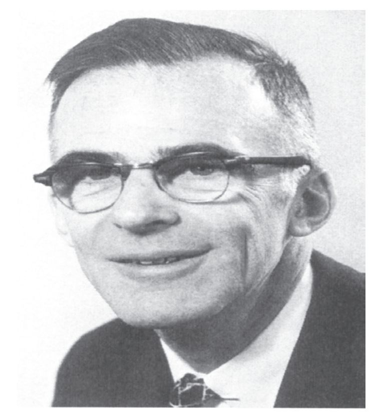
أينشتاين



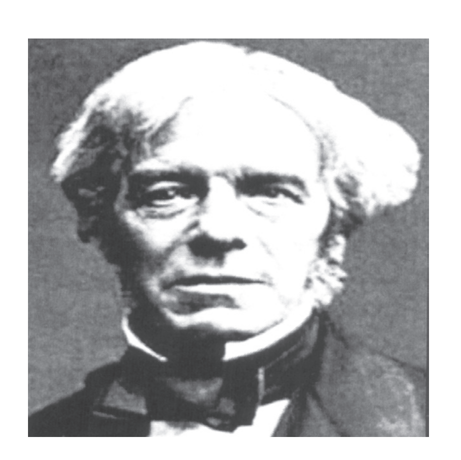
كانت أفكار نيوتن قد ولدت نموذجاً كان بشكله النهائي قد طبع الفيزياء كلها لمدة أكثر من قرن. وظهر نموذج جديد في بداية القرن العشرين بفضل أعمال أينشتاين، لكنه لم يمنع الميكانيك النيوتني من البقاء فعالاً ومن استمرار تدريسه حتى الآن.



لكي يعد نظريتـــه في الكهرباء والمغنطيسية قــام جيمس كلرك ماكسويــل في بداية عام ١٨٧٠ بالاعتمــاد على رؤية آلية لوسط، هو الأثير، حيث كانت الأمواج تنتشر مثل حركة تداخل. لقــد تم التخلي اليوم كلياً عن هذا التمثيل الذي يبدو لنا اليوم غريباً جداً، لكن المعادلات المستخلصة من أعمال مكسويل لا تزال معتادة ومستخدمة بين الفيزيائيين.



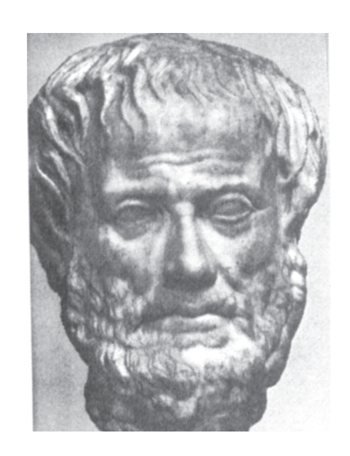
لا تختلف مواضيع فيزيائيي الجسيمات أبداً عن المواضيع التي درسها نيلز بور.



كان ميخائيــل فــاراداي هو أصــل مفهوم الحقــل القائم في قلب الفيزيــاء المعاصرة، لكن لا شيء يؤكد أن النظرية الأساسية التي يجب اكتشافها ستعتمد عليه.

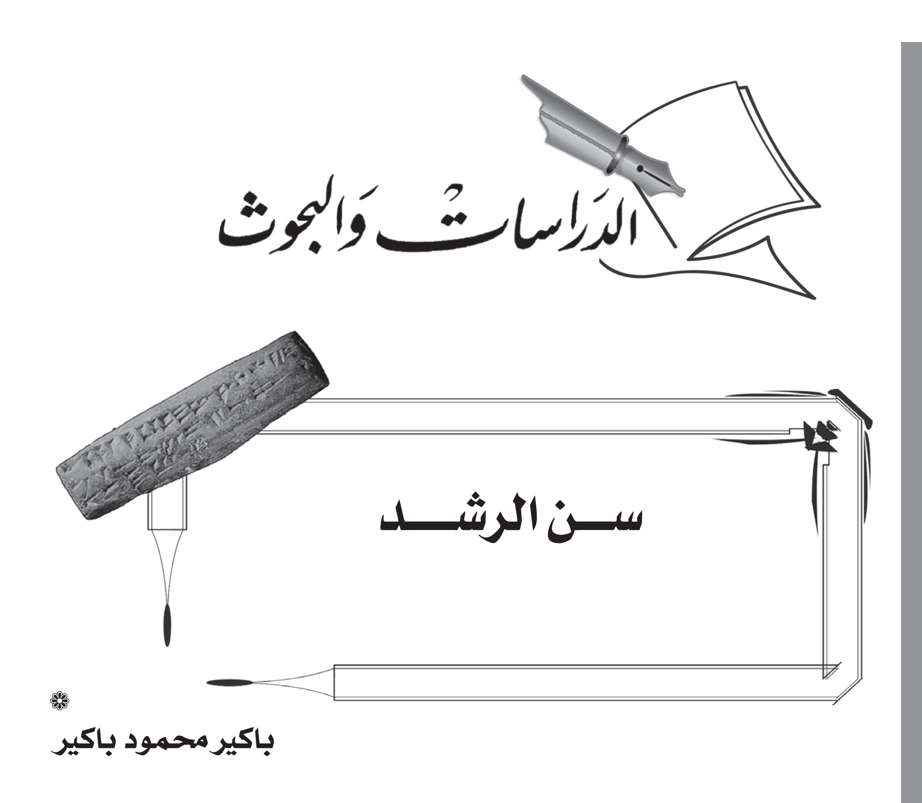


عــالم الفيزياء الفلكيــة فريد هويل هو أحد علمــاء الفيزياء الفلكية النادرين الذي قاوم منذ السبعينــات الإجماع الذي يشكل «النمــوذج المعيــاري» في الكوزمولوجيا، ألا وهو نموذج الانفجار الكبير.



إن دراســة نصوص أرسطــو هي أصل المنهج التاريخي والتربــوي لتوماس كوهن. ففي أحد الأيام بعد الظهر من عام ١٩٤٨، أدرك في الواقــع فجــأة أن أرسطو لم يكتب فيزيــاء نيوتنيــة رديئة، بل فلسفــة يونانية جيدة. وإمكانية المرور هذه من إطار فكري إلى آخر هــي التي قدمت لــه المادة الأولى لتحليله للثورات العلمية.





سن الرشد

❁
باكير محمود باكير

الحضارة تراث إنساني، بدأ منذ وعي العقل عند الإنسان، منذ بدأ يدرك أنه موجود. وأنه يتحرك في كل الاتجاهات في سبيل المحافظة على هذا الموجود، دون أن يُدرك معنى الحركة، ومعنى العمل في سبيل الحصول على الطعام وفي سبيل المأوى وفي سبيل البقاء.

فقد كان يسعى ويعمل باستمرار، وبشكل بدائي يشبه بقية الكائنات الأخرى، ولكن العقل عنده كان أعلى مرتبة من غيره، لأن العقل باستطاعته

❁❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمة

أن يُحــرّك الأشيــاء في البيئــة التي حوله لصالحه.

لقــد تطــور الإنســان خــلال مراحله العميقة في التاريخ نحو الأفضل. وفي سبيل الحصــول على الأفضل مــن كلّ موجودات الطبيعة التي حوله، والطبيعة مليئة بكل ما يحتاجــه من طعام ومأوى وملبس، ولكنها لا تخدمــه، بل هي طوع بنانــه، فكان عليه أن يستخدمها، لأنها جاهزة للعطاء بقدر ما هو جاهز للاستخدام.

يشارك في ذلك كلُّ الأجناس البشرية، كلُّ شعبٍ أو بالأحــرى كلّ فردٍ حسب إمكانياته وحسب حضوره في مجال الإبداع والتطور.

وبدأ الإنسان يتصالح مع البيئة والمحيط الــذي وجد فيه لصالحــه، وإذا لم تصالحه البيئة انتقــل إلى غيرها في سبيل الحصول على الأفضل.

تكونتِ الأســرُ وقامت القرى المتواضعةُ، وتحركت الزراعــة، وصنــع الإنسان بعض الأدوات التي تساعده في تنفيذ ما يريد من أعمــال يومية تعود عليه بمــردود أفضل و أكثر.

الأرض واسعة جــداً وتستطيع استيعاب ذلك المخلوق المبدع الذي هو الإنسان، ولكن حركَتــهُ كانت في كثير مــن الأحيان مضادة لطبيعــةِ الاستقرار والإنتاج، فكان مثله مثل الحيوان اللاحم الذي يرى فريسة جيدة بين يدي لاحم آخــر أضعفَ منه، فكان عليه أن يحصــل عليها عن طريق الغلبة، ذلك أسهل تناولاً له من مطــاردة فريسة جديدة. وكان الإنســان بالمقابل يزاحم شبيهَــهُ الأضعفَ، ليحصل بجهــد أقل على ما جنــاه الآخر. فكان الصــدام وكان العدوان وكان الاقتتال وبالتالي كانت الحرب.

وعلى مرِّ التاريخ تناوبتِ الشعوب الغلبةَ عنــد الأقوى ضــدّ الأضعــف، وكأن جذور إنسان الغابة أو حيوان الغابة ما تزال تعتمل في عقله الباطن خلال الأجيال المتعاقبة منذ وجوده على وجه الأرض.

وبالمقابل، فإن حب التعــاون مع أقرانه موجودٌ في طبعه، في سبيل الوصول إلى العيش الأفضــل. فــكان التجمــع وكان الاستثمار النباتي وكان الرّعــي، وكانت الزراعة وكان العمران في البيئة التي يتواجد فيها، وتعامل مع التربة وإنتاجهــا كما تعامل مع الماء وما يحتويه من إنتاج غذائي.

الإنســان ضعيف جــداً أمــام الطبيعة وجبروتها، وأمام مــا تحويه من بركان ونهر وبحر ومطر وقوى لا طاقة له بها، وأمام ما تحويه من وحوش كاســرة ومرعبة لا يملك القــدرة الكافية على ردهــا ومنع شرورها. كما أنه قــويٌّ جــداً إذا استعمل عقله ضد

الطبيعة أو تعاون معها، أو اكتشف وسائل الدفاع والردع ضد جبروتها وضد وحوشها.

الإنسان عطوف جداً مع أخيه الإنسان، وبالمقابل فهو وحشيٌّ جداً ضد أخيه الإنسان. فإذا تأزمت الوحشيّةُ في نفسه ضد الآخر، كان مدمّراً لا يقف عند حد حتى ينتهي من خصمه، وبدلاً من التعاون في سبيل العمران والمشاركة في الخبرات في كثير من مراحل التاريخ البشري، كان على النقيض من ذلك، يذهب إلى أبعد حدود الخراب والدمار والقتل، دون رادع من عقل أو قلب.

والتاريخ المُدوّنُ يعطينا كثيراً من الأمثلة المرعبةِ عن هذه المراحل، لأنها قريبة جداً منا بالنسبة لعمر الإنسان على الأرض، والذي يمتد لمئات الآلاف من السنين الخالية.

قد يكون هناك تصادم في المصالح بين الجماعات البشرية، وكل جماعة تعتقد أن الحق لها في ذلك، فيقع التصادم، والمنتصر يصل إلى ما يريد، حيث يعتبر ذلك حقَّهُ الذي حصل عليه، ويكون الدفاع عن الحق وعن المصالح المُغتصَبةِ مشروعاً عند المظلوم ضد الظالم الذي تطاول على حقوق الآخر، وتجاوز حدود منفعته.

إن القبائل القوية والكثيفة العدد والمتخلفة والجاهلة في الوقت نفسه، قد دمرت كثيراً من الممالك المتحضرة التي أقامت عمرانها ونظامها وتجارتها بعقلها الواعي، كما أسفرت أعمالٌ كثيرةٌ من الشعوب الهمجية عن تخريب الكثير من المناطق المتحضرة والتي كانت لقمة سائغة لأولئك الغزاة الذين أقبلوا من المجهول، يحملون معهم الطمع وحب الغنيمة والكسب لكل ما تصل إليه أيديهم، فيسمحون لأنفسهم باجتياح ديار العمران، وسلب كل ما تصل إليه أيديهم دون رادع من وعي ودون مبرر من ضمير.

لقد أطلق التاريخ على بعض أولئك الغزاة اسم (الفاتحين) ورفعهم إلى مرتبة الأبطال، ورفع أعمالهم إلى موقع الأمجاد التي تحققت على يدهم علماً، أنهم وصلوا إلى ما وصلوا تاركين خلفهم الدّمار وخراب العمران، وألوف المعذبين والمضطهدين والمشردين الذين باتوا بلا مأوى وبلا وطن، يقتلهم الجوع والمرض والحرمان وقد جُرِّدوا من أي عون ورحمة، وكأنَّ ذلك التصرف من قبل أولئك الطغاة حقٌّ طبيعيٌّ لا يجوز لأحد مراجعته ولا قول شيء فيه.

فإذا ما انقلبت اللّعنةُ، ووقع هو وقومه تحت كارثة مماثلة، من قبل خصم أقوى، ذاق الويلات نفسها التي أذاقها للآخرين، وعاش مأساة مماثلة.

إن الجهود المبذولة والإمكانيات الموضوعــة تحــت تصـرف ملك قــديم مثــل (كورشــ) مثــلاً من أجل السيطرة علــى العالم القديم وقهــره، والذي يقع إلى الغرب من عالمه هــو مثل بلاد مابين النهرين والأناضول ومصر واليونان، إن مثل هذه الإمكانيات كانت تكفي لإنعاش شعبه وإعمار بلده، وإطعام الألوف من الناس، ورفع سوية الحياة عند معظم شعبه.



كم تكلــّفَ الإسكندر من دفع الأمــوال، وإعــداد العتاد وتجهيز الرجال للاتجاه نحو الآخرين من أجل فتح البلاد ونشــر سلطانه في ديار ليست له ؟ ألم تكن تلك الإمكانيات المبذولةُ كافيةً لأن تعمر بلــده، وتوسع فيها الزراعة والتجارة، وتنشر فيهــا العلم والمعرفــة والعمــران ؟ ألم تكن قادرة على رفاه شعبه وإطعام الجياع في كل مملكته ؟ ثم هــل حمل معه هو أو غيره من الغزاة الطامحين لإظهار القوة، رسالة نبيلة أو ثقافة متميّزةً أو حضارة نيّرة يريد نشرها بين البشر الجاهلــين؟ أم أن حب السيطرة وحب إظهار القوة لإشباع طموحه دفعه لأن ينســاح في بلاد الآخريــن، مقتحماً كل بلد يقف في طريقه لأنه فاتح عظيم، والشعوب التــي وقعت تحت حوافر خيلــه كانت مادة أولية لتلبية طموحه وضحايا بريئة لأمجاده الحربية التي لا ترحم.

الجيش الذي يسير نحو هدف ما يحتاج إلى طعــام و كساء ومأوى وعتاد، فكان ذلك يقع علــى حساب المغلوبــين الذين يتكفّلون بمثل هذه التبعــات، فكانت تُصَادرُ الأرزاق من مواد للتموين ومن حيوان للحمل والنقل وإطعــام الجيشــ، وأحيانا تســاق الرجال لخدمة الغالب وللمشاركة في الحرب. وكثيراً

ما تقع النساء والأطفال في الأسر والسبي.

ومعظم الجيوش القديمة والحديثة كانت تسير وتترك خلفها الخراب والدمار للعمران وغيره وتترك المعاناة والعذاب للإنسان.

يقول التاريخ: إن زعيم قبائل الهون المغولية - أتيلاّ- دخل أوروبة القديمة قادماً من الشرق، وكان العشبُ لا ينبت تحت حوافر حصانه، أي إنه يترك الأرض خراباً، ومعه قبائله الكثيفة والمتخلفة التي لا تعرف الرحمة، وروايات التاريخ عن أعمال الغزاة والفاتحين كثيرة في الشرق والغرب.

انساحت قبائل الهون من أواسط آسيا - منغوليا - بقيادة جنكيز خان باتجاه الصين ثم باتجاه الغرب، تسقط الممالك وتفتح المدن، وتخرب العمران، وتسبي وتسلب ما تجده في طريقها، وأتى بعده أبناؤه وأحفاده مثل هولاكو وتيمورلنك ليكملوا زحفهم باتجاه الشرق القديم، ولم يكونوا يحملون معهم قيماً حضارية يريدون زرعها عند الشعوب المغلوبة بل كانوا مجرد غزاة أقوياء بجيوش كثيفة تقتحم ما تجده في طريقها، وتخلّفُ وراءها الخراب والعذاب. وتقود في عودتها قوافل محملة بما سلبته من البلاد المغلوبة وكأنها حق مكتسب وصلت إليه جيوشهم وجحافلهم، مثلما فعل تيمورلنك عند عودته إلى سمرقند.

كانت القسطنطينية عاصمة متميزة بعمرانها وعلومها وتجارتها وحضارتها في أوائل العصور الوسطى، وكانت عاصمة لدولة راقية في عرف ذلك الزمن - الإمبراطورية البيزنطية - دخلها الفرنجة القادمون من الغرب الأوروبي باسم الدين ليحتلوا الشرق ويخلصوه من المسلمين الذين كانوا بعرفهم - كفاراً - ولينقذوا بلد السيد المسيح من أيديهم. فكانت القسطنطينية لقمة سائغة بأيديهم وهي مسيحية مثلهم، ولكن تخلفهم وفقرهم وما رأوه من ترف في بلد لم يكونوا شاهدوه من قبل، دفعهم لنهبها، ولتخريب ما خربوه منها دون رادع من قيم أو أخلاقيات معينة، وهي بالأصل ليست هدفهم، وإنما كانت في طريق عبورهم نحو الأناضول للاتجاه نحو بيت المقدس فكانوا كارثة عليها بدل أن يكونا عوناً لها. وعادوا من حيث أتوا إلى بلادهم مكتفين بما غنموه من مدينة ليست هدفهم.

وإذا كنَّا موضوعيين فيجب أن لا نقفز فوق النزاعات والصدامات التي حدثت في المنطقة العربية والإسلامية بشكل عام.

وكانت بالأصل صـراع سلطةٍ ونفوذ قبل أن تكون صـراع دين ومذاهــب، وكان بعضهم يتخذ الدينَ ذريعةً لإثارة الحميّة عند الناس البسطاء وبين العامة كي يسيروا خلفه ويكونوا عوناً له في سبيل تحقيق مقاصده السياسية والسلطوية التي يسعى إلى تحقيقها.

وقد سُفكت دماء كثيرة إسلاميّة إسلاميّة، كما سفكت في أوروبــة دماء كثيرة مسيحيّة مسيحيّة. ولو كان العقل الإنساني يعي ذاته بشكل موضوعي ونبيــل، ويستطيع التحكم في نزواتــه غير المعقولــة، لأوقف الكثير من الصراعات ومن سفك الدماء، ولأحيا بلاداً كانــت بحاجة إلى حيــاة، في زمن يكثر فيه الجياع والمحاجون إلى مأوى ورعاية.

ولكن نزعةَ الأنــا المتورّمة عند الإنسان تجعلــه أحياناً يتجــاوز إنسانيــة الإنسان. وتدفعــه لارتكاب أقسى الحماقات التي هو وقومه وأقوام أخرى بغنى عن الخوض فيها ولا ضرورة لها.

العالم والفقيــه والمتعبِّدُ والكاتب والمفكر يحتاجــون إلى نوع من الاستقــرار النفسي والمــالي والبيئــي والاجتماعي كــي يقدّموا للآخرين إنتاج عقولهم المستنيرة من المعرفة والفضيلــة. وهــذا لا يتواجــد إذا امتلأت الساحــة بالفوضى والاضطــراب والصراع علــى السلطة، وخاصة إذا اختلطت الأوراق السليمة والمضللة وصار الطريق غير واضح المعالم.

قامت في أوروبة دولٌ ناشئة، استفادت من علوم الأمم المجــاورة والسابقة لها في العلم والحضارة مثل الإغريق والرومان والعرب. وبــدأت الدول القوية فيهــا تعمل على نشر أجنحتهــا على كثير من الشعــوب المجاورة بالقوة، ومحاولة كســب المصالح من حساب الآخرين، ودارسُ التاريخ يعرف ذلك.

وجاء نابليون يريــد الانسياح نحو العالم القريــب والبعيــد، ويريد تطويــع الآخرين بالقــوّة لصالحه، ووصلــت قواته إلى مصر وإلى شــرق المتوسط، ووصلــت إلى أطراف موسكــو في شرق أوروبــة، ولكنه عاد يحمل معه الخيبة وأحلام الانتصارات التي حققها في طريقه ضد بعض الشعوب. وما الغاية ؟ لقد كان صدامه صــدام مصالح، لا صدام دفــاع عن النفســ، ولا لنشر القيــم والمثل العليــا التي يحملها إلى العــالم، ولا لإحقاق حق مهدور أو إعادة سلام ضائع في متاهات الطموحات الخلبّية التي كان يحلم بها.

وذهب ضحية تلك النزوات والصدامات

ملايين الرجال من خيرة الشباب، ومن العديد من الشعوب التـــي أصابتها ويلات المعارك، تأكلهـــم الأوحـــال والأتربة والثلـــوج، ومياه البحـــار والأنهار، وكأنهم مادة أولية لا قيمة لها لصنع أحـــلام خيالية وإقامة انتصارات خلبيّة، تمـــلأ جماجم القـــادة الطموحين. ويدخـــل باريس عاصمة بلده ممتطياً صهوة جواده، حيث تستقبله الجماهير كبطل حقق لأمته الكثير من الأمجاد.

أمـــا الملايين الذيـــن ذهبوا بجـــرّةِ قلم بسيطة كافرة نتيجة حمقة وطموحه، وبكاء ملايين النساء على أرواح أبنائهن الراحلين، وخـــراب ألوف القـــرى والبلـــدان، وتدمير العمـــران، فهذا بعيد عن الحدث وبعيد عن التفكير أصلاً.

وتنـــاوب الملـــوك والقـــادة في أوروبـــة العنجهية نفسها أو ما يشبهها، هذا لي وهذا لـــك، وتبودلت الصدامات والاقتتال، وكانت المآسي المتبادلة، والعنف الذي لا مبرر له.

وجـــاء هتلر، وتحركـــت في نفسه عظمةُ الذّات، والأنا القاتلة، وظن أن الأعراق تتمايز بين جيد وأجـــود، وأغرته القـــوة الجامحة التي حملها في نفسه بعد أن امتلأت ثكناته بالجيوش، وامتلأت مخازنه بأسلحة الدمار، فـــكان أشدّ مـــن جنكيز خـــان، وأقسى من تيمورلنك. يريد وضـــع العالم المعاصر تحت جناحـــه، وبدأ يتمدد حتـــى وصل إلى أوائل الشـــرق وإلى أطراف موسكـــو، فما استطاع مضيّاً وانحسر مثـــل الآخرين، ولكن بكارثة أودت بعشرات الملايين من الجنس البشري، وبعشرات الألوف من المدن والبلدات والقرى المدمَّرَةِ، والتي صـــارت عبئاً على الإنسانية المنكوبة.

كان العالم الكبـــير والأرض وأممها بغنى عن كل هذه النزوات الكارثية القاتلة.

كل هـــذه الخسائر المذهلة، والإمكانيات المهدورة التي تعجز الأرقام عن حصرها. لو وضعت في خدمـــة البشرية، في خدمة العلم والحضارة، في إطعام جياع العالم، في عمران كوكب الأرضـــ الذي هو ملكنـــا جميعاً ولا يزاحمنا عليه آخرون من كواكب أخرى، كل هذه الإمكانيات لو وضعت في خدمة البشرية بوعي وعقلانية لكانت تكفي الجميع.

هـــذه النموذجيّةُ مـــن التفكير قد تكون غير مقبولة عند بعض العارفين، والتي هي أشبـــه بأحلام المدينة الفاضلـــة، ومع ذلك، لماذا لا تكون حقائق مدينة فاضلة، بدلاً من الأحـــلام. وطموحـــاتُ الإنسانية المعذبة ما تزال تخوض عذاباتها، وتمضغ آلامها أملاً في الوصـــول نحو الأفضـــل في حياة كريمة، مـــع السعي لعدم تحميـــل البشرية مثل هذه العذابات التي تثقل كاهلها.

القرن العشرون كان أكثرَ القرون كوارث وقعــت علــى الإنسانيــة، بما حمــل إليها من حــروب ومآسي ودمار ضـــد كل شيء. وبالمقابل، كان القرن العشرون القرن الوحيد الذي جعل العقل البشري يراجع ذاته، ففي القرن التاسع عشر أُوقفت تجارة العبيد، ولم يعــد الإنسان سائمةً تُباع في سوق النخاسة، وفي القــرن العشرين بــدأت البشرية تدخل (سن الرشد)

بعد الخروج من الأحداث الكارثية التي مــرت عليها، وبعد أن أدركــت أن ما تملكه مــن وسائل الدمــار والخــراب يمكنها أن تقضي على كل شيء حتى على الذات التي تملكها.

بــدأ العقل يستيقظ شيئاً فشيئاً، وبدأت المؤسســات الخدميــة الإنسانيــة والأممية تنمو رويداً رويداً، وتدخل في مجال التعامل الإنســاني مع بعضها ولو بشكل بطيء، بدلاً من التصادم اللا إنساني، وبدأ العقل البشري مراجعة الذات محاولاً وقف الجهل المدمر، وفتح الباب للوعي البنّاء.

إذاً، هــل بدأ العقل البشــري يعي ذاته، ويدرك صلاحيّةَ وجــوده على الأرض؟ هل بدأ ينتقل مــن الأنا المريضــة والمزيفة إلى مرحلــة الشمولية الرشيــدة والشاملة لكل أجناس البشر دون تمييز؟ على رغم حضور الرواسب المتخلفة في عقلية الإنسان الأرعن عند العديد من الجماعات. وهل بدأ الوعي الإنساني يدخل في بوابة الأخلاق الإنسانية المتحضرة؟ وهل بدأ يدرك المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه و التي تدفعه إلى الابتعاد عــن العدوان والدمــار بإيجابية توصله إلى الرشد والبناء وفتح المجال نحو الأفضل.

لقد استطــاع الإنســان أن يصنع أقوى آلات الدمار التي يمكنهــا أن تمسح الحياة العاقلــة وغير العاقلة من على وجه الأرض، لكــن جاهزيته ضعيفة علــى ما يظهر، لأنه سيكــون هــو نفسه مــن جملــة الضحايا، وبالتــالي لن يكون هناك من يقف سالماً على باب البيت.

لم يمضــ علــى دمــار أوروبــة أكثر من نصف قرن، حتى أخذت تتصالح مع نفسها وتتعامــل بالمشاركة المتكافئــة في سبيل بناء الغد، على رغم وجود الكثير من آثار الدمار الذي ألحقته الحرب العالمية بها. وعلى رغم حضــور الكثيرين ممــن عايشوها على قيد الحياة، ويحمــل الكثيرون منهم انطباعاتهم المريرة عنها وعن ويلاتها.

ويبدو أن شعــوب العالم كلها بدأت تنحو هــذا النحو، وتسعى للســير في سبيل سلام يعــم الأرض وعمران يفيــد الجميع، وثبت

للجميـع أن الفوارق اللونيـة أو المكانية أو العقائديـة بين بني البشـر لا تعني شيئاً في سبيل بناء غد أفضل إلاّ إذا خرج مجنون أو أحمق من القمقـم، وعند ذلك لا أحد يعلم ماذا سيكون.

يجـب أن تكـون الكلمة الطيبـة عابرةً للقارات، بدلاً من أن تكون الصواريخ عابرة للقـارات، كمـا يجب أن تقف حـدود الأنا المتعالية بالزيف والغـرور، عند حدود الأنا التي تحمل الرضى ومحبة الإيثار والتسامح. ويجب أن يكون العقـل المستنير أقوى بكثير مـن العقـل المتخلـف، وأن يكـون السمو الروحـي والمادي متلاحمَـين، حتى يضيئا طريق الخير.

لقـد احـترم التاريـخ خـلال المسيرة الإنسانية الطويلة كل أفعال وأقوال الأنبياء والحكمـاء والفلاسفة والشعـراء والأدباء. تلك التي كانـت شموعاً تضيء درب الحياة للإنسـان على الأرض. وسجـل التاريخ في سطور وصفحات المحبة وفي بنود العلاقات الإنسانيـة النبيلـة كلَّ الأقـوال والأفعـال الحكيمة التي ترفع وتحفظ كرامة الإنسان وترعى حضوره الإيجابـيَّ البنّاء في الحياة وترعى مصـيره بكل عنايـة، وأيّد كل فعل يرشد ويقود إلى سمو و رفعة الإنسان.

وبالمقابل لم يحترم التاريخ أولئك الطغاة الذين حملوا معهم الخراب والدمار للشعوب التي مروا عليهـا أو عـبروا أرضها. لأنهم تركـوا وراءهم خنـادق ومقابـر وحرائق، وحملـوا معهم غنائم إن سميناها غنائم. بل حملوا معهم أسلابـاً وسبياً وأسرى من بني جنسهم، حملوهم إلى مصير غامض وبائس ومخـزي. لا لشـيء ولا لجـرم ارتكبوه، بل لأنهـم كانـوا أضعف من الغـازي المهاجم، فوقعوا في حبائل البؤس والشقاء، وكان وراء ذلك خراب للعمـران وللحضارة التي جهد المنكوبون في إقامتها.

في حـين كان الحكمـاء يعتكفـون في الصوامع والزوايا، ينشرون التسامح والمحبة والإخـاء بين شرائح الناسـ البسطاء وغير البسطـاء، ويحملـون معهـم عنـاء الفقر والحرمـان في سبيل خير البشر دون تمييز. فكان منهم مصابيح تضيء درب الناس نحو الأفضل، وكانوا ينشرون الخير والتراحم، ولا يحملون معهم أداة لقتل أو خراب.

إن الكـرة الأرضيـة بضخامتها تشكل نقطة صفر أو أقـل في اتساع فضاء الكون المترامي، فهي أشبه بلا شيء في سجل الكون

الكبــير، ومع ذلك تحمــل على ظهرها ذلك المخلوق العجيب الذي هو الإنسان، صاحب العقل المفكــر والمدرك، والذي يحاول بعقله الذي لا يدرك أن يفسّر هذا اللاشيء وهذا الشيء.

وحضــور الإنسان على هذه الأرض أقل مــن نقطة صفر في سجــل الأرض الواسع، وهو يمــوت ويحيا، أي إنــه يتجدد بوجوده فــوق سطــح الأرضــ، وهو دائــم الحركة والبحث، دائــم التفكــير، دؤوب في حركته لا يهــدأ ولا يمل، يوجِد من الشــيء أشياء كثــيرة، ومن المادة التي حوله يصنع ما يفيد أعظم الفائدة، وما يضرّ أعظم الضرر. فهو قــادر على أن يجعل مــن الأرض جنة نعيم لــه ولأقرانه من بني البشــر، إذا تابع السير في طريق الخير للجميع. أما إذا غلبت على تفكــيره نزعة القبيلة البدائية، فهو شرّ على نفسه وعلى الآخرين.

إن مفاتيح الخير ومفاتيح الشر بيده، إنه يستطيع أن يجعــل من نفسه ملاكاً للرحمة مع الآخر، ويجعل من العلم والمعرفة النبيلة سلّماً إلى الصعود نحــو الأسمى، إذا تخلّى عــن نزعة الأنانية، وعن حبّ التكالب على المنافع والمصالــح التي هي من حق الجميع على الأرض، وليست من حقه وحده.

يستطيــع بــكل يســر أن يتواصــل مع بنــي جنسه من خلال العديــد من الوسائل المتاحة ويستطيع أن يدرك الخير والتسامح والتعامل بالمثل مع الآخريــن، ويستطيع أن يُسقِطُ الحقــد والكراهية مــن نفسه، وأن يكون كالمصباح الذي يضــيء فينشر ضوءه على كلّ مــن حواه وما حولــه دون حاجب ودون تمييز.

إن المستجــدات الحضاريــة قادرة على أن تجعــل من المجتمع البشــري أسرة كاملة بكل ما تعنيه العبارة من امتياز. الاتصالات السريعــة – المعلومــات المتوافــرة – العلم والمعرفة اللذان يمكنهمــا أن يدخلا أضيق النوافــذ لترشيد الآخريــن إلى الخير العام والمتبادل.

القناعــات الكاملــة بتكافــؤ القدرات عند العقل البشري بــكل أجناسه وألوانه و أماكن تواجــده إذا توافرت له سبل المعرفة وإمكانيات العلم.

إن التلاقي الذي يحدث بين البشر يقود بالتالي إلى التعــارف وإلى الخير العام، لأن الإخبــار القديم كان بطيئاً جداً وكان يحمل في طياتــه الظلــم والكذب وعــدم المعرفة بالآخر بالشكل الدقيق والسليم.

المؤتمــرات العالمية، اللقــاءات البشرية الواسعــة الانتشــار من خــلال المؤتمرات والمنتديــات – الألعاب الرياضيــة الواسعة التي تساهــم كثيراً في تلاقــي شباب العالم

وشعوبه مع بعضهم، ومن جميع الشرائح البشرية من أبيض وأسود وأصفر، مما يساعد كثيراً وكثيراً جداً في إزالة مفاهيم ومقاييس التفاضل أو التمايز البشري بين الأجناس والأعراق، ومما يساعد البشرية للوصول إلى التفاهم وإلى الوعي المعرفي الذي كان مفقوداً في السابق بين أجناس البشر.

إن التلاقي الحضاري والعلمي والتجاري يخلق مساحة من الود والتراحم والتآلف بين جميع الشعوب.

إن اللقاءات الرياضية الواسعة الانتشار بين شباب العالم وفي جميع القارات من خلال المنافسات الرياضية من أجل الوصول إلى الانتصار النبيل في دورات الأولمبياد أو ألعاب القارات أو غيرها، تخلق بين شباب الشعوب جميعاً نوعاً من التبادل واللقاء المعرفي والحميم في كثير من الأحيان، لم يكن يحدث في السابق، وبحيث تزول كثير من القناعات الخاطئة والمتوارثة في وجدان الأجيال السابقة.

إن الأدب بكل فروعه مثل الثقافة والمسرح والسينما والموسيقا والشعر والكتاب بكل أجناسه يكون صلة وصل نبيلة وراقية مع الآخر.

إن المواضيع الغامضة والمجهولة تخضع عند كثير من الناس لأسوأ التفسيرات، وبالتالي تظل معرّضة لإيصال ونشر أسوأ الاحتمالات، وخاصة عندما يكون الجهل هو الغالب عند الكثير من الناس.

إن الأمر الواضح والمعروف يفتح عند المستنيرين باباً واسعاً للحوار والنقاش في سبيل الوصول نحو الأفضل، وفي سبيل تجاوز الأسوأ، كما أن الاتصالات السريعة بين شرائح الشعوب أصبحت قادرة على كبح جماح النزوات الخاطئة التي تقود إلى الشر والعدوان والظلم، كما أنها قادرة على مد يد العون للجميع للمساعدة في المآسي والأحداث ولفتح الحوار والتشاور ومحاولة الوصول نحو الخير العام مثل السعي لكبح المجاعة والأمراض والعدوان، ومحاولة إزالة الفقر والتخلف في أي مكان على الأرض، والتي أصبحت مسافاتُها قريبة جداً على رغم بعدها الشاسع، بعكس الماضي الذي كانت مسافاته بعيدة جداً على رغم قرب المسافة الحقيقية وذلك بسبب صعوبة الاتصال وصعوبة المواصلات، وبسبب حاجز التخلف والجهل الذي كان يقف في كثير من الأحيان حاجزاً كبيراً في سبيل حل ما يمكن حله من متاعب الجنس البشري.

فهل تستطيع البشرية أن تمضي حثيثاً وبشكل عقلاني كي تصل إلى – سن الرشد؟

إضاءات:

١- مؤرخ المغول الكبير = رشيد الهمداني، د.فؤاد عبد المعطي الصياد

٢- الحروب الصليبية: المستشرق رنسيمان

٣- حروب صليبية في أوروبا: دوايت إيزنهاور

٤- الأساطير والأحلام والأسرار: مرسيا إلياد

٥- إضاءات من الذاكرة القديمة د.علي القيم

٦- الأجناس والشعوب: وليم بويد

٧- أسلافنا في عصور ما قبل التاريخ: د. سلطان محيسن





الإنسان ومسؤولية اللسان

عبد الباقي يوسف *

يتمتع الإنسان دون سواه من مخلوقات الأرض بلسان بليغ يمكن أن يرفعه إلى درجات متقدمة في صفوف البشر، ويمكن أن ينحدر به إلى درجات سفلى من درجات الخزي.

الإنسان هو لسانه، واللسان يمثل شخصية حامله، لكن ثمة إنسان يقود لسانه، وثمة آخر ينقاد خلف زلات لسانه، وهناك زلات لسان أحدثت وقائع وأحداثاً كبرى في التاريخ البشري، وكان أصحابها يرددون في محاولات

** باحث وأديب سوري.

العمل الفني: الفنانة ميسون علم الدين.

للتراجع عما قالــوا: إنها كانت زلات لسان. لكــن الناس يأخذون الأمر على محمل الجد حتى لو كانت بالفعل هي

زلات لســان حقيقيــة، لأن هذه الزلات لاتنطلــق من فراغ، ولهــا خلفياتها المخفية كما يتفضل علماء التحليل النفسي بتحليلها بتفاصيلهم المملة أحياناً.

لســان الإنسان هو مــن الألغاز التي ما تــزال البحــوث والدراســات، والتحليلات تــدور حولها دون أن تبلغ مرحلة الاستقرار، وحقيقة الأمــر إن كل بحث يقود إلى بحث آخــر، وكل بحث جديد هو فتــح باب أمام منهج جديد للبحــث عن أسرار هذا العضو العجيب الذي يتخصص به الإنسان ويتحمل مسؤوليته كذلك دون مخلوقات الأرض.

حكمة اللسان

يتميــز الإنســان الحكيم بأنــه أول من يصمــت، وآخر من يتكلــم، ويتميز الإنسان المتسرع بأنه أول من يتكلم، وآخر من يصمت. ولذلك يقال: إذا كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب.

يقول الشافعي:

احـفـظ لـسـانـك أيـهـا الإنـسـان
لا يـلـدغـنـك إنــه ثـعـبـان
كم في المقابر من قتيل لسانه
كـانـت تـهـاب لـقـاءه الأقــران

وهنــاك الكثير من الأمثلة الشعبية تشير إلى عظمــة مسؤولية اللسان، وتحذر الناس من ألسنتهم سواء أكانت مقصودة، أم كانت زلات، لأن الكلمة تذكّــر بصاحبها، ولذلك قالت الحكمــة الشعبية: /لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن خنته خانك/.

ربمــا لايعرف الإنسان قيمــة لسانه إلا إذا فقده، ولعل فاقد الصوت هو أكثر الناس قيمة لمعاني الكلمات.

يسعــى دي سوسّير نحــو تعريف للسان قائلاً بأنــه: نسق من العلامات المميّزة التّي تتوافق مع أفكار هي بدورها مميّزة.

ويــرى أن اللســان، من حيــث هو نسق اجتماعــي، عــن الــكلام بما هــو توظيف وممارســة فرديّــة. ففــي اللّســان يحذف «الجوهــر» السّمعــي والنّفســي، لكي يقع الاحتفاظ، في الأخير بـ الشّكل، أي العلاقات المتفاضلــة والمتقابلة بين عناصر سواء كانت صويتمات Phonèmes أو قواعد نحويّة. كما يفسر سوسير.

يتألف اللسان من أربع مناطق:

- أقصى اللسان.
- وسط اللسان.
- حافة اللسان أو حافتي اللسان.
- طرف اللسان.

وقــد ورد في الصحــاح بــأن اللســان: جارحــة الكلام، وقد يكنى بهــا عن الكلمة فتؤنَّث حينئذ.

عن بلال بن الحارث المزني أن النبي قال:

إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة. أخرجه البخاري. وكان علقمة يقول: «كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث».

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: **إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.** (أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما). وفي رواية لمسلم: إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

وفي حديث معاذ الطويل، قال النبي (صلى الله عليه وسلم): **ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ (قال معاذ: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه ثم قال: كفَّ عليك هذا. قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال النبي (صلى الله عليه وسلم): ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم.** أخرجه الترمذي في سننه وقال حسن صحيح، وصححه الألباني.

وفي حديث سهل بن سعد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: **من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة.** أخرجه البخاري.

وفي آخر حديث سفيان بن عبد الله قال في آخره: قلت يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه وقال: هذا. أخرجه مسلم.

أتحدث بشيء من اللغة القصصية عن شخص فقد صوته، سوف ندخل إلى عالم هذا الشخص وعلاقته بالكلمات. إنه شخص يكتشف أبعاد مسؤولية اللسان بعد أن يفقده. أروي القصة على النحو التالي:

مضت سنة بشهورها، وأسابيعها، وأيامها، وساعاتها، سنة بكامل تفاصيل ووقائع الحياة والاحتكاك مع الآخرين دون أن ينطق لسانه بحرف واحد.

سنة حياة انتقالية رحبة، حافلة بهيبة وقار الصمت، غنية بحكمة الإصغاء، خصبة بعذوبة التأمل.

سنة مجيدة شقّت أمامه آفاق تحوّل أكبر شطر بهاء حياة جديدة يدرك معالمها لأول وهلة.

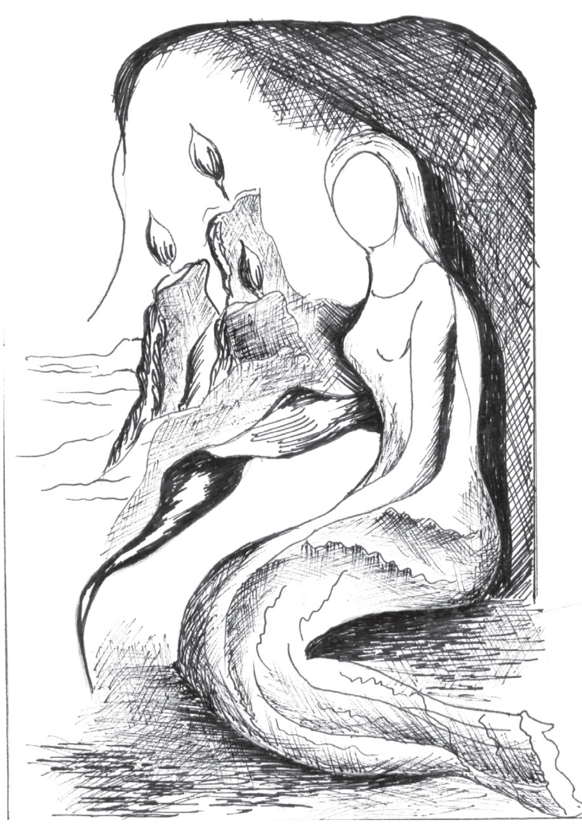
في دجى الليل انسحب من فراشه بهدوء تام تاركاً زوجته وابنه الرضيع /أُبي/ في الفراش.

مدّ خطواته بحذر صوب غرفة الأولاد حتى لاتستفيق زوجته من النوم وتلحق به كعادتها.

تأمل هيبة الصمت في عمق الليل، تقدم خطوات شطر النافذة، أزاح عنها الستار ليتراءى الظلام الدامس في الخارج.

عاد نحو غرفة نوم الأولاد، تسمرت به قدماه أمام الباب ككل ليلة. بعد قليل مدّ كفه المرتجفة إلى المقبض وولج الغرفة المكسوة بضوء أزرق خافت.

جلس يجول بنظره إلى فلذات كبده. /ماسة/ ابنته السمراء ذات السنوات الست تغور في نوم عميق إلى جانب أختها /آلاء/ ذات السنوات الـ (١٢).



في النصف الآخر من الحجرة يتمدد ابنه /آراس/ ذو السنوات التسع.

عندئذ تعلو حنجرته غصة جافة وهو يجول بنظره إلى مساحة الفراغ التي كانت مخصصة لفراش ابنه الأول /بهاء/ ذو السنوات الـ (١٥).

فاضت عيناه بدموع غزيرة وهو يغالب الغصة التي تحجرت في حنجرته، وكالعادة فاقت زوجته على نشيج /أُبي/، وضعت حلمة ثدي في فمه، ونهضت حاملة إياه متجهة إلى غرفة نوم الأولاد.

جلست بجانبه وهي تنظر برهبة إلى موضع ابنها الفارغ، ثم صدر منها نشيج خافت، وغدت تمسح الدموع من عينيها.

عندما غفا ابنها، وضعته على الأرض، ثم نهضت تغطي أولادها بشكل جيد وعادت تحمل رضيعها وهي تهتف بنبرة محتقنة: البرد قارس يابزم، لاأحد لنا غيرك ياعمود البيت.

نهض بزم وخرج مع زوجته، وعادا إلى غرفة نومهما.

كانت الساعة إذ ذاك بلغت الثالثة والنصف فجراً.

تمدد بزم في فراشه وهو لايدري كيف ومتى غفا عندما أيقظته زوجته في السابعة صباحا حتى ينهض ويتهيأ للذهاب إلى وظيفته بباص الدائرة الذي سيقف أمام باب البيت بعد نصف ساعة، وإن لم يجده سائق الباص /قدري/ أمام الباب سوف يستخدم المنبه المرتفع الصوت، ويزعج الجيران في تلك الساعة الباكرة، ولذلك تقول زوجته: أسرع يا بزم قبل أن يصل /الدُبّ/.

بعد إطلاق المنبه بصوت مرتفع، يقذف /قدري/ جسده بسرعة ويضغط على زر جرس الباب، ولايرفع إصبعه حتى تقع حدقتاه على هيأة بزم، وكعادتها سوف تدخل جارتها /سُجى/ تعاتبها بشدة لأن منبه الباص أزعجها وأيقظها من لفائف نوم عميق، وجعل أطفالها الصغار ينتفضون من النوم كالمصعوقين. تقول لها معاتبة: الدنيا لاتخرب إذا فاق جارنا بزم -عافاه الله- قبل دقيقتين.

كل هذه المشاهد التي اندفعت إلى ذاكرته، جعلته يسارع في النهوض من الفراش.

تهرولت به خطواته صوب (بيت الخلاء)، بعد قليل خرج واتجه إلى المغسلة، مدَّ يده إلى قطعة الصابون، وبدأ يغسل يديه، عندئذ تسربت منه نظرة إلى المرآة، توقف عن غسل يديه، وراح يتلمس ذقنه محاولا التذكر إن كان قد حلق ذقنه صباح البارحة أم لا، لأنه اعتاد أن يحلق ذقنه كل يومين.

صفق بكفيه حتى وصلت زوجته مسرعة، فأدركت أنه يريد معرفة إن كان قد حلق ذقنه صباح البارحة أم لا؟

هزت رأسها نحو الأسفل وهي تقول بثقة: لا ياروحي.

ألقى نظرة إلى رحابة وجهها المشرق، وكأنه يكتشف فيه لمسات جمالية للتو، أحس بأن الوجه مدّ قلبه بطاقة من الانتعاش، ابتسم وهو ما يزال ينظر كأنه يريد أن يأخذ المزيد من جرعات الانتعاش.

همس في نفسه: كم هو محظوظ الرجل الذي يحظى بامرأة طيبة كهذه.

ثم كرر ذات الجملة التي يكررها لنفسه دائماً: إنها المرأة التي اختارها الله لي.

دنا منها وطبع قبلة على جمالية الخد.

بادلته هي الأخرى القبلة متمتمة: كنتُ أحضر الفطور على قلق قبل أن يصل / الدب/ ويجلد أسماع الجيران بصوت زموره المزعج.

عادت إلى المطبخ مسرعة، وقبل أن تصل العتبة صدر نشيج

/أُبي/. هرولت إليه، حملته بيد وعادت إلى المطبخ مادّة يدها الأخرى إلى ركوة القهوة

حتى تسخن فيها الماء الذي يحلق به زوجها ذقنــه، عندئذ لفت إبريق الشاي -الذي بدأ يصدر تنبيه الغليان- سمعها ونظرها، وقبل أن تــزوّد الإبريــق بالشــاي، سكبت منه في الركوة، وسارعت نحو المغسلة.

صبّت الماء في كأس عدة الحلاقة، وعادت ثانية إلى المطبخ.

مــرّغ فرشاة الحلاقــة بقطعة الصابون لأنــه اعتــاد أن يستخــدم الصابــون بدل معجون الحلاقــة، ويستخدم مكنة الحلاقة البلاستيكيــة حتــى يــرى الصــدأ عليها، ويتحسس بأنها باتــت تقلع الشعر من ذقنه بدل الحلاقة، عندها فقط يستبدلها بواحدة جديدة، حتى يوفر قليلاً من الإنفاق.

فــرغ من حلاقة ذقنه بشيء من العجلة، وعــاد يجلســ في الصالون بجانــب مدفأة المازوت القديمة يدفئ يديه.

دخلــت زوجتــه حاملة سفــرة الفطور، وعــادت على عجل لتجلب ابنها الذي يبكي في المطبخ.

أحس بشهيــة لتناول الشاي الساخن مع الجــبن، والباذنجان المكدســ، ودبس التمر السائــل، والزيتون، والزعتر، ورغيف الخبز الــذي قمّرته /ريماس/ بوساطــة شوّاية الـ /ماريا/.

وضع لقمة جبن في فمه، ثم رشف رشفة من الشاي الساخــن مستمتعاً بنكهة الطعم اللذيذ ومتذكراً في الوقت عينه كيف أنه كل سنة في شهر نيســان يذهب إلى دكان جاره /حنون/ الذي يبيع الجــبن القادم إليه من القرى والأرياف.

يترك بزم أوانيه الفارغة في الدكان ريثما يؤمّــن له /حنون/ طلبه مــن الجبن الممتاز والمكفول مثل كل سنة.

بعــد نحــو يومــين يتصل به جــاره في السادســة صباحــاً وهو يخبره بــأن مونته من الجبن جاهــزة بانتظاره، وعليه الإسراع قبــل أن يدخل أحد /الأحبــاب/ ويحرجه بشرائه، لأن منظر الجــبن الناصع البياض والموضــوع في الأواني يجعل الزبائن يصرّون عليه بالذات دون غيره، ويسببون له إحراجاً شديداً لأنهم قد لايصدقوا بأنه مباع، أو أنه فضّل عليهم زبوناً آخر.

وقبل أن يغلق السماعة يشدد في القول: رجائــي أستاذ بزم اعفني من إحراج زبائني وأحبابي.

يطلع من البيت على الفور ببيجامة النوم حاملاً قيمــة الجبن، يتقدم من باب الدكان الشعبي تسبقــه نظراتــه إلى الناس الذين يتدافعون إلى الباب.

نســوة قادمات من قرى بعيــدة وقريبة يحضرن بوساطــة سيــارات قروية قديمة مكتظــة بالوحل، يُنزلن أواني الجبن، فيهرع إليهــن الزبائن، يتقدم حنــون، يحمل الآنية

ويضعهـــا في كفة الميزان، ثـــم يسجل وزنها على عجل في دفـــتر الحسابات، وينتقل إلى غيرها منهمكاً وسط أصوات الزبائن الذين يصـــرون علـــى أواني بعينهـــا دون الأخرى، فيضطـــر أن يقول بأنها مباعـــة مسبقاً، أو أنها توصية خاصة.

يصل بـــزم باب الدكان وهـــو ينظر إلى النـــاس يتدافعـــون للحصـــول على الجبن الممتاز المتماســـك، بينما يضع حنون القطع الرديئة والمفتتـــة والداكنة اللون على منصة حتى يبيعها فيما بعـــد إلى أصحاب المخابز التي تبيع المناقيش كوجبات سريعة.

عندمـــا تقع عينا حنون على بزم، يصرخ بابنه الذي يساعده في الدكان: جبن الأستاذ بزم يا ولد بسرعة.

يجر الصبي الأواني المكتوب اسمه عليها بواسطـــة قلم /الشنيـــار/ بخفة وسرعة إلى الخـــارج، يضعها على الرصيـــف بعيداً عن الأقدام.

عندئـــذ يستعـــين بأحـــد الصبية حتى يساعده في حمل الأواني إلى البيت، وعندما يفرغ الصبي من المهمة، يعطيه ورقة نقدية، يتناولهـــا (الصبـــي الذي يكون أحـــد أبناء الجوار الأغلب) بشيء من الاستحياء.

تستلـــم ريماس جـــبن مونتهـــا السنوية شاكرة زوجهـــا على جهده المبذول في تأمين هـــذه المونة السنوية الثمينة التي تقول بأنها عمود المطبخ الفقري، وتقول: المطبخ الذي فيه جبن، فيه كل شيء، والمطبخ الذي ليس فيه جبن، لاشيء فيه.

تتركه كخطوة أولى في ذات الأواني حتى يتخلـــص ما أمكن من المـــاء، وحول العصر بعد أن يعود زوجها ويتغدى ويغفو القيلولة، تبدأ في تقطيع الجـــبن إلى شرائح، ثم تقوم بتمليح الشرائـــح واحدة واحدة بشكل جيد، وتتركه مملّحاً في إناء كبير ضخم لمدى ثلاثة أيام متتاليـــة حتى يتشرّب الملح بشكل كاف، وتقسو شرائحة.

عندمـــا تثق بأنه غـــدا مكتملاً للمرحلة المقبلة، تستعين ببعض قريباتها، أو جاراتها حتـــى يساعدنها في غليه، وبعد أن تفرغ من الغلي تتركه حتى يـــبرد مستغلة هذه الفترة كي تجهّـــز الماء المغلي المملـــح الذي يحفظ الجبن في العبوات التنكية.

بعـــد أن تتلمـــس شرائح الجـــبن وتتأكد بأنه برد جيداً، ترصفـــه في العبوات بشكل متناسق وقويم، ثم تسكب ماءً بارداً في إناء، وتضع فيه بيضة نيـــة طازجة، تسكب الملح حتى ترتفع البيضة من قعر الإناء، ويطوف نصفها على سطح الماء، عندئذ تكتفي بالملح، وتغلي الماء،ثم تتركه كي يبرد بشكل جيد.

في اليوم التالي تنتقل إلى المرحلة النهائية، فتسكب الماء على الجبن حتى تمتلئ العبوات الخمس على الأغلب.

تــترك ذلك يومــين حتى تــرى النقص الــذي يحــدث في الماء، فتزيــده، ثم تحكم التنك بأغطيتها جيداً، وتمرر على الأغطية المعجــون الحديدي اللاصــق الذي يحجب عنها دخول الهواء.

بعد عــدة أيام يجلب /بــزم مير عقل/ سيارة أجرة ويأخذ العبوات إلى براد المدينة، يضعها هناك برسم الأمانة، كي يستخدمها واحــدة واحدة، وأحياناً يبقى أسبوعين دون جــبن بين انتهاء عبوة وأخرى كي يحن إليه، حتى يأتي على العبوة الأخيرة في شهر آذار، ويعيد الكرة مرة أخرى.

حين فرغ من ارتــداء ثيابه وراح يرتدي حذاءه، عندئذ فطنت زوجته بأنها نست أن تنظف الحذاء وتلمعه، فهرعت مسرعة وهي تعتذر عن نسيانها.

في تلــك اللحظــة تناهى صــوت منبه الباصــ، وبعد لحظات، تناهى جرس الباب دون توقف، فقالت: أسرع رجاءً، إنه الدب.

ارتدى الحــذاء قبل أن ينشــف من أثر المعجــون الملمــع، وفتح البــاب على عجل ليسمع صــوت السائق /قدري/ معاتباً إياه: لو فقــت قبل خمس دقائق يــا أستاذ /بزم مير عقل/ لوفرت علينا وعلى الأساتذة هذا التأخر على الدوام.

رفــع كف الســلام على زملائــه الذين يجلســون في مقاعدهــم، وراح يجلس على المقعد المخصص له.

في تلك اللحظات ومــع انطلاق الباص راودتــه رغبة فيما لــو سدّ أذنيــه، وأغلق عينيــه أيضاً كي لايرى ولا يسمع شيئاً حتى يقف الباص بجانب رصيف مديرية الشؤون الاجتماعية والعمل.

نزل من الحافلة بتــؤدة، وقف قليلا في الشارع يتأمل الضباب، وبعض الحركة التي أخذت تدب بالقرب منه.

مد خطوات متزنة صــوب باب الدائرة الحديدي الضخم.

تلقاه المستخدم /ظرّوف/ قائلاً: صباح الخير أستاذ بزم.

أجابه بترحاب: أهــلا وسهلا ظرّوف.. كيف حال الأولاد؟

قال: بخير والحمد لله.

سلّــم جسده لفم الدائــرة الكبير، وراح يقف بجانب المصعد، يقف برهبة كعادته كل صباح، ويتذكر تفاصيــل ذاك اليوم الأسود الذي جاءه فيه ابنه /بهاء/ البالغ من العمر خمس عشرة سنة.

كانــت الساعة تشارف علــى الواحدة ظهــراً، وكان بــزم على موعــد لزيارته كي يأخــذه إلى طبيب الأمراض الصدرية الذي يعالجه من مرض الربو.

صعــد بهــاء إلى الطابــق الثالث ودخل

على أبيه الذي استقبله بترحاب وراح يقبله على خدّيه وكأنه لم يـره منذ سنة، ثم تقدم بهاء يسلم على زملاء أبيه واحداً واحداً في المكتب.

بعـد قليـل خرجـا، وعندمـا اتجهت خطـوات بهاء نحو المدرج، أوقفه أبوه طالباً إليه الانتظار ريثما يصل المصعد.

قال: النزول سهل يا أبي.

عندئذ ذكّره بكلام الطبيب الذي حذره مـن بذل جهـد عندمـا يشعـر بضيق في النفس.

دخـلا المصعد، وبعد قليـل من تحركه نحو الأسفل، فوجئا بوقوفه بشكل مباغت!

تسرّبـت نظرة مـن عيني بـزم صوب المصباح، فرآه مضاءً.

خمّـن بأنه وقف في الطابق الثاني ريثما يصعد أحد.

طال الانتظار، فـأدرك بزم بأن المصعد تعرضـ للعطل ممـا أدى إلى وقوفه بشكل مفاجئ.

اندفـع بهلع تلقائي يخبـط على الباب المحكـم بحزم شديـد دون أن يسمعه أحد، وبشـكل مباغت كمن عـثر على خيط نجاة انفجر صوت بهاء: الموبايل يا أبي؟

صعـد الدم إلى وجهه قليلاً، ولطم بكفه على فخذه لعدم تذكره الموبايل.

أخرج الجهـاز السحـري الصغير على عجل وأجرى اتصالاً بزميله (قيس).

بعد عـدة رنات تناهت نـبرات (قيس) وكأنها قادمة من عـالم آخر: نعم ياصديقي بزم، طمئني على صحة بهاء؟

اندفع صـوت بزم المرتبـك: ما أزل في المصعد يا قيس.. الحقني!

قال قيس وقد وقـف على قدميه ملفتاً أنظار زملائه في المكتب:

تقصد تعطل المصعد؟!

قال: تعطل بنا يـا قيس.. أرجوك افعل شيئاً لأن بهاء يعاني من ضيق التنفس.

هـرع قيـس نحـو المصعـد، ولحقـه الزملاء.

وقفوا جميعاً ينظرون إلى الباب المحكم، ثم نزلوا إلى الأسفل، فوجدوا الباب الأرضي كذلك محكماً، فأدركوا أن المصعد معطل في الوسط.

سارع قيـس نحو غرفة المديـر وأخبره بالأمر.

وبعد لحظـات تحلّق جميـع المراجعين إضافة إلى الموظفين والموظفات حول المصعد في الطوابق الثلاثة.

عندئذ اتصل المديـر بأحد الميكانيكيين الذيـن لهم خبرة في فـك وتركيب المصعد، فجاء الرجل ولبث ثـلاث ساعات متواصلة دون أن يتمكـن من فعل شـيء لأن المصعد جمد في موضعه بشكل ثابت.

بينمـــا لبث بزم يصرخ ويهــدئ من روع ابنه الذي بات يعاني نوبات شديدة من الربو نتيجة قلة الأوكسجين.

عندمـــا بلغت الساعـــة الخامسة مساء، خلـــت الدائرة مـــن المراجعـــين والموظفين، وذهب المدير إلى بيته، أما الرجل الميكانيكي قال بأنه سيضطر للذهاب قليلاً لعله يُحضر مَن يعينه على العمل، في حين بقي قيس مع الموظفة /تشريق/ ورفضا العودة إلى البيت وترك زميلهما في تلك المحنة.

اتصلـــت تشريق مع أمهـــا وأخبرتها بما وقع مـــع زميلها، ثم اتصلـــت مع /ريماس/ وأخبرتها بما وقع.

بعـــد نحو نصـــف ساعة كانـــت ريماس مـــع أولادها في الدائرة، وكذلـــك جاءت أم تشريق.

أخذت ريماس تطرق على أبواب المصعد وهـــي تصعد الطوابق وتنـــزل، وتتحدث مع زوجها بوساطة الهاتف.

في الثامنـــة مساء جاء الرجل الميكانيكي برفقة ثلاثة أشخاص، وباشروا العمل، ولم ينجحوا في إصـــلاح المصعد إلا في الحادية عشـــرة ليلاً حيـــث استطاعـــوا أن يسحبوا المصعد نحو الأعلى بأياديهم.

عنـــد ذاك كان بهاء قد فارق الحياة بين يدَي أبيـــه الذي صمت هـــو الآخر دون أن يصدر منه صوت.

منـــذ ذاك اليـــوم لم يتحدث بـــزم بكلمة واحدة، ولم تعد لديه رغبة في الحديث، حتى الأطباء لم يجدوا أي علاج له، وأعاد بعضهم السبب إلى الأزمة النفسية التي تعرض لها، وربما يعود إليه الصوت عندما يستقر وضعه النفسي.

بعد وقوف دام نحـــو خمس دقائق وهو ينظـــر إلى المصعد الـــذي لم يعد يمد قدمَيه إليـــه مهما كانت الضرورة وعبارة ابنه تجلد سمعه: -النـــزول سهل يا أبـــي- اتجه نحو الدرج صاعداً إلى مكتبه متذكراً كم أنه كان عنيداً بإصـــراره على رأيـــه دون أن يصغي جيداً لعبارة ابنه، بل إنـــه قال رأيه وأصدر أمـــره والكلام مايـــزال في فم ابنـــه. قال: النزول سهل يا أبي.

كان علـــى حق لأن النـــزول لايحتاج إلى بذل جهد مثل الصعود.

كـــم جلدتْ هـــذه العبـــارة سمعـــه، كم جعلته يشعـــر بأنه خسر ابنـــه نتيجة عناده وإصراره على بضعة كلمات، ابنه الذي وقع ضحيـــة لكلمات تمَّ توجيههـــا إليه من أبيه، لـــو رفض هذه الكلمات، وأصر على موقفه، ونـــزل بسرعة على المدرج لمـــا وقع له شيء، بيد أنـــه امتثل لأمر أبيه ودفـــع حياته ثمناً لهـــذه الطاعة، وهو يدرك أن النزول بالفعل سهـــل بالنسبة إليه ولايكلفه أي جهد، أو أي مشقة.

ألقى السلام علــى زملائه بوساطة رفع الكف، وراح يجلس خلف الطاولة المخصصة لعمله.

انهمــك في العمــل وهو يشــرد كيف أن الصمــت يوفر له مساحة مــن التصالح مع نفسه، ومع الآخرين.

تمضي الأيام دون أن يتحدث بكلمة سوء عن أحد، وما دام لايتحدث بسوء عن أحد، فإن أحداً بالمقابل لا يقذفه بكلمة سوء سواء بحضوره، أو بغيابه.

خلال هذه السنة أحس بزم مير عقل بأنه ولج مرحلة جديدة من حياته، مرحلة بالغة الغنــى والأهمية بالنسبــة لعلاقته بالحياة، وبالمحيط الذي يعيش فيه.

بات يتأمل معاني الكلمات التي يسمعها كلمة كلمة، يتأمل معاني مرادفاتها.

في المساء عندمــا يستفيق من القيلولة، يدخــل غرفة ويتوسع بالقــراءة، يبحث عن تاريــخ علاقــة الإنسان باللغــة، يبحث عن الأحداث السلبيــة والإيجابية التي أشعلتها اللغة في التاريخ البشري.

يدخل عالمــاً جديداً، يــدرك فيه قيمة الكلمة، يدرك بأنها ثــروة الإنسان الكبرى، يمكن للإنســان أن يفعل أي شيء من خلال الكلمة، يمكــن لكلمته أن ترفع مــن شأنه، ويمكن لها أن تلحق بــه بالغ الضرر. لذلك يصــر أن يسمع ويقــرأ ويكتشــف دون أن يتحــدث، يولد الإنسان وهــو يسمع، ويبقى سنــوات وهو يسمع قبــل أن يتحدث بشكل جيد، وحتــى عندما يجيد الحديث، لايكون ذلك ليتحدث قدر أن يكون ليفسر ما يتلقاه من كلمات.

إنه يحتاج إلى سنوات طويلة حتى يصبح مهيَّأً للحديث الذي يقدمه للناس، لأن لاشيء يقدم الإنسان للإنسان قدر لسانه.

بعــد نحو ساعة من جلوسه وانهماكه في العمل، دخل ظرّوف حاملا إبريق الشاي مع الكاسات.

سكب السكر في قعــر الكاسات، عندئذ قال قيســ: لاتنس ظــرّوف، معلقــة سكر واحدة.

قال: على عيني أستاذ قيس.

قفــز لسان حاجم معلقاً: الأستاذ يخاف على نفسه من السكّــري، أنا ضع لي خمس ملاعق سكّر يا ظرّوف بيك.

نظــر إليه قيســ، ثم بعد قليــل أجاب لسانه: صحة وعافية، يجعل الله أيامك كلها حلوة مثل شايك.

كعادته يعلّق حاجم على قيس الذي يكظم غيظه، ويرد عليه بكلمة طيبة، لكن حاجماً يعــود في اليوم التــالي ليلتقــط أي حديث يقوله قيس حتى يعلّق عليه أحياناً أمام بعض المراجعين، أو بعض الذين يزورون قيس من أصدقائه أو أقربائه.

منذ نحو ستة شهور يبدو أن قيس تشاجر مع زوجته وأتـى إلى الدوام محتقناً، عندئذ نهض حاجم من كرسيه، وتقدم نحوه قائلاً بشيء من السخرية: /خير يا طير/.

نظر إليه قيس باحتقان ولم يرد.

غدا بـزم يصغـي إلى الكلمات ويتخيل عراك لسانيهما مثل ديكين،

وزّع قيس نظراته على جميع الزملاء في المكتب وقال: نسينا بأنك تحتاج إلى استدعاء وطابع حتى تحكي.

في تلـك اللحظة خرج قيـس عن طوره وأمسك بقميص حاجم من الأمام هازاً إياه عدة هزات بشدة وهو يقول: (اسكت ياحيوان قبل أن أقطع لسانك وأحطه في..).

اصفـر وجه حاجم وهو يسحب قميصه بالكاد من يدَي قيس، وجلس على مكتبه.

بعد ذلـك تقدم بزم من قيس ودعاه إلى الخروج حتى يهدأ قليلاً.

خرجـا إلى /البوفيـه/ يجلسان، فقال قيس: هذا الرجـل لايعيبه شيء غير لسانه الطويل، لوكان لسانه في فمي لما ترددتُ عن قطعه لحظة واحدة.

مع رشف الشاي بدأ قيس يتحدث لزميله وصديقـه الوحيد في الدائرة كلها: أختك أم تمارة اعتدت علي بلسانها يا أبا بهاء.

كتـب له على ورقـة مجيبـاً: الأصوات المرتفعـة من طبيعة النسـاء يا صديقي، لا عليك.

قال: طلبـتْ أن نعزم أختهـا وعديلي، لكنني رأيت أن نؤجل ذلك إلى الشهر القادم بسبـب ضيق اليـد، ثم صمـت وبعد قليل أردف: أتدري ماذا قالت؟

قالت الذي لايكون بقدر مسؤولية الزواج عليه ألا يتزوج

كتب له على ذات الورقة مجيباً: يارجل، المرأة مسكينة، تقول كلمة، وبعد لحظة تقول عكسهـا، خذا الأمر ببساطة، حتى الشتيمة بـين الزوج والزوجة يمكـن أن تحتمل شيئا من الغزل المبطّن.

بعـد عودتهما إلى المكتـب، تقدم حاجم إلى قيـس واحتضنه معتـذراً عما بدر منه وهو يقـول: يا أخي حتـى زوجتي تقول لي بـأن لساني طويل، ماذا أفعل لقد ورثته عن أبي.

فضحكوا جميعاً.

لبث بزم يشرد كيـف أن الإنسان يمكنه الاستغناء عن نصف ما يقوله من كلمات كل يوم.

الزمـلاء يتحدثـون طويـلاً، وهـذه الأحاديث التي تحمـل همزات ولمزات غير مباشرة تسبّب الاستفزاز سواء المباشر أو غير المباشر لهم.

كان في الماضـي يثرثر كما يثرثروا وكأنه

محكوم بقول ذاك الكم الهائل من الكلمات، عندئــذ أدرك أن التبذير في الكلمات لايقل عن التبذيــر في المال، لأن الكلمة تحتاج إلى بذل جهد من كل أعضاء الجسد.

وهنا غدا يتمتم لنفسه:

تملك لساناً واحداً يا بزم، وتملك أذنين اثنــين، اللســان يقع خلف بابــين، والأذنان طليقتان حتى تسمع أكثر مما تتحدث لأنك تحتاج إلى السمع أكثر من حاجتك إلى النطق، وتكتشف الحياة عن طريق الأذنين أكثر مما تكتشفها عــن طريق اللسان، ما يعلّمه إياك السمع، يفسده اللسان عليك.

ألا تــرى أن النطق يحتاج إلى بذل جهد، في حين لايحتــاج السمع إلى أي حركة حتى يعلّمك شيئــاً جديداً. اللســان يصلح مرة، ويفسد عشر مرات، لذلــك فإن قلة الكلام حكمة الرجال والنساء معاً.

إن أطلــق الإنسان العنــان للسانه قتله لسانــه، كم مــن لســان أودى بصاحبه إلى التهلكــة، كم مــن لسان سفك جــداولاً من الدمــاء، كم من لسان هدّ بيوتاً آمنة، كم من لسان أشعل العداوة والبغضاء بين شخصين مدى الحياة.

انظر جيداً يا بزم إن أردت النطق احتجت إلى فتح باب الأسنــان، وفتح باب الشفتين، وتحريــك اللســان، واستخــدام الصــوت والاستعانــة بأكــثر أوتار الجملــة العصبية حساسيــة، وبشيء مــن التركيز والحدة قد تستعين بيديــك وعينيك وحاجبيك ورأسك كمــا يفعل حاجم أحياناً، وهــذا كله يسبب الإرهــاق له، يعلو الاحتقــان سمات وجهه، يختل قلبه في نبضه.

أمّا وأنــت تسمع، ينشرح صدرك، يتسع تأملــك، تستكــين في حضن نشــوة السماع والتأمل،تدخــل بكامــل حواســك حالــة استرخائية من لــذة الإصغاء، ونشوة التأمل قد تُتوّج بغفوة لم تدرك لذتها في ألف نوم.

اسمع كثــيراً يابــزم، إنــك لم تسمع إلا القليــل، وانظر كثيراً، إنــك لم تر إلا القليل، واقرأ كثــيراً، فإنك لم تقــرأ إلا القليل، ولا تفكر في النطق كثيراً يا صاحبي، فإنك قلت الكثير.

اسمع أصوات كائنات الطبيعة، سترى كل صــوت يغتني بميزة خاصــة به، إنك تحتاج إلى سمــاع لسان كل حيــوان ونبات وجماد، اسمــع إرزم الإبل، ســتراه مختلفاً عن طنين الذباب، اسمع أزيز الرصاص، ستراه مختلفاً عــن عندلة العندليب، اسمــع عواء الذئب، ستراه مختلفاً عــن بغوم الفيل، اسمع تغريد البلبل، ســتراه مختلفاً عن فحيــح الأفعى، اسمــع قباع الخنزير، ستراه مختلفاً عن ثغاء الغنم، اسمع قصيــف الرعد، ستراه مختلفاً عــن قعقعة السيوف، اسمع خترشة الجراد، ستراه مختلفــاً عن قطقطــة القطة، اسمع

حفيف الأشجار، ستراه مختلفاً عن جحمة الفرس، اسمع قهقاع الدب، ستراه مختلفاً عن حنين الناقة، اسمع خرير الماء، ستراه مختلفاً عن خشخشة القرطاس، اسمع دوي النحل، ستراه مختلفاً عن مواء الهر، اسمع دبيب النمل، ستراه مختلفاً عن نباح الكلب، اسمع نقيق الضفادع، ستراه مختلفاً عن زمار النعامة، اسمع نعيق الغراب، ستراه مختلفاً عن هديل الحمام، اسمع سجير النار، ستراه مختلفاً عن صرير الباب، اسمع نهيق الحمار، ستراه مختلفاً عن يعار المعز، اسمع دوي الهواء، ستراه مختلفاً عن قلقلة المفتاح، اسمع ضغيب الأرنب، ستراه مختلفاً عن نغمات الأوتار.

ستتعلم من كل صوت تسمعه، ويمكن لك أن تجري حواراً صامتاً مع هذه الأصوات، فتراها تستجيب وتحاورك بما أنت عليه من صمت.

سنة مضت عليك يابزم دون أن تسبب حساسية لأحد، حتى أولئك الذين وقعوا على خصام معك نتيجة كلمات قلتها بحقهم سواء بحضورهم أو بغيابهم، أتوا لعيادتك وفتحوا معك صفحة جديدة. كانت سنة صلح بامتياز في تاريخك الصغير، ولم تكن سنة خصام، سنة سلم، وليست سنة نزاعات.

حتى في البيت لم ترفع ريماس صوتها خلال هذه السنة، أحياناً تتحدث بعصبية، وعندما تراك صامتاً سرعان ما تقدّم اعتذارها الشديد عمّا بدر منها نتيجة رد فعل، أو نتيجة تسرّع في استنتاج أمر ما.

كنتَ في الماضي ترفع صوتك لتجعلها تصمت، فتزيد من رفع صوتها، وفي مواقف الانفعال كنت تمد يدك لتصفعها، وحدثت مرات عديدة خلال السنوات الماضية ملاسنات بينكما أدت إلى أنك صفعتها، فكانت النتيجة أنها تزداد عناداً. الآن تدرك أن لاشيء للمرأة غير لسانها الذي من خلاله تفجر ثورة الاحتقان التي تجتاحها خلال تعرضها للأزمات النفسية نتيجة تربية الأولاد وإدارة البيت ومسؤولية كل من فيه، وكل مَن يدخله. إنها كائنة مستنفرة ليلاً نهاراً، لاساعة للراحة لديها، لأن الطفل لايمنحها هذه الساعة. وعندما يكبر الطفل، فإن مسؤوليتها عن البيت لاتمنحها هذه الساعة.

عندما يبكي الطفل في منتصف الليل، فإنك تهرب من مسؤوليتك تجاهه، وتبعد عن بكائه لتنام في غرفة أخرى، بينما لاتتجح هي كي تحذو حذوك، ولايخطر في بالها أن تحذو حذوك، إنها مسؤولية الأمومة التي تعلو مسؤولية الأبوة، هذه المسؤولية الناقصة التي تجعلك تتخلى عن طفلك في منتصف الليل وتتخلى عنه في ذروة بكائه، وذروة حاجته إليك، أمام مسؤولية الأمومة الكاملة

التي لاتسمح لها أن تتخطى مسؤوليتها قيد شعـرة واحدة، وتصبر، وتدنـدن له ساهرة حتى نقنعه بالنوم وهي تقلّبه على كل الأوجه حتـى يهدأ في الوجه الذي يريد ويغفو على سماع صوتها الذهبي.

الآن يابـزم ريماس تحترمـك أكثر مما كانـت، حياتكمـا الزوجية تمضـي بهدوء وسكينـة ومودة أكثر من أي سنة مضت على زواجكما.

أحس بندم شديد على كل تلك الكلمات التـي لم تكـن في موضعها، تلـك الكلمات الانفعالية المتسرّعة التـي بدرت منه. ذاك الكـم الهائل من الكلام الـذي لم يكن له أي ضرورة سـوى أن زاد البغيضـة والاحتقان بينه وبين الآخرين، وفي بعض المراحل جعل عداوة بينه وبينهم.

علمتـه هذه السنة أن علـى الإنسان أن يضبـط لسانه قبل أن يضبط أي شيء آخر لديه.

عند الساعة الثالثة نهض موحياً لقيس بأنه لن يعـود إلى البيت بباص الدائرة، لأن ريماسـ أوصته بشراء بعض السلع من سوق الهال.

قال قيس: منذ يومين تمَّ افتتاح معرض للفـن التشكيلي لأحد الفنانين القادمين من حلب، ما رأيك أن نزوره؟

أومأ بـزم رأسه بإيجـاب، فقال قيس: سوف أمر عليك في البيت ونخرج معاً.

هـز رأسه وخرج مـن الدائـرة مسلماً حواسـه للطرقـات الفرعية التـي أدخلته عالم سوق الهال المكتـظ بالفاكهة، وعربات الدفش، وألوان الخضار والفاكهة، وأصوت الباعة، وزحمة المشترين.

انتقى ما أوصته ريماس بحسب ما دوّنت علـى قصاصـة صغيرة. عندئـذ تقدم منه صبي يبيع أكياسـ النايلون الكبيرة السوداء قائلاً: عمو كيس بخمس ليرات لأغراضك.

وضع الأكياس الصغيرة في الكيس الكبير، وأشار للصبي كي يحمل عنه إلى حيث موقف الباص الذي يبعد عشرين خطوة.

هناك أعطى الصبي قطعة نقود معدنية بفئة العشر ليرات، وصعد الباص الذي كان واقفاً.

بعد دخول شارعين، فرمل الباص بشكل مفاجئ وصـدر صوت مرتفع مـن السائق يقول: يا حيوان.

كان الصـوت موجهـاً إلى سائق تكسي أجرة.

نظر الناس جميعاً إلى السيارة الصفراء التـي كادت تلتصق بالباصـ، فنزل سائقها مغتاظـاً وهو يوجّـه لسائـق الباص كلاماً خرج من فمه كالشرار: لولم تكن حيواناً وابن حيوان لما قلت لي ذلك.

قفــز ديكان إلى مخيلة بــزم وهو يصغي للسانَي السائقَين.

قــال لسان سائق الباصــ: أأنت أعمى، وعلى الفور هبط جسده الأرض وبدأ يسدد اللكمات إلى وجه سائق التكسي.

نزل بعضــ الركاب للتفريق بينهما، وفي أثناء ذلك انطلقت صرخة مروعة من سائق الباصــ، فعرف الــركاب أن سائق التكسي طعنه بسكين في خصره.

ســارع شرطي السير الــذي كان واقفاً ينظم السير، وأمسك بسائق التكسي بعد أن نزع السكين من يــده، وأوقف سيارة أخرى طالباً مــن سائقها أن يسعــف المصاب إلى أقرب مشفى.

نزل بــزم مــع الــركاب العائدين على الأغلب من أعمالهم، يحملون سلعاً من سوق الهال في أكياس متفاوتة الأحجام.

بعــد قليل وقــف باص آخــر، فهرعوا صاعديــن إليه وقوفــاً، عندئذ صدر صوت مــن الركاب نحو السائق: هــل الباص حبة كوسة وأنت تريد أن تحشوها. يكفي جشعاً، اختنقنا.

قــال لسان السائق بصــوت مرتفع راداً على الصوت دون أن يعرف

صاحبــه: إن لم يعجبــك، (التكاســي) كثيرة.

بعد عدة مواقــف تقدم شخص للنزول، عندئــذ وجه كلامــاً للسائــق: السواقة فن وذوق وأخلاق، ويبدو أنك لم تسمع بذلك.

عــرف السائق بأنه كان صاحب الصوت الذي قارن الباص بحبة المحشي، فقال وهو يستدير إليه قائلاً: الكلام صفة المتكلّم.

عندهــا تقــدم إليه الشخصــ محتقناً، فتدخل الــركاب، ومنعوه مــن الوصول إلى السائق، وأجبروه على النزول.

نزل الشخص تاركاً صوته الموجه للسائق: سنتواجه يابن الحرام، أنا الآن تعبان، راجع من الشغل.

بعد تناول الغداء، وغفوة القيلولة، نهض بزم، فأحضرت زوجته فنجان القهوة.

أخذ يرتشف القهوة، عندئذ تناهى رنين جرســ الباب، راحت زوجتــه تستقبل قيس الذي دخل مسلّماً على صديقه.

دخلــت ريماس المطبــخ لتحضر فنجان قهوة لــه ريثما يرتدي بزم ثيــاب الخروج، عندئذ نهض بزم، وراح يمد يديه إلى البدلة في غرفة النوم.

عندما خرج بــزم من غرفة النوم بفائق أناقتــه، كان قيس قد باشــر بتناول فنجان القهوة للتو من يد ريماس.

جلس بــزم إلى جانبه حتــى رشفها مع تدخين سيجارة، وخرجا صوب قاعة المعارض في المركز الثقافي.

دخــلا المعرض، عندئــذ أدرك بزم بأنه

يحتــاج إلى وقــت لابأســ به حتــى يتأمل اللوحات لوحة لوحة.

بعد نحو نصــف ساعة من التأمل خرج برفقــة قيس، أمام البــاب لفت نظره دفتر يكتب فيه الــزوار انطباعاتهم عن المعرض، فحمــل القلم وجلس على كرســي يدوّن ما ترك المعرض لديه من انطباع.

في صبيحة اليــوم التالي، وعند الدخول إلى مكتبــه في الدائــرة، وقعــت عيناه على /تشريــق/ زميلته في العمــل، وهي فتاة في الخامسة والثلاثين مــن عمرها، منذ عشر سنوات تعينــت في الدائرة بموجب شهادتها الجامعية.

كان بــزم كلمــا يراها يشعــر بحالة من الارتيــاح، فينظر إلى جمال وجهها، ويستمع إلى نــبرات صوتهــا، أحيانــاً يدخــل حالة يشعر فيها بأنه يتبــادل معها كلاماً سحرياً شديــد الحميميــة والخصوصية من خلال النظرات.

لكن شعوره نحوها غدا أكثر حميمية في موقفها يوم الحادث، أحس بأنها مرتبطة به بأحاسيسها.

عشــر سنــوات لم يجرؤ علــى قول كلمة يرغــب في قولها لهــا، ويدرك أنهــا أيضا تعجز، أو لاتملك شجاعــة أن تقول له تلك الكلمة.

أحيانــاً كانت تدخل مكتبــه في الساعة الحاديــة عشرة صباحاً تحمــل /سندويشة كبــد/ وتقدمها إليه بشــكل خاص من بين جميــع الزملاء قائلة: هذه هدية مني لك يا أستاذ بزم.

يتنــاول السندويشة مــن يدها، ويوصي ظرّوف أن يحضر إبريقاً من الشاي.

يوجــه كلامــه إلى زملائــه: تفضلــوا ياشباب.

يرددوا بأصوات متعاقبة: صحة وعافية يا أستاذ بزم، صحة وهنا يا آنسة تشريق.

عندمــا سمعت تشريق بالحــادث الذي وقــع، أجرت معه اتصــالاً بهاتفها الخليوي لتطمئن عليه.

لبثــت راكضة بهلع بــين الطوابق، وهي تتصل به.

حتى أن قيس عندما جلس كي يستريح، رفضت الجلوس، وهي تنادي بصوتها: بزم.. لاتخف، نحن معك. ثــم تعاود الاتصال به، وعندمــا جلب قيس طعاماً رفضت أن تضع لقمة واحدة في فمها.

ولم يصعــد الدم إلى وجههــا إلا عندما شاهدته رغم المأساة التي وقعت بين الجميع في تلك اللحظات.

وعندما أمضى شهــراً في البيت، كانت تشريق تزوره كل أسبوع مرتين حاملة له بعض الهدايا المتواضعة، كانــت تجلب معها أمها

أحياناً، وأحياناً تصحب زميلتها في الدائرة /سما/.

إنها المرأة التي دوماً كلما يراها يشعر بأنه يريد أن يقول لها شيئاً، ويشعر بأنها تريد أن تقول له شيئاً منذ أن وقعت عيناه عليها أول مرة في الدائرة.

ذات ليلة عندما قرأ قصيدة، ولفتت نظره بقوة عاطفتها، أحس بأنه لابد أن يقرأها لـ تشريق.

كتب القصيدة بخطه، ووضعها في جيبه حتى يعطيها لها عندما يراها في الدائرة.

لبثت القصيدة نحو أسبوعين في جيبه وهو يتردد من ذلك، وأحياناً يشعر بأنه لايمتلك الشجاعة الكافية لإعطائها قصيدة تحمل كل تلك العاطفة، وأحياناً أخرى يخاف أن ترفض، وتفسد روح العلاقة بينهما، لكن في الأسبوع الثالث، دخل مكتبها، جلس قليلاً، وعندما سألته عن أحواله كعادتها، أجاب بأنه بخير، ثم قال بأنه قرأ قصيدة جميلة، ويريد أن يهديها تلك القصيدة إن رغبتِ في ذلك.

قالت بأنها سعيدة، لأنها تخطر بباله عندما يرى أو يقرأ أشياء جميلة، وشكرته على تلك البادرة: أنا ممتنة يا أستاذ بزم، وأرجو أن تذكرني بكل ماتراه مناسباً، لأنني أحب القراءة.

عندئذ أخرج القصيدة التي كتبها على صفحة بيضاء من جيبه، وقدمها إليها.

فتحت تشريق الصفحة وبدأت تقرأ بشوق:

تعالي عيشي معي وكوني حبيبتي
ولسوف نجرب كل المسرات الممكنة
التي تهبها الوديان والبساتين والتلال والحقول
والتي تمنحها لنا الغابات ومنحدرات الجبال
لسوف نجلس أيضا فوق الصخور
ونرى الرعاة وهم يغذون قطعانهم
قرب الأنهار الضحلة وعلى مساقطها
تصدح الطيور بأغاني الغزل الرخيمة
ولسوف أصنع لك سريرا من الأزهار
وأقدم لك آلافاً من الباقات العطرة
وقبعة منسوجة منها وثوبا فاتنا يكون لك
مطرزا بأكمله بأوراق الآس العطرية
وعباءة منسوجة من الصوف الأكثر نعومة
الذي سوف أجتزه من حملاننا الجميلة
وسأصنع لك خفا رائعا كي يقيك البرد
مع إبزيم من الذهب الأكثر نقاء
وأيضا زنارا من القش وبراعم اللبلاب
مع مشابك مرجانية وأزرار كهرمانية
فإذا أمكن لهذه المسرات أن تثيرك
فتعالي عيشي معي وكوني حبيبتي
لسوف يرقص الرعاة العاشقون ويغنون
في كل صباح من شهر أيار من أجل أن تفرحي(*)

قبـل نحـو ثلاثة شهـور دخلـت عليه تشريـق شاحبة، وقالت بأنهـا تعاني نوبات من الاكتئـاب. في تلك اللحظـات نظر إلى عينيها، وسالت دموع من عينيه، ولأول مرة منذ الحـادث أحس برغبة في الكلام، رغب بقـوة فيما لو تحدث نصف ساعة وعاد إلى صمتـه، كان سيقول لهـا أشياء كثيرة خلال النصـف ساعة تلـك، كان سيفعل أي شيء حتى يخفف عنها ولو قليلاً.

دخل بزم المكتب رافعاً كفه بالسلام على زملائه، بعـد قليل علا صوت المدير كعادته من الطابق الثاني، صوته الذي يملأ ممرات الدائرة وهو يوبخ أحد المستخدمين، أو أحد الموظفين، أو يصرخ في وجه أحد المراجعين، وإن عانـده المراجـع، رفع سماعـة الهاتف واتصل بالشرطـة قائلاً بأن هـذا المراجع يزعجه في عمله.

قال حاجم: لاأعرف إن كان يتحدث مع الشخص الذي يقف في مكتبه، أم مع جميع المتواجدين في الدائرة؟

قالـت إيبلا: يظن بأنه سَيّد على كل مَن يدخل هذه الدائرة، أتحداه إن كان يستطيع أن يرفـع صوتـه على زوجتـه مثلما يرفعه هنا.

قال قيس: ربما ينتقم منا هنا لأن زوجته ترفع صوتهـا عليه في البيت، فلا يجد غير المراجعين (يفش خلقه فيهم).

عندما انتهى الدوام قـال لقيس: اليوم ريماس طبخت رأس خروف، مارأيك بالغداء عندنا؟

قال قيس: صحة وعافية، اليوم أختك أم تمارة عزمت أهلها على الغداء.

عند الساعة الثالثة والنصف وصل بزم إلى البيت بسيارة الدائرة، كانت ريماس قد جهّزت الغداء.

بدل ثيابـه، وتمدد قليـلاً للراحة نحو نصـف ساعة، ثم نهضـ غسل يديه وجلس مع الأولاد على سفرة الغداء المكوّن من رأس الخـروف وأحشائه المحشـوة بالرز، ومرقة حبات الحمّص.

تناول بزم في البدء بعض السلطة، وقرناً من الفليفلة الخضراء الحلوة، ثم بعض قطع الفجل، وبعد ذلك قال: جدّ الجدّ.

وغدا يتناول مـن لحم الرأس والأحشاء اللذيذة التي طبختها ريماس على نار هادئة بدل طنجرة الضغط حتى تنضج مع الرأس بشكل جيد ودون ضغط.

مد يـده إلى لسان الخروف، وسحبه من الفم ليصبـح اللسان بين يديـه. نظر إليه وقارنه للحظات بلسان الإنسان.

وبعد قليل حوّل اللسان إلى قطع، ووزعها علـى الأولاد والزوجـة، وتنـاول هو الآخر قطعـة وهو يشعر بأنه تنـاول قطعة مميزة من الخروف.

عندما فرغ من الطعام، راح إلى المغسلة يغسل يديه بالصابون، ولايدري لماذا راودته رغبة لينظر إلى لسانه.

عندئذ فتح فمه بشكل جيد، ومد لسانه حتى يرى ما الذي تغير فيه حتى توقف عن النطــق، لبث ينظر حتى سمع وقع خطوات، فتناول المنشفــة وخرج لــيرى ابنته /آلاء/ تتقدم إلى المغسلة لتغسل يديها.

تمدد في غرفة النوم لاستراحة القيلولة، لكــن اللسان بقي في ذاكرتــه، اللسان الذي يمكن لــه أن يقيم الدنيــا ويقعدها ببعض الألفاظ، اللسان الــذي يشعل ناراً ويطفئها ببعضــ الكلمات، اللسان الذي يشعل عداوة أبديــة، والــذي يجعل صلحــاً أبدياً ببعض الحركة.

ينظر كيــف أن اللسان يمكن له أن يعبق بأطيــب الحديــث، ويمكن لــه أن ينزل إلى درجات سفلى من ألفاظ بذيئة. يمكن له أن يكيل الشتائم والسباب، وعبارات الاستفزاز، يمكــن له أن يوجه كلمات طيبة قوية تنتشي لها القلوب والعقول.

لقــد أمضينــا وقتاً مع هــذا الشخص الذي بدأ يدرك قيمة اللسان، ويدرك أهمية وخطــورة أن يملك الإنسان لساناً يتمتع بكل هذه المزايا الخطرة.

ونحن دومــاً نتعلم من تجارب الآخرين، ونتعلم مما علّمتهم المآسي التي أصابتهم.

أشواك اللسان

ذات يوم جلس الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) مع أصحابه، فجاء رجل وشتم أبا بكر الصديق وآذاه، فسكت أبو بكر ولم يرُدَّ عليه، فشتمه الرجل مرة ثانيــة، فسكت أبو بكر، فشتمــه مرة ثالثة فرد عليــه أبو بكر، فقام (صلى اللّه عليه وسلم) من المجلس وتركهم، فقام خلفه أبو بكر يسأله: هل غضبتَ علي يا رسول اللّه فقمتَ؟ فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليــه وسلم): (**نــزل مَلَك مــن السماء يكذِّبه بما قال لك، فلما انتصرتَ** (**أي رددتَ عليــه**) **وقع الشيطــان** (**أي: حضر**)**، فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان**) (أبو داود).

وكانت السيــدة عائشة تجلس مع النبي (صلى اللّه عليــه وسلم)، فأقبلت عليهما أم المؤمنــين السيدة صفية بنــت حُيَي، فقالت السيدة عائشة للنبي: حسبك من صفية كذا وكــذا -تعني أنها قصيرة-، فقال لها النبي: (**لقــد قلــتِ كلمــة لــو مُزِجَــتْ بمــاء البحر لمزَجَتْهُ (عكَّرته)**. (أبو داود والترمذي)

يقول اللّه تعالى: «**مَــا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**» (ق: ١٨).

وقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم): **(إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر اللسان (تذل له وتخضع) تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوَجَجْتَ اعوَجَجْنَا)** (الترمذي). وقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم): **(لا يستقيمُ إيمان عبد حتى يستقيمَ قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)** (أحمد). وقال ابن مسعود: والذي لا إله غيره، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

رُوِي أن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) قال: **(لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كَثْرَة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعدَ الناس عن الله القلبُ القاسي)** (الترمذي).

سئل النبي (صلى الله عليه وسلم): أي الإسلام أفضل؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده) (متفق عليه). وقال عقبة بن عامر: يا رسول الله، ما النجاة؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (أمسك عليك لسانك ولْيسعك بيتك، وابْكِ على خطيئتك) (الترمذي).

قال اللّه تعالى: «**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً**» (الفرقان: ٧٢). وقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم): **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)** (متفق عليه).

والغيبة تقع عن طريق اللسان، قال اللّه تعالى: «**وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**» (الحجرات: ١٢).

وحذَّر النبي (صلى اللّه عليه وسلم) صحابته من الغيبة، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم): **(أتدرون ما الغِيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ذِكْرُكَ أخاك بما يكره)، فقال أحد الصحابة: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم): (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه)** (مسلم).

ويروى أن امرأتين صامتا على عهد النبي (صلى اللّه عليه وسلم)، وكانتا تغتابان الناس، فعلم النبي (صلى اللّه عليه وسلم) ذلك، فقال عنهما: **(صامتا عما أحل الله، وأفطرتا على ما حرم الله)** (أحمد)، أي أنهما صامتا عن الطعام والشراب، وأخذتا

تتحدثان وتخوضـــان في أعراض الناس فلم يقبل الله صيامهما.

والغيبة عذابها شديد، وعقابها أليم يوم القيامــة، قال رســول الله (صلى الله عليه وسلم): (**لما عُـرِجَ بي (أي في رحلـة الإسراء) مــررتُ بقوم لهم أظفار من نحاس يخْمِشُون (يجرحــون) وجوههــم وصدورهــم، فقلــت: مَـنْ هــؤلاء يــا جبريل؟ قــال: هــؤلاء الذين يأكلـون لحوم الناس ويقعـون في أعراضهم**) (أبوداود).

حاجتنا القصوى إلى الإصغاء

لاأظـــن بأننا نحتـــاج إلى شيء يمكن أن يعلمنـــا الكثير قـــدر حاجتنـــا إلى الإصغاء، لاأقول الإصغاء إلى الناس فقط، بل الإصغاء لكل صوت، وكل لسان.

إننا نحتـــاج إلى سماع مخلوقات الأرض، لالسماعهـــا فقـــط، بـــل لاكتشـــاف أنينها، واكتشاف لغاتها أيضاً.

القطـــة عندمـــا تكون جائعـــة لاتصدر ذات الصـــوت الذي تصـــدره، وهـي تتعرض لضربة للاعتداء عليها سواء من قبل إنسان، أو من قبل حيـــوان أقوى منهـــا. ولاتصدر ذات الصوت الوديع عندمـــا نداعب رأسها بحنان.

والكلب يصدر أصواتـــاً مختلفة بحسب المشاعـــر التي تنتابه، وبقـــدر ما يرغب في التعبير عما يـــرى ويحدس، ولذلك فإن لغة الصوت ليست واحدة.

ونلاحظ بأن الطعام علـــى النار يُصدر أصوتـــاً مختلفة مع كل مرحلـــة من مراحل نضوجه.

يمكن لنا أن نتعلم من ذلك بأن علينا ألا نقول جملة قبل حلول موعدها من الحديث، ومن الأحداث والوقائع.

ولذلك نرى الإنسان الحكيم يعتمد على الإيحاء أكثر مما يعتمد على التعبير المباشر بالكلمات.

قال ابن لقمان الحكيم لأبيه ذات يوم: يا أبي أريد أن أعرف منك أمرا.

قال: نعم يا بني.

قال: هـــل أستطيـــع أن أرضـــي الناس جميعاً.

لم يجبـــه، وفي صبيحة اليوم التالي طلب أن يصطحبـــه في طريق قبـــل ذهابهما إلى العمل.

فقال الابن: أجل يا أبي.

طلب إليه لقمان أن يحضر الحمار.

أسرع الابن في إخراج الحمار إلى الطريق ومضيا بعيداً عن الديار.

بعد شـــيء من المسير والابـــن ينتظر ما يقول حتى يعرف إلى أين يتجه مع أبيه.

أوقف لقمان الحمـــار، وبعد قليل ركبه داعيا الابن أن يمشي بجانبه في الطريق.

يمشـــي الابـــن وهـــو ينتظر مـــا يقوله، ولقمان يمضي راكبا الحمار دون أن يتحدث بشيء.

بعد مسير طويل اقتربا من جمع من الناس كانوا يجلسون بفيء شجرة، مرا من أمامهم والقيا عليهم السلام.

أجابوا علـــى سلامهما، ثم قال أحدهم: أما نظرتم إلى هذا الشيـــخ القاسي، يركب الحمـــار دون أن يأبـــه بابنـــه الصغير الذي يمشي على قدميه.

التفت الابن ليجيب عليه، فمنعه لقمان وأكمل المسير.

بعـــد غيابهمـــا عن ذاك الجمـــع أوقف لقمان الحمار، وطلب من ابنه أن يركب بدلا عنه.

تردد الابـــن، إلا أن أباه أمـــره أن يفعل ذلك، فاضطر الابن إلى ركوب الحمار وأبوه يمشي بجانبه.

مضيـــا في الطريـــق إلى أن اقتربـــا من شخصين يأتيـــان في ذات الطريق، وعندما مرا من أمامهما وتبادلوا السلام فيما بينهم، سمعا صوت أحدهم يقول لصاحبه: انظر.. انظـــر، ياللعجب، هذا الابـــن ركب الحمار تـــاركا أباه الشيخ يمشي على قدميه دون أن يكرمه.

أراد الابـــن أن يجيـــب عليه فمنعه الأب وطلب أن يمضي بالحمار في الطريق.

بعد مسير آخر طلب إليه أن يقف، وعند ذاك ركب هو الآخر الحمار مع ابنه، ومضيا في الطريق.

مرا بجانـــب جمع من النـــاس يجلسون أمام بيت، ألقيا عليهم السلام.

أجابوا علـــى السلام، ثم ما لبث أن قال أحدهـــم: يا لقسوة قلبيهمـــا، ركبا معا على هذا الحمار المسكين دون أن يرأفا به.

بعد بعض المسير طلب من ابنه أن يوقف الحمار لينزلا ويمشيا إلى جانبه.

مشيـــا إلى جانـــب الحمـــار إلى أن مرا بثلاثـــة رجال يمضـــون في الطريـــق، ألقيا عليهم السلام، وبعد أن أجابوا قال أحدهم لصاحبيـــه: أما رأيتم هـــذا العجب، معهما حمار ولايركباه.

عند ذاك وقف الابن وقـــال لأبيه: الآن أجبتنـــي خير إجابة على ســـؤال البارحة يا أبت.

ذكــر الإمام مالك في الموطأ عن عمر بن الخطــاب -رضي الله عنــه- أنه دخل على أبي بكــرٍ الصديق -رضــي الله عنه- وهو يجبذ لسانه، أي: يجــره بشدة، فقال عمر: «مَه!! غفــر الله لك»، فقال أبو بكرٍ -رضي الله عنه-: «إن هذا أوردني الموارد».

– قــال رجل: رأيــت ابن عباســ آخذًا بثمرة لسانه وهو يقــول: «ويحك، قل خيرًا تغنم واسكت عن شرٍّ تسلم، فقال له الرجل: يا ابن عباس، مالي أراك آخذاً بثمرة لسانك وتقــول كذا وكذا؟ قال ابن عباس: بلغني أن العبــد يوم القيامة ليس هو على شيءٍ أحنق منه على لسانه»، يعني لا يغضب على شيءٍ مــن جوارحه أشد من غضبــه على لسانه، والأثر أخرجه ابن المبارك وأحمد وأبو نعيم وأحمد في كتاب الزهد.

– وقــال عبــد الله بن أبــي زكريا: «عالجت الصمت عشرين سنة فلم أقدر منه على ما أريد»، وكان لا يدع يعاتب في مجلسه أحــد، ويقول: «إن ذكــرتم الله أعنّاكم، وإن ذكرتم الناس تركناكم».

– وكان طاوســ بن كيسان -رحمه الله- يعتذر من طول السكوت ويقول: «إني جربت لساني فوجدته لئيمًا راضعًا».

– وذكر هناد في كتابه الزهد بسنده إلى الحســن أنه قال: «يخشــون أن يكون قولنا (حميــد الطويل) غيبة»، لأنهم بينوه ونسبوه أنه طويل.

– وأخرج وكيــع في الزهد وأبو نعيم في الحلية من طريق جرير بن حازم قال: «ذكر ابن سيرين رجلا، فقال: ذلك الرجل الأسود، -يريد أن يعرّفه-، ثم قال: أستغفر الله، إني أراني قد اغتبته».

– وكان عبد الله بن وهب -رحمه الله- يقول: «نــذرت أني كلما اغتبــت إنسانًا أن أصوم يومًا، فأجهدني -يعني تعبت- فكنت أغتاب وأصوم أغتــاب وأصوم.. فنويت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمن حب الدراهم تركت الغيبة».

– قال النووي في الأذكار: «بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بــن صيفي اجتمعا، فقال أحدهمــا لصاحبه: كم وجــدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، فوجدت خصلــة إن استعملتها ســترت العيوب كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان».

– قــال إبراهيم التيمــي: «أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين عامًا ما سمع منه كلمة تُعاب».

- وقيـل للربيع: «ألا تـذم الناس؟ قال: والله إني مـا أنا عـن نفسي براضٍ فأذم النـاس؟! إن الناس خافـوا الله على ذنوب الناس، وأمنوه على ذنوبهم».

قـال حماد بـن زيد: بلغنـي أن محمد بـن واسع كان في مجلس فتكلم رجل فأكثر الكلام، فقـال له محمد: ما على أحدهم لو سكت فتنقى وتوقى.

وقال بكـر بن المنـير سمعـت أبا عبد الله البخاري يقـول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً.

الهوامش:

- من قصيدة للشاعر الإنكليزي /الإليزابيتي/ كريستوفر مارلو بعنوان /أغنية الراعي العاطفي لحبيبته/.

المراجع

١- موقع بيكيديا- الموسوعة الحرة.
٢- تفسير ابن كثير.
٣- كتاب الموطأ- الإمام مالك.
٤- ديوان الشافعي.
٥- معجم مختار الصحاح.
٦- المستطـرف من كل فن مستظـرف- لمؤلفه شهاب الدين أبي الفتح محمد بن أحمـد الأبشيهي- منشورات وزارة الثقافة السورية.





فلسفة الذكاء الصناعي

❋
وسيم طاهر حسن

لقد رافق اختراع الكمبيوتر الخطوات الأولى للجواب على السؤال: كيف يفكّر الإنسان؟.. وكان الهدف منه إيجاد طريقة مناسبة لبرمجة الكمبيوتر. ومع تطور الكمبيوتر ظهر علم الذكاء الصناعي. ومع التطور الهائل للأجهزة العلمية واستخدام برامج الكمبيوتر في تحليل النتائج تطورت أبحاث تحليل الحموض النووية وعلم الوراثة والكيمياء الحيوية وأصبح بحث الذكاء الصناعي مرتبطا بتطوير الكمبيوتر وتطوير برامجه، وكذلك مرتبطا بفهم

❋❋ باحث من سورية.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

تركيب وطريقة عمل الدماغ، باعتبار عقل الإنسان الحد الأقصى في هذا المجال، حيث لاحظ العلماء أن طريقة عمل الكمبيوتر تحاكي طريقة عمل العقل، وإن كانت النتائج محدودة فإن أبحاث الذكاء الصناعي تسعى لتحسينها.

يمكن اعتبار أبحاث الذكاء الصناعي تسير باتجاه تطوير أساسي هو التعامل بين الآلة والإنسان بالإجابة على السؤال التالي: كيف نطور الآلة ليكون جواب مجموعة من الناس مشابه لجواب مجموعة من (الآلات) على السؤال التالي: (أنت ذكي) ماذا أعني؟؟. إذا قرأت العبارة تجد لها معنى (أنت ذكي)، ولكن إذا قيلت في سياق حديث يصير لها معان مختلفة (أنت شديد الذكاء)(أنت ذكي) (هل أنت ذكي؟.) و(أنت غبي)، إن فهم العبارة متعلق بسياق الحديث وقد تتعلق بالكلمتين فقط مع إضافة المؤثرات الصوتية للفظها وإضافة مؤثرات بصرية. إذا كيف سنفهمها وتفهمها الآلة ؟؟ باعتبار أنه من غير الممكن إعادة صياغة أبجديّتنا لصناعة لغة ليس لكلماتها كيفما قيلت سوى معنىً واحداً.

هنا لابد أن أذكر أهمية هذا الاتجاه في الدراسة على الواقع: إن جميع الأحداث التاريخية المرتبطة بالأشخاص نقلت إلينا دون مؤثرات صوتية أو بصرية، وهكذا يمكن القول إن ترجمة تلك الأحداث، التي حدثت منذ مئات السنين أو منذ دقائق، هي ترجمة نسبيّة الصحة فهي تشبه الحقيقة ولا تطابقها وأحيانا قد تكون مناقضة لها، وذلك متعلق بقدرة المترجم والأدوات التي يعتمدها.

مقدمات الذكاء الصناعي

لابد من إلقاء الضوء على بناء جهاز الكمبيوتر وتطور هذا البناء لمقارنته لاحقا بالدماغ. خاصة لمن تعودوا استخدام الكمبيوتر دون الخوض في محتويات الجهاز وطريقة عمله ومواصفاته. لقد تطورت صناعة الكمبيوتر من جهاز يستخدم الصمام الثلاثي بحجمه الكبير (حجم راحة اليد) والأسلاك الكهربائية الثخينة والطويلة والطاقة الكهربائية الهائلة التي يستهلكها عمله البسيط في ذلك الوقت، إلى جهاز صغير الحجم يتركب من أجزاء لا ترى إلا بالمجهر وقدرات هائلة وأعمال كثيرة معقدة ويمكنه الاتصال بالعالم لنحصل (يحصل) على المعلومات ولا يستهلك إلا القليل من الطاقة الكهربائية، إن تطور الذكاء الصناعي وفهمنا لكيفية عمل الدماغ مرتبطان إذاً ببعضهما ارتباطا وثيقا بناءً وعملا، وبما أننا أكثر معرفة بتركيب

الكمبيوتر وطريقة عمله لذلك سوف ننطلق منه كنموذج مصغر قليل التعقيد.

المراحل المختلفة لعمل الكمبيوتر

يمــر الكمبيوتــر بمراحــل مختلفة من التصنيع إلى الاستثمار سنشرح ما يهمنا من كل مرحلة .

مرحلة التصنيع

يتــم فيهــا صناعــة المعالــج المركــزي والمعالجــات المتخصصــة واللوحــة الأم وبرنامج الإقلاع والذاكرة ووسائط الإدخال والإخراج.

المعالج المركـزي: أهم جزء في الكمبيوتر حيث تتــم ضمنه معالجــة المعلومات وحل المسائل المختلفة معالجــة المعلومات متعلق بتركيب المعالج داخليا وطريقة دخول الإشارة الكهربائيــة إليه وشكلها. الكمبيوتر المتطور يحوي مجموعة معالجات مركزية، إن قدرة هــذا الجزء مــن الكمبيوتر تحــدد القدرة الأعظميــة لاستخــدام الكمبيوتر من حيث البرامج الممكــن استخدامها وطرق المعالجة والسرعــة ، لأن عمل الكمبيوتر يعتمد على إدخال إشارات كهربائيــة إلى المعالج بشكل محدد لتتم معالجتها وإعادة تنظيمها حسب تركيبه لتخرج بشكل آخر، لذلك يهمنا كثيرا أن نذكــر طريقــة بناء هذا الجــزء: يصنع المعالــج من رقائــق صلبة بسماكــة المليمتر ويتم توجيه أشعه علــى سطح هذه الرقاقة بطريقة محــددة، هذه الأشعة تؤثر في قدرة المادة التــي تصنع منها الرقاقة على إطلاق إلكتروناتها وضمن مســارات محددة بحيث مكننــا تطور تصنيــع هــذه الرقاقات من تصنيع مئــات الألوف مــن الصمامات في مساحــة السنتمتر المربــع الواحد، إن عمل وحدة المعالجة يعتمد علــى انتقال الإشارة الكهربائية عند دخولها ضمن خطوط معينة لتتلاقــى في لحظة محددة عنــد تقاطعات بحيث يؤثر مرور أو عدم مرور الإشارة (O / ١) في أحد خطــوط نقطة التقاطع على مرور الإشــارة في الخط الآخر، أي إن هذه النقاط تتعامل مــع السماح للتيار بالمرور بـ (نعم أو لا) ولذلــك سميت دارات منطقية. ولقد كان تطور زيادة عدد الخطوط المكونة لبنــاء الإشارة الواحــدة أهم خطوات تطور المعالجــات في الكمبيوتــر وصل عددها (٨ – ١٦ – ٣٢ –٦٤) لأن ذلك يؤدي إلى تسريع عملــه وقدرته على تحليل الإشارة الواحدة، ويتم تحديد موقع نقاط التقاطع في الرقاقة بناءً على تصاميم يعتبرها المصممون أفضل الطــرق وأسرعها لوصــول إشارة قادمة إلى المعالج بهدف محــدد مسبقا وخروجها منه مــع تحقيق الهدف. المنطق بالنسبة للرقاقة إذاً متعلــق بمرور أو عدم مــرور التيار (O



/١) في التقاطعات، ومنطقية تكامل هذه العمليات مجتمعة تحدد بالنتيجة قدرة المعالج.

يقوم المصممون بتحديد العمليات الأساسية التي يحتاجونها لتنفيذ عملية بسيطة محددة ،كالجمع مثلا: يقومون بتحديد شكل عملية الجمع كهربائيا من خلال مرور أو عدم مرور تيار في مجموعة الأسلاك التي تمثل العملية الواحدة عند البدء بتنفيذ أمر عملية الجمع، وطريقة دخولها إلى المعالج ،ثم يقومون بتوزيع العملية على الخطوط وتحديد مواقع التقاطعات مع الإشارات (العمليات أو المعلومات) الأخرى لتحقيق نتيجة صحيحة للعملية، ومن مجموعة هذه العمليات كطريقة وجدت لغة الآلة، وكتصميم تطور المعالج المركزي. لغة الآلة هي اللغة التي يخاطب بها المعالج المركزي المحيط فلغة الآلة هي أم اللغات للتعامل المنطقي بين المادة والإنسان، وبسبب صعوبة هذه اللغة نشأت لغات أكثر تواصلا مع الإنسان كمترجمات بين رموز لغة الآلة وكلمات أكثر سهولة للإنسان، وهنا نلاحظ أن القضية في لغات البرمجة هي تقريب الآلة من الإنسان على حساب فاعلية الآلة، لأن أيّ لغة برمجة تنفذ مجموعة كبيرة من التعليمات للوصول إلى التعليمة الوحيدة التي يتعامل معها الكمبيوتر بلغته (تعليمة لغة الآلة).

المعالجات المتخصصة: هي معالجات تتم صناعتها بنفس طريقة صناعة المعالج المركزي، ولكن العمليات التي تقوم بها على الإشارات الكهربائية الداخلة إليها تعتمد على أهداف خاصة متعلقة باختصاص المعالج، فهناك المعالج الضوئي الذي يحول

الإشــارات إلى شاشــة العرضــ، ويستقبل الصور فيحولها إلى إشارات، وهناك المعالج الصوتي الذي يحول الإشارات بعد تنظيمها إلى الطرفيــات الصوتية ويستقبل الأصوات فيحولهــا إلى إشــارات، وغــير ذلــك من المعالجــات المتخصصــة. إن استقلال عمل هذه المعالجات والذاكــرة التابعة لها يؤدي إلى تحســين الأداء العــام للجهاز من خلال تقاسم وتشارك العمل مع المعالج المركزي.

نظام المقاطعة الزمنية: يتم تصميم وحدة المعالجة المركزية على أساس معالجة متتابعة للإشارات الكهربائيــة التي تشكل البرنامج المراد تشغيله، مع الأخــذ بعين الاعتبار أن هنــاك مجموعة من العمليات والبرامج لابد من تنفيذها أثناء تنفيذ البرنامج الأساسي، لذلــك يتم تصميم المعالج لقبول بناء (نظام مقاطعة) لهذا الغرضــ، حيث يتم كل فترة زمنيــة محددة توقــف (مقاطعــه) لمعالجة البرنامج الأساسي والانتقال لتنفيذ برنامج المقاطعة، وبناءً على نتائج هذه المقاطعة يعود المعالــج المركزي لمعالجة البرنامج الأساسي. فمثلا مــن الأعمال التي يقــوم بها برنامج المقاطعــة قــراءة إدخالات لوحــة المفاتيح والفــأرة والبريــد الوارد وتنشيــط الذاكرة وأعمــال أخرى. فنحن قــد نرغب بإيقاف قســري للبرنامج الأساسي بعــد تشغيله، أو قــد نستلم رسالة عبر البريــد، فكيف سيتم ذلك مــا لم تتم مقاطعة عمــل المعالج؟. أي أن المعالــج لا يقوم بعدة أعمال دفعة واحدة وإنمــا يقوم بالتنقــل السريع بين برنامجين، المهم أن زمن الانتقال غير محسوس بالنسبة للإنسان.

اللوحــة الأم: هــو الجســم الذي توضع عليه أجــزاء الكمبيوتر الأساسية والأسلاك الكهربائيــة اللازمــة لوصلها مــع بعضها، وهو بمساحــة ٢٠×٢٠ سنتمــتر للأجهزة المنزلية.

برنامــج الإقــلاع (البرنامــج القيــادي): وهو برنامج وسيط يعمل على تهيئة الأجزاء المختلفــة للعمل لحظة تشغيــل الكمبيوتر، حيث يقــدم العمليات الأساسية لبدء العمل قبل الدخــول إلى برنامج العمــل الأساسي الــذي تمَّ تشغيل الكمبيوتر مــن أجله. لقد نشــأت الحاجة له من خلال تعــدد أشكال الاستخدام المحتملــة للكمبيوتر، حيث لابد للكمبيوتر من التعرف علــى لوحة المفاتيح والشاشــة وبقية المكونات مثــلا، سواء كان الغرض تصميم بناء أو كتابة نص.

الذاكــرة: هــي المكان الــذي تخزن فيه المعلومــات والبرامــج اللازمة لحــل مسألة محــددة، ويتم تخزينها على شــكل إشارات كهربائية هي ذاتها التي يتعامل معها المعالج

المركزي، والذاكــرة لها مستويات: فالمستوى الأول هــو ذاكرة المعالج المركزي وهي ضمن بنائه ويستخدمها لعملياتــه المباشرة فائقة السرعة. المستوى الثاني للذاكرة هو الذاكرة العامــة العشوائيه المسمــاة (رام)، المستوى الثالث وحدات التخزيــن الصلبه والليزرية وغيرهــا، لكل من هذه الذاكرات خصائصه وطرق خاصة للتعامل معه. ومن الطبيعي أن يكون الحصــول على المعلومات متأثراً بهذه المستَوَيات إن لم يكن مرتبطا بها، فمثلا لحل مسألة معينة يبحث البرنامج عن معلومة في المستــوى الأول للذاكرة فــإن وجدها توقف عــن البحث علما أن من الممكن أن يكون لها قيمــة مختلفة أو مماثلــة في المستوى الثاني أو الثالث.

وسائــط الإدخــال والإخــراج: هي منافذ الكمبيوتر إلى العــالم الخارجي، وهي كثيرة جدا ومتعــددة الأشكال والأهداف وتختلف في أجهــزة الكمبيوتــر حســب الغرض من الجهــاز، فالغرض قــد يكــون التعامل مع الإنسان وبالتــالي تمَّ تصميم لوحة المفاتيح والشاشــة والفأرة كوسائط لهــذه العلاقة، وقد يكون الهدف تشغيــل آلة مثل الطابعة ومحركاتهــا بمختلف أنواعهــا، أو محركات ليــد إنســان آلي أو خط إنتــاج في معمل، أو حساســات حراريــة لقياس الحــرارة أو حساسات ميكانيكية تعطي الكمبيوتر إشارة لوجود حركــة في مكان محدد، أو حساسات ضوئية..إلــخ، وقــد تكون قريبــة أو بعيدة الموقع عن الكمبيوتر وتتصل به عبر أسلاك تنقــل الإشــارة الكهربائية التــي يصممها البرنامــج المخصص في المعالج المركزي. قد تحتوي هذه الوسائط على وحدات معالجة وذاكرة أكثر تخصصا للإشارة القادمة إليها والخارجة منها.

بعــد أن تعرفنــا على تركيــب وأجزاء الكمبيوتــر ومهمة كل جــزء سنتعرف على استخدام الكمبيوتــر والذي يمر بمرحلتين عامتين أساسيتين:

مرحلة البرمجة

يتم تحديــد الموضوع الــذي سنستخدم الكمبيوتــر لمعالجته وتحديــد طريقة الحل الأمثــل (حسب ما توصل إليــه المبرمج) ثم تحليل خطــوات هذا الحل بطريقة واضحة خطوة خطوة. ونقوم بتحويل هذه الخطوات التي نفهمها كبشر إلى الشكل الذي يستخدمه الكمبيوتر من خلال استخدام الأوامر التي تقدمها لنا لغة البرمجة، وكما قلنا نستخدم لغة برمجــة وسيطة وليس لغة الآلة عموما، ونقــوم بإضافة العمليــات اللازمة لتحديد طــرق إدخال المعلومات التي نحتاجها للحل وكذلك التعليمــات اللازمة لتحديد طريقة

ظهور النتائج. إن مجموع هذه العمليات من عمليات إدخال ومعالجة وإخراج تسمى (البرنامج)، بعد ذلك يتم كتابة هذه الخطوات بدقة على لوحة المفاتيح التي تتصل بالمعالج الذي يحولها إلى الذاكرة والشاشة. ثم تتم عملية ترجمة (تحويل) لكل تعليمة من لغة البرمجة إلى لغة الآلة ليتمكن الكمبيوتر من تنفيذ هذه التعليمات المتتابعة (البرنامج) عند الطلب (الاستثمار).

مرحلة الاستثمار

في هذه المرحلة نستخدم الكمبيوتر لتشغيل البرنامج المتكامل المحدد لحل الموضوع المحدد الذي تم وضع البرنامج له، أي أن الكمبيوتر يصبح مسخرا لهذا الموضوع حصرا، ونقوم بإدخال المعلومات اللازمة لحل المسألة التي صمم البرنامج لها بالترتيب الذي يمليه سير البرنامج وبالتالي الحصول على الحل النهائي، ويمكن أن يسخر الكمبيوتر بعد الانتهاء من هذا الموضوع لموضوع آخر، وهكذا. بالتالي عمل الكمبيوتر مرتبط بالبرنامج الذي نشغله عليه. هناك أجهزة كمبيوتر تخصصية بمجال عمل محدد حيث يتم تحميلها ببرنامج محدد لا يمكن تغييره وكذلك بوسائط إدخال وإخراج تخصصية كالأجهزة المستخدمة للسيطرة على خطوط إنتاج المعامل. أو التحاليل المخبرية وغيرها.

كيف نستفيد من الذكاء الصناعي

الهدف من أبحاث الذكاء الصناعي محاكاة الذكاء البشري صناعيا، أي صناعة وحدة معالجة مركزية ودعمها بالبرامج اللازمة لكي تستطيع القيام بالأعمال التي يقوم بها الإنسان فيستحق أن يوصف أنه ذكي، فتكون وحدة المعالجة ذكية. فالقضية إذا كخطوة أولى تحديد معنى الذكاء، القضية هنا هامة جدا، فالذكاء نسبي من شخص لآخر ومن موقف لآخر، كثيرا ما وصفنا شخصا بالذكاء ثم عدنا لنقول غير ذلك عنه بعد فترة بسبب توضح النتائج غير المباشرة للعمل الذي وصف من أجله أصلا. إننا نصف الخطط الحربية بالذكاء بسبب التخطيط والمغامرة والفوز وعدم التقيد بالمنطق المتسلسل كالكمبيوتر، غير الذكي، وبالتدقيق نعود لنقول عكس ذلك إذا كانت النتيجة الخسارة.

الإنسان يتصف بالعديد من الصفات أهمها محدودية قدراته، بكل المعنى لقدراته، فماذا سيحدث إذا صنعنا آلة تحوي ذكاءً غير نسبي وزودناها بكل الإمكانات التكنولوجية الحديثة (وما سيستجد زمن صناعتها)؟.. هنا يجب أن نعود للبدء: الهدف من البحث في علم الذكاء الصناعي هو: «فهم الإنسان ومساعدته بهدف تحسين حياته».

هل أقول هنا أنني استخدمت الأسلوب المنطقي (الخطوة ـ خطوة) للوصول إلى هذه النتيجة، وهذا أسلوب الكمبيوتر، في حين أن الذكاء كان ليوصلنا إلى هذه الحقيقة (الفرضية/ النظرية) من اللحظة الأولى.

أود أن أذكر الآن الخاصية الأهم للعقل، أعني تداخل الأفكار والبرامج بشكل هائل، وتأثير بعضها على بعض. إن مجرد التفكير أن المشاعر الإنسانية السامية التي تميز الإنسان على مدى التاريخ قد تكون منطقية ولها قواعد ومواد كيميائية متعلقة بها، يفتح أبواب جهنم ، علما أن الإنسان منذ عشرات السنين يعرف أن الخوف، أحد أهم المشاعر الإنسانية الغريزية، يتسبب بإطلاق مادة الإيدرينالين في الجسم، ومنذ عشرات السنين نقاوم عقار السعادة أحد أهم المشاعر الإنسانية. ومنذ عشرات السنين نعرف أن النبات والحيوان له مشاعر وأحاسيس، نرفض الاعتراف صراحة بذلك ونقول: الغريزة. . ولكن.

المراحل المختلفة لعمل العقل

إن معرفتنا عن تركيب العقل البشري مازالت محدودة، أما طريقة عمل العقل التي هي أعمق بكثير فهي أبعد عن معرفتنا، ذلك بسبب أن تركيب العقل يمكن التعرف عليه من خلال تطور الأجهزة المخبرية والتحليلية. فالعقل من حيث تركيبه ممكن المعرفة، أما طريقة عمله فهي أكثر تعقيداً بسبب ارتباط معرفتها بقدرتنا على تحليل مجريات عمل خلايا العقل، كما هو الفرق بين معرفة المواد الداخلة في تركيب المعالج المركزي وخصائص هذه المواد وطريقة انتقال الكهرباء فيها، وبين منطقية توزع الإشارة الداخلة إليه ومعالجتها وفق برنامج.

تركيب الدماغ

إن العقل (الدماغ) يتشكل من الخلايا العصبية التي تتوضع على سطح كتلة الدماغ، هذه الخلايا تتميز عن خلايا الجسم بأنها لا تموت ولا تتجدد أي إن الخلية ترافق الإنسان من النشوء إلى الموت، هذه الخلايا تتصل مع بعضها البعض عبر شبكة من الأذرع تمتد من الخلية لتتصل بالخلايا المجاورة عبر نقاط التقاء غير ملتصقة، والعنصر المميز في الخلية هو (المحور) الامتداد الصادر عنها ليصل إلى نهاية عصبية في منطقة ما من الجسم، إما أنها نهاية حسية تستقبل إشارة من الخارج من نوع معين من المحرضات، أو نهاية عضلية (ميكانيكية)، أو لها وظيفة التحريض على الإفراز (الغدد). مجموع هذه الخلايا والامتدادات الصادرة عنها تكون الجهاز العصبي للإنسان، والمعروف عن الدماغ

أيضــا أنه مقسم إلى مناطق كل منها يقترب من الاختصاص بوظيفــة محددة، أما كيف يتم اختزان المعلومات؟.. وأين في الخلايا؟.. وكيــف يفهم الإنسان؟.. وأسئلة أخرى كثيرة فليس هناك جواب لها حتى اليوم.

مع تطــور علم الجينات يمكــن مقارنة خلايــا الدمــاغ بأنها: كمبيوتــر، صماماته جزيئــات كيميائيــة لا ترى حتــى بالمجهر الإلكــتروني، وطاقــة متعلقــة بالتفاعلات الكيميائيــة الجارية في الخليــة من خلال ما ينقله الدم مــن سكريات وأوكسجين. أي إن الخليــة التي لا ترى بالعــين هي معمل ضخم يستخدم الكمبيوتر لإدارة ذاته، ويقيم علاقات مع المعامل الأخرى من خلال نقاط الالتقــاء، وإمدادات الخلايــا (المحور) هي طرق توصيــل الإشــارة إلى أعضاء الجسم (وسائط الإدخــال والإخراج) بدل الأسلاك وتتفــوق عليها قــدرة وحجمــا، والنهايات الحسية بــدلا عن المجســات والحساسات الحرارية والميكانيكية والضوئية..إلخ، وإذا علمنــا أن نتيجــة تفاعل الجســم البشري (النهايــات الحسية للخلايــا العصبية) مع المحيط هي إشارة كهربائية تنتقل إلى الدماغ ليتم تحليلها وإعطاء نتائج يتعلق بها رد فعل الإنسان، وأن هذه الآلية ذاتها في الكمبيوتر يكون واضحا أن فهمنــا للكمبيوتر سيسهل علينــا فهم أنفسنا، وأن فهم أنفسنا سيسهل تطويــر الكمبيوتر، وهذا هــو اتجاه أبحاث الذكاء الصناعي: الفهم والتطوير.

وهنــا أذكــر الأبحــاث التي يقــوم بها الإنسان في دراســة الحيوانات والمجتمعات الحيوانية ليحصل علــى معلومات تساعده في فهم ذاته ،ولقد حصل منها على الكثير، فالإنسان جادٌّ في رغبته فهم ذاته مهما كلفه الأمر .

الغريــزة: هي الاسم الــذي نطلقه على تصرف الكائنات الحية عموما تجاه مواضيع محددة لم يتم ربطها بأية عملية تعلم سابقة. خلايا الــدم البيضاء تهاجــم كل الدخلاء إلى الدم، فهــل هذه غريزة البقاء عند هذه الخلايا؟.. أم أنه توافــق وتعارض مركبات كيميائية كما تظهر الأبحاث؟.. هل ما نقوله هنــا ينطبق على الإنسان بطريقة لا نفهمها بعــد، أم هي عملية مقارنة منطقية يجريها العقــل بشكل مستمــر، أم برنامــج قيادي مسبــق الإعداد بتكوين العقل؟.. إن الغريزة من المواضيــع التي لم يكتشــف الإنسان لها تفسيرا واضحا بعد.

المشاعـر والأحاسيـس (السعادة – الحب – الخــوف..) أسمــاء نطلقها علــى حالة الإنســان في ظــروف غير عاديــة تعبر عن تغــير مؤقــت حــدث في داخله ولهــا تأثير

علــى ردود أفعاله. هل هـــي قضية دماغ أم روحانيــات؟.. مهمــا كانــت الحقيقة فمن المعــروف أن الدماغ يسيطــر بالنتيجة على هــذه المشاعر، وهو يتجــاوب معها بإطلاق مركبــات كيميائية. هناك عقاقير تصنع في المعامل تعطي مؤشــرا على إمكانية التدخل في مشاعر الإنسان، منها عقاقير (السعادة) التي تجعــل الإنسان في حالة سعادة عديمة السبب أو التوجيه عدا دخول مركب كيميائي إلى الجسم. هــذا المركب يؤدي إلى تخريب عمليات المعالجــة التي يجريها الدماغ على المعلومــات وعلى اختيــار المواضيــع التي بحاجــة للمعالجة، حيــث أن السعادة أحد أهــم المحفزات الإيجابيــة للعقل ،وفي حال عدم السيطرة عليها لن يعرف العقل حقيقة النتائج التــي وصل إليها فيصبح الفرد غير فعــال في المجتمع، وهذا هــو سبب محاربة انتشــار مثل هــذه العقاقير بــين الأفراد. قدرات غير عادية الحاسة السادسة وتوارد الخواطــر الأحاسيس التوأمية من المواضيع التــي لم تفهم ولم يحدد لهــا أي توجه بسبب نقص المعلومات والأدوات للدراسة. ما هي الأداة التــي تمكن الشخصــ من معرفة ما يفكر به شخصــ آخر؟.. أم أن هناك اتفاق مسبق بين الشخصين ؟..

التعلم عند الإنسان

الدراســات التي تنطلق مــن أن مرحلة التعلــم عند الإنسان تبدأ قبل الولادة كثيرة، فهو مــن لحظة اكتمــال جهــازه العصبي وقبــل ولادتــه يستخدم ما لديــه من طرق للاتصال بالعالم المحيــط به، ويعبر صراحة بالحركة عن فهمه لمــا يصله من معلومات، ولفهم ذلك يكفي أن نسأل الأمهات، وكذلك الدراسات التي تعتمــد على أن الإنسان في مرحلــة الطفولة يتفاعل بفهم عميق مع كل ما يدور حوله، وبسبب دقته لا يدرك المعاني غــير الظاهرة (المباشرة) كالمــزاح أو الحب العميــق الكامن وراء العقاب مــن الأبوين، إن كل تصــرف غير مقصــود مباشرة يشكل مشكلــة على المربــي والطفــل ، فهو يفهم الأحداث المباشــرة بتحليل متسلسل منطقي ويتعلمها مــن خلال التحفيــز الإيجابي أو السلبــي، فعندما نعاقبه على الكذب يصبح الكذب خطأً، فــإذا كذبنا أمامه دون عقاب التبســ عليه الأمر، لأننا أخطأنا ولم نعاقب، نحن الذين عاقبناه على الخطأ. فالمنطق إذا بالنسبة للطفــل متعلق بما يتلقاه من مربيه والمحيطين به كتحفيز إيجابي أو سلبي.

إذاً العقل فعال من لحظة تكوينه ، ولكن لأي درجــة؟.. كيف تتغــير طريقة معالجته

للمواضيع؟.. هل نقارن مرحلة التعلم هذه بمرحلة تصنيع المعالج المركزي أم مرحلة البرمجة؟.. المثل العام يقول (الطبع يغلب التطبع) (التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، صعب جدا وراسخ جدا)، إن عملية تعلم معالجة موضوع تمت في ظروف معينة أدت إلى نتيجة محددة قد لا تؤثر فيها سنوات من محاولات تغييرها، وقد يحدث أن تتغير بفعل حدث مفاجئ. وحتى لو استطعنا التأثير وتعديل طريقة المعالجة وتغيير النتيجة، نلاحظ أن عملية التعلم الأولى مازالت موجودة عميقا في العقل، فالخوف من الظلام مثلا يستمر مع الإنسان في الكبر مهما حاولنا تغييره، ولو تمكن الشخص من البقاء في الظلام فهو يقاوم ويتجاهل أحاسيس حقيقية داخلية من الخوف، وفي ظرف طارئ كأن ينام ويستيقظ فجأة في الظلام قد يؤدي ذلك إلى ردة فعل مثل التوتر الشديد ومضاعفة الخوف، مما يدل على وجود مستويات للذاكرة والتعليم عند الإنسان قد تكون مشابهة لمستويات الذاكرة في الكمبيوتر.

ثم إن عملية التفكير تتم بتسلسل منطقي محدد، وتعامل مباشر مع المعلومات، هذه هي الطريقة المتبعة عند الإنسان والكمبيوتر. ففي لعبة الشطرنج مثلا هناك مجموعة من الاحتمالات للحركة يدرس الإنسان والكمبيوتر نتائج كل منها ويحدد الأفضل، وهذا أحد أشكال تمييز القيمة للعمل (صح/ خطأ)، في حين يقوم الإنسان المتميز بتنفيذ استراتيجيات منها الخدعة والمناورة والمغامرة وهذا الأسلوب متعلق بتفوق شخص على آخر، إذ إن الذكي لا ينخدع، هذه العمليات غير متسلسلة منطقيا وغير أكيدة النتائج وتعتمد على خطأ التقدير من الشخص الآخر، وتعتمد أحيانا على إشغال الخصم بمسائل ليست مباشرة في الموضوع الأساسي، أي محاولة تشتيت طريقة تعامله مع موضوع المعركة، وبالتالي ليست من العمليات الصحيحة منطقيا، وبالتالي لا يمكن اعتبارها تميّزا في الذكاء.

إن عملية التربية والتعليم بالمعنى الحقيقي لها تهدف إلى بناء العقل البشري والمحافظة عليه سليما وتوجيه إمكاناته، وبما أن هذه العملية تتم بعد سنوات من وجود الطفل (العقل) لذلك صار اكتشاف مواقع الإبداع عند الطفل ثم توجيهها المهمة الأساسية للتعليم ،أي إن مهمة التعليم ،إذا تأخر، هي البحث عما تبقى في العقل من قدرات، في حين إذا بدأنا عملية التعليم مع التكوين يكون العمل استمرارا وليس بحثا وإصلاحا.

ما هي المواضيع التي يدركها العقل في مراحله الأولى (عقل الطفل)؟.. وتلك التي يدركها بعد سنوات؟.. إنه يتفاعل مع حالة أمه النفسية ولكنه لا يعرف عملية بسيطة مثل (1+1). العقل في مرحلة الطفل يعرف ما يؤذيه ولكنه لا يعرف الشرور. العقل في مراحل العمر المتقدمة بعد سنوات يصير عسيرا عليه فهم أحاسيس أمه أو معرفة ما يفيده وما يؤذيه لكنه قادر على حل المسائل الحسابية المعقدة!. إن عملية تعلم العقل إذا تسير باتجاهين على الأقل: الاتجاه الأول زيادة معارفه ومعلوماته (خبراته)، والاتجاه الثاني تغيير طريقة التعامل مع المؤثرات والمعلومات. وبما أن قدرة العقل بعد عمر معين تصبح محددة بتركيبه الأساسي وآلية تطور هذا التركيب، فإن قدرته بالتالي على تحليل المعلومات واستنتاج النتائج محددة وثابتة فيه، ولا نستطيع زيادة قدرته على التحليل، وإنما نستطيع استخدام هذه القدرات وتغيير توجيهها. فكثير هم المتعلمون والمثقفون وقليل هم الأذكياء والمبدعون. هل فعلا نحن نطور عقولنا بعمليات تعلم جديدة؟.. أم أن التطوير هو من قبيل استخدام نفس المعادلات ولكن لمتغيرات أكثر تطورا؟؟..

التكون والتعلم وردود الفعل عند الإنسان

يكتمل تكوين العقل والجهاز العصبي عند الإنسان مع نشوئه ولا يتغير بعد ذلك ،خلافا لكل خلايا الجسم، وبانتهاء تكون العقل يبدأ تفاعله مع المحيط بالأدوات المتوفرة لديه، ويبدأ بعمليات متداخلة ومتشعبة، فهو يمارس حياته اليومية التي يتعلم خلالها ويتفاعل مع المحيط، وأثناء ذلك يتم تعديل العلوم السابقة. وفي حين تتم برمجة الكمبيوتر لحل المسألة بطريقة محددة متفق عليها من قبل المبرمجين، مهما اختلفت طبائعهم في حال اشتراك أكثر من مبرمج، يكون الإنسان تحت تأثير عدد من المعلمين تتفاوت معرفتهم وقدرتهم وطريقة تعليمهم، وبالتالي تأثيرهم على المتعلم، وذلك للمسألة الواحدة، فكيف والإنسان يتعلم جميع المواضيع دفعة واحدة؟.. إن (المقاطعات الزمنية) التي تحدث في الدماغ مشابهة لتلك التي تحدث في الكمبيوتر، ولكن عدد المهام التي يقوم بها العقل كالعادة أضعاف العمليات التي يقوم بها الكمبيوتر.

كما يتعلق التعلم بالحصول على المعلومات، لذلك كلما زادت الحواس المشتركة بتقديم المعلومات كلما كان التعامل معها أسهل، ونجد أن العلوم المجردة كالرياضيات

أصعب العلوم تعلّما لأنها لا تستند إلى الحواس إنما إلى العقل فقط، حتى الوصول إلى النتيجة النهائية، وهنا لابد من وجود التعزيز الخارجي إيجابا أو سلبا لتحديد نوع النتيجة.

في هذا الاتجاه نلاحظ أن الطفل في فترات محددة يكون شديد النشاط كثير الأسئلة دقيق الملاحظة يرغب بالتعامل مع جميع الأشياء، إن هذه المرحلة تحديدا أكثر مراحل حياة الإنسان أهمية، فهو يقوم بعمليات التجريب بذاته، وفي هذه المرحلة يتم تحديد قدرته على استقراء البيانات، ثم تحديد العلاقات الناظمة لها وبالتالي النتائج، أي إنها مرحلة تكوين العقل الذكي المبدع، وعادة يتم قمع هذه المرحلة من قبل المربين بسبب عدم قدرتهم على التعامل مع هذا الحجم من النشاط.

إن المدارس إحدى أهم مصادر المعلومات والبناء للطفل، خاصة في المراحل الأولى، ولكن قليلة هي المدارس التي تنجح في تمييز قدرات الأطفال والتعامل معهم حسب قدراتهم، وفي الغالبية العظمى يتم تطبيق منهج تعليمي واحد متوسط المستوى على جميع الأطفال. عملية التعليم إذا عملية اجتماعية هدفها (العقل العام) وليس العقل.

ترى ماذا يحدث إذا عزلنا طفلا وحددنا الموضوع والمعلم، وتم تعليمه دون أي تدخل من أي نوع، ولا حتى الغريزة؟.. بالمقابل إذا قمنا ببرمجة الكمبيوتر لنفس الموضوع، أيهما يتفوق:.. الإنسان أم.. الكمبيوتر؟؟.

يحدث عادة أن نعدل في طريقة العقل الغريزية لمعالجة المواضيع أثناء توجيه العقل لأن يكون اجتماعيا، وبذلك نخلق تناقضا في بناء طريقة التفكير، مثلا لا نعلم الإنسان في طفولته أن يكون حذرا مع الآخرين بسبب مراقبتنا له باستمرار، ونعلمه أن يثق خاصة بالكبار لأنهم مصدر التعليم. وعندما يبدأ مرحلة الانطلاق والاستقلال بشخصيته نبدأ تعليمه أن يكون حذرا من الآخرين وخاصة الكبار، هذا التناقض ستستمر نتائجه مع الحياة.

ثم هناك تنظيم للحاجات الإنسانية الأساسية مثل الطعام والنوم، فالطعام له وقت محدد وكمية محددة ونوعية محددة أيضا، في حين أن الطعام في الأساس حاجة للجسم ليحصل على الطاقة، وذلك مرتبط باستهلاكه وحاجته لها في حال الإنسان السليم. إن هذا التنظيم هو سيطرة قسرية على حاجة الجسم الإنساني، مصدر طاقة العقل وأدواته، ألن يؤثر ذلك سلبا عليه؟..

هل نصنع جهاز كمبيوتر يعمل بطاقة محددة ثــم نقوم بإنقاص هذه الطاقة بسبب تنظيم الطاقة بين الأجهزة أو رغبة بذلك؟..

هــل يمكن أن نعلــم الإنســان أن يعزل العمليات المادية (الرياضية والعلمية)، عن العمليات الاجتماعية المتعلقة بعلاقاته بالآخرين، عن العمليات الإنسانية المتعلقة بحاجته للشعور بذاته؟.. هل نريد ذلك؟.. يمكن أن نصنع كمبيوترا يختص بكل نوع من العلوم، ويمكن أن ندخل في برنامجه مثلا عملية تقاطعية من النوع: (إن الطاقة هي سبب استمرار تشغيلك ووجودك.. إذا عليك تخزين الطاقة أثناء عملك.. لذلك لا تشتغل إلا ما هو ضروري لك!..)، فهل سيبقى عمله كما كان؟.. الإنسان كائن اجتماعي وجميع عملياته الحياتية والعقلية مرتبطة بهذه الصفة، وإلا فقد الإنسان إنسانيته وأصبح أنانياً (كالكمبيوتر المخزّن للطاقة).

أرجو أن تعذروني لخروجي عن الموضوع، ولكن أليست هذه أهم صفة لي (كإنسان يستخدم عقله)؟.. بسبب اهتمامي بالموضوع من الناحية الإنسانية تتقاطع فكرة الاهتمامات الإنسانية مع فكرة كيف نفكر. بالتالي تؤثر على التتابع الفكري.

المحفزات السلبية والإيجابية في عملية التعليم

أهم المحاولات الجارية حاليا على الذكاء الصناعي هي إمكانية التطوير الذاتي، أي أن يقوم الكمبيوتر بتعديل برنامجه بناءً على معطيات ونتائج الاستخدام الأوّلي. تلتصق عملية التعليم عند الإنسان بالمحفزات الإيجابية والسلبية، فالإنسان يتعلم طرقا مختلفة للتعامل مع المعلومات من النوع الواحد، واستخدام طريقة محددة كي نصل إلى الحل متعلقة بالتحفيز الذي يمارسه المعلمون: التحفيز الإيجابي يؤدي إلى تعزيز الطريقة، والتحفيز السلبي يؤدي إلى رفضها والبحث عن طريقة أخرى.. وعمليات التحفيز هي عمليات خارجية لها انعكاسات داخلية. ولقد وجد العلماء أن عملية التعلم تؤدي إلى زيادة عدد نقاط التقاء الخلايا الدماغية (المشابك)، وهو ما يمكن التعبير عنه، مقارنة بالكمبيوتر، أنه عملية (تطوير ذاتي) لتصنيع المعالج المركزي. فالدماغ إذا يتم تطوره باتجاهين: البناء (التصنيع)، والتعلم (البرنامج).

إن الطفل الذي لا نقدم له السعادة في الصغر يعجز في الكبر عن اتخاذ أي موقف وعن معرفة الصواب من الخطأ، لأن السعادة

هي المؤشر والدليل على قيام الشخص بعمل فيه فهم وذكاء. السؤال: هل يوجد محفزات داخلية في العقل الإنساني؟.. أي هل يمكن لإنسان أن يستغني عن الآخرين للوصول لاتخاذ قرارات هامة صحيحة؟.. حينها ما هي هذه المعززات وما هي المواضيع؟.. إن عملية التحفيز الأساسية في عملية التعليم وبناء الإنسان هي أكثر اللأمور ضبابية ولا أحد يمكنه تحديد نتائجها جزما وبالتالي يكون التحفيز سببا في البناء وفي الوقت ذاته سببا في الهدم ليس لأنه أساس في بناء الإنسان ولكن لأنه أساس بناء التربية إلى الآن إننا ننمي روح المنافسة بين الأطفال ليقول كل منهم: (أنا خير منه) من خلال ترتيب مستوى الطلاب في المدارس وفي البيت: الأول الثاني الثالث.. الأخير، إننا بذلك ندفع الأطفال دفعا ليكونوا أعداء.

صحيح أننا قصدنا خلق روح المنافسة (الشريفة) لكي يلحق المتأخرون بالمتقدمين وندفع المتقدمين نحو مزيد من التقدم، ولكن للأسف خلقنا إنساننا المريض أولا. ببساطة شديدة إن سبب (الأنا) المريضة فينا هو تربية الأفراد منذ الطفولة باستخدام المحفزات السلبية/والإيجابية التنافسية بالمقارنة بين الأفراد، مع واقع التفاوت بين قدراتهم وظروفهم.

كيف يمكن أن نحفز الطموح عند الأطفال دون أن نحفز الأنانية المريضة.

بالنسبة للكمبيوتر حتى الآن نحن نقوم بوضع برنامج محدد :نحدد فيه نوع المعطيات بشكل دقيق وواضح، وخطوات العمل المرتبطة بهذه المعلومات، والنتائج مرتبطة بالمعطيات وخطوات العمل بشكل مطلق. والكمبيوتر الذي لا نحدد خطوات عمله لن يجد الحل، فكيف يمكن أن يكون المحفز الإيجابي أو السلبي، الخارجي، بالنسبة للكمبيوتر؟.. وهل يمكن أن نوجد في المستقبل معززات داخلية في معالج الكمبيوتر ليتمكن من توجيه (ذاته)؟..

إن الفرق بين تعلم الإنسان والكمبيوتر متعلق بعدد الاحتمالات الممكنة للتعامل مع معطيات محددة ،وكذلك دقة هذه المعطيات ووضوحها، الإنسان له خيارات كثيرة نعزز أحدها فيصبح برنامج عمل، أما بالنسبة للكمبيوتر، نحن نحدد برنامج عمل وحيد للمعطيات المحددة بدقة، فلماذا التحفيز؟..

إن الفرق بين الإنسان والآلة واضحٌ، وإمكانية صناعة الذكاء الصناعي حقيقة، وإن تأخر فبسبب تأخر تطوير الأدوات والبرامج، وحتى يحاكي الكمبيوتر الإنسان هناك احتمالان يجب أن نحقق أحدهما :

إما أن نعزل العقل الإنساني لحل مسائل من موضــوع محدد دون التأثــر بالمحيط، أو أن نعقّد بناء الكمبيوتر وبرامجه حتى يستطيع معالجــة أكــثر مــن موضوع دفعــة واحدة وبحيــث يتم تبادل النتائج بين البرامج، وكل ذلك أثناء تفاعله مع المحيط.

هــذا يقودنــا أعمــق في الســؤال: ما هــو الهدف الحقيقــي من أبحــاث الذكاء الصناعي؟.. أليس خدمــة الإنسان؟.. إننا نريــد أن نعرف كيف يفكــر الإنسان وكيف يتعلم لنوجهه بأفضــل البرامج إلى إنسانية سعيدة. فالموضــوع إذاً ليس متعلقا بأفضل التصاميم المادية لحياته بل بتخليص الإنسان من الشــر وتوجيهه إلى الخير. فالقضية قد تكــون متعلقة باكتشاف مــا إذا كان تخزين المواضيع المختلفة معزولا في الدماغ بمواقع يمكــن اكتشافها وتحديدهــا والتخلص من منطقة الشــر. أو أن آلية تخزين المعلومات والبرامــج في الدماغ متعلقة بمواد كيميائية لكل نوع من المواضيــع وبالتالي يمكن حقن الجسم بمادة تؤدي إلى التخلص من الشر أو كبحه ومنع انطلاقه.

أمثله (كيف نفكر ويفكر)

لحل مسألة في الحســاب (الرياضيات) يجلســ الإنسان أمام مكتبــه ويشتغل عقله بموضوع المسألة، والفوائد المادية والإنسانية التي سيجنيها من الحــل، وضرورة تقديمه غدا للمدير، واحتمــال مكافأته أو رفضه، ومشكلــة ابنه المريضــ، ورغبتــه بالتفوق لإثبات ذاته أمام مديره وحتى أمام العالم!.. وقد تكون بعض هــذه التداخلات سببا في إبداع حل مميز للمسألة. وقد يتوقف فجأة عن حــل المسألة بسبب حــل أوجده لمشكلة ابنــه المريض!. وهذا لــه ما يشابهه في عالم الكمبيوتــر، فالكمبيوتر يقوم بعدد كبير من العمليــات أثناء قيامه بحــل مسألة محددة تمَّ تشغيــل الكمبيوتــر لأجلهــا (المقاطعه الزمنيــه)، منهــا مثــلا: قــراءة المعلومات القادمــة من لوحة المفاتيــح، ويقوم برنامج البريــد الإلكتروني بإعلامنــا بقدوم رسائل جديــدة، ويتم تفحص وتنشيط الذاكرة. أي إن هناك عدداً من تداخلات البرامج بشكل مشابــه لعقــل الإنسان، الفــرق أننا نعرف ونحدد برامــج التداخل على الكمبيوتر أما في عقولنا فلا نستطيع.

إن برامج التعلم في عقل الإنسان فاعلة باستمــرار، وإن كان العمــر الزمنــي يحد مــن قدراتها، لكنها مستمــرة وكذلك قراءة المعلومات الجديــدة وتخزينها وكذلك ردود الأفعال .

في هــذه المرحلــة يبدو جليــا أن هناك طريقــة لمعالجة وتحليل الأحداث والمؤثرات

التي يلاحظها العقل كامنة فيه، أي إنها غير مكتسبة بل من بناء العقل ذاته، وإذا كان رد فعل الكائن الحي لبعض المؤثرات الحياتية الأساسية يعتبر غريزة، من حيث الإدراك غير العاقل، فإنني أرى أنه يجب التدقيق بعدد الغرائز عند الكائن الحي ،أو التدقيق بمفهوم الإدراك.

كيف يفهم الإنسان عبارة مثل: (أنت ذكي)؟.. إذا قرأت العبارة تجد لها معنى: (أنت ذكي)، ولكن إذا قيلت في سياق حديث يصير لها معان مختلفة (أنت شديد الذكاء)، (أنت ذكي) و(هل أنت ذكي؟..)، (أنت غبي)، إن فهم العبارة متعلق بسياق الحديث، وقد يتعلق بالكلمتين فقط مع إضافة المؤثرات الصوتية للفظها، وإضافة مؤثرات بصرية، وقد تتعلق أيضا بعلاقتنا بالمتحدث. وفي حين يكون البرنامج الذي يقرأ هذه العبارة لترجمتها باستخدام الكمبيوتر وحيداً ومحددا بإيجاد المرادفات اللغوية من لغة أخرى، يشتغل عليها في دماغ الإنسان مجموعة برامج إنسانية تتفاعل فيما بينها، أهم هذه البرامج هو البرنامج الذي نقول بنتيجته (أننا فهمنا العبارة) فما هو معنى أننا (فهمنا العبارة)؟.. إن الفرق بين عدد البرامج المشتغلة على العبارة وجودتها بين الإنسان والكمبيوتر يمكن تحديده، ولكن ما معنى أننا فهمنا وهل يفهم الكمبيوتر أيضا؟.. وما معنى الإدراك؟.. ما معنى الذكاء؟..ما معنى الإبداع؟.

إن البحث في هذا الموضوع بحاجة إلى مختبرات، ولكن وضع نظرية تعمل عليها هذه المختبرات يأتي بالدرجة الأولى.

الفهم: يرافق هذه الكلمة تمييز للعلاقات الرابطة لموضوع محدد من خلال تعليم الآخرين، يدعمها إحساس قليل بالسعادة.

الإدراك: يرافق هذه الكلمة تمييز للعلاقات الرابطة لموضوع محدد، وتمييز علاقته بالمواضيع الأخرى ذات الصلة من خلال تعليم الآخرين.

الإبداع: يرافق اكتشاف علاقات جديدة بين المقدمات والنتائج لم تكن معروفة ،وحتى تقديم نتائج جديدة، وقدرا كبيرا من السعادة من خلال رد فعل الآخرين.

فهمت = صرت قادراً على معالجة الموضوع في حال حصولي على المعطيات = انتهيت من وضع البرنامج في الدماغ وصار جاهزا للاستخدام وانتهيت من تحديد مميزات المعلومات اللازمة له = انتهيت من تحديد البرامج اللازمة لحل الموضوع وتحديد البيانات اللازمة = انتهيت من تحديد العلاقة بين المسببات والنتائج.

الفهم إذاً من ناحية معالجة قضية محددة هو: الوصول إلى نتيجة صحيحة من خلال تحديد البرنامج الصحيح ،والقدرة على تمييز المعلومات اللازمة من بين مجموعة معلومات وللمرة الأولى، ووضعها في مكانها الصحيح. وما إن نفهم حتى يفقد تكرار العمل هذه الصفة، وهذا ما يجعل الكثيرين يعبرون عن حل الكمبيوتر لموضوع معين بالفهم: (أي إنه ميّز المعلومة التي قدمناها له، ووضعها في مكانها الصحيح، وها هو يعطينا نتيجة صحيحة). الصحيح أنّ الكمبيوتر لا يفهم لأنه لم يميز المعلومة، وإنَّما لقناه إياها تلقينا ونحن الذين وضعناها في مكانها الصحيح. يحدث أن يكون فهمنا خاطئا ،الصحيح أن قرارنا بأننا فهمنا هو الخاطئ لأننا لم نفهم.

هناك تقنيات في طرق البرمجة أكثر فعالية لم نكتشفها بعد لتحسين عمل الكمبيوتر وعلاقتنا به، وأشير إليها بالمثال التالي: إن لوحة المفاتيح تحوي ما يقارب ١٠٠ مفتاح لكل مفتاح وضعيتان، وهناك مجموعة الحروف الإضافية، والأوامر المتضمنة بالمفاتيح أي ما مجموعه ٢٥٦ حرف مختلف تقريبا، المنطق الإنساني البسيط يقول بوجوب وجود ٢٥٦ سلك للتعامل معها، في حين تمَّ تصنيفها وتوصيفها وإيجاد علاقات أدت إلى أن عدد الأسلاك الكهربائية التي تصل بين الكمبيوتر ولوحة المفاتيح هي أقل ب ٣٠ مرة، فإذا افترضنا إمكانية إقامة مثل هذه العلاقة بين البرامج المختلفة سينخفض عدد الاحتمالات لحركة القطع في لعبة الشطرنج لتصبح ضمن الحدود المنطقية. ومثال حديث لهذه البرامج برامج ضغط البيانات، مثلا يتم تخفيض حجم التخزين اللازم لحفظ ملف صور حتى النصف باستخدام برنامج ضغط البيانات.

أخيراً

كثيرا ما نلجأ أثناء صناعة برنامج للكمبيوتر لإضافة حلقات تأخير زمني تبطئ عمل البرنامج في مرحلة محددة لكي نعطي الوقت الكافي للإنسان لقراءة النتائج، بسبب الفروق المختلفة الممكنة في العلاقة التفاعلية بين الإنسان والكمبيوتر، كاللغة والسرعة وطريقة رد الفعل، وكذلك بين الكمبيوتر ووسائط الإخراج الميكانيكية الآلية ،من ذلك قدرة العين على متابعة الحركة، فالعين تستوعب عددا من الصور في الثانية الواحدة فإذا تجاوزناه فقدنا صورا، لذلك نلجأ لآلة التصوير في كثير من أعمال المراقبة الدقيقة، والمشكلة ذاتها يعانيها الكمبيوتر مع الآلة الميكانيكية، كالطابعة، فمثلا أثناء كتابة هذا النص كنت

أستعرضه بأوضاع مختلفة على الشاشة، كان يقدمها بأجزاء من الثانية ،ولكن عندما وجهته لاستخدام الطابعة جلست أنتظر، وكذلك الكمبيوتر، وقتا طويلا بانتظار انتهاء الطابعة من عملها الميكانيكي، ورحت أستخدم لعبة الورق لأتسلى مع الكمبيوتر بالانتظار. نحن لا نتعامل مع أجزاء المليمتر لعدم قدرتنا على تمييزها بالعين، في حين يتعامل الكمبيوتر مع الأجزاء المجهرية، نحن لا نميز سوى مجموعة ألوان محدودة بالنسبة للكمبيوتر الذي يتعامل مع مليون لون. والأمثلة أكثر من أن تعد هنا، لذلك يتوجب علينا عند التعامل مع الكمبيوتر أن نتجاهل أو نحدد مجال عمله زمنًا ونوعاً وكمّاً و.. و.. و.إلخ.

إن قدرة الكمبيوتر على حل المسألة أفضل بكثير من قدرة الإنسان على حلها في حال الحصول على المعلومات اللازمة، ولكن من أين أو كيف ستحصل الآلة على المعلومات اللازمة لموضوع محدد دون التدخل المباشر للإنسان؟.. إن هذا هو سبب التفوق الحالي للإنسان.

الكمبيوتر باعتباره من صنع الإنسان يفتقد كل ما يجهله الإنسان، لكنه في الوقت ذاته يتفوق على الإنسان بكل ما قدمه الإنسان له من تكنولوجيا حديثة.

هل نقول إن العقل البشري يحوي مع تكوينه برامج عمل لمواضيع محددة؟.. أم إن البرامج جميعها يتم وضعها لاحقا أثناء الحياة؟..أم إن العقل يحوي عمليات منطقية غير حسابية (خير/ شر) مع بنائه؟.

ونذكر هنا أن الكمبيوتر يمكن أن يدخل في حالة عدم تفاعل مع المحيط (نفقد التعامل مع لوحة المفاتيح والفأرة) كتلك التي تحدث عند الإنسان ولأسباب مشابهة، إذ لا يموت الشخص ولكن لا يكون له أي رد فعل مع المحيط (استجابة) ولا نعرف ما إذا كان يفهمنا ولكنه لا يستطيع الإجابة بأي طريقة، إذ تفقد الإشارات الكهربائية في الدماغ توجهها أثناء حدوث المقاطعة، ولا يستطيع العقل، أو الكمبيوتر، تحديد المسار الذي كان يعمل عليه قبل حدوث المقاطعة. لحل هذه المشكلة نطفئ جهاز الكمبيوتر، ولكن ماذا بشأن الإنسان؟..

إن عمل الكمبيوتر من حيث: محدودية تعامله مع المحيط، وتلقينه البرنامج المراد تشغيله في زمن محدود بدقائق، وقدرتنا على السيطرة على جميع خطوات البرنامج، وتحديد المعلومات اللازمة لحل أي موضوع، يختلف جذريا عن عملية تربية الإنسان، التي هي عملية مستمرة في كل لحظة،

فالإنســان لا يتوقف عن تلقي المعلومات في أي لحظة من حياتــه، حتى وهو نائم يبقى جهــازه العصبي فعالا ولــو بنسبة أقل من حالة اليقظة، ومــن ناحية البرمجة (توجيه ردود الأفعال) فإن هــذه العملية لا تتوقف أيضــا في كل لحظــة مــن حيــاة الإنسان، ويلاحظ أن عملية التعلم في السنوات الأولى تحدد المناحي والمواصفات الأساسية لسلوك الإنسان لاحقا، وضمن حدود تغيير محدودة (الطبع يغلــب التطبع) (التعلــم في الصغر كالنقشــ على الحجر، صعــب جدا وراسخ جداً).

إننا لحل موضــوع معين نحدد خطوات الحــل بشــكل دقيق جــداً ومتتابــع بشكل لا يقبــل الخطأ، ولكي نقــوم بذلك ندرس الموضــوع ونفهمه بشكل كامل، ونحدد طرق الحــل الممكنــة والمعلومات اللازمــة للقيام بذلــك. إن أي نقص أو عدم دقة في أي من هذه الخطوات سيؤدي إلى حلول غير كاملة. ونحــن أثناء تطوير الكمبيوتــر نعرف هذه المواضيــع وندركها ،ضمن حــدود معرفتنا (الحــد الأقصــى لقدراتنا). أمــا بالنسبة للمواضيــع الإنسانيــة فالوضــع مختلــف: فمعطيات المسائل الإنسانية وطرق معالجتها وحتى النتائج المراد الحصول عليها مازالت غير واضحة، وضمن هذه الظروف لا يمكن وضــع برنامج واضح للإنسان يمكن تطبيقه لينشأ الإنسان إنساناً متفوّقاً.

تحدثنا عن السعــادة وعقاقير السعادة وعلاقتها بالذكاء الصناعي من حيث تبادل الفائــدة مــن تداخل العلاقة بــين الإنسان والآلــة ،و قلنــا أن حصــر استخــدام هذه العقاقــير في حــالات المرض هــو لمصلحة المجتمع، وليس الفرد، في حين أرى أنه يمكن استخدامها بطرق أكــثر فاعلية: ففي حين يجب منعها عن الأشخاصــ القادرين على العمل المنتــج للمجتمع، يمكن فرض تناولها على الأشخاص (الأشرار) في المجتمع، بحيث يفقدون قدرتهم على التفكير بأذية الآخرين، وفي الوقــت نفسه لا نسبب لهم آلامًا تجعلنا في مصــاف غير الإنسانيــين، وكذلك يمكن منحهــا للأشخاص الذيــن قدّموا للمجتمع كل طاقتهم ووصلوا إلى حالة من الضعف لم يعودوا قادرين معها على تقديم المزيد. بهذه الطريقة نقدّم لهــم حقهم من السعادة دون جهــد منهم أو من المجتمع ليقضوا ما تبقى لهــم من حياة بشكل إنساني. ألن يكون ذلك

أكثر توفيراً للجهد الإنساني في سبيل إصلاح ما لا يصلح، وتأمينا لحياة أكثر إنسانية؟..

من الملاحظات الأخرى في هذا الاتجاه، أن طباع الأفـراد في المجتمعات تختلف من منطقة إلى أخرى، وأعتقد أن ذلك يعود إلى وجود أنواع مـن النباتات في مناطق السكن تحتـوي مـواد كيميائية متميـزة تنتقل إلى الإنسان عند تناوله هذه النباتات فيؤثر على العقل بشكل أو بآخر مما يؤدي إلى أن ينطبع أفراد المجتمع على ما تسببه هذه المادة.

نتيجـة أبحـاث فلسفـة الـذكاء الصناعي

هل نحن باتجاه تصنيع روبوت أكثر منا ذكاءً وقدرة؟؟؟؟

هل نحن باتجاه حياة إنسانية مفهومة وموجهة وسعيدة؟؟؟؟



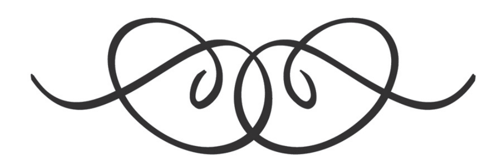


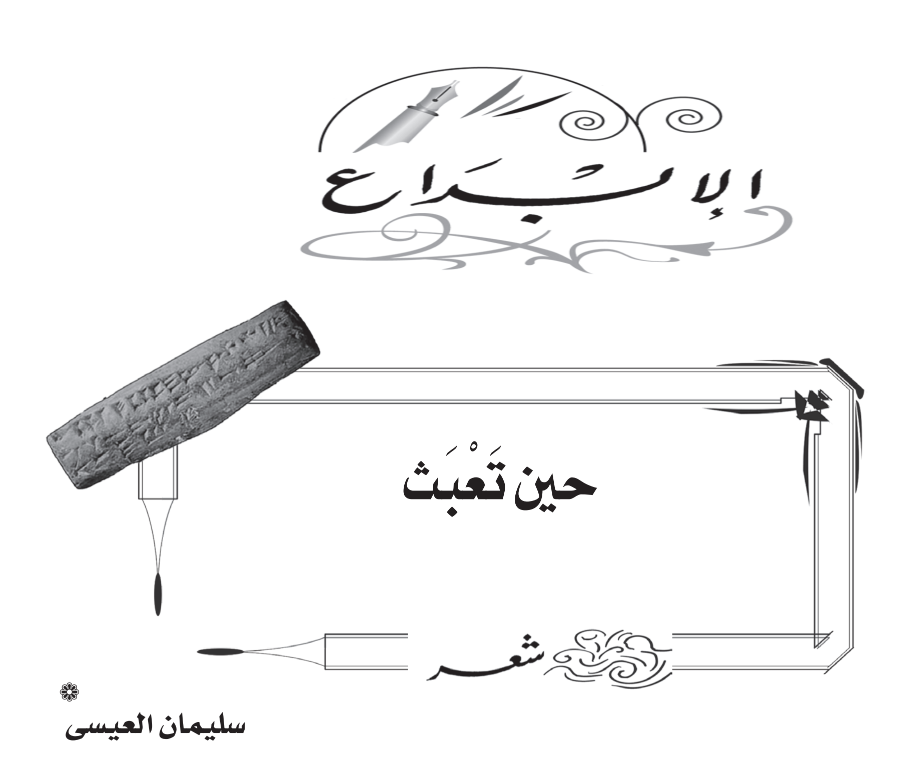
شعر :

- حين تعبث — سليمان العيسى
- هم يعشقونك — محمود مفلح

قصة :

- بيراموس وثيسبي — وصفية محبك
- رثائيات رجل حاول النهوض — إبراهيم عواد خلف





سليمان العيسى ❀

على هامش عاصفة الجليد الرهيبة في كندا..

حينَ تَعْبَثْ

أرضُنا العاثرةُ الجَدِّ بنا

بصخورٍ من جليدٍ عاصفٍ تُمطِرنا

تقصفُ الأغصانْ

❀ شاعر العروبة والطفولة الكبير

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

تَنْقضُ الجدرانْ

تتركُ الدنيا ظلاماً حولَنا
حينَ تَعْبَثْ
لا تُبالي بالأُلى تحمِلُهم..
أُغني بِنا..

❁ ❁ ❁

إِنَّها غاضبةٌ مِنّا.. تُراها هل تُلاَمْ؟
عَبِثَتْ حين عَبَثْنا..
والمقاديرُ نيامْ

فجــأةً.. تنفُضــُ عنها بعضَــ آثامِ البَشَر.
فجأةً تُنْذِرُ.. لو تُجدي النُّذُرْ

إِنَّها تُنْذِرُ أَعْتانا.. وأعتانا طَغَامُ
يَزْرعون الليلَ وَيْلاتٍ وَرُعْباً..
كي يناموا..

إِنَّني أحلُمُ بالأطفالِ..
ما ذَنْبُ الطفولَةْ



حين تجتاحُ أَعاصيرُ الغَضَبْ؟

حينَ، يا أَرض الخطايا تَعْبثينْ
حــين لا مَــأْوى لأكداسِــ الصغــارِ الضائعينْ

أَلْجِمي هذا الغَضبْ!
كفكفي ثورتَكِ الهوجاءَ..
رفقاً بالصغارْ!

أَيُّ عَدْلٍ؟

أيكونون الضحايا..

لِحماقات الكِبارْ؟

❁ ❁ ❁

حين أَعْبَثْ..

أَتلقَّاكم بما أَنتم بصدري تَنْفُثُون

أنا لم أَبْدأْكُمُ قطُّ الأذى..

لو تَذْكُرونْ..

إِنَّني أُغْتالُ.. تَغْتالونني ليلاً نهارا

وتعيثون فساداً بيَ سِرّاً وجَهارا

تعلَمونْ..

أَنَّني أَحْنى وأَرْأَمْ

منذُ أَن كنتمُ على ظَهْري،

ورقرقتُ الهناءاتِ لَكُمْ،

أَحْنَى وأَرأَمْ..

أَتمنَّى لو سريراً كنتُ للأطفالِ أخضَرْ

أفرشُ العُشْبَ لهم أَنَّى خَطَوْا..

أَحْلَى وأَنْضرْ

أَتَمنَّى..

فدعوني لِلْمُنى الخُضْرِ..

دعوا الأحلامَ تَحْلُمْ

إنني أجملُ.. لو لم تَثْقُبوا سَقْفي المنمنَمْ[1]

حين أَغْضَبْ

قالتِ الأُمُّ التي عاتبتُها منذُ قليلٍ،

حينَ أعبَثْ

أَتلقَّاكُمْ بما أَنتمُ بوجهي تَنْفُثُونْ

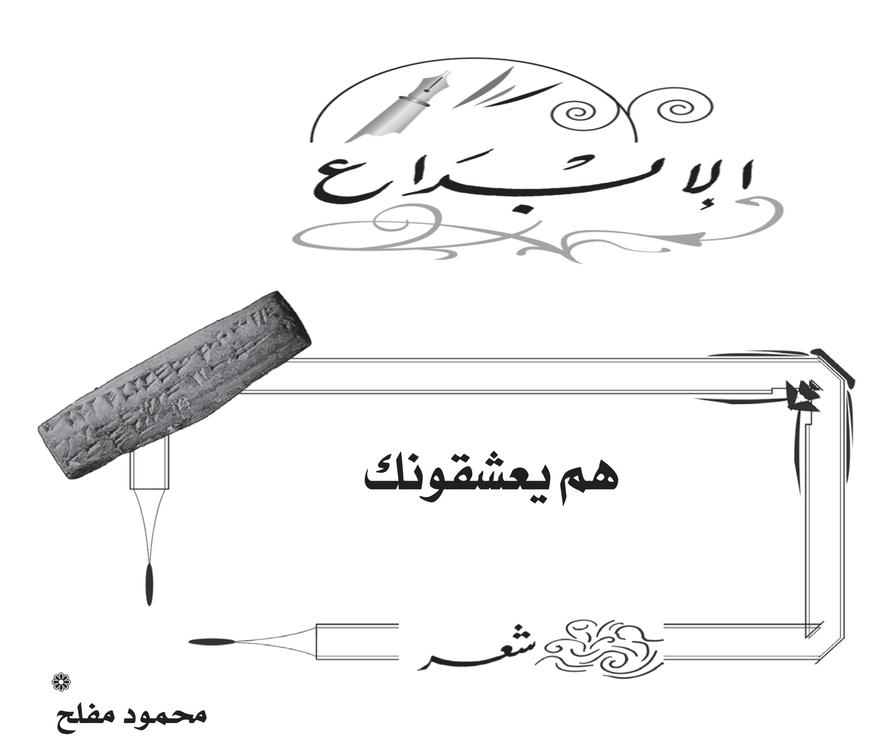
من جُنونٍ أَسودٍ يَقْتُلُكمْ..

يقتُلُ أَبنائي معي لو تعلَمونْ

الهوامش:

١- إشارة إلى ثقب الأوزون الخطر الذي يتحدث عنه العلم الآن.





محمود مفلح ❁

إني لأرحل أو أكادُ

يا أيها الزمنُ الرمادْ

لم يبقَ إلا خطوتان ودمعتان.. وبعدها يصلُ الجرادْ!

لاشيءَ يبقى غيرُ قاعِةِ الطريقِ لمَنْ أساءَ ومنْ أجادَ!

لم تبقَ إلا الدربُ والأشباحُ والقبلُ الحِدادْ!!

❁ ❁ ❁

❁ شاعر سوري.

العمل الفني: الفنان عبد المعطي أبو زيد.



فاهجـر يراعـك لا تقل عما
تراه طغى وزادْ
أو فاتّشحْ إن شئـت بالقلم
المدجّن والمدادْ
يكفيك في «الستين» ترحل من
بلادٍ كم عبرتَ بها السرابَ..
إلى بلادْ..!!
وهمٌ جهادُكَ..
لم يجب أحد وأنت تصيح في
«الستينَ»..
حيَّ على الجهادْ..
تعب الطريق من الطريق..
وضاق صدرُ «السندبادْ..»!
حتى المطارات التي كانت تُصفّق حين
تأتيها وتستهويكَ
بيعت في المزادْ..!!
خذ ماء وجهك وانصرفْ
أو فاصطلحْ فالطقس مصطلح وهذا
البحر «عالُ العالِ»
لا تعبأ بما زعموه أو قالوا عن الأفقِ..
انسدادْ!
منذ انتُبذتَ على الرصيف..
وأنت تجترح اليقينَ ولا تعودْ
وسماؤك الأولى.. فمن أغراك بالزمن
الجديدْ
قَبسٌ هناك وطلقة خرساء تبحث عن
فريستها هنا
ودمٌ فريدْ..
والقتل تحت الجلد ينبت والصغار هم

الضحايا..

والعدوّ هو الشهيدْ!!

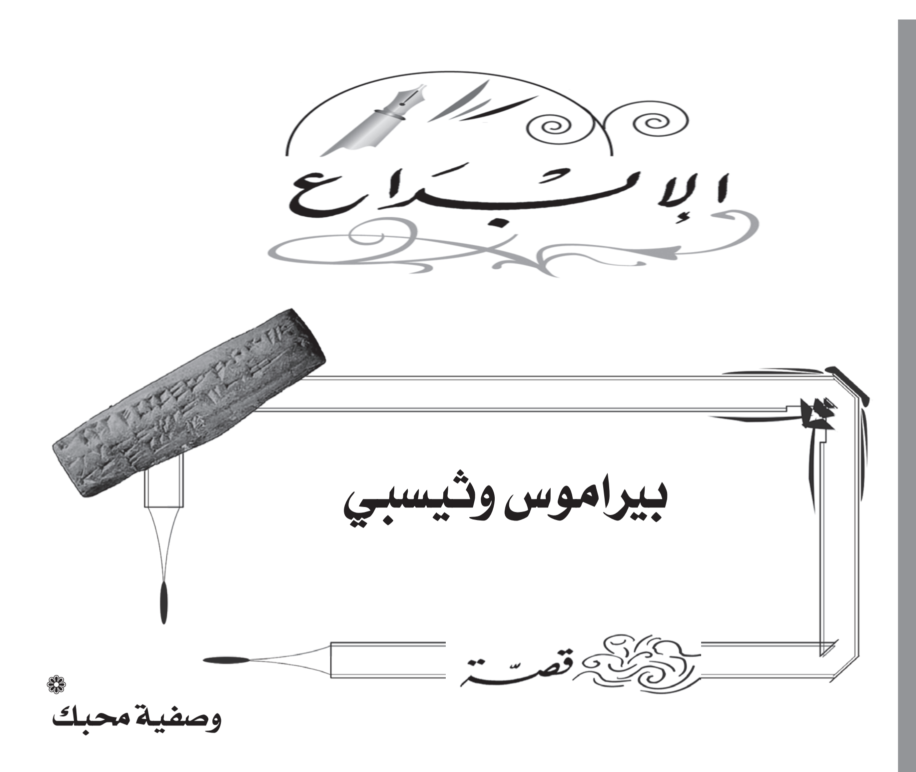
لَغمٌ جديدٌ

ضَمّدْ جراحك واحترسْ

قد يُطبقون على قصيدتك الوحيدةِ.. يا

وحيد..!!





بيراموس وثيسبي

وصفية محبك *

تطل من الشباك وهي تنادي، كأنها تغني:

- بيراموس وثيسبي، تعالا أين أنتما؟ لدي مفاجأة، لدينا زائرة حلوة، سمراء، قادمة من الشرق القريب، ليست مثلي أنا الشقراء، التي جئت من الشرق البعيد.

من هما بيراموس وثيسبي؟ هل هما من الخدم؟ هل هما ولداها؟ أو اثنان من النزلاء؟ يا إلهي، كم تحب الثرثرة، لا بأس، سوف تسليني من غير شك.

* * *

* قاصة سورية مقيمة في انكلترا.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

تفتــح لي الباب سيــدة في الخمسين من عمرها، توقعت من صوتها الحميم أن تكون لطيفــة وأنيقة، فوجدتها أجمل من الصورة التي رسمتهــا لها في خيالي، حيتني بحرارة وعفويــة، كمــا اعتــادت أن تحييننــي على الهاتف حتــى قبل أن ألتقــي بها، عرفتني علــى أرجاء المنزل، ثم سارت بي إلى الغرفة التي سأمضــي الليلة فيها، كل شيء مرتب، كل شيء له موضعه الخاص في البيت، منزل هادئ، جامد، بل ميت، لا صوت ولا حركة، سألتهــا إن كانــت أي من الغــرف الأخرى محجوزة، فأجابت إنها جميعاً فارغة، فموسم السياحة لم يقبل بعد، وكانت تتوقع مع انعقاد مؤتمر عن شكسبير في بلــدة ستراتفورد أن تمتلئ الغــرف كلها بالنزلاء، ولكنها أصيبت بخيبة أمــل، فأنا النزيلــة الوحيدة، وكأنها تريــد منحي غرف المنزل كلهــا، أصرت أن أشرب القهوة معها قبل أن أنطلق في رحلتي السياحيــة في البلدة، شعــرت أنها في شوق لتتحدث، لتكلم أحداً ما، تريد من يسمعها، جلست معها قرابة الساعة، ثم انطلقت وأنا أعدها بحديث ثان مطول في نهاية يومي.

* * *

بحثــت في المواقع الإلكترونية عن أسماء الفنادق في هذه البلــدة الصغيرة، فوجدت الكثــير منها، أحتــاج غرفة لليلــة واحدة، يمكننــي أن أستمع لجلســات المؤتمر حتى الثانيــة، ثم أتجــول في البلــدة وأزور بيت شكسبــير حيث ولد، وبيــوت بناته وأقاربه، ثم أنهي جولتي في الكنيسة حيث دفن، وفي المساء لابد من حضــور عرض مسرحي في مسرح فرقة شكسبــير الملكية، وقعت عيني في المواقــع الإلكترونيــة علــى فندق يحمل اســم بيراموس وثيسبي، لا أعرف لماذا لفت نظــري، كنت قرأت عنهما في مسرحية حلم منتصــف ليلة صيــف لشكسبير، هي قصة للشاعر الرومــاني أوفيد ذكرهــا في كتابه التحــول ورواها من بعده جيفــري شوسر، وجدت أسعار الفنــدق مقبولة، أثاث غرفه جميل، موقعــه قريب من معهد شكسبير في ستراتفورد حيــث سيعقد المؤتمر، هو معهد متخصص بالدراسات والبحوث حول حياة شكسبير وأعمالــه، تابع لجامعة برمنجهام، جذبني اسم صاحبة الفندق أيضاً كما كتب في الموقــع «مــريم»، وعلى الفــور اتصلت، وحجزت غرفة لليلة واحدة.

ستراتفــورد بلدة سياحية بامتياز، تعيش

علــى اسم شكسبير، لا يمكــن أن تتنفس إلا شكسبير هنــاك، فالقرية تعيش على اسمه، أينمــا التفت ترى أثراً منــه، تحمل الفنادق عناويــن مسرحياتــه، والمطاعــم أسمــاء شخصياتــه، واحــد اسمه كورديليــا، وثان ماكبث، وثالث أوفيليا، تردد الساحات اسمه وأسماء أقاربه، تنتشر التماثيل في الحدائق، وتزين الرسومات جــدران المدينة وأبوابها، وتستمــر العروض المسرحيــة على خشبات المسارح المغلقــة والمفتوحة، أمــا نهر آفون فيسير في المدينة وينظــر بعين ساهرة على مئات السياح كل يــوم، يتوافدون من أنحاء العالم في شهر الصيف، واليوم منتصف شهر حزيران، البلدة هادئة، موسم الاصطياف لم يحــن بعد، الجو دافئ يساعــد على التنقل والحركة، مع ذلك لا يمكنني أن أثق بطقس انكلــترا أبداً، ولا أنســى أن أحمل مظلة أو معطف المطر.

– أجيــد الإنكليزية والفرنسية، وتعلمت منــذ طفولتــي الفارسية، وأحــب حروفها العربية، أنــت عربية أليس كذلك؟، وأعرف القليل من الإسبانية والإيطالية، عشت بضع سنوات في إسبانيــا وإيطاليا وفرنسا، كانت أياما جميلة، كنت صبيــة صغيرة، تخيلي.. قدمت من طهران في إيــران، حيث ولدت، إلى هــذه البلدة البــاردة في أقصى الغرب وأنا في العشرين من عمري، جئت مع والدي الضابط المتقاعــد، أذكــر أول أيامي هنا، كانت أياماً صعبة، مع أنني إنكليزية الأصل، ووالــدي من أســرة أرستقراطية عريقة من ويلــز، ووالدتي من إدنــبرة في اسكوتلاندة، توفيت بعد عودتنا إلى انكلترا بعامين، عاش أبــي بعدها عشــرة أعــوام، في نهاية أيامه أصيب بالرعاش، حقيقة كانت الأيام الأولى صعبة، لكن كل شيء تبدل بعد ذلك وتغير.

هكذا بدأ حديثهــا ونحن نتناول العشاء معاً.

تلتفت نحو الباب، وتنادي:

– بيراموس وثيسبي، تعالا أين أنتما؟

وتصمت هنيهة، وهــي تترقب، ثم تتابع حديثها:

– عملــت بجــد، بــل دفنــت نفسي في العمــل، حتى تمكنت من شــراء أول منزل، حولته إلى فندق صغير، ثم تمكنت من توفير بعضــ النقــود، وحصلت علــى قرض من البنــك، لأشتري بعدها منــزلاً آخر، وهكذا توالت السنــوات، ومر العمر، شــراء وبيع، تأجير بيــوت ومساكن للطلاب وغرف، ربح وخسارة.



ويستمر نداؤها، بل غناؤها الجميل:

- حان وقت العشاء، تعالا أين أنتما؟

تتوقف عن الحديث بين الفينة والأخرى، وتلتفت إليّ وأنا أتناول طعام العشاء، لتقول لي:

- تناولي من هذا المربى، أنا صنعته بنفسي، أخبريني ما رأيك، اشربي من هذا الشاي، وإن لم تحبيه فلدي نوع آخر، هل تريدين أن تسمعي بعض الموسيقا الهادئة في غرفتك قبل النوم، وضعت لك في المسجل شريطاً جميلاً يساعدك على الراحة بعد نهارك المتعب هذا.

أذهلتني الغرفة، شرقية، دافئة، جميلة، ما إن فتحت الباب حتى ولجت داخل عالم ثان، السجاد الفارسي القديم يفترش الأرضية، ولوحات من سحر إيران تزين الجدران، صورة لفتاة إيرانية جميلة ذات عينين سوداوين مكحولتين، ضابط بزيه العسكري يقف بقامته الطويلة، وشاربيه الكثيفين، والأوسمة تزين صدره، هو والدها من غير شك، على أحد الرفوف اصطفت كؤوس شاي وأطباق وصحون مزينة بنقوش ناعمة.

شعرت أني في منزلي، مع أمي، تدللني

وتعاملني كطفل صغير، أرادت أن أتصرف كأني في بيتي، اغتسلت، وتناولت الطعام معها، وشربنا الشاي في الحديقة الصغيرة، شاهدنا التلفاز، ثم اعتذرت منها لبضع دقائق، تحدثت مع أمي، بعد أن شعرت أني في شوق لصورة أمي وصوتها، تمنيت أن أسافر للحظة إلى حلب كي أعانق أمي ثم أعود، ليت المسافة قريبة، ليت الأرض تطوى.

- ما بك؟ يا ابنتي، لم تتصلين ثانية، اتصلت بأمك في الصباح، واطمأنت عليك، هل هناك أمر ما؟

أردت سماع صوت أمي وحسب، استمرت تلقي بأسئلتها القلقة، وأنا صامتة سعيدة بسماع صوتها:

- سافرت إلى باريس، عشت سنة هناك، عملت في شركة طيران، وزرت عدة بلدان، وهكذا أتقنت عدة لغات، ثم استقررت هنا في ستراتفورد، بعت معظم المنازل التي اشتريتها، ولم أبق على غير هذا المنزل، هو منزل وفندق في آن، شارع (فورتنبراس) هادئ الآن جداً، ولكن مع بدء الموسم، يعج بالسياح، موسم واحد يكفيني لأعيش على دخله العام كله.

وتصمت هنيهة، ثم تنادي:

- الحليب اللذيذ بانتظاركما، هيا تعالا، بيراموس وثيسبي.

أثار نداؤها المتكرر فضولي، فسألتها:

- من بيراموس وثيسبي؟

- بيراموس ابني وثيسبي زوجته.

اعتقدت من صمت منزلها أنها تعيش بمفردها، لا يمكن أن تكون بمفردها وهي في الخمسين من عمرها، لابد أنها تمضي وقتاً ممتعاً معهما، لكن أين هما؟ نادتهما كثيراً، ولم يأتيا بعد، تناولنا طعام العشاء، وشربنا الشاي، ولم ننس قطع الشوكولا، وهما لم يصلا بعد.

- يملآن حياتي بالحب والأمل، كنت وحيدة، ثم أصبحت أعيش لأجلهما، أستيقظ على صراخهما، اعتدت أن أسمع صوتهما في الصباح الباكر، نذهب للتسوق معاً، نتنزه في الحدائق، هما عائلتي، سترين الآن ثيسبي، هي تمشي هكذا، مثل سيدة أرستقراطية، وبيراموس يمشي مثل سيد محترم، يتلفت يميناً وشمالاً، يراقب المنزل ويراقب ثيسبي.

في كل مرة تناديهما تلتفت نحو الباب، كأنها تتوقع دخولهما، وأنا أظنها تتخيل،

كأنه لا وجود لبيراموس وثيسبي، هل هما شبحان، هل هما روحان لولدين فقدتهما، الناس هنا في انكلترا يؤمنون بالأرواح والأشباح، بل كثيراً ما يعتقدون بوجود الأشباح في المنازل.

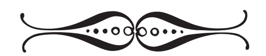
تلتفت نحو الباب، وتنادي ثانية، ألتفت أيضاً، يدخل قط وقطة، شعرهما الأبيض كثيف جداً، ناعم، كأنهما وسادتان، أو معطفا فرو صغيران، يتحركان ببطء وهدوء، يتجهان نحوي.

❁ ❁ ❁

ودعتها في صباح اليوم التالي، وعدتها بزيارة ثانية، أهديتها جملاً صغيراً مصنوعاً بعناية من خشب الجوز، كنت قد حملته معي من حلب، فرحت به جداً، لم أنس بالطبع أن ألقي التحية على بيراموس وثيسبي، وأن أدعو لهما أن يبقيا معاً طول الحياة.[1]

الهوامش:

١- ثيسبي فتاة من بابل أحبت ابن الجيران «بيراموس»، اتفقا على اللقاء في مكان ما، وصلت ثيسبي أولاً، ففوجئت برؤية أسد تلطخ وجهه بالدم من بقايا فريسة كان قد التهمها، فهربت مسرعة، وأسقطت عنها من الفزع بعض ثيابها، فالتقطها الأسد ولطخها بالدم، ووصل بيراموس متأخراً قليلاً، فرأى الثياب الملطخة بالدماء، فاعتقد أن الأسد التهم ثيسبي، فقتل نفسه، وتعود ثيسبي إلى المكان، فترى حبيبها مقتولا، فتقتل نفسها.





إبراهيم عواد خلف ❁

(جرحٌ أوّل)

أيّ ناهض:

أعــرف عينيك تماماً، أعرف ذلك السواد الــذي يعشش فيهما، وأعرف أن روحــي اقتبست ذات لوعةٍ بعضاً مما يؤرقك، وشيئاً مما يحزنك، وسهماً

❁ قاص وكاتب سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

من نصيبـك في ميراث الحيـاة، واقتبست كل شـيء من التفاصيـل المقيتة التي حذت بك إلى الشطط،.. إلى الجنوح، فقط مجرد الجنوح وليس الجنون، كما يطلقون عليك.

أنت جنحت بخيالك وأحلامك وبعينيك إلى أفـقٍ لم نـره، ما زلت على قيـد القلق، وعلى ذمـة العقل، وما زال الهـواء الفاسد يدخل رئتيك ويخـرج نقياً إلى العالم المكتظ بالخنقة..

ولعلك فقدت شيئاً من الذاكرة، وفقدت منزلك الخـراب، وعائلتـك وأهلك، لكنك حصلت على حرية الهذيان والحمى في زمن بارد كأجساد الموتـى! ونالت فرشاتك لأول مرة حرية الحراك، ونزف اللون الذي تريد بالطريقـة التي تريد، خرجـتَ عن حدود اللوحة الضيقة لترسم على الفضاءات التي تنداح مـن حولك وترسم وترسـم، وتستلذّ برسمها، فقد منحتها الحياة، ومنحتك معها متسعـاً للصراخ واللهاث، لذلك أرى شبحك الذي لا يـكاد يـرى متسكعـاً في الشوارع المقفـرة، نحيلاً، وطويلاً سمـق بقامته بما يكفي ليبصر أبعد من غيره!.

وأذكر -أعوذ بـالله من كلمة أذكر- أني حادثتـك ذات غـروب، أواسيك في حديث طويـل عـن الذاكرة وقد وهبـك الله نعمة فقدهـا، وعن لوحةٍ لفنان مغمـور لشدّ ما أعجبتني في صحيفـةٍ محلية، وحين طلبت رؤيتها، سرحت بتفاصيلها، ولازمت مجلسي وقتـاً طويلاً تنعم النظر بصورة هيكلٍ آدميّ تكـوّر على ذاته بشدة، داخل قفص زجاجي ضيـق كُسرت إحدى زوايـاه، وخرجت منها القدم الآدمية كبيرة بحجم القفص الشفيف، ومنطلقـة تبتعد بساقها في إشارةٍ عن التوق للهرب من زحمة النفـس وضيق الكون من حولها..

ولأنك وجدت في اللوحة ما يؤرقك فعلاً، ويشغل تفكيرك ويشله، فقد تكرر حضورك الجميـل إليّ، طالباً أن تـرى الصورة التي بدأت ألوانها تبهت بـين أصابعك المتعرقة، لكنك كنـت حـذراً وخائفاً تتطلـع حولك باستمرار على الرغم من أنك فقدت عقلك (كما يرى الآخـرون)، ربما لأنك هربت من

مصحّ الأمراض النفسية غير مرة، وربما لأن القلق -كالهواء- مجبرين على استنشاقه في مدينة تغتسل أرصفتها بالخطيئة!.

دخلتَ غرفتي المطلة على الحي الصناعي في فندق (الجامعة العربية)، ولم تستأذن أحداً بالدخول أو الجلوس على كرسي الخيزران بالقرب مني. طلبت للمرة الخمسين ربما، الصورة ذاتها، تبسمت كطفل بريء، ثم أخرجت من عبّك أوراقاً لا شكل لها، دفعتها إليّ، فشرعتُ بقراءتها حتى قبل أن أتناولها منك، كنتُ تواقاً لأعرف شيئاً عن ماضيك غير كونك رسام ومصاب بمرض عصبي مزمن!.

هل تدرك أنك قدمت لي سجلاً بخط يدك عن حياتك السابقة؟ وهل تعي أنك أطلعتني على مذكرات تبدو معاناتك فيها حتى بالخطّ وطريقة رسم الكلمات؟!

أشكرك على أية حال، أيها الرفيق الدافئ، فكلانا غريب في هذه المدينة الكبيرة الصغيرة، أنا أنتظر عملاً أنجزه، ثم ارتدّ إلى حيث انطلقت قبل أيام، وأنت قدّيس في شوارع (مجنبة) رفضتك ونأت عنك..، كلانا محكومٌ بالزمن والجهات..

وقبل أن تسقط الصورة من يديك، كنت قد أرخيت رأسك على مسند الكرسي، ثم سافرت في إغفاءةٍ عميقة، أما أنا فقد شرعت أقلب أوراقك التي لا تشبه بعضها، وأبدأ بقراءة مذكرات رجلٍ فقد عقله.. وهو يكتبها:

(جرحٌ ثان)

استهلكتني الحياة، أنا الذي حاولت أن أرسمها حتى بدمي، تغافلت عن اهتمامي بها، تجاهلتني، ورويداً رويداً استهلكتني كسلعة لمّا تعد تلزم..!؛ عشرات، بل آلاف الصور المعرَاة، تكومت في مخيلتي، وحين لم أجرؤ على تعريتها -فنحن في مجتمع شرقي محافظ- رسمتها صوراً (كاريكاتورية)، لكنَّ أحداً لم يعرها أدنى اهتمام، ومثلتها بلوحات تجريدية، فلم يفهمها أو يفك طلاسمها أحد، عدا بعض الذين وصمهم الدهر على وجوههم بإبهامٍ من لهب، فأصبحتُ أعرفهم وأميزهم من نظراتهم..



سيماهم في عيونهم من أثر التشرد..!.

تلذعني اللوحة، تقرصُ راحتي، تمتصُ كريات دمي السوداء، وبعضاً من ساعات نومي القليلة، ترتجفُ يدي كثيراً وأنا أحاول ترويض قلم الفحم الهائج بين أناملها، وحين تولد اللوحة على الورق، ولادة طبيعية أو قيصرية، ترفض مكاتب الصحف والمجلات.. أن تشتريها ولو ببعض الليرات، ينصحني البعض من أصحاب الرأي والمهتمين بالفن أحياناً بإتلاف اللوحة، فلربما جرجرتني وراءَها إلى بيت خالتي، ولم يكن لي خالة، فأمي كانت الوحيدة على ستة أو سبعة أخوة!

وكثُرَ الناصحون حتى من أهلي، ولم يطلبوا لقاء النصيحة جملاً أو دجاجة، بل سجلوا عليَّ أنهم عذلوني عن هذا الدرب، فبقيت ضالاً وعاصياً.

زوجتي ضاقت ذرعاً بالفقر، أمي تنصحني بالعمل مع أخي، فهو مستور الحال، ويخلص لقمته من فم الذئب على حد تعبيرها، لكنَّ أخي لم يكن غير كاتب استدعاءات، يجلس على طاولة حديدية

صدئة، مربوطة إلى كرسي صغير بسلسلة من حديــد أمام إحدى الدوائر الرسمية، فيبدو كأنــه مربوط مع الطاولــة والكرسي، تحت سطــوة الشمس ولسع الــبرد، يبيع الطوابع حيناً، يعقِّب المعامــلات، ويعود قبيل المساء وفي يديه ما يسدُّ الرمق ويمسك الحياة إلى نهار الغد.. نعم إنه مستور الحال!!

أما ولــداي اللذان لم يبلغا أشدهما، فما زالا يلحان عليّ لأشتري لهما ألواناً وفرشاةً ويرسمــان البيت الذي بــدا يخلو حتى من أثاثه!.

ومن يومها أصبحت أخاف عليهما كثيراً، فالخيبة تورّثُ كلون العيون!.

(جرحٌ ثالث)

لم أكــن لأقطع أذني كما فعل (فان كوخ)، فالحيــاة تشدها كل يوم بأكــفٍّ من حديد، وربمــا قامت بهذه المهمة نيابة عني، ولم أكن لأنتحــر بالسـمِّ أو الرصاصــ أو بلفِّ حبل سميــك على رقبتي، فأنا أمــوت ألف ميتة في كل قطعــةٍ مــن الزمن. ولعلــي أجد من المبررات ما يدفعني لتصرّف أحمق يودي بي إلى النهاية، وأجد من الترقب والتجديف في فسحة الأمل الضيقة ما يمسكني عن الموت، فأبدو أكثر حمقاً وسذاجة، ما يؤرقني فعلاً هو محاولة النهوض بأعبائي وأحلامي، وما يؤرقني أكثر هو الاسم الذي ليس لي منه أي نصيب..

التوقيع: (ناهض).

كتبت هذه الأسطــر من مذكرات اليوم، بعــد أن خرجت من معرضــٍ للرسم أقامه أحدهم ممن يدعون الفن، وبعد أن تفحصت الجدران الأربعة وسقفها، لم أجد ما يستحق الانتباه عدا إطارات اللوحات والبراويز التي شغلت بعناية فائقة.

عشرات الحضــور يصفقــون للموهبة الجديــدة، يتسابقــون في حجــز اللوحات بأسمائهم، الكاميرات لا تفتأ تلتقط الصور، والصحافــة أنشط مما عهــدت، أما النقاد فيصفــون صاحب المعرضــ الكبير والاسم الكبير بأنه: مدرســة فنية حديثة!! خرجت مستعجــلاً، يسبقنــي إلى الخــلاء لهاثي، ويجري خلفي ثلة من مبدعي العصر الذين

قضــوا انتحاراً، بشعورهــم الكثة، ولحاهم التي استطالــت كحبال المشانق، بينما كانت زمامير السيارات أحرص مني على حياتي، تسمّرت في مكاني، ومــا زالت صور النقود الورقية التي انهالت على (الرسام) مطبوعة في عينيّ، ولعلي سأشهد شهادة حقٍّ بأن من أبدع لوحــة العملة الورقية، لهوَ أعظم فنانٍ عرفته. أو سمعت عنه!.

عدت متسللاً إلى الحارة، يداي فارغتان، جيبي فــارغ، معدتي خاويــة، ولا شيء في ذاكرتي غير الفراغ.

(جرحٌ آخر، وليس أخير..)

يومان متتاليان، ولم ألتق بصديقي ناهض، كان عليّ قبل أن أغــادر المدينة، أن أتفقده وأســأل عن حاله، شعورٌ بالقلق راح يدفعني لأتحــرك صوب المقهى الذي كنا نتردد عليه باستمــرار، جلست إلى الطاولــة، وقبل أن أطلــب إلى النادل شيئاً بادرته بالسؤال عنه، جلس النادل قربي، وراح يتحدث عن النوبة العصبية التي ألمت بصاحبي، فبعد أن رسم بالطين خرابيش مبهمة على جدار بيت كبير في الحــارة، تهجّمت عليــه صاحبة البيت، صرخت عليه أمــام الجميع، وطلبت منه أن يغسل الطين عن جدارها الأبيض، وقالت له بصوت يشبــه الصراخ: اذهب وافقد عقلك في مكانٍ آخر..، ثم ساءت حالته أكثر، وراح يبحث عن أي قطعــة زجاجية في شباك أو واجهة محــل، ثم يكسرها، ويحــاول الولوج مــن خلالها، يصمت النــادل قليلاً، ويختم حديثه بـ «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ثم يعود ويستأنف الكلام من جديد..

آخر شــيء علمته عن صديقــي أنه تمَّ تطبيق الحجر الصحي عليه. أدخلوه المصحَّ عنوة بعد أن كثرت شكاوى الجيران، فلم تعد هناك قطعــة بلّور في الشــارع على حالها، حتــى نوافذ منزله حطمهــا بعد أن غادرته العائلــة لتستقر بعيداً عنه، ولأنه كان يقحم قدمه اليمنــى في كل فتحة أو شرخٍ يحدثه، فقد نزفــت ساقه الكثير من الدماء، حتى لم يعد يستطيع الوقوف عليها!.

ساعتها فقط أدركت أنني ساهمت بعذابه بتلك الصورة التي أعطيتها له، فحين ضاق

الوجود عليه انطلق يقلد الشخص المقيد في اللوحة، ويبحث عن فجوة للهرب من الضيق الذي تغلغل في خلاياه، لكنه لم يعلم أنني من رسمت تلك اللوحة تعبيراً عن حالة مررت بها، ونشرت الصورة في صحيفة محلية، ولم يعلم كذلك أن الهرب عبر صدوع الزجاج سيعيده إلى المكان الذي حاول الهرب منه، ولكن بجروحٍ جديدة. وبآلامٍ أكثر..، نسيت أن أحذره من تقليدي في ساعة جنوحٍ وجنون، نسيت ذلك، نسيت..، لا حول ولا قوة إلا بالله.





مع امتداد الطريق .... د. عبد الكريم الأشتر

البحوث العلمية عماد التطور التقني والتنمية .... د. أحمد غنام

التكنولوجيا الحديثة ودورها في هيكلة الاقتصاد (الإسرائيلي) .. د. حسين إبراهيم

نماذج في رثاء مدن وممالك أندلسية .... د. فورار محمد بن لخضر

العبودة والعمل .... د. علي أبو عساف

أضواء على مدينة بصرى .... د. خليل المقداد

البحتري وأبو تمام .... د. محمد يقوته نور

المرأة والقرار الثقافي .... د. بغداد عبد المنعم

الفن.. وفلسفة الخط العربي .... معصوم محمد خلف

أطياف ذكريات .... جميل حسن

غوركي يتحدث عن تشيخوف .... نصر الدين البحرة

سهرة فكرية مع أوراق العمر .... سمية اليونس غانم

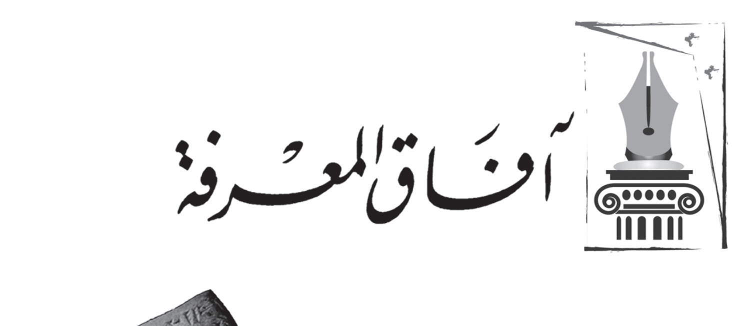
رائد الشعر التعبيري (جورج تراكل) .... محمد جدّوع

الأصول السورية للموسيقى الكنسية .... فايز مقدسي

الحب في بعض القصص القصيرة في سورية .... سلوم درغام سلوم

أثر الحكايات العربية الشعبية على أدب القص الغربي .... ترجمة: رافع شاهين

الوقاحة الفكرية .... أحمد مثقال قشعم





مع امتداد الطريق

د. عبد الكريم الأشتر ❁

- ١ -

لبـث الفتى، وهو ينتظـر نتيجة قَبوله في معهد إعـداد المعلمين للتعليم الثانـوي - وقد سمَّوه يومذاك «المعهد العالي للمعلمين» - يعمل معلماً وكيلاً في إحـدى مدارس حلب الابتدائيـة، تجاور بيوتاً تسكنهـا طائفة من يهود المدينة. وكانـت أحداث القضية الفلسطينية، بعد إعلان «الدولة» والإخفاق في الحـرب العربية التي صاحبتها، تستولي علـى عقول الناس. وكان الفتى سافـر إلى دمشـق وقابل اللجنة التي تتولى فحصـ المتقدمين إلى «المعهد»،

❁ أستاذ جامعي وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

مع طلب الانتساب إلى كلية الآداب التي لم يمض على إنشائها، في جامعة دمشق، أكثر من عامين.

وليس ينسى الفتى فرحته بالنبأ الذي حمله إليه أحد رفاقه، مساء أحد الأيام، عن رؤيته اسمه بين أسماء المقبولين في «المعهد»! خرج من المدرسة، تلك الساعة، وسار في الشوارع المحيطة بها، وفرحته تخالطها غصص النظر إلى البيوت التي يسكنها اليهود، من حولها، وقلق رحيله إلى عالَم جديد.

وكان أخوه سبقه في السفر إلى دمشق، وسكن، مع زميلٍ له، غرفةً في شقة هادئة مكونة من ثلاث غرف، تشغل صاحبتها واحدة منها، ويشغل الثانية الدكتور عبد الكريم اليافي العائد حديثاً من فرنسة. فانضمَّ الفتى مع أخيه، إلى جوار الأستاذ اليافي، وكانت تلك الأيام هي المقدمةَ التي حاكت الأقدار خيوطها، لصلة الفتى الغنية به، من بعد.

وكانت الجامعة، على اختلاف كلياتها وأقسامها، شغلت، بعد التحرر من سلطة الانتداب، ثُكنة عسكرية كبيرة معروفة، في حيّ البرامكة، اتسعت لمدرجاتها وهيئاتها الإدارية. وانتقل إلى العمل فيها جملة من الأساتذة، كان بعضهم، لقلة المختصين يومذاك، يعمل في المدارس الثانوية. ووجد بعضهم، ممن كان أُوفد للدراسة في الغرب، الباب مفتوحاً إلى أقسام الدراسات المختلفة فيها. وكانت كلية الآداب الحديثة أنشئت فيها وفق البرنامج الذي رسمه ساطع الحصري، المستشار في وزارة التربية يومذاك، وجمع فيه، في وقتٍ واحد، بين الدراسة في كليتي الآداب والعلوم وبين الدراسة في «المعهد»، لتخريج المدرِّسين المؤهَّلين للعمل في الثانويات.

لم يكن عدد الطلاب كبيراً في المدرَّجات، في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي (١٩٤٨ - ١٩٤٩)، يكاد عددهم لا يتجاوز الأربعين. وكانت الدراسة تتَّبع نظام «الشهادات» وإن كانت تضم، في كل سنة، مواد لغوية وأدبية تتدرج في مستوياتها، على السنوات الأربع.

دخل الفتى المدرَّج، وهو يتطلع في وجوه زملائه وزميلاته، يرجو أن يرى فيهم فتاته التي عرفها في السنة الماضية، في زيارته بيتها. وقد رآها تدير وجهها إلى إحدى زميلاتها وتتحدث معها، فحاول أن ينصرف عنها إلى المحاضرة التي يلقيها أستاذ في تاريخ العرب والإسلام، يعود فيها إلى مجموعة من الأوراق تحمل أهم ما يريد أن يستخلصه من الدرس. كان طويلاً عريضاً

يروع شكله، ولكنه يوحي لناظره بالطيبة.

أخذ الفتى يرقبه. ثم عاد فانصرف، من جديد، إلى مراقبة الفتاة وقد انحدر عن رأسها، من الخلف، شعر أسود غزير، انزاح عنه الشال الذي يمسكه، فدار من حول العنق. وكانت، حين تلتفت، تتكشف أطراف منه، على نحوٍ لا يعرف اليوم كيف كان أثره فيه!

ثم حاول أن يعود إلى الدرس، فوصل إليه صوت الأستاذ واهناً متقطعاً لم يكد يعي منه شيئاً. ويذكر أنه زار هذا الأستاذ، من بعد، في بيته، فرآه ينصرف إليه بحنوٍّ بالغ يدفع عنه شعوره بالحرَج! لقد أبقى في نفسه، على مدار العام، أثراً طيباً يتملاه إلى اليوم. والذي بقي منه، في نفس الفتى، معنى من معاني الالتزام بالموضوعية، في الحكم على الأحداث، وبالمنهج العلمي في استقرائها والرجوع إليها.

.٢.

عرف، في سنته الأولى، من أساتذة الكلية و«المعهد العالي للمعلمين»، ممن رافقهم في السنوات التالية: الأستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور أمجد الطرابلسي. وعرف معهما: الأساتذة عز الدين التنوخي، وإبراهيم الكيلاني، وحكمة هاشم، وعبد الهادي هاشم، إلى جانب الشيخ محمد بهجة البيطار، ومحمد المبارك، وخلدون الكناني، وعبد الكريم اليافي، وجميل صليبا، وعادل العوَّا، وجودت الركابي، وشفيق جبري (عميد الكلية) وأساتذة آخرين.

كان سعيد الأفغاني، أستاذ مادة النحو، لا يحمل اللقب العلمي الذي يحمله غيره من أساتذة الكلية. ولكنه كان، فيما يرى الفتى اليوم، قريباً من مناهج التعليم الجامعي. رآه الفتى يجمع مادة كل سنةٍ فيقسمها بينه وبين طلابه: يتولى هو تدريس أكثرها حاجة إلى الشرح، ويدع للطلاب أن يتولَّوا، من بعده، إلقاء ما يتبقى منها على زملائهم، ويقعد هو يتولى الاستماع إليهم، ويستقبل ما يرِد عليه من مداخلاتهم وردودهم، ويناقشهم فيها.

وكان، إلى جانب هذا، يُحسن تقويم الطالب، ويحفظ قدْر العلم، ويقف عند حدود ما يعرف منه. لا يستحيي، أحياناً، أن يقول لِمن يسأله:

- انتظر، سأعود إلى المسألة من بعد!

كان ينتسب إلى ثقافة محافظة، يبدو شديد الغيرة عليها. ولعل اختصاصه أعانه على التمسك بها. فكان هذا من أسباب الخلاف بينه وبين كثير من الناس.

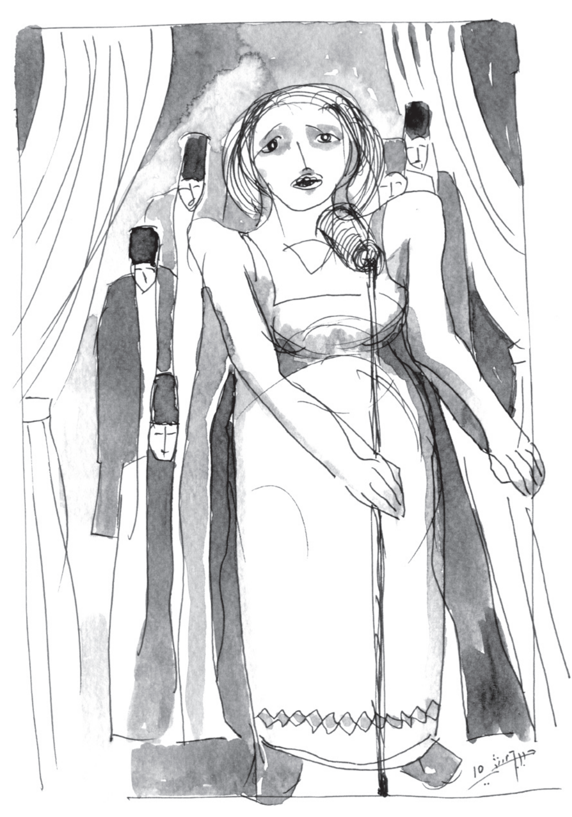
على أنه يبدو للفتى مستلطَفاً في بعض

الأحيان، كأنما يستشعر حاجة الطلبة إلى الترويح. ويراه ربما أدركته الدعابة الخفيفة، وهو على المنبر، فصاغها، على طريقته، صياغة جهْمة لا تكاد تثير الانتباه. سمعه الفتى يوماً ينادي الطالب الذي كلفه بكتابة بحثٍ عن (ابن جنّي)، ليلقيه على زملائه، فقال له:

– قم يا «جنّي» فألقِ بحثك!

لم يزد عليها شيئاً، كما لو كان ناداه باسمه، ثم لم يتعدَّ هذا الحدّ!

قصير القامة، بادي النشاط، يتنقَّل في ممرات الجامعة كالظل، شديد الثقة بقدراته. رآه الفتى يوماً، وهو على المنبر في قاعة الدرس، وقد فُتح عليه الباب ودخل منه رئيس مجلس الوزراء يومذاك (الدكتور محسن البرازي)، ومعه رئيس الجامعة، يريد أن يستطلع أساليب الدرس في كلياتها. فاستهوى الفتى أن يستطلع، في هذا الموقف، حال الأستاذ الذي لا يحمل الشهادة التي يحملها الآخرون. رآه لم يكد يحرك ساكناً، وتابع درسه كأنه لا يراهما، إلا أنه ضمَّ إليه سترته وعقد أزرارها. ثم إنه لم ينزل عن المنبر،



ولم يخاطب الزائرَيْن، ولم يتوجه إليهما إلا بالتحية العابرة الأولى!

وكان، كما ينبغي لمثله أن يكون: حادَّ المزاج، شديد الصلابة، قوي العزيمة، حديد اللسان. لعله كان يؤذيه أن يستشعر ضعف موقفه، بين زملائه وأمام طلبته، في الحرمان من لقب الشهادة، فكان ربما قال لتلميذه إذا أخطأ، على مسمع من الطلبة:

– «كأنك يا ابني درستَ في السوربون»!

يعرّض ببعض زملائه الذين قدموا بشهاداتهم من فرنسة! وقد حكى الدكتور

إبراهيم الكيلاني للفتى، بعدها، فقال: إن الأفغاني، أيامها، لم ينجُ من تعنيف بعض زملائه له، حين بلغتّهم كلمته!

وبلغ أن يهدي إليه الدكتور الكيلاني، خرّيج فرنسة، كتاباً من كتبه، فأحب أن يجزي الهدية، فحمل كتاباً من كتبه في النحو، واقترب منه يهمس في أذنه:

- «هل تحب أن تقرأ كتاباً في النخو» (بالخاء)؟

كما لو كان يتوجه بالسؤال إلى أحد «الخواجات»!

كان، في حدود تكوينه الفكري، كما بدا للفتى، يَعدُّ نفسه صاحب رسالة يحامي عنها. يفهم موقع التراث، من حياة أمته، فهماً عميقاً يجعله يقف منه موقف القداسة. إذ يكوّن، في رأيه، شخصية الأمة ويحرس هويتها الفكرية والوجدانية. فمن ثَمَّ يخاف، باسم التحديث أو التجديد، أن تُحرَّك الأسس التي يقوم عليها.

ثم إنه لم يُهيأ له أن يلمّ بالثقافة اللغوية الحديثة، ولعل هذا لم يهيأ لجيله كله، فبقي يدرج، في تعليم النحو، عند الحدود الموروثة.

ساءت علاقة الفتى به أمداً. وربما زاد الأمر سوءاً سوء علاقته بأخيه زمناً. ثم استقامت الحال، وذاق الفتى من برّه واستقامته وتواضعه ومباسطته ما بات يذكره إلى اليوم.

وقرأ الفتى وزملاؤه، مع الدكتور أمجد الطرابلسي، أستاذ الأدب والنقد، على مدار الأعوام الأربعة، نصوصاً من شعر الجاهلية، ووقفوا معه عند شعر زهير بن أبي سلمى وقفة طويلة. وقرؤوا أيضاً نصوصاً من كتاب (الكامل) للمبرِّد. ورجعوا إلى نصوص مختارة من نقد المعري في (رسالة الغفران). وطافوا بالنقاد العرب القدامى، ووقفوا على القضايا التي أثاروها في كتبهم.

عرف الفتى أن الدكتور الطرابلسي بدأ حياته يقول الشعر، قبل أن ينقطع إلى الدرس والبحث. وكان يقرأ كتبه وكتب الأستاذ الأفغاني، فيجد لغة الثاني أغنى إحساساً وأقوى نفوذاً وأكثر ليناً في الوصول إلى مراميه، فيعجب لهذه المفارقة، وينصرف إلى درس أسبابها، فما يجد آخر الأمر غير الرجوع بها إلى التكوين.

كان، فيما بدا للفتى، يعاني، في حياته، من بعض العثرات، ثم ما يجد سبيلاً إلى حلها. فيجعله التسليم بما هو فيه حادَّ المزاج، صعباً أحياناً في مواقفه من الآخر.

وكان يراه، من جهة أخرى، متين التكوين، منفتحاً على ثقافة العصر وقيَمه. أفاد من دراسته النقدية، ما جعله يميل إلى الشمولية

في الأحكام، وإلى سعة النظرة الأفقية في مسائلها وجزئياتها. ولكنه يراه، مع هذا، لا يتعدَّاها، أحياناً كثيرة، إلى البعد الثالث، يعني الذهاب في العمق! وقد يصلح، في رأي الفتى، أن يُتخَذ، من بعض أحكامه النقدية، مثال على ما يذهب إليه.

على أنه يراه، آخر الأمر، فتح، أمام الطلبة، أبواباً في الدرس أفادوا منها في قراءة تراثهم الأدبي والنقدي، على نحوٍ مكَّنهم من الرجوع إليه والإفادة منه.

وتبقى في نفس الفتى، من هذين الأستاذين اللذين انفردا بدرس أهم المواد في برامج الكلية، بشهاداتها الأربع، بقيةٌ لا يستطيع أن يكتمها. فقد كانا، في جملة مواقفهما، من الناحية التربوية، بعيدين عن الطلبة إلى حدود إحساسهم، أحياناً، بالانقطاع عنهما. وكان يخطر للفتى، في الساعات التي يتولى الدرس فيها أساتذة آخرون، مثل الدكتور إبراهيم الكيلاني أو الأستاذ عز الدين التنوخي، أو الشيخ البيطار، أو الدكتور اليافي، أن يجمع بين ما كان يحسه في الساعات التي يجلسون فيها على منبر الدرس، والساعات التي يجلس فيها إليهما، فوجد نفسه موزعاً بين إحساسين متغايرين!

أما الدكتور الكيلاني فكان مثلاً في لين الجانب وأُنْس المعاملة، يباسط طلابه ويداعبهم، وينقل إليهم صوراً من ذكرياته وتجاربه، وهو يقرأ النصوص ويستخلص معانيها ودلالاتها التاريخية والإنسانية. وكان يقرؤها في ضوء حقائق العلوم الإنسانية، ويفيد منها في فهم النفوس، ويصل منها إلى مواطن كان الفتى يجدها، على غرابتها، بالغة العمق. وقد امتدت صلته به، من بعد، حتى صار يجلس إليه، مع بعض الرفاق، ساعات طويلة.

وأمضى الفتى وزملاؤه، مع الأستاذ شفيق جبري، عميد الكلية، أيضاً ساعات غنية، في الاستماع إلى محاضراته عن شوقي، وما وقع في صحبته له، في دمشق وزحلة، من طُرَف المواقف وأسرارها، وصل فيها إلى أن يقول، في رده على بعض المداخلات:

- نعم، لقد كان شوقي يشرب «حتى تُرعَش يداه»!

ومع الأستاذ محمد المبارك، في جمعه بين اللغة العربية وخصائص تكوين الأمَّة، من الناحيتين الفكرية والروحية. ومع جميل صليبا في جمال صياغاته، عند تناوله بعض القضايا التربوية والنفسية. ومع الشيخ البيطار في عمق تقواه ونفوذ تحليله لبعض الآيات في نصوص القرآن الكريم. ومع عبد الكريم اليافي في سعة ثقافته واختلاف

ميادينهـا وامتدادها إلى الآفـاق الصوفية العذبة.

.٣.

وغَنِم الفتى، في هـذه المرحلة، رفيقين طيبين مـن أسرتين معروفتـين في دمشق، تعودان، في أصولهما، إلى القطر الجزائري. وكان أبواهما من أعضاء مجمع اللغة العربية الـذي يرأسه محمد كرد علـي، هما الشيخ محمد بهجـة البيطار والشيـخ عبد القادر المبارك. فتألفت مـن الثلاثة حلقة متآلفة، حلا لبعض زملائهم أن يطلق على أعضائها لقب «الفرسان الثلاثة».

وقد مضـت أعوام الدراسـة الجامعية الأربعة وهم على ما بدؤوها من الألفة. وكان الفتى يُمضي بعض ليـالي الامتحانات، في بيت زميله عاصم ابن الشيخ البيطار. ويذكر ليلة منها وقعت في شهر رمضان، شهد فيها من ورع الشيخ البيطار، وقت السحَر، وخوفه من فوات الوقـت على لحظة الإمساك عن الطعام، ما أصبح الفتـى يذكره، إلى اليوم، عند كل سحَر من ليالي رمضان. وكان يغفو علـى خرير الماء المنبعث من البركة الصغيرة «الفسقية» في أرض الدار، ويُفيق على دعوة الشيخ إلى طعام الإفطار!

مع هذين الصديقين، غَنِم صديقاً آخر، كان صديقاً لأخيه من قبل، وهو أحمد راتب النفاخ. وكان لـه، في حياة الفتى، أثر كبير. كتب فيه ما لم يكتبـه في فقْد أخيه. رآه من أصـدق مَن عـرف من الطلبـة، في سنواته الجامعيـة الأربـع، ومن أعلمهـم بالعربية وآدابهـا، وأقربهم إلى الإنسـان الحق. نعِمَ الفتى، في صحبته، بمحبته الصافية، وعانى أيضاً مـن غضبه، في موقـف أو موقفين. ولكنه لم يكفَّ عن محبته وتقديره أبداً.

وعرف، من رفاق المرحلة: شاعر الجامعة المرح أيامها، محمد الحريري الذي كان ينشد الشعر في بعض المناسبات القومية المواتية، ومدّحـة عكّاش الذي أنشـأ، من بعد، مجلة «الثقافة» الدمشقية، وميخائيل أديب صاحب الانتمـاء الصـادق إلى القوميين السوريين. وقد كانـت له، مع الأخير، جـولات حامية ذات صبغة فكريـة وأيديولوجية سياسية لم تمنع من زيارته، مع صديقه عاصم البيطار، في قريتـه الفريدة «مرمريتـا». وقد شهدا فيها، من كرم الضيافة وجمال الصحبة، ما امتد أثره في حياة الفتى، إلى مدىً طويل.

وعرف، من زميلات المرحلة أيضاً، نبيلة الـرزاز التي تقدمتْ في الدرسـ، ووفتْ به حتى كانت من أحسن زميلاتها وأقربهنَّ من التفوق فيه، وفي نتاجها الأدبي، من بعد.

.٤.

لم يكـن الفتـى يخلد، وهـو يتابع درسه

في الجامعة، إلى الراحة. فقد درَّس النحو والأدب في بعض معاهد دمشق الخاصة، إذ لم يكن المرتَّب الذي يدفعه له «معهد إعداد المعلمين» يكفيه. وكان عمله فيها التجربةَ الأولى لعمله في الإعداديات والثانويات الرسمية، بعد تخرجه في الجامعة. وقد أفاد من خطئه وصوابه فيها، إذ ازداد يقيناً بتكامل المعرفة والتدرج في تحصيلها، وتفرُّد هذا الأسلوب في السعي إلى النجاح فيه.

ثم إن الفتى شارك زملاءه وبعض أساتذته في الرحلات الجامعية، فزاروا مواطن كثيرة عززت من روابط الألفة بينهم، وقرَّبتْ بين الأساتذة وطلبتهم، وأبقت في ذاكرة الفتى صوراً كثيرة يستعيدها ويأنس بها. وكان لبعض زميلاته دور فيها غابت عنه زميلته الفتاة التي عرفها. إذ انقطعت عن الجامعة، في نهاية العام الجامعي الأول، فما عاد يراها إلا في مواقف سريعة عند باب المدرَّج.

وشارك، في العام الجامعي الثاني زملاءه، في رحلة قاموا بها إلى السويداء في جبل العرب، وانضمَّ إليها بعض الأساتذة: الدكتور اليافي، والدكتور الطرابلسي، والأستاذ التنوخي. وهي زيارته الأولى إليها. فكان، وهو يسير في طرقها، يرى التاريخ يسير معه على الجانبين، متمثلاً في بقايا الأعمدة والجدران الرومانية والبيوت والمدرَّجات والحمّامات، فيعمق إحساسه بمكانة وطنه التاريخية، ويعلو اعتزازه بها. وقد بلغه، من بعد، أن أستاذه التنوخي يعود بأصوله إلى الجبل وساكنيه.

وفي صيف العام الأول (١٩٤٩) نُظِّمت رحلة جامعية إلى تركيّة، في عهد (المشير حسني الزعيم)، وتحسُّن العلاقات السورية التركية، اشترك فيها الأستاذ الأفغاني إلى جانب الدكتور عبد الكريم اليافي والأستاذ عز الدين التنوخي، وجمعٌ من طلبة الكلية، وكانت الزيارة من بواكير الصلة التي قامت بين الطلبة الجامعيين في سورية والطلبة الأتراك. وكان عز الدين التنوخي خير من يتحدث بلسانهم، في جلسات الالتقاء، إذ كان يجيد التركيّة. وتحفل ذاكرته بأحداث نفيه إلى العراق، في أواخر أيام الدولة العثمانية. وقد سمع الطلبة من زملائهم الأتراك ما جعلهم يسترجعون ذكرى تحالف الشريف حسين مع الحلفاء ضد السلطة العثمانية، أواخر الحرب العالمية الأولى، ووجدوهم لا ينسَون هذا التحالف، ويقرب أن يعدوه ضرباً من الخيانة.

وقد قرَّبت الرحلة بين الطلبة وبين أساتذتهم الثلاثة. يذكر الفتى أنهم أخذوا يتبادلون الأحاديث وهم على ظهر المركب،

عائدون من زيارتهم لجزيرة (بيوكْ قضا) طافوا خلالها بعض أنحائها. وكان بين الطلبة عاصم ابن الشيخ البيطار، فأخذ الأستاذ التنوخي يذكر أباه ويثني عليه، وكان من أقرب أصدقائه إليه. وأدركتْه نزعته إلى الشعر، فالتفت إلى الطلبة المتحلِّقين من حوله، وصاح فيهم:

- أجيزوا... «الشيخُ بهجةُ زينة الأشياخِ»

فأخذ الطلبة ينظر بعضهم في وجوه بعض، ينتظر كلٌ منهم، لبعد القافية، أن يجيزه زميله. فلما بدا عجزهم، صاح الأستاذ التنوخي يُكمل صدر البيت:

....

«فإذا تؤاخي مثلَ بهجةَ آخِ»

كان الفتى يستعيد، أحياناً كثيرة، مع صديقه عاصم ذكريات هذه الجلسة على ظهر المركب العائد بهم من الجزيرة. وظلتْ هذه الذكرى تعاوده حين أُتيحت له زيارتها، مرة أخرى، بعد عشرات السنين!

وفي نهاية العام الجامعي الثاني (١٩٥٠) استأجر الفتى، مع صديقه عاصم، بيتاً في (مضايا) من قرى الاصطياف المطلة على سهل الزبداني، وأمضيا فيه عطلة الصيف، واستقبلا مَن كان يزورهما من الزملاء والأصحاب.

وكان يسير، في مساء كل يوم، إلى مقهى (بُقّين)، فيطل منه على السهل الممتدّ. وقد يمضي قسطاً من الليل في المقهى، بعد أن يخلو من زوّاره، ينعُم بالهدوء والسكينة من حوله. وقد يختار أن يقف على حوافيه يصغي إلى الهدير الناعم المتصاعد من أحد الطواحين، في أسفل الجبل، تجلوه السكينة وترحل به في غير انقطاع، فيستسلم الفتى له كأنما ينصهر فيه. وتتوحّد الأضواء البعيدة في العين وتقرُب السماء منها، فينداح في نفس الفتى شعور حار بوحدة الأشياء من حوله.

وقد سأل الفتى يوماً صديقه عاصماً أن يدعو أباه الشيخ ليقضي معهما، في (مضايا) يوماً أو يومين. فلبّى الشيخ الدعوة، وأقبل يحمل معه كتبه ودفاتره، فأُفردتْ له غرفة صغيرة يُمضي فيها ليله.

وفي ساعةٍ لا ينساها الفتى مرّ يستطلع حال الشيخ، بعد أن دخل يَقيلُ في غرفته، فوجده، وقد غلبه التعب، فاستلقى على بساط الغرفة، متوسِّداً عدداً من كتبه التي حملها معه، إذ كان يعمل، قبل أن يغلبه النعاس، في كتابٍ يحققه في النحو..... صورةٌ بعثتْ في نفس الفتى، على الفور، ذكرى بعض علماء الإسلام، ظل يستذكرها إلى اليوم الذي يكتب فيه هذه الكلمات.

- ٥ -

وآخر ما يذكره، وهو في طريقه إلى الخروج من الجامعة، في مساء أحد أيامه الأخيرة فيها (١٩٥٢) وقد أقاموا، في مدخل بابها الكبير نصباً خشبياً هُيِّئ لحضور رئيس الجمهورية يومذاك (العقيد أديب الشيشكلي) ليسلِّم بيده شهادات التخرج لطلبة كلية الحقوق. حتى إذا نودي باسم أحدهم، رفض الطالب أن يمدَّ يده فيصافح يد «الرئيس» الممتدة ويتسلَّم شهادة التخرج منها، قائلاً:

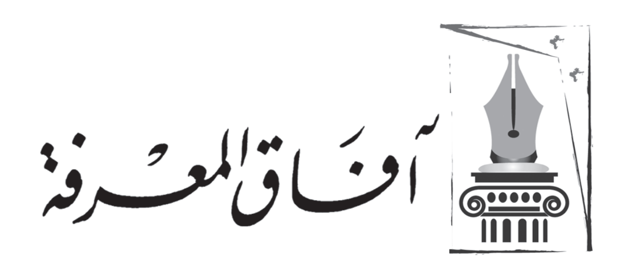
- أرفض أن أتسلّمها من يدٍ لا تمثل حرية الوطن ولا سلامة الأحكام فيه.

وقد أحدث موقف الطالب وتصريحه هرَجاً حاول منظمو الحفل أن يطمسوه! وكانت هذه الصورة آخر ما حمل الفتى معه من ذكريات المرحلة الجامعية.

فأما الذي أفاده، من جانب الدرس، فمجموعٌ كله في الالتفات إلى تحسين منهجه فيه، وتقصِّي الحَيطة في أحكامه، بعد أن تكتمل عناصرها ومصادرها، وينفسح أفق التفكير في غاياتها وحقائقها الحية وصلتها بالعصر.

على أن الفتى كان يرى بعض مواقفه من الدرس الجامعي، والتصريح برأيه في بعض قضاياه لم تكن مرضية. وقد بانَ أثرها في وجه مَن يستمع إليه، وإن ابتسم له ابتسامةً مغتصبة. فقرر أن يعيد النظر فيها. وانتهى، بينه وبين نفسه، إلى الاقتناع بأن بعض السكوت عن الحق لابد منه في بعض الأحيان، وهو ما ازداد اقتناعاً بالحاجة إليه من بعد، وإن كانت الشكوك تساوره فيه إلى اليوم.





البحوث العلمية عماد التطور التقني والتنمية

د. أحمد غنام*

من المسلم به أن الارتباط العضوي والمباشر بين البحث العلمي والتطور التقني والصناعي لا يحتاج، في أيامنا هذه، إلى دليل أو إثبات. ولهذا فإن العلاقة بين البحث العلمي والتنمية هي علاقة لاتنفصم، وبالتالي فإن أنشطة البحث والتطوير تحظى في الدول المتقدمة بعناية فائقة وترصد لها الميزانيات التي تكاد تعادل ميزانيات بعض الدول النامية. مثال على ذلك: تشير إحدى الدراسات أن اليابان أنفقت في الفترة من نيسان ١٩٩٨ إلى غاية آذار ٢٠٠٨ ما مقداره ٧٠,٩ بليون دولار على البحث والتطوير

* باحث سوري.

العمل الفني: الفنانة ميسون علم الدين.

عموماً، وقد نمت ميزانية البحث والتطوير خلال هذه الفترة بنسبة ٢,٨٪ سنوياً. أما مشاريع البحث والتطوير الصناعي فقد أنفق عليها ٤٣,٧ بليون دولار. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد تمَّ إنفاق ١٤٠ بليون دولار بين عامي ١٩٩٥ و٢٠٠٥، وهناك حوالي ٢٠٠ جامعة تمارس أنشطة البحث والتطوير، وتبلغ الميزانية المخصصة في البحث العلمي في أكثر من ٣٥ جامعة أكثر من ١٠٠ مليون دولار، وفي الصناعة الأمريكية بلغت مخصصات البحث حوالي ٤٠ بليون دولار خلال الأعوام العشرة الأخيرة. أما الدول الآسيوية (غير النامية) فقد بلغت نسبة الإنفاق فيها ٢,٨٪ من الدخل القومي، فيما كان الإنفاق في الدول العربية ٠,٧٦٪ من الدخل القومي. وبهذا الخصوص فإننا نجد من الضروري تعرّفنا، بادئ ذي بدء، على ماهية البحث العلمي والتطوير، قبل أن نتوسع في توضيح علاقته بالتقدم العلمي.

ما هو البحث العلمي

١- هو استعمال التفكير البشري بأسلوب منظم لمعالجة المشاكل التي لا يتوافر لها حل.

٢- أو هو دراسة واختبار ناقد للكشف عن حقائق جديدة أو تنقيح أو إعادة النظر في نتائج مسلم بها.

٣- هو محاولة لاكتشاف المعرفة والتنقيب عنها وتنميتها وفحصها وتحقيقها بتقص دقيق ونقد عميق،ثم عرضها عرضاً مكملاً بذكاء وإدراك، لتسير في ركب الحضارة العالمية، وتسهم فيها إسهاماً إنسانياً حياً وشاملاً.

أنماط البحث العلمي

تختلف هذه الأنماط باختلاف الوسائل والأهداف، ويمكن تقسيم هذه الأنماط إلى الأقسام الرئيسية التالية:

١- البحث النظري (أساسي أكاديمي): هو البحث الذي لا يقصد منه فائدة اقتصادية مباشرة، حيث يتركز جل الجهود الذي يقوم به الباحثون ضمن نطاق هذا النمط من البحث، في محاولة فهم الظواهر الطبيعية والاجتماعية واستكشاف أسرارها.

٢- البحث الأساسي الاستكشافي: هو بحث يبدأ بكمية قليلة من المعرفة، ويحاول أن يضيف إليها إضافات كبيرة ومهمة من الممكن أن تكون نظرية أو تطبيقية.

٣- البحث العلمي التطبيقي: هو نشاط

موجه نحو زيادة المعرفة بقصد التوصل إلى منتج جديد أو تحسين منتج موجود وتحسين طرق إنتاجه، أو اكتشاف حقول علمية جديدة متقدمة بهدف الوصول إلى الاختراع لتحقيق الربح الاقتصادي أو خدمة المجتمع.

التطوير: هو المرحلة التي تجري فيها دراسة الجدوى الاقتصادية لما أنتجه البحث التطبيقي من منتجات أو طرق أو اختراعات.

البحث والتطوير: هو نشاط خلاق ومبدع ومنسق، يجري لزيادة المعرفة العلمية والتقنية للوصول إلى تطبيق جديد أو مشكلة قائمة، وتنمية الإنتاجية رأسياً وأفقياً.

إن المتمعن في تعريف مفهوم البحث والتطوير، يجد أنه وسيلة لتحقيق نقل التقنية وتوطينها، لأنه يحقق أهداف توطين التقنية.

البنية الأساسية للبحث العلمي

يعتبر البحث العلمي نظاماً متكاملاً، لا غنى لجزء من أجزائه عن الآخر، وتتشكل بيئته الأساسية من المفردات التالية:

١- الأهداف والسياسات والاستراتيجيات الخاصة بالبحث العلمي.

٢- السياسات والنظم الإدارية المناسبة والمرنة.

٣- مختبرات البحث العلمي زائد معدات التجارب وأدوات القياس.

٤- الورش الفنية اللازمة للتجارب.

٥- الطاقات البشرية (الكفاءات العلمية المتمرسة والكوادر المدربة).

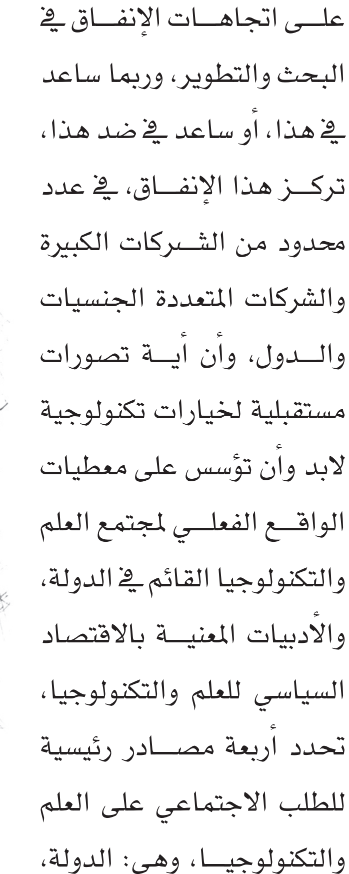
٦- الموارد المالية المتاحة.

٧- بنوك المعلومات الكفوءة.

٨- دعم مراكز صنع القرار في الدولة للوحدات الإنتاجية للبحث العلمي والإيمان بأهميتها.

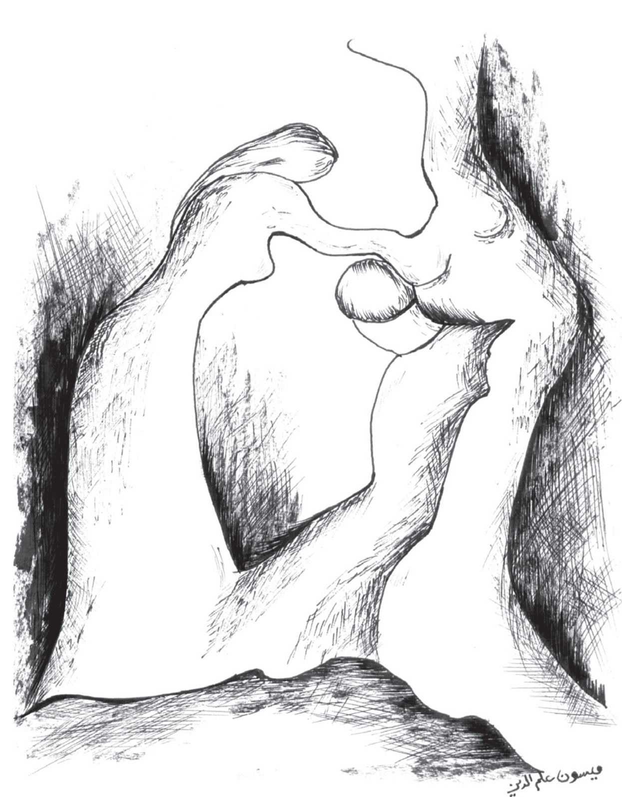
مصادر طلب البحث العلمي الاجتماعية

إن البحث العلمي والتطوير التكنولوجي يمكن أن يكون عملية واعية، وأصبح من غير المنطقي الحديث عن التكنولوجيا وكأنها نبت ينمو منفصلاً عن حاجات الممولين وطموحاتهم، وسوف تستمر إذاً ظاهرة العلم الكبير في المستقبل،بما يعنيه ذلك من تركيز للطاقات البحثية والتمويلية في حل مشكلات أو تحديات محددة سلفاً، لقد ثبت أنه يمكن معرفة الكثير عن آفاق الإبداعات التكنولوجية في المستقبل من خلال التعرف



علــى اتجاهــات الإنفــاق في البحث والتطوير، وربما ساعد في هذا، أو ساعد في ضد هذا، تركــز هذا الإنفــاق، في عدد محدود من الشـركات الكبيرة والشركات المتعددة الجنسيات والــدول، وأن أيــة تصورات مستقبلية لخيارات تكنولوجية لابد وأن تؤسس على معطيات الواقــع الفعلــي لمجتمع العلم والتكنولوجيا القائم في الدولة، والأدبيات المعنيــة بالاقتصاد السياسي للعلم والتكنولوجيا، تحدد أربعة مصــادر رئيسية للطلب الاجتماعي على العلم والتكنولوجيــا، وهي: الدولة، والمجتمــع الأكاديمــي، والقطــاع الخاص الصناعــي، والاهتمامــات الجماهيريــة، وسوف نعرض بإيجــاز كل مصدر من هذه المصادر:

١- **الدولـة:** ينشأ الاهتمام الحكومي من كــون العلم والتكنولوجيا لهما تأثير جوهري على النمو الاقتصادي منذ الثورة الصناعية، وعن كون الإنفاق عليهما يحتاج إلى تخصيص



موارد ضخمــة، ثم لأن أولويــات مجتمعية واستراتيجيــة عديــدة لإنفاق هــذه الموارد لابد وأن تكون مسؤولية السلطة المركزية في المجتمع، ورغم أن البعض لا يزال يجادل بأن طفرات اقتصادية يمكــن أن تحدث بسبب تغيــيرات مؤسسيــة وليس بسبــب البحث العلمي المنظم، فــإن حكومات عديدة توفر إنفاقــاً ضخماً على هذه البحوث، سواء من خلال الوزارات والمؤسسات الحكومية ذاتها، أو من خــلال الشــركات الصناعية، وتمثل

القضايا ذات الأبعاد السياسية، مثل الدفاع والطاقة النووية.. إلخ، مواضيع مركزية لاهتمام الحكومات.

٢- المجتمع الأكاديمي: وهو تجمع أصحاب الكفاءات العاملين في مجالات البحث العلمي والتطوير التكنولوجي وكثيرون من هؤلاء قد تحولوا بممارسة العلم على الاحتراف، وبهذا فإن هؤلاء المحترفين لم يعودوا في الحقيقة يؤدون وظائفهم بالأساليب التي تراعي معايير العلم الصحيح، ولكنهم على النقيض من ذلك قد يتصرفون باعتبارهم مجموعات اجتماعية غالباً ما تعمل وهي معرضة للإغراءات الاقتصادية والسياسية، وهكذا فإن الاهتمامات الأكاديمية يمكن أن تمتد من الاهتمام بالعلم لذاته، إلى العمل في التطوير التكنولوجي من أجل تنشيط النمو والتنمية إلى الحرص على الإبقاء على المؤسسات الاحترافية وعلى الميزات البيروقراطية التي يوفرها الاحتراف وكلها دوافع حادة وجادة لتنشيط الطلب على العلم والتكنولوجيا.

٣- القطاع الخاص الصناعي: يستند دور تضخيم القطاع الخاص الصناعي وآليات السوق في تطوير بحوث العلم والتكنولوجيا إلى تصور البعض الخاطئ أن النظام الرأسمالي قد نشأ، وأنه يعمل دون تدخل الدولة، ويدحض هذا أن الرأسمالية قد نشأت ونمت في دول غرب أوروبة في ظل تدخل قوي ورعاية من الدولة، بل إنه دون تدخل الدولة خلال القرن السادس عشر لم يكن بأي حال من الأحوال أن يتم القضاء على النظام الإقطاعي وبزوغ الرأسمالية، ومن الناحية النظرية فإن آليات السوق لا يمكن أن تظهر إلا في وجود أطر تشريعية تضعها الدولة لحماية الملكية الخاصة، أو حماية المستهلك، أو ضبط المعاملات التجارية، كما أن آليات السوق تحكمها السياسات الاقتصادية الكلية التي تضعها وتتبعها الدولة مثل السياسات النقدية والمالية والتجارية، وفي الدول المتقدمة يكون البحث العلمي القائم على التمويل العام مشغولاً بالعلم الكبير في مجالات مثل الفضاء والطاقة، أو إنتاج العتاد الحربي استناداً على بحوث الأسلحة والتسليح أو بمتابعة وتطوير بحوث العلوم الأساسية، وفي المقابل يتم إلى حد كبير التخلي عن التأثير الاقتصادي للعلم كي يتولاه القطاع الصناعي في النظام الاقتصادي.

٤-الاهتمامات الجماهيرية: عادة ما تنشأ الاهتمامات الجماهيرية بالعلم والتكنولوجيا عن دوافع سلبية، فجمهرة الناس في أي مجتمع قد تستثمر إبداعات العلم ومنجزات التكنولوجيا وتستمتع بها، دون أن يدفعها ذلك إلى ممارسة ضغوط مجتمعية من أجل مواصلة الإبداع ومضاعفة الإنجاز، غير أن الخسائر التي تلحق بهذه الجماهير والتي تنجم عن العلم والتكنولوجيا المعاصرين، قد تكون هي الدافعة التي تعلو برغبات الناس في المزيد من تدخل العلم والتكنولوجيا من أجل تحجيم الخسائر ومحاصرة الأخطار مثل التلوث البيئي. وما إلى غير ذلك.

متطلبات نقل التقنية

تتفق معظم الأبحاث على أنه لنقل التقنية الفعال متطلبات تجعلها تفيد من مختلف المصادر في الآتي:

١- وعي القيادات السياسية لأهمية العلم والتقنية: ويتضمن ذلك ضرورة توافر الإرادة السياسية للتغيير، وتوافر الأمن والاستقرار. ولعلَّ أبلغ مثال على ذلك هو ما حدث في اليابان عندما وجه الإمبراطور لشعبه، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، النداء أو التوجه الاستراتيجي التالي: «يجب البحث عن المعرفة وحيازتها من أي مصدر كان، وبكل الوسائل المتاحة لدينا لصالح عظمة اليابان وأمنه». وكذلك التوجه الاستراتيجي الذي أصدره ملك الدنيمارك في خمسينيات القرن الماضي حين وجه بتركيز نهضة الدنيمارك في القطاع الزراعي وتطوير ما يلزم من تقنية تتعلق بهذا المجال، حيث يتوافر للدنيمارك ميزة نسبية.

٢- ضرورة إنشاء جهة مركزية لتحديد أهداف التقدم التقني ومجالاته: وبالتالي توجيه سياسات نقل وحيازة التقنية والإشراف على تنفيذها. مثلما فعلت بعض دول أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا.

٣- توفير العدد الكافي من العلماء والفنيين: ويتضمن ذلك العناية بالتعليم الفعال، وتوفير فرص التدريب واكتساب الخبرات والتقنية من مواردها، بل واستقطاب العلماء والتقنيين من البلدان الأخرى. مثال على ذلك استقطاب الولايات المتحدة لعلماء ألمان بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. واستقطاب العلماء من دولة الكتلة الشرقية بعد تفكك الاتحاد السوفييتي السابق،وكذلك استقطاب العلماء العرب، وقد فعلت كل من دول أمريكا الجنوبية وإسرائيل مثل فعل الولايات المتحدة.

٤- توافر القدرة والآلية لتمويل وحيازة التقنية: والقـدرة الماليـة اللازمة لتحقيق ثلاثة أهداف:

أولها: الاستثمار مباشرة في نقل التقنية بصورها المختلفة وبأي من أساليبها.

ثانيها: هو تمويـل البحث العلمي الذي هو أحد الركائز المهمة في حيازة التقنية.

ثالثهـا: الاستمـرار في تنميـة وبنـاء القاعـدة التقنيـة من العلمـاء والمهندسين والفنيـين، والإنفـاق على برامـج التعليم الفعال والتدريب التقني، وحضور المؤتمرات والمعارض والترجمة، وجميع الأنشطة التي تستهدف توطـين التقنية، أي جعلها متاحة للمواطنين وخادمة للمجتمع.

٥- توفـير البيئـة الملائمـة والوعـي الاجتماعـي: يعتبر الوعـي بأهمية التطور التقني ضرورة لاشـك فيها، ولابد أن يكون هـذا الوعـي شاملاً لجميـع المستويات في الدول (الحكومات والمواطنين). ويشير أحد المصـادر البحثية في هذا الصدد إلى الآتي: المجتمع التقني هو الذي باستطاعته التعامل السليم مع التقنية، وهذا الأمر لا يحدث إلا عند توفير عدة شروط منها:

- أن يكون المجتمع على درجة عالية من التنظيم، فلا تتداخل المسؤوليات والواجبات والصلاحيات والحقوق بل تتكامل.

- أن يـدرك السـواد الأعظم من أفراد المجتمع في مواقع عملهم وتأثيرهم في حياة المجتمـع، على اختـلاف أنواعها وكمياتها. حيث أن تنمية قدرات المجتمع ككل لا تنفصل عـن تنمية القـدرات الذاتيـة والشخصية للأفراد بل تتكامل معها وتعضدها.

- أن يعمـل السواد الأعظـم من أفراد المجتمـع مـن منطلـق ضـرورة إتقـان ما يقدمونـه من عمل سواء في مجال الإنتاج أو الخدمات.

- أن يـدرك السـواد الأعظم من أفراد المجتمـع أن التمتـع بالعدالـة الاجتماعية وتحقيـق الرفاهيـة مطلب لـه مسؤولياته المجتمعية وأن لا يكتفي الفرد بتحقيق الحد الأدنى من التحصيـل أو التدريب والعطاء ضمـن هذه الحـدود لبناء القـدرة التقنية للمجتمع.

معوقات النقل الفعال للتقنية

ومـن حيـث المبـدأ فـإن عـدم توافر متطلبـات نقل التقنيـة التي أشرنـا إليها سابقاً، أو أحدها، يمثل عقبة كأداء في سبيل نقل فعـال للتقنية، بيد أننـا لابد أن نشير

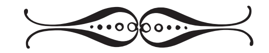
هنا إلى أن هنــاك عقبات أخرى تساهم في إحباط عملية النقل هذه. من ذلك ما يأتي: إن أهــداف نقل التقنية هــي غالباً أهداف اقتصادية مقترنة أحياناً بأهداف سياسية. أمــا أهداف نقل التقنية لدى المستقبل فهي أهــداف اقتصاديــة ذات طابــع حضاري يستهدف تضييق الفجوة التقنية والحصول على ميــزة جديدة تساهم في تنمية المجتمع المستقبل للتقنية، لــذا فإن الجهود لابد أن تبذل لتحقيق المصلحة المشتركة لكلا طرفي المعادلة: المصدر/ المستقبل.

وهنا يبرز دور إدارة نقل التنقية الشاملة في (تحديد الأهــداف- التخطيط السليم- تنظيم الجهــود- مراقبة وإجــراء التعديل المطلــوب عنــد أي انحــراف عــن تحقيق الأهداف المبتغاة).

عائــق آخــر يمكــن الإشــارة إليه وهو داخلي في البلــد الراغب في الحصول على التنقيــة، ويتمثل في وجود بعض الإجراءات والسياســات والأنظمــة الحكومية التي قد تعيق عملية النقل الفعال للتقنية. وربما يكون ذلك غير ما يقصده صناع القرار. وقد يكون أحد القرارات قــد صدر لمعالجة مشكلة لا علاقــة لها بنقل التقنية من قريب أو بعيد. ولكن للقرار آثــارا جانبية قد تطال عملية النقل وتعيقها. أما العائق الثالث: فيتمثل في مدى اتساع الفجوة التقنية بين البلد المصدر للتقنية والبلــد الراغب في الحصول عليها، وكلمــا كانت الفجوة واسعة أصبح عبء نقل وتوطــين التقنية وحيازتهــا ثقيلاً إن لم يكن مستحيلاً. والعائق الرابع هو: الاختلاف في اللغــة بين مصدر التقنية ومستقبلها، فكلما اختلفت اللغة كلما كان العبء أكبر. رغم أن تجربة اليابان في هــذا المجال تجربة غنية ومثمرة، حيث أصــر اليابانيون منذ البداية على أن تكون اللغة اليابانية هي لغة التقنية الوطنيــة بغضــ النظــر عن مصــدر هذه التقنيــة، ولكن ما ينطبق على اليابان قد لا ينطبق على غيرها من الدول.

والعائــق الأخــير: يتعلــق بخصائصــ المجتمــع من حيث شيــوع الجهل والاعتقاد بالسحر والشعــوذة أو التوكل ومدى انتشار عقائد ذات طبيعة غــير مادية. ولعلَّ المثال التالي يوضح إلى أي مدى يمكن أن تحد هذه الأمور من أي تطور تقني: لقد حدث لخبراء الأمم المتحدة (منظمــة الأغذية والزراعة- الفاو) موقف فريد مــن قبل بعض القبائل القاطنــين علــى ضفاف نهر الأمــازون، إذ

حاول الخبراء تدريب السكان المحليين على استخــدام المخترعــات الحديثــة في صيد الأسمــاك بدلا من الوسائــل البدائية، فما كان من السكان إلا أن اعتقدوا أن في الآلات سحــرا، فهي وإن كانت تأتــي بنتيجة كبيرة إلا أن ذلك سينقلب ضد أرزاقهم فيما بعد، فامتنعوا عن استخدامها. وكذلك ما شاع من اعتقاد في بداية ظهــور الراديو واللاسلكي في بعضــ المجتمعات مــن أن هذه (مراكب شيطان) ومن عمل السحرة.





التكنولوجيا الحديثة ودورها في هيكلة الاقتصاد (الإسرائيلي)

د. حسين إبراهيم*

كان من الطبيعي أن تعتمد مجموعات الصهاينة التي غزت أرض فلسطين منذ نهايات القرن التاسع عشر بهدف الاستيطان.. على أحدث ما توفر لها من أدوات الغزو والسيطرة وقهر السكان واحتلال الأرض..

وكانت الوكالة اليهودية - كما هو معروف تأتي بهؤلاء اليهود الراغبين في (الهجرة) إلى الأراضي المقدسة، من مختلف بلدان العالم، ولكن حسب معايير ومواصفات محددة، بحيث يكون هؤلاء قادرين بشرياً وتقنياً على الاستيلاء على الأرض واستعمارها.. وما يستدعي ذلك من طرد السكان الأصليين وتصفيتهم.

* باحث في العلوم ومدير الاستشعار عن بعد سابقاً.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ولا حاجة لأن نستعرض تاريخ التكنولوجيا الإسرائيلية التي لا تهمنا تفاصيلها.. بينما أكثر ما يهمنا هو تطور هذه التكنولوجيا في العقدين الماضيين، وأخص العقد الأخير من القرن الماضي، لأن بعض المدعين الإسرائيليين ومريدهم في الخارج.. يزعمون أن إسرائيل أصبحت منذ حوالي عشر سنين مركزاً للتقنيات العالمية في الشرق الأدنى.

وذلك لأسباب أهمها انعكاسات الهجرة الروسية من اليهود إلى إسرائيل، وأولئك اليهود القادمين مما يسمى (اتحاد الدول المستقلة) وهي تلك الجمهوريات التي انفصلت عن روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي.. ومعظمها جمهوريات مسلمة، وتغلغل الإسرائيليين في العديد من أسواق الدول، وتغيير الهيكليات في بنية الاقتصاد الصناعي (الإسرائيلي) والاستفادة القصوى من التكنولوجيا العسكرية المتطورة بشكل لافت في المؤسسات الإسرائيلية..

ولكن يجب أن لا نغفل أن الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي تفجرت في أيلول /٢٠٠٠م/ أثرت سلبياً على النمو الاقتصادي في (إسرائيل) والتوقعات بشأنه وأثر في ذلك أيضاً الركود الاقتصادي الذي حدث في الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الفترة.. تدليلاً على الارتباط العضوي لكل تطور وكل نمو في الكيان الصهيوني بالأوضاع في الولايات المتحدة..

وعلى الرغم من استحالة اندماج (إسرائيل) كدولة أو كمجتمع في المحيط الإقليمي.. فإنها حققت تقدماً ملحوظاً ولكن مسبق الصنع في مجال التطور التقني وبالتالي الاقتصادي.. وتوصل هذا الكيان إلى بناء طاقة صناعية قادرة على المنافسة وزراعة تقوم على الأساليب التقنية الحديثة وشبكة مرافق عامة متقدمة حديثة المكونات والعناصر..

ولكن هناك من يدعي من النقاد الغربيين أن حالة التوتر السائدة في الشرق الأوسط منذ نهاية الحرب الكونية الثانية هي التي اضطرت إسرائيل إلى عسكرة مجتمعها واقتصادها.. ولهذا أيضاً كانت الزراعة والصناعة بما فيها الكهرباء واستغلال المياه.. وقطاع البناء لا تشكل إلا الثلث من دخل الكيان الصهيوني.. بينما تشكل القطاعات الأخرى الغير منتجة بما فيها أكبرها وهو القطاع العسكري والأمني ثلثي الدخل الشامل للكيان..

ويقول بعض هؤلاء النقاد إن ذلك ازداد حدة بسبب عدم قيام تبادل تجاري بين إسرائيل وجيرانها حتى مطلع التسعينات

مع مصر والأردن.. ولهذا فإن أي ازدهار للقطاعات الإنتاجية في الاقتصاد الإسرائيلي.. ما كانت لتجد سوقاً مجاورة لتصريف فائض إنتاجها... هذا إلى جانب ما أشار إليه هؤلاء النقاد من حجم الرقعة الجغرافية الصغيرة التي تحتلها إسرائيل من فلسطين وافتقارها إلى كثير من المواد الخام والموارد الطبيعية وخاصة تلك لتوليد الطاقة إلى جانب النقص في المياه.. وغيرها ولهذا وجد الكيان الصهيوني نفسه في وضع ضغطت جميع عناصره ومكوناته باتجاه استغلال خبرات عناصره البشرية القادمة من بلدان متقدمة صناعياً واقتصادياً.. والتركيز على تطوير قطاعات التكنولوجيا المتقدمة في جميع مجالات الاقتصاد.. وخاصة في القطاع العسكري الذي يشكل المرتكز والمحور لنمو المجتمع.. ومن ثم حمايته.

وكانت كل عناصر المجتمع والدولة المصطنعة التي فرضتها ظروف الوجود على إسرائيل هي التي فرضت من ناحية أخرى بنىً سياسيةً واقتصادية فريدة في حالات قيام الكيانات الدولية.. وهذا ما تجلى واضحاً في الدور السياسي لمؤسسات الدولة وازدواجية مهمة نقابة العمال المعروفة باسم: (هيستادروت) التي حملت منذ البداية تركيبة حزب العمل.. وأعطت مجتمع الدولة صيغة اشتراكية مموهة !!!

فالهيستادروت برزت كعصبة لرجال الأعمال ومرجعية لتمثيل مصالح العمال !!! وذلك في ضوء التأثير الفعال لرؤوس الأموال المتدفقة من الخارج.. والتفاعل مع الاقتصادات الخارجية الداعمة للكيان الإسرائيلي منذ قيامه ولهذا كانت التطورات والتحولات في الاقتصاد العالمي وخاصة في الدول الرأسمالية تنعكس فوراً وبفعالية على حركة وتطور الاقتصاد الإسرائيلي.. هذا في ثمانينات القرن الماضي.. أما في التسعينات فقد شهد الاقتصاد الإسرائيلي ارتياحاً ظاهراً وفرت له المفاوضات التي جرت مع الفلسطينيين خلال التسعينات ومع غيرهم في الصعد الثلاثة الدولي والإقليمي والمحلي..

ويمكن توضيح هذا الارتياح والانفراج بالمظاهر التالية:

- الهجرة النوعية اليهودية من روسيا والدول التي استقلت عنها والتي بلغت منذ ١٩٨٩ أكثر من مليون مهاجر.

- التطور الاقتصادي والتقني على الصعيد العالمي.

- اندفاع المفاوضات المختلفة بين بعض العرب وإسرائيل خاصة بعد حرب الخليج



الثانية وتراضي أحكام مقاطعة إسرائيل من قبل الدول العربية.

- وإضافة إلى كل هذا انتهاء الحرب الباردة والانفتاح الواضح لمعظم الدول والأسواق على بعضها في مختلف أنحاء العالم..

ولكن ما يميز الاقتصاد الإسرائيلي منذ قيام الكيان حتى الآن، وخاصة في العقود القليلة الأخيرة، هو تدفق رؤوس الأموال الأجنبية وخاصة رأس المال الأميركي، وتحويلات المنظمات اليهودية من الخارج، والمتبرعون الخاصون من اليهود الصهاينة.. إلى ذلك اليد العاملة الخبيرة حيث زادت أعدادها من عام ١٩٩٠ مثلاً حتى عام ٢٠٠٠ من مليون و٦٥٠ ألف عامل إلى مليونين و٤٣٠ ألف..

ومن الملفت للنظر أن نسبة المهندسين مثلاً في إسرائيل إلى عدد السكان وصل مؤخراً إلى مئة وخمسة وثلاثين مهندساً لكل عشرة آلاف إسرائيلي بينما لا يتجاوز هذا العدد في الولايات المتحدة الأمريكية الخمسة وثمانين مهندساً لكل عشرة آلاف أميركي..

ولا بأس أن نحدد هنا ببعض الدقة هذه المؤشرات الرقمية في إسرائيل إذ كان بين المهاجرين إلى الأراضي المحتلة في بداية

التسعينات أكثر من الثلث من العلماء أو أكاديميين والثلث الآخر فنيين ومختصين تقنيين..

ولقد أسهم هذا الاحتياطي البشري أو رأس المال البشري المختص مثلاً في الرياضيات والفيزياء وتقنيات الطيران والفضاء.. الذي أصبح بشكل مكثف بتصرف السلطات الإسرائيلية دون أن يرتب عليها أي تكاليف تدريب أو تأهيل. أسهم هذا الواقع بتقدم تفوقي تقني للمؤسسات الإسرائيلية.. رغم أن تكاليف تدريب وتأهيل أي فني أو تقني بهذا المستوى كان سيكلف الخزينة الإسرائيلية على الأقل مئتي ألف دولار.

قوة الاقتصاد الإسرائيلي وقدرته على التطور والنمو يمكن وصفها بأنها مصنعة أو حتى مسبقة الصنع تحكمها قبل كل شيء المشاركة شبه الكاملة بين الولايات المتحدة وإسرائيل وبالدرجة الثانية الاتحاد الأوروبي.. ويظهر ذلك بالإشارة إلى أن ثلث الصادرات الإسرائيلية تمتصها السوق الأميركية.. فقد وصلت قيمة هذه الصادرات الإسرائيلية إلى أميركا في عام ١٩٩٨ مثلاً ٢,٨٣ مليار دولار.. وهناك مساعدات سنوية أمريكية لإسرائيل اقتصادية ومعظمها عسكرية تصل إلى ثلاثة مليارات دولار وهي كفيلة بمعادلة أي عجز قد يعتري الميزان التجاري الإسرائيلي مع أمريكا.. هذا بصرف النظر عن المساعدات التي تقدمها واشنطن في الحالات الطارئة ومن وقت إلى آخر ناهيك عن تدفق رأس المال الأمريكي للاستثمار في قطاعات تحددها السلطات الإسرائيلية ومعظمها في قطاع التكنولوجيا العالية وبالتحديد في التكنولوجيا العسكرية.. وهناك مؤشر آخر يؤكد أن الاقتصاد الصهيوني مضمون الازدهار تقريباً من قبل الدولة والسوق الأمريكيتين.. هذا المؤشر هو وجود ما يقارب مئة شركة ومؤسسة إسرائيلية فيما يسمى ببورصة التكنولوجيا الأمريكية وبذلك تكون إسرائيل ثاني أقوى مشارك في هذه البورصة بعد كندا..

بالنسبة إلى الاتحاد الأوروبي فهناك اتفاق اندماج بين الاتحاد وإسرائيل منذ ١٩٩٥ واتفاقية سوق تجارة حرة متوسطية في منطقة من ١٩٩٥ حتى ٢٠١٠ ولا شك أنها ستجدد.. وسجلت واردات إسرائيل من الاتحاد الأوروبي منذ الخمسينات ازدياداً مطرداً حتى وصلت اليوم إلى ٥٠٪ من مجموع واردات إسرائيل.. أما الصادرات الإسرائيلية إلى منطقة الاتحاد الأوروبي لم تتعدَّ حتى الآن الـ٣٠٪ من الصادرات.. في عام ١٩٨٦ تدفقت الصادرات الإسرائيلية

إلى أوروبة الغربية بنسبة ٤٦٪ وإلى الولايات المتحدة بنسبة ٣٣٪ وإلى آسيا بنسبة ١٠٪ فقط..

تجدر الإشارة هنا على ضوء المعطيات السابقة إلى أن معظم دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية في نطاق دول عدم الانحياز لم يكن لها علاقات مع إسرائيل.. لا دبلوماسياً ولا اقتصادياً.. ولكن بعد كارثة كامب ديفيد في نهاية السبعينات.. نشطت إسرائيل في إقامة علاقات دبلوماسية سبقتها أو واكبتها علاقات تجارية واقتصادية مع معظم الدول الأفريقية وأمريكا اللاتينية.. وأخطرها مع بعض دول آسيا الهامة كالهند واليابان وكوريا الجنوبية.. والأخطر مؤخراً ما تكشف عن العلاقات مع الصين الشعبية.. ونذكر هنا أن صادرات إسرائيل إلى أفريقيا وأمريكا اللاتينية ارتفعت ما بين ١٩٩٠ و٢٠٠٠ إلى ثلاثة أضعاف.. بينما بلغت صادرات الصهاينة إلى آسيا في هذه الفترة ٥/١ من مجموع صادرات إسرائيل. وفي هذا المجال ركزت إسرائيل على ما يسمى منذ فترة الآسيوية الصغيرة ماليزيا.. سنغافورة وتايلاند.. والفيليبين وتايوان أو ما تسمى بلغة رجال الأعمال الأسواق الناهضة (emerging markets).. ولا يتركز الاهتمام الإسرائيلي في هذه الأسواق على التجارة العادية فقط بل وعلى إمكانيات استثمار الشركات ورجال الأعمال الصهاينة في هذه البلدان وخاصة في قطاع التكنولوجيا العالية... هذا في اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان وتايلاند.. وغيرها.. هنا تدعي المؤسسات الإسرائيلية أنها تستثمر في المستقبل.

أما علاقات إسرائيل بشرق أوروبة فقد أعيدت لها الحياة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ومنظومته الاشتراكية ونشطت العناصر الصهيونية في مكوناته المتداعية لصالح إسرائيل وخاصة في روسيا الاتحادية.. فصدرت ٤٪ من مجموع صادراتها في نهاية التسعينات إلى ما سمي بمجموعة الدول المستقلة..

هنا لابد من التوضيح بأن حرب الخليج الثانية ضد العراق أظهرت وكأن بعض العرب كانوا حلفاء مع إسرائيل.. ثم ما نجم عن المفاوضات الفلسطينية والإسرائيلية (أوسلو ٩٣) وتراجع التوتر على صعيد صراع الشرق الأوسط شجع الرأسمال الغربي على الاستثمار في إسرائيل بما يسمى (الملتقى العالمي الاقتصادي)(World economic forum) ... إلى وضع إسرائيل في المركز التاسع عشر بين الدول ذات الاقتصاد النشط وسريع التطور..

وعلى ضوء حقيقة أن السوق الداخلية الإسرائيلية الضيقة المحدودة تجعل نمو الاقتصاد الإسرائيلي محكوماً بالتوجه نحو التصدير إلى الخارج.. وترتبط بالتالي مقدرته على النمو والتوسع بقدرته على التعامل مع الخارج.. فإنه يبقى متأثراً بكل ما يحدث خارج الحدود.. ولذلك أيضاً نرى أنه تأثر سلباً وانكماشاً بالانتفاضة الثانية في نهاية ٢٠٠٠ والركود الذي أصاب الاقتصاد الأمريكي..لكنه بالمقابل نراه ينتعش ويزدهر عندما تجري المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين بصرف النظر عن برامجها وخطتها وأهدافها.. وفي الأصل فإن هذه المفاوضات ومنذ أكثر من عشرين عاماً لم تؤد إلى أي نتيجة تذكر باتجاه حصول الفلسطينيين سواء في الضفة الغربية أو في غزة على أي من حقوقهم.. بينما تستمر إسرائيل في تكريس سياسة التوسع بزرع المستوطنات لا بل المستعمرات في الأراضي الفلسطينية وقضم هذه الأراضي وتقطيع أوصالها وسلب السكان الفلسطينيين أبسط حقوق وجودهم وحياتهم... وفي ظل هذه الظروف السلبية بالنسبة إلى الفلسطينيين بلغت الاستثمارات الأجنبية في إسرائيل منذ منتصف التسعينات حتى ١٩٩٨ ٢,٥ مليار دولار.. وتعززت مساهمات رأس المال الأجنبي في إسرائيل بتأسيس وتعزيز استثمارات لشركات مهمة في أمريكا وألمانيا واليابان..

الطابع التكنولوجي المتقدم للاقتصاد الإسرائيلي:

يدعي مراقبو تطور الاقتصاد الإسرائيلي أن تأسيس الاقتصاد الإسرائيلي خاصة خلال العقدين أو العقود الثلاثة الماضية.. على عناصر التقنية الحديثة والمتطورة هو الذي أغرى رؤوس الأموال الغربية على الاستثمار في الأراضي المحتلة.. واستطاعت المؤسسة الإسرائيلية أن تلائم الاقتصاد الإسرائيلي مع التطور التقني المتسارع للاقتصاد العالمي وخاصة مجتمع المعلومات.. وأصبحت التكنولوجيا العالمية منذ التسعينات هي المحرك والرافعة للاقتصاد الإسرائيلي استجابة لمتطلبات التصدير وجذب الاستثمارات الخارجية.. وشكلت التكنولوجيا العالية هنا القيمة العالية.. للمنتج الإسرائيلي.. مما مهد وفتح له أسواقاً جديدة في كثير من أقاليم العالم..

إذاً أين تكمن هنا مراكز الثقل لإنتاج التقنيات العالية في إسرائيل؟!: إنها في الصناعات الحربية الإسرائيلية.. والصناعات الرافدة لها.. وحدث بعد ما يسمون بحرب الأيام الستة أن أوقف الجنرال

آنـذاك إسرائيل بالسلاح حيث كانت فرنسا حتى ذلـك الوقت الممول الرئيسي لإسرائيل بالعتاد الحربي والتعاون العسكري.. ولذلك اتجهت السياسة الإسرائيلية لتحقيق اكتفاء ذاتـي خاصـة في مجال الطـيران والسلاح المدرع.. وقبـل أن تنخرط الولايات المتحدة بالالتزام الكامل في الدعم العسكري للكيان الصهيوني.. وهكذا أصبح قطاع الصناعات الحربيـة الإسرائيليـة في السبعينات وبعد حرب ٧٣ أهم قطاعات الاقتصاد الإسرائيلي تطـوراً وخاصـة في تصديـر منتجاتـه.. والمحافظة على التفوق الحربي على الدول العربيـة المجـاورة.. وأصبحـت الولايات المتحدة هنا أهم عمـلاء الكيان الصهيوني في هذا القطـاع ودأبت المصانع الإسرائيلية علـى تكثيف البحـوث العسكريـة وتطوير المعدات والتجهيزات لصالح جهات أمريكية أو لأغراض عسكريـة إسرائيليـة خاصة. ولكن نظراً للركـود في سوق السلاح العالمي منتصـف الثمانينـات ضغـط الأميركيون علـى إسرائيـل لتجميد خططهـا بتطوير وتصنيع المقاتلة المتقدمة (Lavi).. واضطر القطـاع المدني في الاقتصـاد إلى استيعاب مئات المهندسـين والفنيين المختصين الذين أصبحـوا دون عمـل بعـد إيقـاف مشروع (Lavi).. وتأسست لذلك شركات ومصانع جديدة.. في قطـاع الكهرباء والإلكترونيات لتصنيع منتجات للقطـاع المدني.. واضطر اضمحلال سوق السلاح المؤسسات الحربية إلى تحويل إنتاجها باتجاه تطوير وإنتاج سلع هامة لمختلف مجالات الاقتصاد كالبرمجيات وتجهيـزات الاتصـالات والتحكم ومعالجة المعطيات الرقمية وغيرها..

ثم جاءت موجـة المهاجرين من مناطق الاتحاد السوفييتي السابق والدول المستقلة بمئات من المهندسين والمختصين والباحثين خاصة في النصف الأول من التسعينات فيما عزز البناء العلمي والتقني لهيكلية الاقتصاد الإسرائيلـي.. ورغـم متطلبـات الاستثمار الأجنبي في الصناعات الإسرائيلية.

ونجدد العودة إلى التركيز على محدودية السوق الداخلية الإسرائيلية بشكل يعجز عن استيعاب ما تنتجه الصناعات الإسرائيلية.. لذلك كان هم الاقتصـاد الإسرائيلي الأول هو المحافظة علـى أسواق في الخارج يمكن أن تمتص الصـادرات الإسرائيلية وخاصة من منتجات التكنولوجيـا العالية التي يقع على كاهلها إنقـاذ الاقتصاد الإسرائيلي لا بل واستمـراره في الحيـاة.. ومثال عددي بسيط على ذلك هو ارتفاع نسبة الصادرات من المنتجات الإلكترونية والبرمجيات ما بين عام ٩٩ و٢٠٠٠ بمقـدار ٥٠٪ وبما وصلت

قيمته إلى ١٣ مليار.. وبهذا تكون مؤسسات التقنيات الحديثة في إسرائيل قد صدرت من إنتاجها نسبة ٨٧٪.. ولا نغفل هنا أن نذكر أن تصدير هذه المنتجات التي يمكن استخدامها مدنياً قد ارتفع من ٢٠٪ قبل خمسة عشر عاماً إلى حوالي ٩٠٪ في عام ٢٠٠٠ واستمر حتى نهاية العقد الأول من القرن ٢١.. بشكل متوازن.

وتعتبر المؤسسات الإسرائيلية لصناعة التكنولوجيا العالية التي تسمى بالنظيفة من الناحية الجغرافية الأفضل بالنسبة إلى المستثمرين الأجانب طالما هناك هدوء واستقرار حول إسرائيل.. أو بتعبير آخر طالما تفاوض إسرائيل جيرانها وخاصة الفلسطينيين وكبح جماح المقاومة.. وعلى وجه أخص دون الوصول إلى أي نتيجة لصالح الفلسطينيين!!!..

وهكذا بادرت مؤسسات التكنولوجيا العالمية العالية كشركة (IBM) الأمريكية و(Intel) و(Microsoft) و(Mitsubishi) اليابانية و(Telekom) و(Siemens) الألمانيتين إلى تأسيس فروع لها في إسرائيل وبعد أن تعرفت على سوق التقنيات المتطورة في إسرائيل كمنجم للأفكار والحلول المتطورة.. وتشاركت مع الزبائن الإسرائيليين المناسبين في هذا القطاع..

ولا بأس أن نذكر هنا المقارنة اليائسة بين هذا الواقع الإسرائيلي الخطير والواقع الغربي الموازي البائس.. هو كيف تحرص الاقتصادات والمؤسسات العربية الصناعية على استقدام الصناعات الاستهلاكية الأمريكية خاصة في القطاع الغذائي غير الصحي في كثير من الأحيان كمطاعم الوجبات السريعة (كدجاج كنتاكي) والهامبورجر.. والكولا ومشتقاتها.. وغيرها من نظم التغذية اليابانية والأوروبية سهلة وسريعة الاستهلاك..

وهكذا تمكنت إسرائيل- من ربط هذه الشركات الأمريكية الضخمة والهامة بعجلة صناعاتها التقنية وصارت أهم شركائها الاستراتيجيين..

وكانت مجلة (Wired) الإلكترونية الأمريكية.. قد وضعت إسرائيل في المرتبة الرابعة في العالم كمركز للتقنيات الحديثة بعد (Silicon) في كاليفورنيا وبوسطن في ولاية بنسلفانيا الأمريكية وستوكهولم عاصمة السويد..

وقد حرصت إسرائيل على اندماجها في العولمة الاقتصادية والمالية في العالم كي تحافظ على مستوى الحياة الغربية التي أرادته لمجتمعها الاستيطاني.. لكن عملية انتقالها من الاقتصاد الاستيطاني الموجه والخاضع

لقوانين الحماية الاقتصادية إلى اقتصاد سوق شبه حر.. تعثرت كثيراً.. خاصة بسبب مشاكل دمج المستوطنين الجدد في المجتمع وبالتالي في العملية الاقتصادية وثانياً بسبب تداعيات مشكلة الصراع مع الفلسطينيين والمحيط العربي.. لكن إسرائيل واندماجها باتفاقيات تجارة حرة مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.. ومناطق التجارة الحرة الأوروبية وإعفاء صادراتها إلى هذه الأسواق من الرسوم الجمركية- هذا إضافة إلى أن صندوق النقد الدولي بفعل النفوذ الأمريكي والصهيوني على سياسة هذا الصندوق.. ساعدها في تعاملها منذ التسعينات مع الدول الأخرى في إعفاء سلعها من الرسوم الجمركية بالتدريج..

وفي اتجاه محاولة الحكومة الإسرائيلية تحرير بعض قطاعات اقتصادها من قبضة الدولة.. جرى بيع عدد كبير من المؤسسات الاقتصادية الصناعية والخدمية -ولا يزال هناك أكثر من مئة شركة ومؤسسة اقتصادية (إسرائيلية) معروضة للبيع بعضها مهم وآخر أقل أهمية وبينها مثلاً الشركة العامة للهاتف.. وثلاثة بنوك كبيرة- ويزعم بعض المسؤولين الإسرائيليين وخبراء الاقتصاد.. أن سياسة (دولتهم) تتجه نحو اقتصاد السوق وإنهاء هيمنة الدولة على بعض قطاعات الاقتصاد والصناعة.

ولجأت الجهات الرسمية من ناحية أخرى وحرصاً منها على المحافظة على الهيكلية التقنية العالمية في جسم الدولة.. لجأت إلى إحداث صناديق خاصة باسم (البيت الأخضر) (green house) لدعم العناصر الشابة الخبيرة الرافدة خاصة في قطاع الكومبيوتر والبرمجيات بشكل عام مما انتهت إلى تأسيس حوالي ثمانية وعشرين مركزاً للتكنولوجيا الحديثة تتوافر فيها للباحثين الشباب الإمكانيات المالية والمدنية للخروج بنتائج بحوثهم كإنجازات تقنية لعرضها على الشركات وفي الأسواق للاستخدام والاستثمار أو الدخول في برامج مشاركة مع شركات ومؤسسات محلية أو أجنبية أخرى يمكنها تمويل إنتاج هذه الاختراعات والإنجازات وطرحها في الأسواق..

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام هنا وهي عندما تولى (اسحق رابين) في عام ١٩٩٢ رئاسة حكومة العدو.. عمد لأول مرة ولذر الرماد في العيون إلى تخفيض ميزانية الحرب..(الدفاع) لكنه من جهة أخرى رفع مخصصات البحوث العلمية وتطوير التقنيات الحديثة وخاصة إنتاج البرمجيات المتقدمة التي لا تحتاج إلى مواد أولية ولا إلى استثمارات تأتي من

الخارج.. بل خبرات بشرية.. هي متوافرة لدى الدولة الصهيونية.. كما يدعون.. وفي غمرة العولمة الطاغية في العالم خاصة في مجال حركة رؤوس الأموال وبقيمة الشركات الضخمة عابرة الحدود فإن هذه الشركات والمؤسسات تجد في السوق (الإسرائيلي) لإنتاج البرمجيات بغيتها وفرصتها للحصول على هذه المنتجات التقنية العالمية بأسعار بخسة – وهذا من ناحية أخرى ما تستغله السوق الإسرائيلية إلى آخر لحظة..

ومن المهم أن نعود هنا إلى التأكيد أن جميع المحاولات الأمريكية المبرمجة مع الجهات ومراكز الدارسات والبحوث في أمريكا و(إسرائيل) للسير في خارطة طريق أو ما يدعى بعملية السلام في شرق أوسط جديد.. جميع هذه المحاولات لم تهدف مخلصة إلى الوصول إلى سلام عادل يعيد الحق لأصحابه.. بل لتكريس تقوية ودعم الجهة المعتدية المحتلة العاملة على فرض الهيمنة المباشرة وغير المباشرة على مقدرات الشرق العربي.. ومن الصعب أن نعدد المبادرات الأمريكية الكاذبة في هذا الاتجاه منذ انهيارات (أوسلو) هذا على الجانب الفلسطيني فقط وحيث حاولت أمريكا ولصالح إسرائيل القفز فوق الواقع والمنطق والعدل وتركيب مبادرات ملغومة استمالت لها كثيراً من الدول العربية لطرح إمكانية مشاركة إسرائيل في تنفيذ مشاريع كبيرة في الشرق الأوسط في المياه والكهرباء وخطوط الغاز والنفط وشق الطرقات السريعة.. وغير ذلك إيجاد مناطق تجارة حرة وصولاً إلى سوق اقتصادية مشتركة بين العرب وإسرائيل- في إطار مقترح الشرق الأوسط الجديد على هوى شيمون بيريز وتجاوز حتى تحديد أو صيغة لدولة فلسطينية قابلة للحياة.. ويا للسخرية فهل هناك دول قابلة للحياة وأخرى غير قابلة للحياة.. على أن تشمل هذه التركيبة دول شمال أفريقيا. ولهذا ابتدعوا ما بين ٩٤ و٩٧ ما يسمى بمجموعة (ميتا) أي قمة دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هذا عدا عن الاجتماعات المفبركة من قبل المخابرات الأمريكية والإسرائيلية التي موهت تحت شعار الاقتصادية في بعض الدول الخليجية وهناك على شواطئ البحر الميت بما في ذلك ما حدث ويحدث تحت عبارة لقاء (دانوس) الاقتصادي العالمي وخلال ذلك ركبت فرنسا تحت شعار «مؤتمر دول البحر المتوسط والأردن»!! الذي كان قد بدأ في ١٩٩٥ في برشلونة/ إسبانيا على أن ينتهي عام ٢٠١٠ أي في هذا العام إلى هيكلية ثابتة تنفض فيها إسرائيل إلى جانب الدول

العربية الأخرى.. وعمد الاتحاد الأوروبي هنا البدعة الجديدة باسم (منطقة الأويرو- المتوسطية للتجارة الحرة) ويمكن التكهن كم من الفرص ستتاح (لإسرائيل) لاختراق هذه المنطقة بفعالية وجوده وبمساعدة دوائر الاتحاد الأوروبي لتحقيق مصالحها وعلى حساب مصالح الدول العربية المتغطية في هذه التركيبة).. وتحصل (إسرائيل) بضغط من الدول الأوروبية وأمريكا على أولويات وأفضليات في التبادل التجاري بين الاتحاد الأوروبي والدول العربية.. وخاصة ما يتعلق بصناعة النسيج والجلديات في مصر والأردن رغم ذلك فإن قيمة التبادل التجاري بين السوق الإسرائيلية والأسواق العربية كافة وخاصة في مصر والأردن لم تتجاوز الأربعين مليون دولار عام ٢٠٠٠ من ٢٩ مليون قيمة الصادرات وأحد عشر مليوناً قيمة الواردات هذا من أصل مبلغ حوالي تسعة وعشرين مليار دولار قيمة الصادرات الإسرائيلية في العام نفسه- أما الاستثمارات الإسرائيلية في البلاد العربية فقد بلغت حتى مطلع الألفية الثالثة حوالي مئة مليون دولار..

هذا رغم أن أحكام المقاطعة العربية الإسرائيلية قد تهاوت منذ مطلع التسعينات لا بل إن بعض الدول العربية أعلنت ما تسمى في ١٩٩٤ المقاطعة الثانوية أو الانتقائية وإسقاطها عن الشركات غير العربية - ثم بدأت العلاقات الدبلوماسية منذ 1995 مع الأردن/ التجارية المباشرة مع عدد من الدول العربية الأخرى..

إجمالات:

نرى في النهاية أنه بحكم شبكة العلاقات المصلحية والاستراتيجية من جهة أمريكا والمصيرية من جهة (إسرائيل).. ذهب ٣٨٪ من صادرات (إسرائيل) الإلكترونية إلى السوق الأمريكية وذلك في عام ٢٠٠٠ من أصل ٨٠٪ شكلتها صادرات إسرائيل من منتجات التكنولوجيا العالمية والبرمجيات وتجهيزات الاتصالات.. بالنسبة إلى مجمل صادراتها.. هذا بينما ذهب ٣٧٪ من هذه الصادرات التقنية العالمية إلى أسواق الاتحاد الأوروبي و٢٠٪ منها إلى الأسواق الآسيوية وتدّعي الأوساط الإسرائيلية أن الفنيين الأخصائيين الصهاينة الذين اكتسبوا خبراتهم في الصناعة العسكرية وخلال خدمتهم هناك.. هؤلاء يكثر الطلب عليهم في الداخل والخارج خاصة في الشركات والمؤسسات الأمريكية.. وبعض النقاد يرى أن في ذلك استنزاف للطاقات التكنولوجية الإسرائيلية العالمية وعولمتها..

ويزعم الصهاينة أن ظاهرة قيام كثير من الشركات الأمريكية وغيرها بشراء بعض الشركات الإسرائيلية العامة في حقل التقنيات العالمية.. هذه الظاهرة أثارت بعض الأوساط الصهيونية داخل (إسرائيل)-

ويدعي هؤلاء أن استمرار الصراع الفلسطيني الإسرائيلي لم يستطع أن يوقف هذا التطور الخطير بل سرّعه.. وأضحت هناك كثير من فروع شركات التقنيات العالمية إلى الخارج.. بما فيها من تجهيزات وبرامج ومن فيها من خبراء..

ولهذا فإن الأوساط الإسرائيلية اليمينية المتطرفة والمتشبثة بالأرض والاحتلال تريد استمرار المفاوضات العبثية مع الفلسطينيين بلا جدوى.. حتى تستقر الأمور والأجواء كي يتوقف ما يسمى بـ exodus المعاكسة..

ولهذا أيضاً تريد إدارة المؤسسات العلمية والسياسية في الكيان الغاصب أن تتجه بالبحوث والإنتاج إلى مجالات جديدة في التقنيات الحديثة كالتقنيات الحيوية ومراكز البحوث الطبية الحديثة مما يعزز خطوات يريد الكيان الصهيوني أن يخطوها بسرعة.. لتحويل الجهود والإمكانات العلمية الضخمة المركزة في قطاع الصناعات الحربية.. والتي كانت حتى الآن تشكل العمود الفقري في الصناعات الإسرائيلية بشكل عام.. دون أن يعني هذا إضعاف البحوث وتطوير التقنيات العسكرية التي يبدو أن الجهات الصهيونية المسؤولة تريد أن ترفع من نوعيتها.. لا من كميتها.

تطور الإنتاج الصناعي الإسرائيلي حسب القطاعات فيما بين ١٩٨٥ -٢٠٠٠ / النسبة المئوية

القطاعات الصناعية	١٩٥٨	٢٠٠٠
التعدين والمواد المعدنية	٣,٣٣	٢,٧٤
الصناعات الغذائية	١٨,٠٤	١٢,٧٠
الصناعات النسيجية والألبسة	١٧,٤٦	٥,٤٤
الصناعات الكيماوية	٧,٤٢	٩,٨٩
تصنيع أشباه المعادن (الفحم الأزوت)	٩,٤٢	٣,٧٤
تصنيع معادن قاعدية	٢,٥٠	٢,٠٨
معالجة المعادن.	٨,٢٧	١٠,٣٩
تصنيع الآلات.	٣,٢٨	٤,٥٠
الكترونيات وكهربائيات	٣,٦٨	٢٢,٤٣
تصنيع وصيانة تجهيزات النقل ووسائله	٤,١٠	٥,٦٦
تصنيع الألماس	٢,٦١	٠,٤٤

توزع نسب العاملين في قطاعات الاقتصاد الصهيوني / النسبة المئوية /

٢٠٠٠	٩٥٠	
٢٣٦١ ٦٠٠	٥٨٥٧٠٠	مجموع العاملين في جميع القطاعات
٢,٨ ٪	١٧,٦ ٪	الزراعة
١٤,٩ بسبب تركيز وتخصص شديدة في الصناعات الدقيقة والعالية	٢١,٥	الصناعة
٥,٦	٩,٣	البناء
٤,٥	١٣,٥	تجارة+فنادق+مطاعم
٥٠,٧ فيها العاملون في البحوث والتقنيات العالية.	٢٤,٥	خدمات عامة وخاصة

المراجع:

١- الدكتورة سابينـي هوفمان: مـن كلية العلـوم الآسيوية والأفريقية، جامعـة هومبولد ت- برلـين (جيوجرافيشي- روندشاو- شباط٢٠٠٢).

٢- المكتب المركزي للإحصاء/ ملخص احصائيات (إسرائيلية)-القدس.

٣- فيشر.س: اقتصادات الشرق الأوسط-كامبردج / لندن ١٩٩٣.

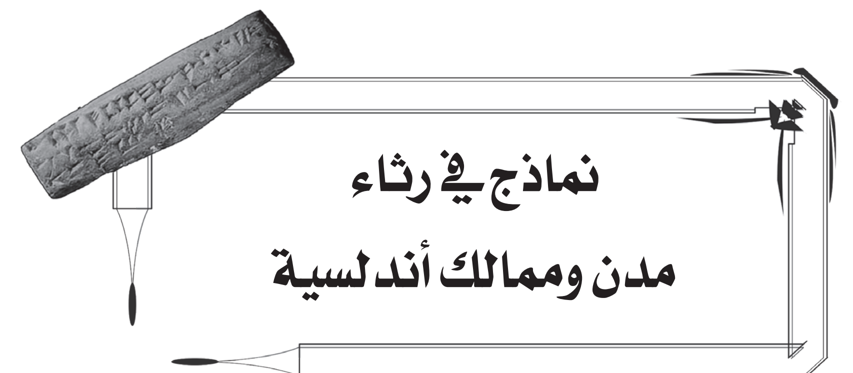
٤- البنك الدولي: الاقتصاد الدولي.. والتطبيقات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا- ١٩٩٥.

٥- بافيلجا. ب. وفيلينج: الشرق الأدنى على عتبة القرن الحادي والعشرين.

٦- ويلسون ر.: التطور الاقتصادي في الشرق الأوسط/ لندن ونيويورك-١٩٩٥.







نماذج في رثاء مدن وممالك أندلسية

د. فورار امحمد بن لخضر*

يعد رثاء المدن والممالك أكثر فنون الشعر قولاً وصدقاً وأصالة، حيث توجد الدوافع النفسية وراء إنشاده، وكذلك وفرة التجارب والأحداث المتلاحقة على أرض الأندلس، والمؤثرات الداخلية والخارجية التي أثرت في عواطف الشعراء، وهذا الفن خاص بالأندلس، رغم أن له جذورا في المشرق[1]، ولكنها لم تأت في روعة وجودة الشعر الأندلسي.

والرثاء السياسي ينحصر -في نظرنا- في رثاء المدن، وآخر في رثاء الممالك الزائلة، وكلا اللونين يتسم بالصدق الفني والعاطفة القوية والعبارات

* باحث وأستاذ جامعي (جامعة بسكرة- الجزائر).

العمل الفني: الفنانة ميسون علم الدين.

الحزينة والألفاظ الباكية والصور الشجية، ومن ثم فقد كان هذا الفن على درجة كبيرة من الشهـرة والذيوع، يقول غرسية غومس: «وقـد أدركت طائفة مـن المراثي السياسية شهرة واسعة في الأدب الأندلسي وقد قيلت هذه المراثي في مناسبـات زوال الدول مثل رائية ابن عبدون في زوال ملك بني الأفطس أصحـاب بطليوس، أو بمناسبـة ضياع بلد كبير من بلاد المسلمين».[٢]

أما رثاء المدن فيمكـن تقسيمه إلى لون يرثـي مدينـة خربهـا المسلمـون بأيديهم، فتهدمت قصورها وامحـت رسومها بسبب الفـتن التي توالت عليها، وآخر يرثي مملكة سقطـت في يد النصـارى، وتمَّ استردادها، وأخرى سقطت وإلى الأبـد، والمقصود هنا مملكة طليطلة.

يمثل اللـون الأول مدينة قرطبة، المزينة بالقصور والمتنزهـات والحدائق والمساجد، وقـد تغنـى الشعـراء بجمالهـا، وفتنـوا بمتنزهاتها، وتتحول أيام الفتنة العظمى، إلى خراب وأنقاض ونهب وتدمير وحرق، وتصير زهـراء الناصر الجميلة وزاهـرة المنصورة إلى اطـلال، ويموت الناسـ جوعا، وتشهد العاصمة قرطبة ألوانا من الذل والمهانة.

ويمثل اللون الثـاني مدينة بربشتر التي استولى عليها النصـارى ثم استردت منهم، تلـك المدينة التـي كانت مـن أمهات مدن الثغر حصانة ومناعـة، ولكن النورمانديين حاصروها سنة ٤٥٦ هـ لمدة، ومنعوا عنها كل متطلبات العيشـ، ولم يحاول يوسف المظفر إنقاذها ولا المقتدر أخوه، ولذا طلب المسلمون من العدو الأمان لأنفسهم، على أن يخرجوا من المدينة دون مال، فوافـق النورمانديون ولكنهـم ما لبثوا أن خانـوا المواثيق، ونكثوا العهود، فقتلوا عامة رجالها، وسبوا فيها من ذرار المسلمين ونسائهم ما لا يحصى [٣].

بيـد أن هذا العمل المهـين لم يهز ملوك الطوائف، ولم يحركهم نحـو إنجاد المدينة، ولكنهم تخاذلـوا. أما الشعـراء فقد ألبهم سقـوط المدينـة، وكان أشدهـم تأثرا بهذه النكبة الأديب الشاعـر أبو حفص عمر بن الحسين الهوزني الذي أرسل وهو في مرسية إلى المعتضد ابن عباد بإشبيلية رسالة يحضه فيها علـى الجهاد، وينبهـه للأمر الداهم، تخلل هذه الرسالة أبيات من الشعر، تصور المعتضد شجاعا في ميدان النزال، ثم يضفي عليه من الفضائـل أرفعها ليستميله لنجدة المدينة، فيقول:[٤]

أعَبـادُ كـلاًّ قـد عـلـوتَ فضائلاً
تـقـاصَر عنـهـا كـلُّ أروَع مـاجِـد

ثم أخذ يمدح المعتضد ويستنهضه ويحثه إلى أن استضرحه بقوله [٥]:

فقد جدَّ أمرٌ هَدَّ شَرْع مُحمد
وما مُخبِر عن حالةٍ مثل شاهد
لكلٍّ يَبين الرأيُ عند وفاته
هل من دواءٍ بعد نَهْش الأساوِد
أضاعوا وُجوه الحزم يومًا فعزَّهم
على أمرهم من ليس عنه بهاجد

غير أن الرسالة لم تثمر، بل كان جزاء الهوزني القتل على يد المعتضد، فقام الكاتب أبو عمر بن عبد النمري ينبه ملوك الطوائف إلى هذا الخطر من خلال رسالة أخرى، ولم تمض أشهر قلائل حتى هب الأندلسيون بقيادة المقتدر بن هود وساروا إلى الثغر يدفعهم الحماس الديني حتى وصل الجيش الإسلامي بربشتر سنة ٤٥٧ هـ، وحاصروا النورمانديين واستردوا المدينة (٦).

وكان لسقوط بربشتر قبل استردادها أثر عميق في نفوس الشعراء، ومنهم ابن العسال، الفقيه الزاهد، الذي صور ما لاقاه سكان المدينة من عنت النورمانديين وضلالهم مما تشيب له الولدان (٧):

لقد رمانا المشرِكون بأسهُم
لم تُخْطِ لكن شأنُها الإصماء
هتكوا بخيلهم قصورَ حَريمها
لم يبق لا جبلٌ ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهُم بها
في كل يوم غارةٌ شعواء
باتت قلوب المسلمين برُعبهم
فحماتُنا في حربهم جُبناء

إن الشاعر في بيته الأخير قد حدد موطن الداء وهو يكمن في جبن المسلمين عن نصرة إخوانهم، ثم يصور أثر الهزيمة القاسية، والفرار المريب، والذل والعار، ليلهب حماس المسلمين فيهبوا لاسترجاع ما ضيعوه، واسترداد ما فقدوه، ولا ينسى الشاعر في أبياته أن يصور الغدر والخيانة التي كان عليها المسيحيون، ثم يصور مافعلوه في الأطفال والشيوخ والنساء. إنهم بذلك قد أخلوا بأبسط قواعد الإنسانية، يقول (٨):

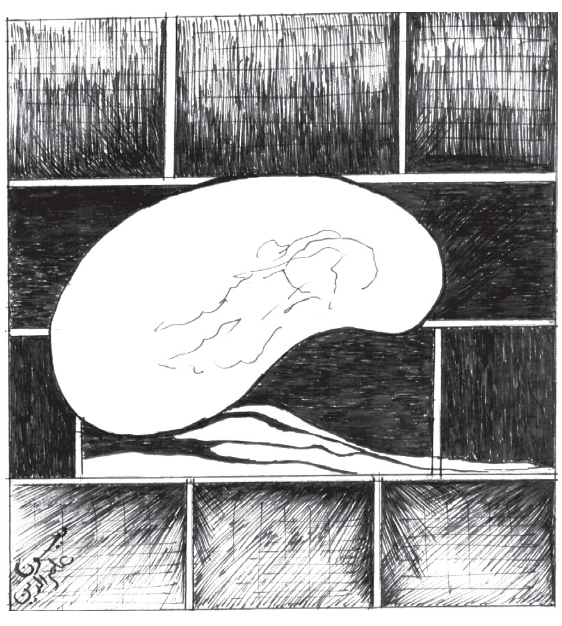
كم موضعٍ غنِموه لم يُرحَم به
طفلٌ ولا شيخ ولا عذراءُ
ولكم رَضيع فرَّقوا عن أمِّه
فله إليها ضَجَّة وبُغاء
و لرُبَّ مولودٍ أبوه مُجدَّل
فوق التراب وفُرْشُه البَيداء
ومَصونةٍ في خِدْرها محجوبة
قد أبرَزوها ما لها استِخفاء
و عزيزِ قومٍ صار في أيديهمُ
فعليه بعد العِزَّة استِخْذاء

وفي ختام أبياته يلقي اللوم على المسلمين، لأنهم بتخاذلهم وتواطئهم قد تركوا الفرصة للنصارى حتى يفعلوا ما فعلوا: (٩)

لولا ذُنوب المسلمين وأنهم
ركبوا الكبائرَ ما لهنَّ خَفاء
ما كان يُنصَر للنصارى فارسٌ
أبدا عليهم فالذُّنوب الدَّاء
فشِرارهم لا يَختفون بشَرِّهم
وصلاحُ مُنتحلي الصَّلاح رَيَّاء

وكان لهذه الأبيات وقعها المؤثر في نفوس المسلمين فهبوا يدافعون عن المدينة حتى استردوها من أيدي النورمانديين بعد مضي تسعة أشهر من احتلالها، واستطاع المسلمون أن يقتلوا من النصارى الكثير ويأسروا الكثير، ويسبوا نساءهم وأبناءهم، وذلك بفضل تعاونهم ومماسهم الديني.[١٠]

وأما اللون الثالث فإنه يرثي المدن والممالك التي انتزعها النصارى من يد المسلمين وإلى الأبد، وكان للشعر السياسي دور بارز في رثائها، وهذه طليطلة، قد أعد ألفونسو السادس جيشه لمهاجمتها انطلاقا من سياسته التوسعية وذلك حينما قال لأهل طليطلة: «فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضى لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا



وبينكم» ([١١]). وفعلا سقطت طليطلة، بعد استسلام مهين للقادر يحيى بن ذي النون، وذلك بعد أن فقد أي عون خارجي من أمراء الطوائف ماعدا المتوكل بن الأفطس الذي انتدب القاضي أبا الوليد الباجي بأن يطوف ببلاد الأندلس، صائحاً ومحذراً ومستجيراً، ويحثهم على الوحدة ونبذ الخلافات، ولكنه لم يجد آذانا صاغية، فلم يستجيبوا لنصحه بل كانوا يستبردون نزعته.[١٢]

وهكذا سقطت إحدى حواضر الأندلس الكبرى، وخرجت من قبضة الإسلام، بعد أن عاشت في ظلاله ثلاثمئة وسبعين عاما.[١٣]

وكان لسقوط مملكة طليطلة أثر كبير في نفوس ملوك الطوائف وفي نفوس الشعراء،

فأما ملوك الطوائف أخذوا يفكرون في لمّ الشمل وتوحيد الصفوف أمام خطر النصارى، وأما الشعراء فأخذوا في تصوير هذه النكبة، وكان ابن العسال خير شاعر أحس بهول النكبة لأنه قاسى مرارتها شخصياً حين أخرج من المدينة مع من أخرج، فأنذر المسلمين في أبياته وحثهم على ترك المدينة لأنه في نظره خير من السبي، وخدمة النصارى، فقال [١٤]:

يا أهلَ أندلسٍ حُثُّوا مطيكُم
فما المُقام بها إلا من الغَلَط
الثوب يُنسَل من أطرافه وأرى
ثوبَ الجزيرة مَنسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياةُ مع الحيَّات في سَفَط

وكان للأحداث التي حلت بطليطلة بعد دخولها في حوزة النصارى أثر كبير في نفوس الشعراء وخاصة بعد أن حولوا مسجدها إلى كنيسة، وضيقوا على المسلمين في أداء شعائرهم حتى يجبروهم على التنصر، وهنا بكى طليطلة المنكوبة شاعر من شعراء الأندلس مصورا ما حل بالمسلمين من ذل وهوان في قصيدة طويلة، استهلها بهذ السؤال: هل هناك من يبتسم وقد ضاعت طليطلة؟ وهذا البدء يدل على عمق التجربة وصدقها، وشدة المعاناة، التي هزت وجدان الشاعر، فكيف تعيش مدن الأندلس في سرور بعد هذه النكبة؟ يقول [١٥]:

لثُكْلِك كيف تبتسمُ الثُّغور
سُرورا بعدما سُبيَت ثَغور

فهذه النكبة قد هدت كيان المسلمين وقصمت ظهورهم رعبا وخوفا، وذلك بعد سقوط المدينة، وامتلاك ألفونسو السادس لزمام الأمور، وتوالي المحن، وانعدام السرور، قال [١٦]:

أما وأبي مصاب هُدَّ منه
ثَبيرُ الدين فاتَّصل الثُّبُور
لقد قُصِمتْ ظُهور حين قالوا
أميرُ الكافرين له ظُهور
تَرى في الدهر مَسرورا بعيْش
مضى عنا لطَيَّته السُرور

ثم يتساءل الشاعر في غمرة الأحداث والمأساة: أليس في الأندلس أبي النفس، شهم، ينقذ طليطلة، ويحررها من الكفر؟ [١٧]:

أليس بها أبَيُّ النَّفس شَهْم
يُديرُ الدَّوائر إذ تُدور

وكانت صيحته هباء باستثناء المتوكل ابن الأفطس الذي أشار على القاضي أبي الوليد الباجي أن يطوف في الأندلس -كما تقدم- منذراً ومحذراً، ولكن ملوك الطوائف في ذلك الوقت قد خضعوا لوعيد ملك قشتالة، ورضوا بالذل والهوان، وتسامحوا في الحرمات، فقال [١٨]:

لقد خضعتْ رقابٌ كنَّ غُلْبًا
وزال عُتَوُّها ومضى النُّفُور
وهان على عزيزِ القوم ذُلٌّ
وسامحَ في الحريم فَتى غَيُور

ثم يعرض الشاعر ما جرى في طليطلة، وكيف كانت معقلا صعبا؟ يفوق بضخامته ومنعته إيوان كسرى والخورنق والسدير، لقد أخرج أهلها وشردوا عن ديارهم وحولت مساجد المدينة إلى كنائس يسمع فيها دق النواقيس بدلاً من صوت الآذان، فأي قلب يقر على هذا ولا يجزع؟!:[19]

طليطلةَ أباحَ الكُفْرُ منها
حماها، إنَّ ذا نبأٌ كبير
فليس مثالَها إيوانُ كسرى
ولا منها الخَوَرْنقُ والسَّدير
مُحَصَّنَةٌ مُحَسَّنةٌ بعيدٌ
تناوُلُها ومَطْلبُها عَسير
ألم تكُ مَعقلا للدِّين صَعْبا
فذَلَّله كما شاءَ القَدير
وأُخْرِجَ أهلُها منها جَميعا
فصاروا حيث شاءَ بهم مَصير
وكانتْ دارَ إيمانٍ وعلم
مَعالمُها التي طَمِسَتْ تُنير
فعادتْ دارَ كُفْرٍ مُصْطَفاةً
قد اضطَربَتْ بأهلِيها الأمُور
مساجدُها كنائسُ، أيُّ قلبٍ
على هذا يَقرُّ ولا يَطير؟

يقول صاحب النفح عن اليوم الذي تحول فيه جامع طليطلة إلى كنيسة: «و مما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامي، - رحمه الله تعالى- صار إلى الجامع، وصلى فيه، وأمر مريدا له بالقراءة، ووافاه الفرنج، وتكاثروا لتغيير القبلة، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته، وعصمه الله تعالى منهم، إلى أن أكمل القراءة وسجد سجدة، ورفع رأسه، وبكى على الجامع بكاء شديدا، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه».[20]

ثم يتأسف الشاعر لتلك النهاية المحزنة، إنه حزن لا يداوى، يكرر ما تكررت الدهور، لقد ذوت طليطلة بمحاسنها، وشردت فيها حرائرها، ومن ثم لا يجد الشاعر غير أن يشارك إخوانه أحزانهم، قال:[21]

فيا أسفاه يا أسفاه حُزنا
يُكرَّر ما تكررت الدُّهور
ويُنشَر كل حسن ليس يُطوى
إلى يوم يكون به النُّشور
أُديلتْ قاصراتُ الطَّرْف كانت
مُصوناتٍ مَساكِنُها القُصور
وأدركها فُتورٌ في انتظار
لسِربٍ في لواحظه فُتور
وكان بنا وبالقينات أولى
لو انضمت على الكُل القُبور

لقد سَخِنَت بحالتهن عين
وكيف يُصبح مَغلوب قَرير
لئن غِبنا عن الإخْوان إنَّا
بأحْزان وأشْجان حُضور

والشاعر يرجع النكبة إلى فعل الدهر، أو يرد الأحداث التي حلت بالمدينة إلى تقلب الدهر، ويستبعد أن تكون «عقابا من الله على معاصي ارتكبها أهل طليطلة، وإنكارا منه لواقع في حياتهم لا ترتضيه الشريعة، وحجته في الرد أن غيرهم أسوأ منهم، وأشد فسقا وفجورا، فإذا ارتضينا هذا سببا فعلينا أن نتوقع المصير نفسه، وفي قولته هذه يستهدف أمرين فيما أرى: الدفاع عن قوم سقطوا في محنة الاحتلال، فهم في حاجة إلى شيء آخر غير التقريع والذم، وتذكير الغافلين في بقية مدن الأندلس بما يمكن أن ينتهي إليه حالهم إذا واصلوا سيرتهم العابثة وواصلوا مظالمهم وعصيانهم سرا وعلانية»[٢٢]، قال:[٢٣]

نُذور كان للأيام فيهم
بمُلكهم فقد وفَت النُّذور
فإن قلنا العقوبةُ أدركتهُم
وجاءهم من الله النَّكير
فإنَّا مثلُهم وأشدُّ منهم
نَجور وكيف يَسلم من يجور؟
أنأمَن أن يَحُلَّ بنا انتقام
وفينا الفِسق أجمع والفُجور
وأكلٌ للحرام ولا اضطِرار
إليه فيَسْهل الأمر العَسير
ولكنْ جُرأة في عُقر دار
كذلك يفعل الكلب العَقور
يزول السِّتْرُ عن قوم إذا ما
على العِصيان أُرخَيَّت السُّتور

ثم يحث قومه على الأخذ بالثأر، ونصر الديانة، فقد حامت النسور فوق جثث القتلى من المسلمين، وذلك حتى يبعث في نفوسهم روح الشجاعة والحمية وسل السيوف، ويدعوهم إلى التعاون وعدم التهاون لأن الموت في عزة خير من الحياة في ذلة، ثم يضيق بالصابرين ويلوم القاعدين:[٢٤]

خُذوا ثأرَ الدّيَّانة وانصُروها
فقد حامت على القَتلى النُّسور
ولا تهِنوا وسُلُّوا كل عَضْب
تهابُ مضاربا منه النُّحور
و مُوتوا كلكم فالموتُ أوْلى
بكم من أن تُجاروا أو تَجوروا
أصَبرًا بعد سْبيٍ وامتحانٍ
يُلام عليهما القلبُ الصَّبور

ثم يصور قعود الناس وجبنهم عن القتال، فهم كالأبقار التي تخور، وقد أضعفت عزائمهم أخبار الهزائم، وما يجري لمواطنيهم

في طليطلة، والشاعر كان يتمنى أن يتشجعوا ويكون لهم زئير الأسـود، لقد ساءت أحوال المسلمين وأضحت أخبارهم مصدر كدر وألم، وتأتي الكتب مسطـرة بالشر، والنحس خير مبشر لهم، قال:[٢٥]

نَـخـور إذا دُهِـيـنـا بـالـرَّزايـا
ولـيـس بِمُـعـجَـب بـقـرٌ يَـخـور
ونَجـبُن ليس نـزْأر، لـو شَجعْنا
ولم نَجـبن لـكـان لـنـا زئـيـر
لـقـد سـاءت لـنـا الأخـبـار حتى
أمــات المُـخـبِريـن بـهـا الخَـبـير
أتـتـنـا الـكـتـبُ فـيـهـا كـلُّ شرٍّ
وبـشَّـرنـا بـأنْـحـسِـنـا الـبَـشـير

لقـد أضحت أخبار النـاس في طليطلة يشيـب لكربهـا الطفـل الصغـير، ويصم السميع، ويعمى البصير، قال:[٢٦]

وقِـيـل تَجـمـعـوا لـفِـراق شَمْـل
طـلـيـطـلـةٌ تَمـلـكـهـا الـكَـفـور
فـقُـل في خُـطـة فـيـهـا صَـغـار
يشيبُ لكَرْبها الطفلُ الصَّغير
لقد صُـمَّ السَّميع فلم يُعَوَّل
عـلـى نـبـإٍ كـمـا عـمـيَ الـبَـصـير

ثـم يتحـدث الشاعـر في ألم شديد عن بعضـ مسلمي طليطلة الذين أغرتهم وعود ألفونسو ببقائهم على أرض الكفر مع الرضا بالهوان لتنمية ثرواتهم، بل إن منهم من ارتد عن دينـه واعتنق النصرانيـة، وبلغ الحزن غايته حين آثر الجميع البقاء، وحجتهم، إلى أين نذهب؟، وكيف نترك بيوتنا وأموالنا وليس لنـا وراء البحر دور ولا أمـوال؟، ليست لنا هناك ضياع ننعم بـوارف أشجارها وطيب ثمارها، ولا طبيعة فياضة بجمالها من ظل وماء واعتدال هواء، قال [٢٧]:

تُجـاذِبـنـا الأعــادي بـاصـطـنـاع
فـيـنـجـذِب المُـخَـوَّل والـفَـقـير
فـبـاقٍ في الـدِّيـانـة تحـت خِـزي
تُـثَـبِّـطُـه الـشُّـوَيْـهَـة والـبَـعـير
و آخَــرُ مــارِق هـانـتْ عـلـيـه
مـصـائـبُ ديـنـه فـلـه الـسَّـعـير
كـفـى حَـزَنًـا بـأن الـنـاسَ قـالـوا
إلى أيـنَ الـتـحـوُّل والمَـسـير
أنَــتْرُكُ دُورَنــا ونَـفـرُّ عـنـهـا
ولـيـس لـنـا وراءَ الـبـحـر دُور
و لا ثَـمَّ الـضِّـيَـاعُ تـروقُ حسنًا
نُـبـاكِـرُهـا فـيُـعْـجِـبُـنـا الـبُـكُـور
و ظِـلٌّ وارِفٌ وخـريـرُ مـاء
فـلا قَــرٌّ هـنـاك ولا حَــرور
ويـأكـلُ مـن فـواكـهـهـا طَـرِيٌّ
ويُـشـرَبُ مـن جَـداولـهـا نَمـير

ويصـور الشاعـر قبول أهـل طليطلة دفع الجزيـة لألفونسو في كل شهر، وتسليم عشر المحصـول في كل صيف، وذلك مقابل

حماية النصارى لهم، لقد تبدلت الأوضاع وأصبح النصارى الموالي والعشير للمسلمين، قال:[٢٨]

يؤدى مَغْرَمٌ في كلِّ شَهْر
ويؤْخَذُ كلَّ صائفة عُشُورُ
فهم أَحْمى لِحَوْزتنا وأَوْلى
بنا وهمُ الموالي والعَشير

ثم يقرر بأن اليقين قد ذهب، وليس هناك دين ولا دنيا، فالمسلمون قد رضوا بالرق والذل والهوان، ثم يطلب من إخوانه أن يبكوا، ولكن ما جدوى البكاء؟ ويتألم الشاعر لحال إخوانه الذين هاموا على وجوههم في فلاة، حيارى، ثم يدعو الشاعر إلى نبذ السلم، والاستعداد للقتال، عسى أن يجبر العظم الكسير، قال: [٢٩]

لقد ذهبَ اليقينُ فلا يقينٌ
وغَرَّ القومَ باللهِ الغَرور
فلا دينٌ ولا دُنيا ولكن
غُرورٌ بالمعِيشة ما غرور
رَضوا بالرِّقِّ يا الله ماذا
رآهُ وما أشارَ به مُشير
مضى الإسلامُ فابْك دَمًا عليه
فما ينفي الجَوى الدمعُ الغَزير
ونُحْ واندُب رفاقا في فَلاة
حَيارى لا تَحطُّ ولا تَسير
ولا تَجنَح إلى سِلْم وحارِب
عسى أن يُجْبر العظمُ الكَسير

ثم يقارن الشاعر بين فريق المسلمين الذين عموا عن مراشدهم، وفريق النصارى المتميز بنفاذ البصيرة، ويتعجب من المسلمين، إذ كيف يلقون فرداً من النصارى ويفرون عنه جميعاً، وكان الأولى أن يثبتوا وأن يصبروا، ولكن ماذا ينفع العدد الكثير إذا ذهب اليقين؟، قال [٣٠]:

أنَعْمى عن مَراشِدِنا جميعا
وما إنْ منهُم إلا بَصيرُ
ونَلقى واحدا ويَفِرُّ جَمْع
كما عن قانِص فرتْ حَمير
ولو أنَّا ثَبَتْنَا كان خَيْرا
ولكن ما لنا كَرمٌ وخِير
إذا لم يكن صَبْرٌ جَميلٌ
فليس بِنافِع عددٌ كثير

وأخيرا يتمنى الشاعر أن يظهر قائد ذو رأي ومشورة، يستعان به وقت الشدائد ويكر إذا أقبلت السيوف، ويتقدم عند اللقاء، ويستعظم الشاعر أن يكون الأمر قد بلغ بسكان الأندلس أن يكون إما قتيل أو جريح، وقد تنغصت الحياة ولا من مجير.

وفي الخاتمة يتضرع الشاعر إلى الله لنصرة المسلمين فهو نعم النصير، قال:[٣١]

ألا رجلٌ له رأيٌ أصيل
به مما نُحاذرُ نَستجير

يـكُـرُّ إذا الـسـيـوفُ تـنـاولـتـه
وأيـــن بـنـا إذا ولَّـــتْ كُـــرور؟
ويـطـعَـن بـالـقـنـا الـخـطَّـار حتى
يـقـولَ الـرمـحُ مـا هـذا الـخـطـير
عظيـم أن يـكـون الـنـاسُ طُـرًّا
بـأنـدلـس قـتـيـلٌ أو أسـيـر
أذكـرُ بـالـقـراع الـلـيـثَ حِـرصـا
على أن يُـقـرع الـبـيَـضَ الـذُّكـور
يـبـادرُ خَـرقَـهـا قـبـل اتـسـاع
لخـطْـب مـنـه تـنـخـسـفُ الـبُـدور
يُـوسِّـع لـلـذي يـلـقـاه صـدْرا
فـقـد ضـاقـت بـمـا تـلـقـى صـدور
تـنـغَّـصـت الـحـيـاة فـلا حـيـاةٌ
وودِّع جِـــيرةً إذ لا مُجـير
فـلـيـلٌ فـيـه هَـــمٌّ مُـسـتـكـنٌّ
ويـــومٌ فـيـه شـــرٌّ مُـسـتـطـير
ونـرجـو أن يُـتـيـح الله نـصـرا
عـلـيـهـم، إنـــه نِـعـم الـنَّـصـير

والقصيـدة بعد هـذا التحليـل تتسم بالجودة والأصالة وعمق التجربة وصدقها، ويصـف الطاهـر مكـي الشاعـر، بقوله: «أصيـل في أفكاره واتجاهـه، لأن قصيدته أول مـا قيل في بابها، وليس عالة فيها على أحد سبقه»[٣٢]. وصـورت القصيدة سقوط طليطلة ومحنـة أهلها الذيـن تخاذلوا عن استردادها.

وهكذا خربت مـدن الأندلس وسقطت الواحـدة تلـو الأخرى في أيـدي النصارى فراح الشعراء يبكونهـا، ويصورون مشاعر مواطنيهـم المكلومـة، ويخلـدون مراحـل السقـوط، ويعبرون عن ذلك بالـدم أحياناً وبالدمـع والاستنجاد أحيانـاً أخرى، إلا أن معظـم الشعـراء مالوا إلى الاتجـاه الأول، فوقفـوا موقفا سلبيا تمثلت خيوطه باليأس والبكاء وذرف الدموع على الأطلال دون أن يستنهضـوا الهمم لدحر النصارى والقضاء على آمالهم لأنهم يمثلون مواقف ملوكهم – كما تقدم – بيـد أن هناك قلة من الشعراء وقفوا موقفا إيجابيا فحثوا الشعب الأندلسي على مقاومة العدوان والاستبسال في الذود عن الوطن.

لقد بـرز في الأندلس قسمان من الرثاء السياسـي، في القرن الخامس الهجري ؛ فالأول انقسم إلى ثلاثة ألوان: منه ما يتعلق برثـاء المدن التي تخربت أيـام الفتنة – ولم يحظ بالقراءة لتقيدنا بحجم المقال – وآخر انحصر على مدينة بربشتر المستردة، وثالث كان متوقفـا على مملكـة طليطلة الضائعة الذي ركزنا فيه بالقراءة على مرثية الشاعر الأندلسي المجهول، وأما القسم الثاني الذي يختص بزوال مملكة بني عباد، ومملكة بني الأفطس... فإننا أرجأناه لحين الحين.

ويعد رثاء المدن والممالك في الأندلس من أبــرز فنون الشعر السياســي، قولاً وتجربةً وصدقــاً وعاطفــة وأصالة، بــل إن شعراء الأندلس بزوا شعراء المشرق في هذا الفن من حيث الإبداع والابتكار، فكتب له الخلود، ولا غرو فقد كان من أوسع الفنون السياسية في الأندلس كمّا وكيفا.

الهوامش:

١- الطاهر أحمد مكي. دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة. دار المعارف. مصر ط١. ١٩٨٠. ص ٢٠١.

٢- إميليو غرسية غومس، الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٢، ص١٠٦ - ١٠٧.

٣- أبوعبيد البكري. جغرافية الأندلس وأوروبة، من كتاب المسالك والممالك. تحقيق عبد الرحمن الحجي.دار الإرشاد للطباعة والنشر. بيروت. ط ١. ١٩٦٨.ص ٩٤، ابن عذارى. البيان المغرب. تحقيق ح. س. كولان، وليفي بروفنسال. دار الثقافة. بيروت. ج ٣ ص ٢٢٥.

٤- ابن بسّام، الذخيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبا، تونس، ط١، ١٩٧٩. ق ٢، ج ١، ص ٨٧.

٥- ابن بسام، المصدر نفسه، ٢/١: ٨٨.

٦- ابن عذارى. البيان المغرب، ٣: ٢٢٧.

٧- الحمـيري، صفة جزيرة الأندلـس (منتخبة من الروض المعطـار)، تحقيق ليفي بروفنسال، لجنـة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧، ص ٤٠ - ٤١.

٨- الحميري، المصدر نفسه، ٤٠ - ٤١.

٩- الحميري. المصدر نفسه،٤١.

١٠- ابن عذارى. البيان المغرب، ٣: ٢٢٦.

١١- ابن عذارى، المصدر نفسه، ٣: ٢٨٢.

١٢- ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٣، ج٢، ص ٩٨.

١٣- محمـد عبـد الله عنان، دول الطوائف، مطبعة الخانجي للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٦٠، ص ١١١-١١٥.

١٤- المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج ٤، ص٣٥٢.

١٥- المقري، نفح الطيب، ٤: ٤٨٣.

١٦- المقري، المصدر السابق، ٤: ٤٨٣.

١٧- المقري، المصدر السابق، ٤: ٤٨٣.

١٨- المقري، المصدر السابق، ٤: ٤٨٣.

١٩- المقري، المصدر السابق، ٤: ٤٨٣.

٢٠- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٤٧، ٤٨٤.

٢١- المقري المصدر نفسه، ٤: ٤٤٧، ٤٨٤.
٢٢- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ٢٥٦، ٢٥٧.
٢٣- المقري، نفح الطيب، ٤: ٤٨٤.
٢٤- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٤.
٢٥- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٥.
٢٦- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٥.
٢٧- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٥.
٢٨- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٥.
٢٩- المقري. المصدر نفسه. ٤: ٤٨٥.
٣٠- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٦.
٣١- المقري، المصدر نفسه، ٤: ٤٨٦.
٣٢- الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية، ٢٦١.





العُبُودة والعمل

د. علي أبو عساف *

وهمـــا مفردتان ذات دلالة مشتركة وهي العمـــل ولبيان ذلك نتتبع معنى العُبُودة وهي من الثلاثي عَبَد وذلك منذ الألف الثالث ق.م من خلال كتابات ماري والدور الأكدي وإيبـــلا ونادبا (تل بيدر) وأجاريت والكتابات الكنعانية والآرامية وغيرها.

لم تكن هذه المفردة عَبَـد متداولة بالنصوص الأكدية وبعدها بالنصوص البابلية والآشوريـــة. إنما ورد في الأدبيات البابلية الحديثة الاسم عَبْدُ وقيل

* باحث وآثاري سوري (مدير عام الآثار والمتاحف سابقاً).

العمل الفني: الفنان رشيد أبو شمه.

إنه دخل إلى البابلية عبر الكنعانية كاسم وليس كفعل[1]. ويجمع الباحثون في لغاتنا القديمة أن الثلاثي عَبَد يعني قبل كل شيء عَمَلَ.وفي رسائل العمارنة إبان القرن الرابع عشر ق.م والتي كتبت بلغة كنعانية وردت المفردة عبد بمعنى عَبْد= خادم أو عَبَدَ= فعل بمعنى خدم وهذه شواهد على المعنى المزدوج للكلمة. وفي نصوص أجاريت التي تتزامن تقريباً مع رسائل العمارنة وردت هذه المفردة بصيغ متعددة اشتقت من الثلاثي عَبَدَ. ونجد في أسطورة كرب وإن شئتم قصة كرت، أمثلة على ذلك: ففي الشطر ٥٥ و١٢٧ و٢٧١ نقرأ الكلمة عًبدُ أي العبد كما في العربية وكذلك عَبْدُمْ بصيغة الجمع وعلامته الميم وقد ترد كاسم علم عبد أو بن عبد/بن عِبْدي؟ أو يضاف إلى اسم الرب مثل عبد ايل أو لقب مثل عبد ملك.وإلى جانب هذه الأمثلة نجد أمثلة أخرى ترد فيها هذه الكلمة بمعنى عضو في نقابة أو عامل في نقابة أو حرفة كما في النصوص: النص ١٦٩ الشطر٣ و٣٢٤ الشطر٩-١١[2]. يرى القارئ في هذه الأمثلة أن المفردة عَبَدَ تعني خدم وكذلك عمل أو مارس عملاً ما في نقابة أو حرفة وهي تعبير عن الفكر الأجاريتي في تكريم العمل والارتقاء به إلى مرتبة القدسية.

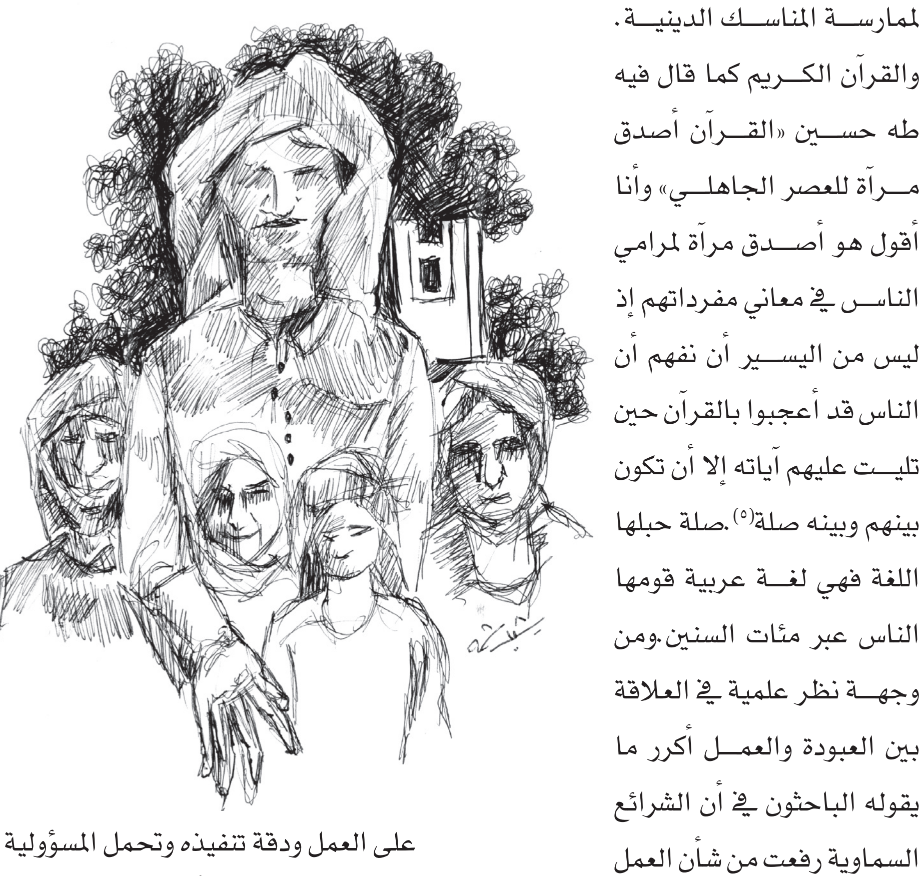
هكذا في أجاريت. أما عند الكنعانيين والآراميين فلا يختلف الأمر وقد أمدونا بمعلومات أوفر. لقد حافظ الكنعانيون والآراميون الشريكان في ثقافة بلادنا على المعنى الأساسي للكلمة: عمل أو قام بعمل ما وللعمل مجالات واسعة: فإن عمل بالحقل أو بالكرم تعني المفردة المستخدمة عَبَدَ فلح وزرع ومارس عمله تحت أشعة الشمس. وإذا رعت (عَبَدَت) الآلهة اتفاقاً ما فهي قد عملته أوصاغته (مجازاً) وباركته ووجب على الفريقين المتعاقدين بالعمل على التنفيذ والذي يسيء (يعبد) إلى صنوه في الاتفاق يصبح في نظر الأرباب مرتداً فيعاقب أي تعمل الآلهة على معاقبته وأظن أن هذه الأمثلة توضح بجلاء أن العبودة قرين للعمل.وفي الكنعانية وخاصةً في الدور المسمى الفينيقي نجد أن المفردة عبد لها عدة معاني تختلف عن المعاني التي ذكرناها في النصوص الأقدم فهي تعني العبد الخادم للسيد أو التابع له أي الذي يقوم بأعمال متنوعة ومتعددة عند سيده ولصالح سيده في بيته وحقله وتجارته وكرمه.. إلخ

وهذا يقنعنا بازدواجية معنى عبد (العُبُودة والعمل) وحتــى تكتمل الصورة نشير إلى أن لغات بلادنــا التي سطــرت بالمسمارية أي الحروف الهجائيــة ذات الشكل المسماري: الأكدية بفرعيها البابلي والآشوري والإبلوية والأجاريتية المسمارية. قد استخدمت مفردة (وارادوم/ ورَدّوم) بدلاً من الثلاثي عبد ولكن بالمعنى ذاته. وهي تؤدي أيضاً معاني عديدة حســب موقع العمل: فالذي يعبد في الهيكل يرعــى شؤونه الدينية كافــة ويحرص على نظافته وصيانته ويهتم بشؤون زواره والذي يعبــد (يخدم) في القصر عليه واجبات عدة تفرضهــا تعليمات القصر.أمــا الذي يعبد في حقــول وممتلكات الهيــكل والقصر فهو يفلحها ويزرعها ويحصد الغلال.. إلخ وهنا تتوضــح الصلة المتينة بــين العُبُودة والعمل ومــع مرور الزمــن تطورت جميــع مناحي الحياة في العصور القديمة وظهر مانسميه عمل السخرة التي هي أعمال يقوم بها فرد عنــد آخر وفاءً لدين لــه عليه.كأن يستدين صاحب حاجة من مالك لها حبوباً أو قماشاً ويتعهد بردها إليه في الوقت المحدد فيتعسر عليه الرد لذا يعمل (يعبد)لديه ليسدد دينه. لقــد كان العمل(عبــد) في الأماكن الدينية الهياكل وبيوت العبــادة شرف الإنسان يلجأ إليه الرفيع والوضيع الغني والفقير فيتطوع ويعمــل في بيــوت العبــادة أو في ممتلكاتها فقد تطوعــت إنْخدّوانا ابنة مؤسس المملكة الأكدية شروكين للعمل (عبد) في عدة معابد ببلاد الرافديــن والجزيــرة(٣) وما ذكرته أعلاه من ارتباط الثلاثي عبد بالعمل داخل المعبد وفي مجالات شتى هو الشهادة على أن العُبُودة تنطــوي في ذاتها على العمل بشكل مطلق فإذا فلح الآرامي مثلاً كرماً أو حقلاً وإذا زرع أرضــاً وإذا قدم نــذراً للرب وإذا بنى هيكلاً فهــو (يعْبُدّ) يقوم بهذه الأعمال ويصــف نفسه بأنه عبد الــرب وقد وصف الملــك الآرامي كيلامــوه نفســه بأنه:عبد تجلات فلصر، وهــذا الآخر هو ملك آشور ٧٤٧-٧٢٧ق.م أي أنه خادم أو تابع أو خاضع لتجلات فلصــر[٤]. فالعمل عندهم متلازماً مع العبــودة بكل ماتحويه هــذه الكلمة من معنى فكلمة عبد في لغتنا القديمة هي كما في العربيــة تنطوي على لين وخضوع وشدة وقوة لين وخضوع في الأعمال الدينية وشدة وقوة في تنفيذ العمل .

وفي القرآن الكريم نزعة إلى هذا المعنى وهــدف إلى تكــريم العمل وجعلــه مساوياً

لممارســة المناســك الدينيــة.

والقرآن الكــريم كما قال فيه طه حســين «القــرآن أصدق مــرآة للعصر الجاهلــي» وأنا أقول هو أصــدق مرآة لمرامي النـاســ في معاني مفرداتهم إذ ليس من اليســير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليــت عليهم آياته إلا أن تكون بينهم وبينه صلة[٥].صلة حبلها اللغة فهي لغــة عربية قومها الناس عبر مئات السنين.ومن وجهــة نظر علمية في العلاقة بين العبودة والعمــل أكرر ما يقوله الباحثون في أن الشرائع السماوية رفعت من شأن العمل ووضعته بمصــاف العبادة وفي الآية ٣٣ من ســورة فُصلت: ومن أحســن قولاً ممن دعا إلى الله وعمــل صالحاً. يشمل العمل العمل الدينــي[٦] الذي يحتوي على طقوس العبادة والعبــادة عمل كما العمل في أي مجال وهذا يعنــي شمولية المعنى لكلمة عمل الذي أفهم منه الترابــط بين العبــادة والعمل.وفي كلا الحالتين واجب العمــل وقدسيته الانكباب



على العمل ودقة تنفيذه وتحمل المسؤولية في أدائــه والحماس له لأنه يرفع من شأن حياة الإنســان وسعادته ويسهــم في قمع الفساد ونبذه وجعله إلى زوال.

لايقمــع الفســاد بالقوانــين وحدهــا والعقوبات بل أيضاً وقبل كل شيء بأن يفهم الإنسان العامل قيمة العمل الذي يؤديه هو في سبيل تحقيق مبادئ منع الاستغلال الذي ينشــر الحسد والعداوة بين الناس ومكافحة

الجوع والفقر والمرض وانتشار العلم بأوسع أبوابه وتحكيم العقل في جميع الأمور وخاصةً الموروث الثقافي الإنساني والاعتماد على النفس ونبذ الاتكالية. الالتصاق بالأرض مبعث الحياة وبناء الاقتصاد حسب واقع توفر الموارد. وانتشار الثقافة عماد هوية كل أمة على جميع المستويات والتي تشجع على اعتماد شعار الرأي والرأي الآخر.

الهوامش:

1- W.von soden, Akkadisches Handwoerterbuch, p.6

٢- علي أبو عساف، نصوص من أجاريت، وزارة الثقافة، ١٩٨٨، ص١٥٥-١٥٨.

Ugaritic Manual, 1955, p.175

3- Kulturgeschiehte des Alten Vorderasien Berlin 1989,p.111112,179-

٤- علي أبو عساف الآراميون.

٥- طه حسين في الأدب الجاهلي ص ٧٠-٧١.

٦- اشتراكية الإسلام، تأليف مصطفى السباعي، سلسلة اخترنا لك ١٠٨، دمشق ١٩٦٠، ص١٦٩-١٩٠.





أضواء على مدينة بصرى

د. خليل المقداد *

الهدف من هذا البحث هو إلقاء الضوء على آلية العمل في معلم حضاري محلي رائع يظهر الدور الريـادي للإنسان العربي السوري في بناء الحضارة والمعـالم التاريخية والحضارية ونقـل هذه الرسالة الساميـة إلى حضارات العـالم كافة. كما أن بيان ماهية العمل في أحد الأمثلة من المدن السورية هو دليل قاطع علـى أن بناء هذه المدن وبناء الإنسان الذي عمرها كان نموذجاً لبناء المدن كافة، ومنطلقاً لبناء الإنسان والحضارة في حوض البحر الأبيض المتوسط التي كانت ومازالت ترتكز على مقومات الحضارة العربية.

* باحث آثاري من سورية.

العمل الفني: الفنان ميسون علم الدين.

ومــن جهــةٍ أخــرى لتصحيــح بعض المفاهيــم التي مــا زالت عالقــة في أذهان النــاس ويكررونها كل يــوم وفي كل مناسبة بسبب جهلهم أو عــدم درايتهم في الحقائق التاريخيــة ومفردات الفهرســ الحضاري، ومكررين مــا كان يطلقه المستشرقون الذين ارتكــزت مفاهيمهم على تعصــب إقليمي أوديني أو عرقي أو قومي..إلخ. ولهذا نضع الحقيقة بين يدي القارئ والباحث ليستنتج بنفسه الحقائق ويلمسهــا ومن ثم يترجمها ترجمة عملية أثناء تنــاول مثل هذه الأمور لتكون نماذج للأبحــاث المستقبلة التي تبرز هوية هــذه الأمة على حقيقتهــا وتنصفها بصدق ومصداقية بحثية.

وثمة أمــر آخر نلمسه كل يوم من خلال التجربة اليومية في التدريس في العديد من الجامعات العربية أو المحاضرات التاريخية والحضارية على منابر العديد من المؤسسات الثقافيــة والعلمية والأدبية أو ما نعرفه عبر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية؛ فنجد أن ما هو معروف في أذهان الناس أو ما يتم تدوينه في المناهج التدريسية أن كل ما هو باقٍ من إنتاج حضاري أو معماري أو أثري في بلادنــا هو من نتاج الحضارات اليونانية أو الرومانية أو البيزنطية وغيرها.

كما أن مــا هو معروف عــن الحضارة الرومانيــة أو البيزنطيــة وغيرهــا مــن الحضــارات التي عاشت فــوق أراضينا ما هــي إلا حضــارات مستعمــرة وغريبة عن بلادنا، وأن المواطــن الروماني أو البيزنطي هو إنسان مستعمــر وكذلك متحضر وباني حضارتنــا. ولكــن عندما نضــع الأمور في موقعهــا الصحيــح ومــن خــلال المنظار الدقيق نجد أن هذه الحضارات ليست سوى حضاراتٍ عربيةٍ قامت فوق أراضٍ عربيةٍ، وشكلت هذه الأراضي أكثر من سبعين بالمئة مــن جسم تلــك الإمبراطوريــات، كما كان الإنسان العربي يشكل أكثر من سبعين بالمئة من سكانها.

ولكن السبب فيمــا كان يطلق على هذه التسميــات هو اسم العواصــم مثل روما – بيزنطة (نسبة إلى موقع بيزنص) وكما يعرف عن الحضارة العربية المصرية بأنها حضارة فرعونية نسبةً إلى اسم الفرعون (الحاكم). وحتى ننصف سورية أو بلاد الشام من هذه المفاهيــم لا بد أن نشير إلى أن سورية معنية بالحضارة المصرية بقدر ما هي معنية مصر بذلــك، وكذلك الأمر بالنسبــة إلى حضارة بلاد النهرين فنجد أن سورية معنية في هذا الأمر كما هو العراق معني بذلك.

وعلــى جميــع الأحــوال فجميــع هذه البــلاد بلاد عربية، وسكانها قبائل وعشائر

عربيــة منــذ الأزل وحضاراتهــا المتعاقبة هــي حضـــاراتٌ عربيــةٌ انتقلــت من قلب العروبــة النابض سوريــة إلى العالم قاطبةً. فكم من الأباطرة الذين تربعوا على عروش الإمبراطوريات من أصــولٍ عربيةٍ، وكم من القناصــل والولاة وقــادة الجيوشــ الذين سجلــوا صفحاتٍ مشرفــة بالبطولة والإباء ينتمون إلى هـــذه البلاد، وكم من المهندسين والبنائـــين والمفكرين والفلاسفة الذين كانوا مناراتٍ للحضارات العالمية وحتى يومنا هذا وينتمون إلى هذه البلاد وهذه الأمة أيضاً.

وبذلك ننتهز هذه الفرصة ونفتح الطريق أمـــام زملائنـــا الباحثين لتنـــاول مثل هذه المواضيع والتوسع في دراستها دراسة تفصيلية معمقة للخروج بنتائج صادقة تظهر الحقائق وتضعهـــا في معيارهـــا الصحيح، كما نحث زملاءنـــا في كليات الهندســـة وأقسام الآثار والتاريخ في الجامعات السورية والعربية في توجيه طلاب الدراسات العليا في تناول مثل هذه المواضيع الهامة والمحددة.

المعارف الجديدة عن مدينة بصرى والتــي أظهرتها التنقيبــات والأبحاث الأثرية الجديدة:

نتج عن تعاقب الحضارات وتعدد المراحل التاريخية لبلاد الشام وخاصةً جنوب سورية أن جعلــت من موقع بصـــرى حيزاً جغرافياً لمدينة تمخضت عنها العديد من المدن، وكل واحدة كان لهـــا إطارها التاريخي ومنهجها التنظيمـــي والعمـــراني وأوابدهـــا الأثرية الخالـــدة وموقعها الاستراتيجـــي وأهميتها الحضاريـــة ومعطياتهـــا الأثريـــة النفيسة. ومن خلال دراستنا للموقع حديثاً وجدنا أن مقومات سكن الإنسان القديم كانت متوفرة في الموقع وأهمها توفر مصادر المياه الدائمة والموسمية.

ومـــن الميـــاه دائمة التدفـــق العديد من الينابيـــع التـــي توجـــد حاليـــاً في الجهات الشماليـــة والغربية من المدينة الأثرية حيث بلغ عددها خمسة ينابيـــع، تجف أو تتدفق منهـــا المياه حســـب نسبة هطـــول الأمطار السنوية إلا أنـــه في السنوات الأخيرة وحتى الآن تشهد المنطقة بشكلٍ عام تدنيّاً في نسبة هطل الأمطار، لذلك لم يبق إلا النبع الرئيس والذي بدوره أخذت مياهه تخف في تدفقها شيئاً فشيئاً كمـــا أن استعماله أصبح خفيفاً ولم تتناسب مياهه مع نسبة استهلاك السكان المتزايدة.

أما المياه الموسميـــة فمصدرها السيول التـــي تجـــري في الوديان التـــي تحاذي في مساراتها مدينة بصـــرى من جهتي الشمال والجنـــوب والقادمة من جبل حـــوران أثناء مواسم الأمطـــار، إلا أن جريان المياه أصبح



نـادراً في هذه الوديان بسبب نسـب الأمطار الخفيفة وقلة تساقط الثلـوج التـي تعطيها استمرارية في الجريان لفترات زمنيـة طويلة ومستمـرة كمـا كان الأمر قديماً.

ويجب التذكير هنا أن العديـد من القرى التـي كانـت تحيـط في مدينـة بصـرى ومواقعهـا مازالـت موجـودة بمحـاذاة هذه الوديـان الأربعة (الزيدي - الرقيق من جهة الشمال، والزعتري - والبطم من جهة الجنـوب) قد هجرت ولم يبق منها إلا بعض التأسيسات البسيطة لبعض الأبنية. ومنها خربة البزايز - خربة الدير - دير الغساني - دير الباعق.

وتتميـز مدينة بصـرى أن موقعها جاء وسـط سهل النقرة الخصـب ذي الأراضي الزراعية الشاسعـة والمنبسطة بحيث تأخذ في ارتفاعها التدريجي بين ٨٠٠م في الجهة الغربيـة مـن المدينـة إلى ٨٥٠م في الجهة الشرقية منها. وهذه الطبيعة الطبوغرافية سهلت في بناء وتوزيع خزانات المياه في جميع جهـات المدينـة والتي بلغ عددهـا خمسة خزانـات عرف كل واحد منهـا باسم بركة رباعية الشكل تـتراوح أبعادها بين٢٠٠ إلى ١٥٠م تقريباً وعمق بين ١٥ إلى ١٠متر .

وبالطبـع فهذا التقليد عرف في منطقة حوران منذ القـدم بسبب عدم وجود انهار دائمة الجريان، وكذلك بسبب نسبة هطول الأمطار الخفيفة التي لم تتجاوز ٢٠٠مم في

السنة في مدينة بصرى وما يحيط فيها. ولهذا فكانت الضرورة تقتضي الاستفادة المطلقة من مياه الينابيع والأمطار بتهيئة خزانات كبيرة وصغيرة داخل المدينة وفي محيطها الخارجي.

كما تفتقر المدينة إلى الكهوف الطبيعية والمصطنعة بسبب بنيتها الجيولوجية وقاعدتها الصخرية ذات الصخور البازلتية القاسية والصماء، ولهذا فلم تشهد المدينة إنسان الكهوف كما هو الحال في المناطق المجاورة مثل موقع درعا ودمشق وحوض اليرموك وحوض العاصي ووادي السير إلى الجنوب الغربي من مدينة عمان ومنطقة اللجاة والجبل شرقاً وغيرها.

ويجب التذكير أنه لم يتم العثور حتى الآن على أي مادة أثرية من مخلفات إنسان عصور ما قبل التاريخ وخاصةً العصر الحجري القديم (الباليوليتيك).

١ - مدينة ما قبل التاريخ:

أصبح من المؤكد أن المنطقة ومنذ الألف الخامس عشر ق. م دخلت كباقي مناطق بلاد الشام في مرحلة تاريخية عرفت بمرحلة الحضارة الزراعية وثورة الرموز والتي استمرت حتى الألف الثامن ق.م. والتي تعرف تاريخياً في جنوب بلاد الشام باسم الحضارة الغسولية، ثم توسعت لتشمل كامل بلاد الشام وبلاد النهرين لتعرف باسم الحضارة النطوفية.

وأهم سمات هذه المرحلة النهضة الزراعية والثقافية والعمرانية وبناء المدن وتطور الصناعات المختلفة، وفوق ذلك كله الوحدة الحضارية لبلاد الشام بجميع مقوماتها.

ومع غياب المعطيات الأثرية والمادية والتاريخية في مدينة بصرى والمناطق المحيطة فيها حتى الآن بسبب غياب الحفريات الأثرية في المواقع التي تعود إلى تلك الفترات الزمنية يبقى الارتكاز في هذا الموضوع على الافتراض المدعم بأسباب منطقية وعلمية بوجود مدينة كانت تتمركز حول ينابيع المياه المتعددة والدائمة وعلى رأسها النبع المركزي.

وما أن حل الألف الثالث ق. م حتى أصبحت هذه المدينة حاضرة متسعة وممتدة يسكنها عدد كبير من السكان، ومساكن منظمة وأسوار حصينة وعالية ولتصبح عاصمة المنطقة الجنوبية من بلاد الشام، ومن ثم استمرت تتربع على هذا العرش طيلة المراحل التاريخية بما فيها العهد السلجوقي والفاطمي والأيوبي. وفي العهد العثماني والعصر الحديث ظهرت مستجدات أفقدتها هذا المركز، ولكن مازالت تاريخياً

وأثريا تحافظ على هــذا الإرث الحضاري النفيس.

٢ - المدينة الآرامية:

أخـذت المدينة تتوسـع جنوبـاً وغرباً منذ الألــف الثاني قبل الميــلاد وأصبح لها مخطــط معماري واضــح وشــوارع وأحياء سكنية تحيطها الينابيع ويتوسطها منخفض طبيعــي تحول ليصبح حوضــاً مائياً كبيراً، وسور يحيط بكامل الحيز المعماري وأبواب للمدينة محصنة بأبراج عالية.

كما استمــر توسع المدينــة طيلة الألف الأول ق. م بشــكل يتناسب مــع تزايد عدد السكان وخاصــةً منذ منتصف هذه الألفية الذي تزامن مع قدوم قبائل عربية قادمة من الجزيرة العربية ومنها: الأنباط والإيدوميون والصفائيون وغيرهم. وقد كان التوسع يمتد مــن الشمال إلى الجنوب، ومــن الغرب إلى الشــرق ضمن حيز مكاني امتــد قبل قدوم الأنباط بحوالي ألف وخمسمئة متر شمال/ جنوب وألف متر شرق/غرب، وهذه الحدود مازالت ثابتــة ومعروفة ومحــددة بالأسوار حتى الآن.

وقــد تأكدت هذه المعطيــات من خلال العديد من الحفريات والأسبار الأثرية التي جــرت في القسم الشمالي مــن هذا الحيز المكاني من قبل دائرة آثــار بصرى والعديد من البعثــات الأجنبية التي تعمل في المدينة منــذ أعوام السبعينيات مــن القرن الماضي وحتــى الآن. وتمَّ العثــور على لقــى أثرية تعود إلى الألف الثالــث والثاني والأول قبل الميــلاد، وتمَّ نشر النتائــج في بعض أعداد الحوليــات الأثرية العربية السورية والعديد من الحوليات والدوريات الأثرية في مختلف دول العالم.

٣ - المدينة في العهد النبطي :

أخذ ظهــور العرب الأنبــاط يتزايد في شمال الجزيــرة العربية وجنوب بلاد الشام منــذ الألــف الأول ق. م، وتأكــد ذلــك مع البراهــين التاريخيــة والأثريــة التي أكدت أن هــذا التزايد ظهر بشــكلٍ ملحوظ منذ النصف الثــاني من الألف الأول قبل الميلاد بما فيها منطقة حــوران وخاصةً في مدينة بصرى التي أصبحت المدينة الرئيسة الثانية للأنباط بعد البتراء ومنذ القرن الثاني قبل الميلاد أيضاً.

ومن المؤكــد أن هذه المرحلــة الزمنية تلت مرحلــة وجود الأنبــاط وتكاثرهم في جنــوب الأردن والمناطــق الشمالية الغربية والمشرفــة على البحر الأحمر وخليج العقبة والنقب وخاصة بعــد بناء العديد من المدن مثل الحجر ومدائن صالح والبتراء وانتشار

الحواضر النبطية في منطقة وادي السرحان شمال الجزيرة العربية ومنطقة الأزرق.

ومن البديهي أن حلول الأنباط في حوران أخذ يتكاثر طرداً مع تزايد نشاطهم التجاري بين الجزيرة العربية وبلاد الشام وسيطرتهم على الطرق التجارية بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي عبر الخليج العربي واتخاذهم من مدينة غزة مركزاً لتوزيع التجارة وتصديرها إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط وخاصةً القارة الأوروبية.

إلا أن الوجود الحقيقي للأنباط كقوة بشرية وسياسية واقتصادية وعسكرية ودينية في جنوب سورية ودورهم الفاعل في الأحداث الدولية فكان منذ بداية القرن الأول قبل الميلاد، حيث استمر الصراع على المنطقة بينهم وبين السلوقيين والبطالمة ومن ثم الرومان طيلة القرون الثلاثة وحتى عام١٠٦ بعد الميلاد. وكانت مدينة بصرى منذ تلك الفترة عاصمة الأنباط طيلة القرون الأخيرة من تاريخهم. حيث شكلت المدينة النبطية القاعدة العريضة للمراحل التنظيمية المتعاقبة، أو ما يعرف باسم عهد الولاية (العهد الروماني) والعهد الكنسي والعهود الإسلامية التي استمرت حتى نهاية العهد المملوكي.

ومنذ بداية العهد النبطي أخذ توسع المدينة يمتد شرقاً من محور طريق النبع – المصلبة (التترابيل) – الباب الجنوبي وحتى السور الشرقي. وفي كل مرحلة توسع تتم إزالة السور من جهة التوسع ويحل محلها مساره شارع فاصل.

وأصبح من المؤكد أيضاَ أن المنطقة الغربية من المدينة والتي كان يحدها المحور المذكور من جهة الشرق بقيت ثابتة الحدود بينما أخذ التوسع يمتد تدريجياً طيلة العهد النبطي نحو الجهة الشرقية، بينما الأسوار من الجهات الثلاث الأخرى الشمالية والجنوبية والغربية فقد حافظت على بنائها ومساراتها مع تدعيمها وتقويتها بالسماكة والأبراج ورفع جدرانها حسب المقتضى.

وعلى اعتبار أن المدينة كانت عاصمة للمملكة النبطية التي امتدت أراضيها من منطقة دمشق شمالاً (الضمير – دمشق – جبل الحرمون) وحتى شمال الجزيرة العربية جنوباً فقد اقتضى الأمر أن تبنى فيها جميع الأبنية الموجودة في أي عاصمة أخرى من قصور وأبنية خدمية عامة وخاصة وأبنية وحصون وأبنية دفاعية وغيرها، وهذه الأبنية تمت الاستفادة منها في العهود اللاحقة بعد توسيعها وتجميلها لتصبح مناسبة ومطابقة لمتطلبات العهد الذي تتوسع فيه.

وفوق ذلك كله المعابد ومنها معبد الآلهة العربية: اللات –العزى –ذي الشرى– قوس، بحيث كان يبنى معبد مستقل لكل إله من هذه الآلهة إضافة إلى بناء معبد مشترك ورئيس (بانتيون) لجميع الآلهة. كما بينت الحفريات الأثرية أن القاعدة التأسيسية للمدينة النبطية شملت كامل الحيز المكاني المحصور بين أسوار المدينة في عهد الولاية، وقد تأكد ذلك من خلال نتائج الحفريات الأثرية في المواقع التي شملت كامل الحيز العمراني لمدينة بصرى منذ تأسيسها وحتى المرحلة الأخيرة. وبالطبع فهذا برهان جديد على أصالة المدينة وقدمها التنظيمي.

ومما يؤكد ذلك أيضاً أنه لم يخلُ موقع أجريت فيه الحفريات الأثرية في المدينة من لقى أثرية نبطية إضافة إلى العديد من النصوص الكتابية النبطية التي وجدت في المدينة والمدن النبطية الأخرى ومنها على سبيل المثال نص مازال منقوشاً على واجهة معبد نبطي في مدينة البتراء يذكر أن هذا المعبد كرس على شرف آلهة الأنباط الموجودين في بصرى، إضافة إلى العديد من اللقى الأثرية كالفخاريات والمسكوكات النقدية وغيرها.

٤ – المدينة في عهد الولاية:

بدأ عهد الولاية في مدينة بصرى والمناطق التابعة لها منذ شهر آذار عام ١٠٦ب.م، وصدر بذلك أمر إمبراطوري ينص على أن تكون مدينة بصرى عاصمة الولاية العربية ومدينة الإمبراطور تراجان (فيا تريانا بصرى) وشملت أراضي الولاية أراضي المملكة النبطية نفسها التي كانت بصرى عاصمتها. وبذلك تكون المدينة والمنطقة قد حافظت على استقلالها وكيانها مدة زمنية قاربت الخمسة قرون ؛ ثلاث منها في العهد اليوناني (السلوقي في سورية – والبطلمي في مصر) وقرنين من الزمن تقريباً في العهد الروماني، ولم تستطع هذه القوى العظمى من دخول المدينة والقضاء على الحكم النبطي إلا بعد وفاة العاهل النبطي رئبال الثاني في التاريخ المذكور.

ومع بداية هذا العهد أخذت المدينة تلبس حلية معمارية جميلة وتنظيماً معمارياً جديداً منذ ذلك الحين لينسجم مع مكانتها السياسية والإدارية والبشرية والاقتصادية والعسكرية والدينية، وكذلك كونها أصبحت من جديد عاصمة الولاية العربية تضاهي في جمالها المدن الكبرى (المتروبول) بما فيها العاصمة روما وتتناسب مع التسمية التي أطلقها عليها الأباطرة تراجان وهادريان.

وقد تطلب ذلك أن تكون أنموذجاً لعاصمة شرقيــة وكذلك نموذجاً للمدن الكبرى. وقد بنيت فيها أنماذج من جميع الأبنية الموجودة هنــاك، ومن أهمهــا الحمامــات والمسارح والقصــور وأقواس النصر والشوارع المعمدة والمعابــد وسبل المياه والمصلبــات (تترابيل) والأسواق وخزانات المياه وميدان الفروسية والجيمناز وأحواض السباحة وغيرها.

وحتى لا يتم تعكــير وتخريب مخططها القديم فقد تمَّ تنظيــم ذلك بمنهجية ودقة متناهية باتخاذ المحور الوسط في المدينة من المعسكر شمالاً إلى ميدان الفروسية جنوباً، وكان هــذا المحــور هو المحــور المركزي في المدينة النبطية وحتى منتصف القرن الثاني بعد الميلاد.

وثمة أمور جديدة كشفت عنها الحفريات الأثرية ولم تكن ظاهرة، لأنها كانت مطمورة تحت الأنقاض، أو لم تظهر حقيقتها وهويتها المعماريــة والوظيفيــة. ومنها علــى سبيل المثال:

أولاً- المسرح الأثــري الدائــري (الأنفتياتر): و كنت قد أشرت إلى ذلك منذ عام ١٩٨٣ من خــلال دراستي عن التنظيم العمــراني لمدينة بصرى في ذلك العهد، وقد تأكــدت هذه النظرية بعــد عمليات التوسع في الكشف في المنطقــة المحيطة في المسرح النصــف دائري من الجهة الغربية والقريبة من ميــدان الفروسية من جهتــه الشمالية، ومــن المفترض العثــور أيضا في هذا الحيز التنظيمــي على مسرح صغــير أو ما يعرف باسم قاعــة الطرب (أوديــون) وهو المكان الذي كان مخصصــاً للاجتماعات الرسمية في المدينة.

ثانيــاً- الموقــع الأثــري المركــب: تمَّ الكشف عن أقســام المبنى الذي كان يعرف باســم : (الموقــع الأثري المركــب أو المعبد - الكاتدرائيــة) والمكــون مــن عــدة أبنية أثرية متلاحمة ومتراكبة مع بعضها البعض والواقع إلى الشرق من الباب النبطي ؛ فقد أظهرت الحفريات الأثرية هوية هذه الأبنية والتي كانت جميعها ذات وظيفة دينية بنيت على عدة مراحل وهي:

١- المرحلة الأولى وتشمل البناء الأقدم وهــو المعبد النبطــي المركــزي والذي كان مكرساً للآلهــة النبطية: اللات - العزى - ذي الشــرى والذي ذكر في الكتابات النبطية في مدينــة البــتراء، وظهــرت صــوره فوق المسكــوكات النقدية للمدينــة ويعود تاريخ بنائه إلى القرن الأول ق.م.

٢- المرحلــة الثانيــة تمَّ تجديد وتوسيع المكان ليصبح معبداً رئيساً للمدينة في عهد الولاية إضافة إلى العديد من المعابد الأخرى

التي توزعت في كامل أنحاء المدينة بما فيها المعسكر.

٣- بناء الكاتدرائية الكبرى للمدينة إضافة إلى الكاتدرائية المكرسة للقديسين سرجيوس وباخوس وليونيس. ويعود تاريخ البناء إلى العهد الأسقفي وحصول المدينة على مركز المتروبول.

٤- بناء كنيسة ملاصقة لبناء الكاتدرائية من الجهة الجنوبية.

ثالثاً- بناء قصر تراجان: وقد تأكدت هوية هذا البناء المعمارية والوظيفية بحيث كان مقراً لحاكم الولاية ومن ثم تحول ليصبح مقر أسقف المدينة والمرتبط مع الكاتدرائية المجاورة. وكذلك الربط التنظيمي بينه وبين المبنى الملاصق للباب النبطي من جهة الشرق بشارع معمد. أما كونه مقر ملوك الأنباط بما فيهم الملك رئبال الثاني أخر ملوكهم فلم يتم تأكيد هذه الفكرة حتى الآن، كما أنه لم يتم الكشف عن هذا القصر أيضاً.

إلا أن المعطيات الأثرية المتوفرة حتى الآن تبين أن موقع هذا القصر يجب أن يكون في هذا الحيز التنظيمي الواقع بين قصر تراجان والباب النبطي ومبنى المعبد النبطي المركزي والمواقع المحيطة بها من جميع الجهات.

رابعاً- الحمامات العامة والأبنية المحيطة بها: تمَّ الكشف عن كامل العناصر المعمارية لأبنية حمامات المدينة المركزية والجنوبية وكذلك الكشف عن معبد مجاور للحمامات الجنوبية من الجهة الشرقية وتحوله في مرحلة لاحقة إلى بناء كنيسة على حساب المعبد مع اختلاف السويات والمنهج المعماري وكامل التفاصيل الهندسية.

خامساً- بناء معبد الكليبة: فقد أظهرت الحفريات والكشف الأثري أن هذا البناء عبارة عن سبيل مياه (نمفيوم) مكرس لآلهة الينبوع، ويقابل سبيل المياه الأخر من الجهة الغربية والمكرس لنفس الآلهة والمبني لنفس الغرض والذي يعرف باسم معبد السقايا.

سادساً- موقع السوق العامة للمدينة (الفوروم) والسوق الأرضية: وقد وضحت الحفريات الأثرية في هذا القطاع عن العديد من المفاهيم ومنها:

آ- حدود السوق العامة ومخططه الهندسي وتفاصيل الأبنية الملحقة به، والكشف عن كامل الأرضية بما فيها ما تبقى من البلاط الأرضي الأساسي.

ب- معرفة المخطط الهندسي وتفاصيل المحال التجارية الملحقة بالسوق الأرضية في الطابق العلوي والتي كانت تشرف على

الشارع الرئيس من الجهة الشمالية ويتقدمها رواق معمد، وكذلك المحال التجارية التي كانت تتقدم السوق الأرضية من الجهة الجنوبية وتشرف على السوق العامة والتي كان يتقدمها رواق معمد أيضاً.

ج- الكشف عن هوية المبنى الواقع على الطرف الشرقي من السوق الأرضية والمقابل للقسم الغربي من قوس النصر (باب القنديل) من الجهة الشمالية، وذلك من خلال دراسة الواقع التنظيمي للمدينة ومقارنة ذلك مع الواقع التنظيمي في كل من مدينة جرش وعمان وبعض المدن المشابهة، وكذلك من خلال الدراسة الدقيقة للموقع والمخطط الهندسي للبناء ؛ وكل هذه الأمور أكدت أن البناء كان عبارة عن المنتدى الاجتماعي للمدينة.

د- من خلال تنفيذ العديد من مواسم التنقيب والبحث الأثري في هذا الموقع الذي يتوسط المدينة وبعد دراسة المنهج العام المعماري والتنظيمي لهذا الحيز المكاني ودراسة طبوغرافية الموقع وغيرها من معطيات أثرية ؛ طرحت فرضية وجود ضلع ثاني مكمل للسوق الأرضية محوره شمال / جنوب يشرف على السوق العامة من الجهة الغربية وله المنهجية التنظيمية نفسها للسوق الأرضية، ولكن في هذه الحالة يكون موقعه تحت مسار الشارع المتجه من ساحة الترابيل إلى النبع المركزي. وإن عرضت هذه الفرضية شبه المؤكدة إلا أن التفاصيل المعمارية والهندسية لهذا القسم تبقى مجرد افتراض حتى تسمح الظروف بالكشف عن ذلك.

سابعاً- نفذت العديد من الحفريات في مواسم متعددة وأماكن متفرقة شملت المعسكر وقناة البزايز وعدة شوارع وأعطت نتائج مفيدة سوف نستعرضها في أبحاث مستقبلية أخرى.

٥- المدينة في عهد الأسقفية:

استمر المنهج التنظيمي في عهد الولاية حتى العهد الكنسي وعهد الأسقفية نسبياً، إلا أن ثمة عوامل جديدة ظهرت وأدت إلى تغيير أو تعديل أو حذف بعض المظاهر العمرانية والتنظيمية، إما على حساب المنهج التنظيمي والعمراني للأبنية أو المخطط العام للمدينة أو للوظائف الأساسية التي أشيدت تلك الأبنية من أجلها ومن هذه العوامل:

آ - انقلاب وتحول المفاهيم الثقافية والعقائدية في المنطقة وعلى مستوى الإمبراطورية، وإنهاء كامل المظاهر والمعتقدات الوثنية وحلول الديانة النصرانية الجديدة، ولذلك تحولت الأبنية وخاصة

ذات الوظائف التي لا تتناسب مع هذه العقيدة إلى مناهج جديدة. ومن هذه الأبنية على سبيل المثال المسارح الدائرية كافة (الأنفتياتر) والنصف دائرية والمعابد ودور العبادة وغيرها.

ب- الكوارث الطبيعية التي لحقت بالمدينة من جهة وكذلك معظم مدن المنطقة من جهةٍ أخرى، لذلك أدت هذه الكوارث إلى طمس معالم العديد من الأبنية القديمة، ولذلك أعيد استعمال عناصرها في الأبنية الجديدة بمظاهر ومخططات أخرى تختلف عن السابقة.

ومن هنا نجد أن التنظيم الجديد لم يعد يستند على المحاور القديمة لا بالنسبة إلى المخطط العام للمدينة ولا الأبنية الأخرى، وهذا الأمر كان بمثابة الأرضية الأساسية للمدينة الإسلامية. وسوف نستعرض ذلك في أبحاث مستقبلية أيضاً.

٦- المدينة الإسلامية:

بنيت هذه المدينة على أنقاض النسيج المعماري والمناهج التنظيمية القديمة بحيث شملت كامل الحيز العمراني السابق. وقد استمر هذا الأمر طيلة العهود الإسلامية وحتى نهاية العهد المملوكي. كما شهدت المدينة نقلة نوعية في التطور العمراني والإداري العسكري والتحصيني في العهود الفاطمية والسلجوقية والأيوبية حيث أعيدت للمدينة أهميتها القديمة كما كانت عليه الحال في العهد النبطي وعهد الولاية باستثناء العهد المملوكي والعثماني.

ومع نهاية العهد المملوكي وطيلة العهد العثماني هجرت المدينة وعاشت في ظلام استمر حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث أخذت تدب فيها الحياة من جديد. ومنذ مطلع القرن العشرين كانت معظم الأبنية الأثرية في المدينة في وضع الخراب والتهديم والطمس. ولم يسكن منها إلا جزء من القسم الأوسط والشرقي على حساب الأبنية القديمة.

ولهذا اقتضى الأمر إجراء دراسات مستفيضة من أجل المحافظة على كامل المظاهر التنظيمية والأبنية الأثرية بحيث لا تطغى مرحلة تاريخية على أخرى وتظهر المدينة كنموذج لحضارات ومراحل تاريخية متعددة، ونموذجاً هاماً يقتدي ويحتذي به العالم، ومن هنا تكمن أهمية بصرى كمدينة هامة من مدن التراث وأهمية العمل الأثري فيها.

و كانت هذه الركيزة الأولى في العمل الأثري منذ بداية الاستقلال وتأسيس المديرية العامة للآثار والمتاحف حيث أولت الدولة اهتمامها بذلك وكذلك منظمة اليونسكو.

وقد هيأت الظروف لهذا الأمر أناساً أكفاء قاموا بهذا العمل مثل المرحوم سليمان المقداد والمرحوم إبراهيم المقداد، كما يعود الفضل إلى وزارة الثقافة والمديرية العامة للآثار والمتاحف وجميع أهالي بصرى.

كما شاركت في العمل أيضاً البعثات الأثرية الفرنسية والألمانية والإيطالية والعديد من الباحثين، وتمَّ توثيق ذلك بدقة متناهية للأمانة والتاريخ.

آلية العمل في المسرح الأثري وشوارع المدينة المعمدة والأروقة:

وحتى لا يطول البحث في شرح التفاصيل الدقيقة لكل مبنى ومنهجه المعماري والهندسي نود هنا بيان آلية العمل في محورين فقط حيث أصبح من الواضح إجراء الدراسات التفصيلية والمنهجية واستخلاص النتائج المفيدة ومعرفة المنهجية المعمارية والهندسية والتكلفة المادية والفترات الزمنية لتنفيذ الأعمال فيها، كما أننا سوف نبحث ونستعرض بقية الأوابد كلما سنحت الفرصة في المستقبل.

ومن هذه المحاور: أولاً مبنى المسرح – ثانياً شوارع المدينة المعمدة والأروقة.

أولاً المسرح:

بني المسرح ضمن نسيج عمراني وتنظيمي شمل كامل الحيز التنظيمي للمدينة. وهذا المنهج التنظيمي كان ينطوي على توزيع الأبنية الخدمية ضمن الوظائف والتخصصات التي انسجمت مع واقع المدينة البشري والعسكري والإداري والتجاري.. إلخ.

وانطلق التنظيم من أقصى الشمال ببناء المعسكر والحي السكني العسكري، وفي الوسط المعابد والأبنية العامة والخدمية ومنها الحمامات، ومن ثم جنوباً أماكن اللهو والتسلية ومنها بناء المسرح الدائري (الأنفتياتر) والمسرح النصف دائري وقاعة الطرب (أوديون)، وفي أقصى الجنوب ميدان الفروسية. وكان المنهج التنظيمي يتوزع من خلال شبكة طرقات معمدة ومجملة بالأروقة والشرفات وواجهات الأبنية والمحلات التجارية، وشمل ذلك كامل الحيز العمراني للمدينة.

وقد نفذ العمل بأيدي محلية وبمنهج تنظيمي ومخطط معماري محلي وبعناصر معمارية محلية أيضاً، وقد ارتكز القسم الأعظم من عناصر البناء على الحجر البازلتي، وهذا الاختيار فرضه الواقع المحلي بسبب وفرة الصخر البازلتي في موقع البناء والمنطقة وعدم توفر الغابات والخشب، وقد تمَّ استعمال الحجر في جميع أقسام الأبنية من جدران وواجهات وأبواب ونوافذ ومقاعد..إلخ.

كمـا أن توفر الحجـر البازلتي بكميات كبيرة سمح بعدم التقتير في سماكة الجدران، ممـا يدعم ويضمـن صلابة وقـوة المباني ومقاومتها للعوامل الجوية. وعلى الرغم من قسوة الحجارة فقد ظهرت وجوهها بملمسٍ ناعم في جميـع الاستعمالات بسبب حذاقة ورشاقة النحاتـين والدقة في النحت، حيث جاءت بالشكل المطلوب وأعطت نتائج مثمرة وخاصةً في إطارات الأبواب والأقواس.

إلا أن قسـوة الحجـارة البازلتية كانت لهـا نتائج سلبيـة حدّت كثيراً مـن المغالاة في إظهـار الزينة في أماكـن متعددة وبارزة في المسرح لصعوبـة النحت والجهد والزمن الطويل، ومع ذلـك برزت قسمات كثيرة من الزينة النحتيـة المتمثلة في الأزهار والأوراد وعناقيد العنب وغصونها وأوراقها، إضافة إلى العديـد من الفواكـه الأخرى ونمنمات التيجان

وجاءت المهارات عالية في العمل وخاصةً في الأروقـة وزوايا المنصة وواجهات الألواح والمداخـل الداخليـة والخارجيـة للمسرح وتطابـق المدرجـات في مقاعـد المتفرجين (الكافيئا) مع الأدراج الشعاعية، وقد أظهر هذا التنفيـذ المعماري الاتـزان والصرامة والحيوية والترابط المتقن والمهارة العالية في العمل.

ومن خـلال الدراسـة الإحصائية التي أجريناهـا علـى عناصر البنـاء في المسرح جاءت النتائج بصـورة تقريبية على الشكل التالي :

آ- **واجهـة المنصـة**: بلـغ طـول الواجهة ٥٤،٥م، ومعـدل وسـط لطـول كل حجـر بنـاء بلغ ٤٥سم، وبذلك بلـغ عدد مداميك الواجهة مئـة مدماك بشـكلٍ أفقي، وجاء ارتفـاع الواجهة ٢٥م ÷ ٥٠سم معدل ارتفاع الحجر، وبذلـك يكون عـدد المداميك ٥٠ مدماكاً شاقولياً.

وتكون المحصلة :١٠٠حجر× ٥٠حجر = ٥٠٠٠ حجر استعمل في الواجهة يضاف لها خمسة آلاف حجـر استعملت في الواجهات الحاضنـة للألـواج والواجهـات الخلفية والملحقـات. وبذلك تكـون النتيجة ١٠٠٠٠ عشرة آلاف إجمالي عدد الحجارة المستعملة في الواجهة.

ب- الواجهات الخلفية للمنصة وملحقاتها: وهي الواجهـات المشرفة على الردهـات الجانبيـة الشرقيـة والغربيـة، وأروقـة الكواليـس الداخليـة والواجهات الخلفية لأجنحة المنصة وغيرها مع العلم أن ارتفاعها ثابـت في كل الجهات وهو ارتفاع المنصة ٢٥م، فتكون المحصلة حسب طول كل قسم من هذه الأقسام على الشكل التالي:

٢٠+١٤+٥٤+٥٤+٥٤+١٤+٢٠ = ٢٣٠م الطول الكلي للواجهات.

٢٣٠م ÷٤٥ سم وهي الأبعاد المتوسطة لكل حجر = ٥١١ حجر لكل مدماك أفقي

٥١١×٥٤ = ٢٧٦٠٠ إجمالي عدد الحجارة.

ج-الواجهات الخلفية لمقاعد المتفرجين:

طول نصف المحيط ١٣٥م ÷ ٢ = ٦٧،٥م على اعتبار أن نصف جدار الواجهة الخلفية مفرغ بالأقواس والنصف الأخر عبارة عن ركائز وأقواس ومداخل بينها. وبذلك يصبح لدينا طول الواجهة المبنية ٦٧،٥م ÷ ٤٥سم الطول المتوسط للحجر = ١٥٠ حجر لكل مدماك أفقي.

وبما أن ارتفاع الواجهة ٢٦،٦٨ م ÷ ٤٥سم = ١٥٠ حجر لكل مدماك أفقي.

٦٨،٢٦م ÷ ٤٥سم = ٥٩ مدماك للبناء بشكل شاقولي.

٥٩حجراً × ١٥٠حجراً= ٨٨٩٣ إجمالي عدد الحجارة.

د- ملحقات أماكن المتفرجين: وهي الجدران الحاضنة للمداخل والأدراج والأروقة فبلغ عدد الحجارة ٦٠٠٠حجر + ٣٠٠٠حجر استعملت في الأدراج الداخلية الموزعة على أقسام المسرح + ٦٠٠٠حجر استعملت لمقاعد المتفرجين وبذلك تكون النتيجة :

٦٠٠٠+ ٣٠٠٠+ ٦٠٠٠= ١٥٠٠٠حجر إجمالي عدد الحجارة.

المجموع الكلي للحجارة المنحوتة والمستعملة في بناء المسرح جاءت على الشكل التالي :

٢٠٠٠٠ + ٢٧٦٠٠٠ + ٨٨٩٣ + ١٥٠٠٠= ١٢٥٤٩٣ إجمالي عدد الحجارة المنحوتة بزوايا قائمة وواجهات ملساء وأضلاع مستقيمة.

وهذا الكم الكبير من الحجارة يحتاج إلى ١٢٥٤٩٣ يوم عمل لعامل نحات محترف يستطيع أن ينهي نحت حجر من الحجارة. مع الأخذ بعين الاعتبار استخدام عدد من الحجارة يماثل هذا العدد تقريباً تمَّ استعمالها للحشو وملء الفراغات والتأسيسات.

وبذلك يكون عدد الكتل الحجرية المستعملة في بناء المسرح ٢٥٠٠٠٠ مئتان وخمسون ألف حجر، أي ربع مليون حجر.

وإذا اعتبرنا أيضاً أن وزن كل حجر مئة كيلو غرام فيكون وزن كتلة بناء المسرح خمسة وعشرون مليون كغ أي ٢٥ ألف طن .

اليد العاملة المستخدمة في بناء المسرح:

بما أن عدد الحجارة المستعملة في البناء بلغت ١٢٥٤٩٣ حجر ÷ ٣٦٠ يوم وهي عدد

أيـام السنة = ٣٤٨،٦ سنة عمل، وهذا يعني أن العمـل يحتاج إلى نحـات واحد محترف يستطيع أن ينهـي نحت حجر من الحجارة المستخدمـة في كل يـوم ؛ بمعنـى أن الأمر يتطلـب ٣٤٩ نحات يعمـل بشكل متواصل يومياً لمدة ٣٤٩ يوم.

يضـاف لذلك أن العمـل كان يستوجب وجـود نحاتـين ذوي كفـاءة عاليـة لنحت التيجـان والزخـارف المعماريـة وإطارات الأبواب والكـوات والمحاريـب، إضافة إلى البنائـين المهـرة ومساعديهـم والمهندسين والعمال العاديين وعمال الحمل وعمال قطع الحجارة من المقالع وعمال الجلب وغيرها

الأدوات المستعملـة في العمـل وعناصر البناء:

استعمـل في بنـاء المسـرح إضافـة إلى الحجر البازلتي الحجـر الكلسي للأعمدة والتيجان المستعملة في تزيين واجهة المنصة، وكذلك الرخام لإكساء الواجهات، والخشب لتسقيف الواجهة والحديد للسواعد والحبال للشد والمنسوجات الصوفية والشعرية لخيم السطـح، وكذلك المعـادن الثمينة كالذهب والفضـة والنحاس والعـاج والزجاج لصنع التماثيل والفسيفساء والديكورات الثمينة.

النفقات:

مـن الصعب جداً تحديد الكلفة والمبالغ التي أنفقت على البناء بصورة دقيقة، ولكن من الممكن أخذ فكرة عن ذلك من خلال بناء مسرح مستند متوسط المقاييس بني في القرن الثاني للميلاد في شمال أفريقيا، فقد بلغت التكلفة مئـة ألف سيسـترز (sesterces) وهي وحدة النقد الإمبراطوري، وهذا المبلغ يعادل مئـة ألف فرنك ذهبـي، أي عشرين مليون فرنك فرنسي عام ١٩٥٧م.

وعلـى اعتبـار أن مسرح بصـرى يعتبر مـن المسارح الكبرى، كما أنـه ليس بالمسرح المستند وإنما من المسارح المبنية من القاعدة إلى القمـة، فهذا يعني أن تكلفة البناء كانت تساوي ثلاثة أضعاف هذا المبلغ؛ أي بحدود خمسين مليون فرنك فرنسي.

ومـن المؤكد أن هـذه النفقـات لم تكن مصادرها من الحكومة الإمبراطورية وإنما من جهات محلية متعـددة منها المساهمات الكثيرة التـي كانت تشترك فيهـا النقابات المهنيـة والتجار والأثرياء في المجتمع، وهذا ما أكدت عليه النصوص الكتابية في المدينة وفي داخـل المسرح ذاته وفوق المقاعد أيضاً، حيث كانت كل جهة تشارك في البناء تحجز حيزاً من المقاعد.

ثانياً الشوارع المعمدة والأروقة:

تمَّ التأكد من وجود شبكة شوارع رئيسة وطرقــات فرعية موزعة علــى كامل أحياء المدينــة والحيــز التنظيمي فيهــا، وقد بلغ عدد الشوارع الرئيسة المعمدة وذات الأروقة ستــة شوارع ؛ ثلاثة منهــا تأخذ اتجاه شرق غرب بطول ألفين متر تقريباً لكل واحد يبدأ من بوابة عنــد السور الغربي وينتهي ببوابة أخــرى عند السور الشرقــي، وثلاثة شوارع معمدة أيضاً اتجــاه شمال جنوب بطول كل واحد ألف وخمسمئة متر وتبدأ ببوابة عند الســور الشمالي وتنتهي ببوابــة عند السور الجنوبي، ولهــا نفس مواصفــات الشوارع الأخــرى، ناهيك عــن الشــوارع الفرعية والثانوية الأخرى.

المنهج التنظيمي للشارع يكون على الشكل التالي:

يتوســط الشــارع مسلــك العربــات، أو(الشوصــة) بعرض ٦م، ثم رصيف يحيط به مــن كل جهة بعرض مــتر واحد وارتفاع ٢٠سم، ثم يليه حيز مكاني بعرض متر واحد في مقدمة الرصيف العلوي أو مقدمة الرواق بارتفاع ٣٠سم مخصص لركائز الأعمدة ثم أرضية الرواق بعرض ستة أمتار من كل جهة ثــم واجهات الحوانيت. وبذلك يكون عرض الشارع ٢٢م بشكل كامل.

وقــد بلغ عدد الشوارع كمــا ذكرنا ستة شوارع، ثلاثة منها بطول ألفين متر، وبطول إجمالي ستة آلاف متر، وكذلك ثلاثة شوارع عرضيــة متقاطعــة معها بطــول كل واحد ألــف وخمسمئة متر وبطــول إجمالي أربعة آلاف وخمسمئــة متر، والمجموع تسعة آلاف متر. وجميــع هذه الشــوارع مبلطة ببلاط حجر بازلتي تــتراوح أبعاده بين ٥٠×٤٥سم أو ٥٠×٤٠ســم أو ٤٥×٦٠سم، أي بمقياس متوسط ٥٠ × ٥٠سم.

ويحيــط بهــذه الشوارع أروقــة معمدة بأعمــدة تزين الواجهات مع ملحقاتها. وقد شمل كل عمود ركيزة رباعية الشكل بمقاييس متوسطة بلغت متراً واحــداً تقريباً وارتفاع ٣٠سم وأحيانــاً ٩٠×٩٠×٣٠سم، ثم قاعدة العمود المستديــرة بقطر يتراوح بين ٦٠ إلى ٧٠سم وارتفاع ٤٠سم، ومن ثم طبلة العمود المكونة من ثلاث قطع بقطر يتراوح بين ٦٠سم في الأسفل و ٥٠سم في الأعلى وارتفاع خمسة أمتار. يليــه في الأعلى تاج بقطر سفلي بلغ ٥٠سم وارتفــاع ٥٠سم. وفوق هذه الأعمدة تبنى طبقــة ثلاثية الأقسام (خرجة السطح – أو سطــح التعميد) مكونــة من الكورنيش والإفريز والأرشتراف بارتفاع ١٠٥سم بحيث تأخــذ كل طبقة ٣٥سم ارتفاعاً. أما المسافة الفاصلة بين كل عمود والآخر فكانت تتراوح بين مترين ومترين ونصف.

حساب عدد بلاط الشارع:

آ- بلاط الشوصة: بما أن الطول الكلي للشوارع هو ٩٠٠٠م× ٦م عرض المسلك الأوسط لكل شارع فتكون المحصلة ٥٤٠٠٠م طول× ٥٠سم طول بلاطة الشارع المتوسطة= ٢٧٠٠٠ بلاطة استخدمت في ذلك.

ب- بلاط الرصيف السفلي الأيمن والأيسر: بلغ عرض الرصيف متراً واحداً وطول كل بلاطة يساوي عرض الرصيف أيضاً أي ١م، كما أن عرضها المتوسط ٥٠ سم، وبذلك تكون النتيجة:

٩٠٠٠م× ٢رصيف = ١٨٠٠٠× ٥٠سم= ٩٠٠٠بلاطة استعملت في الأرصفة السفلى.

ج- بلاط مقدمة الرصيف العلوي الأيمن والأيسر: ٩٠٠٠م × ٢رصيف = ١٨٠٠٠ × ٥٠ سم = ٩٠٠٠ بلاطة استعملت في الأرصفة السفلى.

د - بلاط أرضية الأروقة الأيمن والأيسر:٩٠٠٠ م طول الشوارع ×٢ رواق =١٨٠٠٠× ١٢ عرض أرضية الرواقين (٦+٦) = ٢١٦٠٠٠ × ٥٠ سم عرض البلاطة = ١٠٨٠٠٠حجر بلاط. وبذلك يكون مجموع البلاط المستعمل في أرضية شوارع المدينة المعمدة مع الأروقة على الشكل التالي: ٢٧٠٠٠+ ٩٠٠٠+ ٩٠٠٠+ ١٠٨٠٠٠ = ١٥٣٠٠٠بلاطة.

حساب عدد الأعمدة وأبعادها :

بلغ طول الشوارع ٩٠٠٠م × ٢رواق= ١٨٠٠٠م طول الأروقة.

وبلغت المسافة المتوسطة بين كل عمود والآخر ٢،٢٥م. وبذلك يكون عدد الأعمدة المستخدمة في الأروقة على الشكل التالي: ١٨٠٠٠÷ ٢،٢٥= ٨٠٠٠ عمود.

أما بالنسبة إلى الطول الكامل للأعمدة فيكون على الشكل التالي:

بما أن ارتفاع كل عمود بدون الملحقات من ركيزة وقاعدة وتاج وغيرها بلغ خمسة أمتار، وعدد الأعمدة المستعملة بلغ ٨٠٠٠ عمود فتكون النتيجة ٨٠٠٠× ٥ = ٤٠٠٠٠م الطول الكامل للأعمدة، أي ٤٠ كم، وهي نصف المسافة التي تفصل مدينة دمشق عن مدينة بصرى. يضاف لهذا العدد ثمانية آلاف ركيزة عمود + ثمانية آلاف قاعدة عمود + ثمانية آلاف تاج عمود. أي ٢٤ ألف كتلة تزيينية تتبع الأعمدة.

حساب عناصر مقدمة السطح المعمد (الخرجة)

آ- العناصر الأمامية (عناصر سطح التعميد) الكورنيش والإفريز والأرشتراف:

١- الكورنيش: وهو إطار تزييني محدب إلى الأمام ومزين بمنحوتات وزخارف مزينة

بالأوراد والزهور وأغصانها وأوراقها وكذلك الكرمة وعناقيدها والفواكه بأغصانها وأوراقها على شكل جدلات وضفائر. وقد تناسب طوله مع طول واجهات الأروقة المحيطة بالشوارع والتي بلغت بمجملها ثمانية عشر ألف متر.

٢- الإفريز وهو أيضاً إطار تزييني مسطح ومزين بزخارف هندسية ونباتية تتوسطها تقسيمات رباعية نحتت في داخلها أشكال بشرية تمثل الآلهة العربية وشخصيات رمزية متنوعة. وقد تناسب طوله مع طول واجهات الأروقة المحيطة بالشوارع والتي بلغت بمجملها ثمانية عشر ألف متر.

٣- الأرشتراف وهو إطار تزييني محدب إلى الأمام ومزين بمنحوتات تشابه منحوتات الكورنيش. وقد تناسب طوله مع طول واجهات الأروقة المحيطة بالشوارع والتي بلغت بمجملها ثمانية عشر ألف متر.

وبذلك يكون طول الإطار التزييني (الخرجة) أو مقدمة سطح الرواق على الشكل التالي :

١٨٠٠٠م × ٣طبقات = ٥٤٠٠٠م.

ب- بلاط سقف الأروقة: ويأخذ مسافات الشوارع نفسها ولكن بشكل مضاعف على اعتبار أن كل شارع يحيط به رواق أيمن، وآخر أيسر أي ٩٠٠٠×٢= ١٨٠٠٠م طول بعرض ٦م.

إلا أن بلاط السقف يختلف عن بلاط الأرضيات، بمعنى أن عرض الرواق يكون مسقوفاً بعرائض على شكل بلاط، وكل بلاطة واحدة يتجاوز طولها الخمسة أمتار بعرض حوالي ٥٠سم، ويرتكز كل رأس بلاطة على طرف متقدم بحوالي ٥٠سم من كل جهة، وبذلك يبلغ الطول الكامل لبلاط أسقف الأروقة على الشكل التالي :

١٨٠٠٠× ٦ = ١٠٨٠٠٠م طول بعرض ٥٠سم. أي ١٠٨كم.

ب- عناصر واجهات المحال التجارية:

تميزت واجهات المحال التجارية في مدينة بصرى بجماليتها وغناها بالأبواب والنوافذ والمنحوتات التي تحيط بها والغنية بالديكورات والزينات على شكل إطارات مستقيمة متعددة تكون مسطحة أو محدبة أو مزينة بعناصر نباتية أو متداخلة بين المسطح والمحدب بوساطة حقول عمودية في الجوانب، أما السواكف فتكون أكثر غنى من الإطارات الجانبية، أو موحدة في الأسلوب.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأبواب حيث تميزت المقاييس بالرتابة والمساواة بين بعضها البعض من جهة وكذلك المساواة والتناسب بينها وبين واجهة كل محل والفتحات المناظرة لها بين الأعمدة المتقدمة. كما أن هذا الأمر

كان يختلف في الصغر والكبر والجمالية حسب موقعها في المدينة.

وعلى هذا الأساس فقد بلغ عرض كل محل وبشكل متوسط خمسة أمتار، وفي منتصف هذه المسافة يكون عرض الباب. وتوزع المسافة على الشكل التالي: ١٥٠سم + ٢م + ١٥٠سم. وهكذا، مع الأخذ بعين الاعتبار سماكات الجدران التي تفصل بين كل محل والآخر، وكذلك مداخل المنازل، أو الأبنية العامة وغيرها.

الوسائل والأدوات التي كانت تستعمل في تنفيذ الأعمال:

تمَّ استعمال كامل المعدات والأدوات والوسائل التي سهلت للفنيين والعمال بإشادة مثل هذه الأبنية الضخمة، وعلى سبيل المثال العرائض والألواح الخشبية، والحبال التي كانت تنسج من الصوف والشعر والقنب والصفائح والعوارض والقضبان الحديدية بأقطار ومقاييس مختلفة. وتم استعمال البكرات الحديدية مع الحبال في رفع الكتل الحجرية الصغيرة أو متوسطة الحجم بعد عمل السقائل التي كان يتم التكيف بارتفاعها حسب العلو المطلوب.

ولكن عندما كان الأمر يتطلب رفع الكتل الحجرية الكبيرة كان المنهج المتبع بناء أقواس متكررة ومتصاعدة في الارتفاع وزيادة الأقطار بما يتناسب مع الارتفاع المطلوب ومن ثم فرش الأرضية العليا بطبقة مخلوطة من العوريات والأتربة بحيث يصبح على شكل منحدر مستقيم (عرف محلياً باسم المقرص) وبهذه الطريقة يتم نقل هذه الكتل المعمارية بطريقة الدحرجة على المنحدر أو فوق عوارض خشبية أو حديدية أو عربات مختلفة وإيصال الحجر إلى المكان المطلوب بسهولة مطلقة.

وقد استعملت هذه الطرق أيضاً منذ الخمسينيات أثناء عمليات الكشف والترميم عن المسرح والقلعة وباقي الأبنية الأثرية في مدينة بصرى الأثرية وباقي الأبنية الأثرية في سورية.

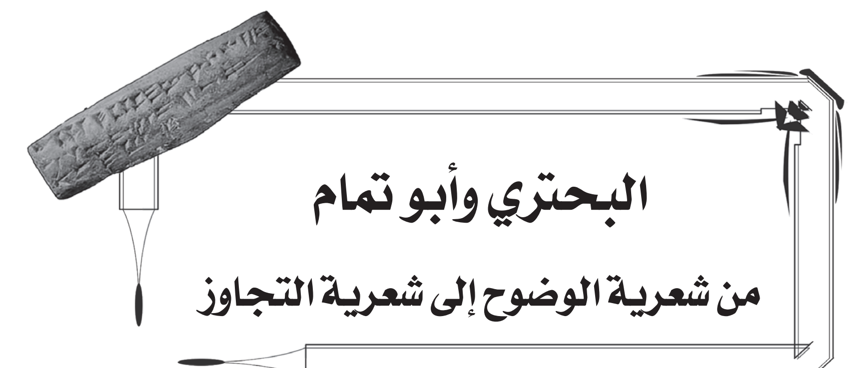
وفي الختام يبقى الشيء الأهم من كل ما تقدم وهو الإنسان العربي السوري، وقد ثبت بالبرهان القاطع ومن خلال ما تمَّ استعراضه من عمل في مدينة بصرى أو المدن الأخرى في بلاد الشام والبلاد العربية أن هذا الإنسان العربي ذا الجذور الحضارية المتعمقة في القدم كان وسيبقى قادراً على إعادة بناء مثل هذه الأبنية العملاقة ومتابعة مسيرته الحضارية كما بدأت مع أجداده.

بعض المصادر والمراجع :

١- عبد الحق (سليم عادل) مسرح وقلعة بصرى. الحولية الأثرية السورية – دمشق ١٩٦٤
٢- مقداد (خليل) حوران عبر التاريخ، دمشق ١٩٩٦.
٣- مقداد (خليل) مسرح بصرى الأثري – سورية، دمشق ٢٠٠١.
٤- مقداد (خليل) المسارح في جنوب سورية، الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق ١٩٩٧.
5- MUKDAD Khalil. L,urbanisme de Bosra a l,époque romaine these de doctora de 3e cycle. Universite de Paris I. 1984
6- MUKDAD Khalil. Le théâtre antique de Bosra (Syrie) Damas 2001
7- MOUGDAD. S. Le role de la ville de Bosra dans l,histoire de la Jordanie aus époques Nabateenne et Romain SHAJ. 1.
8- MOUGDAD. S. Bosra. Apercu sur l,urbanization de la ville a l,époque Romaine. FR. CIX. CXII. 1976.
9- DENTZER. J. M. Sondages pres de l,arc Nabateen de Bosra. in
10- Berytus 32,1984.
11- DENTZER. J. M. Les Sondages pres de l,arc Nabateen et l,urbanisme de Bosra in CRAI. 1986.
12- DENTZER. J. M. Al Mukdad ,r. Le developpement urbaine Bosra. AAAS. 1994.
13- DENTZER. J. M. Al Mukdad ,r. Les fouilles franco – syrienne. AAAS 1987.
14- DENTZER. J. M. Le Blanc J. L,espace de la Bosra. AAAS 2001.







البحتري وأبو تمام
من شعرية الوضوح إلى شعرية التجاوز

د. محمد يقوته نور ❀

ملخّص المقال:

يشــكّل البحتريّ وأبو تمام موقفين متباينــين من التراث الشعريّ العربيّ ومــن الثّراء الثقافيّ والحضاريّ في العصر العبّاسي. وعلى هذا الأساس، عُدّ البحتريّ –عند النقاد القدامى– ممثل عمود الشعر العربيّ أو شعرية الوضوح التي تقوم على قــرب الدلالة والاعتدال والصحّة والسّلامة، وبذلك تحصل اللذة من الشعر. فيمــا مثل أبو تمام الشاعر الخارج عن العمود الشعريّ أو شعريــة التجاوز، حين شغف بطلب البديع، وأقحم الفلسفة في الشعر، وعمل

❀ أستاذ في جامعة مستغانم (الجزائر).

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

على إثراء اللّغة الشعريــة وتعميق التجربة الجمالية عند العرب.

لقد اصطدم الإبــداع الشعريّ المحدث في العصــر العباسيّ بواقــع حضور التراث الشعــريّ العربيّ ممثلا في الشعر الجاهلي، وهيمنتــه على الذوق العام. و«يمكن أن نعدّ المبادئ الأساسية التي جاء بها مفهوم «عمود الشعر» بمثابة منهج جمــاليّ متكامل يرقى إلى مرتبــة «المانيفستــو» أو البيــان الأدبيّ للشعرية العربية الكلاسيكية آنذاك»[١].

من هنــا، كان على الشاعــر المحدث – عربيّــا كان أم غــير عربــيّ– أن يوفّق بين نزوعه إلى التجديــد الشعريّ، وبين ضرورة الوفــاء للتقاليد الشعريــة العربية الموروثة، إذا أراد أن يحظى برضى النقاد المحافظين وجمهور الشعر من الخاصّة والعامة.

وقد مثّل الاحتفال بفنون البديع والإكثار منها في الصّياغة الشعرية أحد أهم أشكال التجديــد عند الشعــراء المحدثين. وأصبح مصطلح «البديع» علامة فارقة بين شعريتين، وبين عصريــن من الشعــر العربي القديم، وهما: شعــر القدمــاء، وشعــر المحدثين. وطُرحــت قضايا فلسفيــة وجمالية هامّة، مثل: «القدم والحداثة»، و«الطّبع والصنعة»، و«الشعر والفلسفــة»، و«الشعر والخطابة»، و«الوضوح والغموضــ»، من خلال المعالجة النقدية لتلــك الخصومة الفنّية التي نشبت بين أنصار شاعريــن محدثين كبيرين، هما: أبو تمــام والبحتري. ويعدّ كتــاب «الموازنة بــين شعر أبي تمام والبحــتري» للحسن بن بشر الآمــدي (ت٣٧١هـ) أهمّ مصدر نقديّ رائد، تناول تلــك القضايا النقدية الشائكة التــي شغلت الشعراء والنقاد ومتلقي الشعر آنذاك.

وينطلق الآمديّ – في كتابه «الموازنة»– من قناعة قد قرّت لديه، مفادها أنّ الشّاعرين أبــا تمّام حبيب بن أوس الطّائيّ (ت٢٣١هـ) وأبا عبادة الوليد بن عبيد البحتريّ الطّائيّ (ت٢٨٤هـ) متمايزان لا متساويان، «وإن كان كثير من النّاس قد جعلهما طبقة، وذهب إلى المساواة بينهما، وإنّهما لمختلفان»[٢]. ومدار هذا الاختلاف وهــذا التّفاضل ينحو – في رأيه– لصالح البحتريّ، لأنّه «أعرابيّ الشّعر، مطبوع، وعلــى مذهب الأوائــل، وما فارق عمود الشّعر المعروف، وكان يتجنّب التّعقيد ومستكــره الألفــاظ ووحشيّ الــكلام»[٣]. وعلــى أساس من هذه الصّفات، كان أنصار البحتري «هم الكتّاب والأعــراب والشّعراء المطبوعون وأهــل البلاغة»[٤]، الّذين تعوّدوا مطبوع الشّعــر والمعاني المكشوفة الّتي تفهم دون عناء، فتحصل اللّذّة من الشّعر.

أمّــا أبــو تمّام الطّائي فقــد ترك – في

رأي الآمديّ- طريقة الأوائل، واحتذى حذو الشّاعـر مسلم بـن الوليـد (ت٢٠٨هـ) في الاحتفال بالبديع، وبالغ في الشّغف بألوانه، حتّى صـار فيه نسيج وحـده، فانحطّ عن درجة مسلم، لأنّـه «شديد التكلّف، صاحب صنعة، ويستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعـار الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولّدة، فهو بأن يكون في حيّز مسلم بن الوليد ومن حـذا حذوه أحقّ وأشبـه، وعلى أنّي لا أجد من أقرنه بـه، لأنّه ينحطّ عن درجة مسلم، لسلامـة شعر مسلم وحسـن سبكه وصحّة معانيـه»[٥]. ويبـدو أنّ أبا تمّـام قد أفرط في طلب البديـع وتصنّعه، ممّا أدّى إلى دقّة معانيـه وغموضها، فاستحقّ - بذلك- هذا الحكـم القاسي مـن ناقد كبـير كالآمديّ، حيث جعلـه دون البحـتري ودون مسلم بن الوليـد، حين وضعه في تضـادّ مذهبيّ مع عمود الشّعر أوطريقة العرب في الشعر؛ إذ إنّ «دقيـق المعاني موجـود في كلّ أمّة، وفي كلّ لغـة، وليس الشّعر عند أهل العلم به إلاّ حسن التأتّي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضـع الألفـاظ في مواضعهـا، وأن يورَد المعنى باللّفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتّمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه؛ فإنّ الكلام لا يكتسـي البهاء والرّونـق إلاّ إذا كان بهذا الوصف، وتلك طريقة البحتريّ»[٦].

إذاً، لقـد أصبـح الوليـد بـن عبيـد الطّائي الشّاعر الحاضـر في عمود الشّعر، والمنتمـي إليه، والممثل لـه، وبات حبيب بن أوس الطّائـيّ الشّاعر الغائـب أو المغيّب، واللاّمنتمي، والخارج عن هذا العمود. ومن قبل الآمديّ، تصدّى لأبي تمّام معاصره ابن الأعرابـيّ (ت٢٣١هــ)، فأخرجه من زمرة شعراء العرب، وأزرى بشعره، حين قال: «إن كان هذا شعرا، فكلام العرب باطل»[٧].

ومن الواضح أن الآمديّ لا يستنكف عن ربط قواعد عمود الشّعـر بطريقة الشّاعر البحتريّ ومذهبه الفنّـيّ في نبذ المنطق في الشّعر، وإيثاره انكشـاف المعاني، وميله إلى اللّمح والإشارة، بـدل التّطويل والتّفصيل. كمـا أنّه لا يرى غضاضـة، في تأييد موقفه النّقديّ من شعر أبي تمّام، بالاستشهاد بتلك الأبيـات المشهورة الّتي أبـان فيها البحتريّ عن مذهبه الشّعريّ، حيث قال[٨]:

كَلـفْـتُـمونَـا حُـدُودَ مَـنطقـكُمْ
في الشّعرِ يُلْغَى عَن صِدقِهِ كَذِبُهْ
ولَمْ يَكنْ ذُو الـقُـرُوح يَلْـهَـجُ بالْـ
ـمَنطـقِ مَـا نَـوْعُـهُ ومـا سَببُـهْ؟
وَالـشّـعْـرُ لَمـحٌ تكـفـي إشـارتُـهُ
وليس بِـالـهَـذْرِ طُـوِّلَـتْ خُـطَـبُـهْ

فالبحـــتري لم يرضـــ لنفسه أن يكـــون أسير مذهب أبي تمّام الشّاعر الكبير، فعبّر عن ضيقه بإقحـــام المنطق في الشّعر، وعن كفـــره بـــه، وأعلن عـــن قناعته بالسّـــير علـــى نهـــج الشّاعـــر الجاهلـــيّ الكبـــير ذي القـــروح امرئ القيســـ بن حجر الكندي (ت٥٦٠م)، والّـــذي لا يـــزال شعـــره يحظى - عنـــد الشّعراء المحدثين- بالتّقديم والاحتذاء، دون أن يكـــون قد عرف المنطق ولا ماهيتـــه، أو الفلسفـــة ومقولاتها. فلا يشترط في جودة الشّعر بناؤه على صدق القضايا الّتـــي يتناولها الشّاعر، وقياسها بمقدّمـــات المنطـــق واستدلالاتـــه. فالشّعر «يكفي فيه التّخييـــل، والذّهاب بالنّفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل»[٩]. كما أنّ طبيعة الشّعر - في رأي البحتريّ- تقتضي اختزال التّجربة أو الموقـــف الوجدانيّ، وإجماله في لمحة خاطفة تبوح بمكنون نفس الشّاعر، في غـــير حاجة إلى طـــول الاستقصاء للمعاني، وتشقيق التّفاصيل المكـــرورة المملّة، وإطالة القصائد في هذر زائد يذهب بمتعة الشّعر، ويحوّلـــه إلى خطبـــة تعتمـــد علـــى الإقناع



والمباشـــرة والتّقرير. وقـــد أوضح البحتريّ نهجه الخاصّ في تعاطي البديع، فقال[١٠]:

في نظامٍ مِـنَ البـلاغَـةِ مَـا شَكْـ
ـكَ امْـــرُؤٌ أنّـــهُ نـظـامٌ فَـريـدِ

وبـديـعٌ كـأنّـه الـزّهـرُ الضّـا
حكُ في رونَـقِ الرّبيعِ الجَديـدِ

مُشرقٌ في جوانبِ السّمعِ ما يُخْـ
ـلِقُـهُ عَـوْدُه عَلى المُسْتَعِيـدِ

حُـجَـجٌ تُـخْـرِسُ الألَـدَّ بـألفَـا
ظٍ فُـرادَى كـالجوهَـرِ المَعـدُودِ

ومَعَانٍ لو فَصّلتْها القَوافِ
هَجّنَتْ شعرَ جَرْوَلٍ ولَبِيدِ
حُزْنَ مُستَعْمَلَ الكلام اختيَارًا
وتَجَنَّبْنَ ظُلمةَ التَّعْقيدِ
وَرَكبْنَ اللَّفظَ القريبَ فَأدرَكْ
نَ بِه غَايةَ المُرادِ البَعيدِ

فالبديع المشرق المنمنم والموقع - عنده- هو تلك الألفاظ المستعملة السّهلة والعذبة والسّليمة من التكلّف، مع صحّة السّبك وحسن التّأليف، «ممّا يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا، حتّى كأنّه قد أحدث فيه غرابة لم تكن، وزيادة لم تعهد»[١١]. وهذا المعنى المكشوف والمستغرب في آن واحد - على رأي الآمديّ- مع القوافي المحكمة غير المقحمة، هو الكفيل باستمالة متذوّقي الشّعر القديم إلى تفضيل شعر البحتريّ على أشعار الشّاعرين المخضرمين الكبيرين: لبيد بن ربيعة العامريّ والحطيئة جرول بن أوس العبسيّ.

فالبحتري لا يبتغي كدّ ذهنه وذهن المتلقّي سعيا إلى المعاني الدّقيقة والغامضة، بل هو مهموم - أوّلا وأخيرا- بإمتاع حواسّ هذا المتلقّي، بدءًا بسمعه؛ لذا، فهو يختار ألفاظه بعناية البستانيّ الّذي يحسن تنسيق أوضاع ألوان أزهاره في حديقته، ليحصل على ذلك التّناغم الدّاخليّ عبر تآلف الحروف والكلمات، والّذي ينسجم مع الموسيقى الخارجيّة في

موسيقيّة رائعة. وحينئذ، يصدق فيه ما قال ابن الأثير (ت٦٣٧هـ): «وأراد أن يشعر فغنّى»[١٢].

والبحتريّ، في سينيته «في وصف إيوان كسرى»، أسند توفير تلك الموسيقية الخاصّة التي ميّزت شعره إلى رنين «السين» الشجيّ المنبعث من حنايا الأبيات: من حرف «السين» المتكرّر في القافية، ومن إيقاع «السين» داخل الأبيات، لإشاعة ذلك الجوّ الحزين في نصّه؛ فهو «حريص على أن يكون الجرس الصوتيّ لألفاظه معبّرا عن معانيه وموحيا بها»(١٣). يصوّر الوليد بن عبيد مأساته في العراق، فيقول[١٤]:

صُنْتُ نَفسي عمّا يُدَنِّس نَفسي
وَترَفَّعتُ عَن جَدَا كُلِّ جِبْسِ
وَتَمَاسكتُ حِين زَعْزَعني الدَّهـ
ـرُ الْتِماسا منه لِتَعْسِي وَنُكْسِي
بُلَغٌ مِن صُبَابةِ العَيش عِندي
طَفَّفَتها الأيَّامُ تَطفيفَ بَخسِ
وَكَأنَّ الزَّمَانَ أصبحَ مَحمُو
لاً هَواهُ مَعَ الأخَسِّ الأخَسِّ
واشْترَائي العِراقَ خُطّةُ غَبْنٍ
بَعد بَيعِي الشَّامَ بَيعةَ وَكسِ

هكذا، استطاع البحتريّ أن يسحر النقّاد القدامى - المحافظين منهم أو المتفتّحين على الجديد- بموسيقيّة شعره، وأن يقنعهم بمذهبه الشعريّ الطّريف، والقائم على أخذ عفو المعاني، مع الاحتفال الشّديد بتركيب الألفاظ تركيبا سحريا مؤثّرا، يأخذ بألباب السّامعين، كلّما استعادوا الاستماع إلى شعره؛ ولأجل ذلك، وصف عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) قصائده الجياد بأنّها «الواصلة إلى القلوب من غير فكر»[١٥].

ومع السّهولة والوضوح والسّيرورة التي اتّسم بها شعر البحتريّ، فإنّه لم يسلم من النّقد والإعراض عن شعره من بعض معاصريه، في قليل من الأحيان، فردّ عليهم في ضيق شديد وسخرية لاذعة قاسية، متّهما إيّاهم ببلادة الحسّ والغفلة، والجهل بصنعة الشّعر ومعاناة الشاعر، حيث قال[١٦]:

أَهُزُّ بالشِّعْرِ أقوامًا ذَوِي وَسَنٍ
في الجَهلِ لَوضُربُوا بالسَّيفِ ما شَعَرُوا
عَلَيَّ نَحتُ القوافي مِنْ مَقاطعها
وَمَا عَليَّ لَهُمْ أن تَفْهَم البَقَرُ

فهذا النّقد الّذي رفضه البحتري رفضا حاسما، لا يعدّ شيئا مذكورا بالمقارنة مع النّقد الّذي لا هوادة فيه والأحكام العامة التي كانت تزري بشاعرية أبي تمّام، لغرابة مذهبه وغموض شعره، في زعم اللّغويين والنقّاد المحافظين، ممّا كان يحوجهم إلى كدّ الذّهن لفهم معانيه. وقد عبّر أبو العميثل الشاعر الأعرابيّ عن رفضه لغموض معاني أبي تمّام وبعد استعاراته، فقال له: «لم لا تقول من الشعر ما يفهم؟ فردّ عليه على البديهة: وأنت، لم لا تفهم من الشّعر ما يقال؟ »[١٧].

والظّاهر - من خلال هذا الردّ المفحّم- أنّ حبيبا الطّائي كان مقتنعا تمام الاقتناع بخصوصية المذهب الشعري الّذي اختاره لنفسه، لذا لم يكترث كثيرا لهذه الأصوات الطاعنة في مجمل شعره؛ إذ كان يعلم - في قرارة نفسه- أنّه سيجد التقدير والتشجيع من لدن الصّفوة المثقّفة ثقافة عصرية عميقة في الحواضر العربية، وهم «أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة، ومن يميل إلى التدقيق وفلسفيّ الكلام»[١٨].

فأبو تمام «لم يراهن على قارئ مطمئنّ لما يقرأه، بل ذهب إلى قارئ يقف أمام النصّ محمّلا بالدّهشة وبالسؤال. ومسألة «الفهم»، التي طرحت في شعر أبي تمام، لم تكن إلاّ إحدى القضايا الناتجة عن نصّ غَيَّرَ تركيبه، وخَرَجَ عن نمط سابق في بناء الصّور وتشكيلها»[١٩].

فأبو تمام، كشاعر محدث عاش في ذلك المجتمع العبّاسيّ المتعدّد الأعراق والثقافات،

كان عليه أن ينافس معاصريه من الشعراء والأدباء والعلماء والنقّاد في استيعاب التراث العربي والإسلامي، وتراث اليونان والفرس والهنود المترجم إلى العربية من الفلسفة والعلوم والآداب، ليحقّق لشعره تلك الإضافة وذلك الإبداع المنشود والمواكب لحركية الإقلاع الحضاري في جميع المجالات.

فأبو تمّام الطّائيّ أنموذج للشاعر الحضريّ المثقّف ثقافة متنوّعة وعميقة، والّذي يمثّل القطيعة الحاسمة مع أنموذج الشّاعر البدوي القديم. فهو دليل حيّ على الانتقالة الحقيقية من عصر المشافهة والرّواية، إلى عصر التدوين والقراءة والتأليف. فلم يعد الشاعر المبتدئ بحاجة إلى مصاحبة شاعر كبير يحفظ عنه ويروي له، بل عليه مدارسة الدّواوين المفردة أو الجامعة لأشعار السّابقين، والاحتذاء عليها في مرحلته الأولى، ثمّ تجاوزها بحسب قدراته الإبداعيّة والثّقافيّة. فقد ولّى عصر الطّبع كما ينعته النقّاد المحافظون، وحلّ محلّه عصر الصّنعة والتّصنيع، لمواكبة النّهضة الحضارية الشّاملة، ومواءمة تعقّد الحياة ومطالبها المستجدّة في الحواضر العربيّة المزدهرة بالعلوم والآداب والفنون.

وقد أدرك أبو تمّام - بذكائه الفذ والأصيل- أنّ الإقحام المباشر لمقولات الفلسفة على النصّ الشّعريّ، لا يصنع شعرا جيّدا وجديدا. ولذا، فقد نأى بنفسه عن أن يكون مجرّد مردّد لمفردات فلسفية مختزلة. وفي ظنّنا، أنّ ما أفاده أبو تمّام من مطالعاته الفلسفية، هو ذلك التفكير الجدليّ، الّذي مكّنه من أن ينظر - بعمق- إلى الحياة والأحياء والأشياء والأفكار في تناقضاتها المختلفة؛ فيبدو «أنّ البصيرة في الأمور النّظرية قد تزيد في عمق نفاذ الفنّان وفي اتّساع مداه»[٢٠]. ومن ثمّ، فالرّاجح - عندنا- أنّ إفادة أبي تمّام من الفلسفة كانت إفادة فنّية، عمّقت فنّه الشّعريّ، وكوّنت لديه مذهبا خاصا في البديع، ميّزه ممّن سبقه من الشعراء، أو عاصروه أو جاؤوا بعده. وقد راح حبيب الطّائيّ يبحث عن تلك اللّغة الخاصّة التي تناسب تفكيره الجدليّ، فوجدها في لغة البديع الّذي ازدهر بين شعراء عصره، ثمّ اصطلح عليها بما أسماه «نوافر الأضداد».

إذاً، لم يثر أبو تمّام قضايا فلسفيّة في شعره، في ما نعلم، ولكنّ مطالعاته الفلسفيّة أنضجت فكره، فغايرت نظرته إلى اللّغة وإلى الشّعر نظرة أسلافه العرب؛ فأصبح شاعرا جديدا يَنشد شعرا جديدا، بل أضحى يعتنق مذهبا فنّيا جديدا، يعيد النّظر في علاقته مع اللّغة. فهو يتناول ألفاظ اللّغة وتراكيبها

المألوفة بشكل مختلف، فينتج دلالات جديدة ويفجّر طاقات كامنة في اللّغة، في مستواها الإبداعيّ؛ ومن هـذا السّبيل، فَهِمِ أبو تمّام وفـاءه لتراثه العربـيّ: اللّغـويّ والشّعريّ، وتجاوزه له. فلم يقل شاعرنا معاني فلسفيّة دخيلـة بتراكيب عربيّـة موروثة، بـل قرأ الفلسفة، فتأثر بها تفكيره، وتغذت بها ملكته الإبداعيّـة، وتسرّب هـذا التأثير إلى صميم نسيج شعره؛ فبدت ألفاظه غريبة، وتراكيبه معقدة، وصوره غامضـة، تكدّ ذهن المتلقّي العادي والمختصّ بالشّعر على السّواء.

هكذا، صار شعر أبي تمّام غير مستساغ للذوق العربـيّ المحافظ؛ فوسـم بالتّعقيد والغموض، والبعـد عن الأصالـة العربيّة والبلاغة العربيّة. ولم يتوان الآمديّ في وضع أبـي تمّام الطّائـيّ في منزلة مضطربة بين الشّاعر والفيلسوف، وحجّته في ذلك أنّه إن كان الشّاعر «يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس، ويكون أكـثر ما يورده منها بألفـاظ متعسّفة ونسج مضطـرب، وإن اتّفـق في تضاعيـف ذلك شيء من صحيـح الوصف وسليـم النّظر، قلنا له: قـد جئت بحكمـة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة، فإن شئت دعوناك حكيما، أو سمّينـاك فيلسوفا، ولكن لا نسمّيك شاعرا، ولا ندعـوك بليغا؛ لأنّ طريقتك ليست على طريقـة العـرب، ولا على مذاهبهـم، فإن سمّينـاك بذلـك لم نلحقك بدرجـة البلغاء ولا المحسنـين الفصحـاء»[٢١]. فالآمدي لا يريـد أن يحظر على الشّاعر الاستمداد من الفلسفة والحكمة الأجنبيّة، ما لم يخرج على طريقـة العرب وبلاغة العـرب، في «إصابة المعنى وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة مـن التكلّف كافية، لا تبلغ الهَـذر الزّائد على قدر الحاجة، ولا تنقص نقصانا يقف دون الغاية»[٢٢].

والحـقّ أنّ أبا تمام، حـين حكّم العقل وحـده في توجيه عمليـة صناعـة الشّعر، وعمـد إلى المزاوجة بـين التّضادّ والجناس والتّصويـر والمشاكلة وبـين الفلسفة وألوان الثقافة الأصيلة والوافدة، قد أشاع الغموض في كثير من شعره. فالغموض خاصّة جديدة صدمت الذّوق العربيّ المحافظ، الّذي تعوّد مطبوع الشّعـر والمعاني المكشوفة الّتي تفهم دون عناء، فتحصل له المتعة من الشّعر.

لكـنّ هذا الغموض - في رأينا- لم يكن غاية تفرّغ شاعرنـا لطلبها، وإنّما هو صفة وسمت شعـره، في أثناء بحثه عن تلك اللّغة الخاصّة الّتـي تلبّي شغفه بألـوان البديع، وترضـي تفكـيره الجـدليّ الّـذي لا يقنع بالوقوف عند السّطـح، بل يمضي إلى سبر أغوار الأفـكار والنّفوس والأحوال. وقد نوّه

بتلـك اللّغة الخاصّة به، واصطلح عليها بما أسماه «نوافـر الأضـداد»، في أثناء مدحه القاضـي أبا عبد الله أحمد بـن أبي دؤاد الإياديّ، حيث قال[٢٣]:

قَدْ بَثَثْتُمْ غَرْسَ المودّة والشَّحْـ
ـناءِ في قَلبِ كُلِّ قَارٍ وبَادِي
أَبْغَضُوا عِزّكُمْ وَوَدُّوا نَدَاكُمْ
فَقَرَوْكُم مِنْ بِغْضَةٍ وَوِدَادِ
لاَ عَدِمْتُمْ غَرِيبَ مَجْدٍ رَبَقْتُمْ
في عُرَاهُ نَوَافِرَ الأَضْدَادِ

فهذه الصّورة الغريبة الّتي أبدعها عقل أبـي تمام، لا تناسب إلاّ ذلـك المجد التّليد والكـرم الغريـب الّـذي تنافـرت في ذراه الأضداد؛ لأنّه زرع التّضادّ والتّناقض في نفوس المكرمين مـن ساكني القرى والبوادي اتّجاه هذا الكـريم المحسن، بين حبّهم وانتجاعهم لجـوده، وحسدهـم وحقدهـم عليه لعظم شرفه؛ فلا جزاء له – عندهم– على إحسانه إلاّ هذه العاطفة المضطربة المتناقضة.

وحـين تصدّى أبو تمـام لتصوير حريق قلعة عمورية الرومية، لم ينس لعبته المفضّلة «نوافر الأضداد»، حيث قال[٢٤]:

ضَوءٌ مِنَ النّارِ والظَّلمَاء عَاكفةٌ
وظُلمةٌ مِنْ دُخانٍ في ضُحَى شَحِبِ
فالشّمسُ طَالعةٌ مِنْ ذا وقد أَفَلَتْ
والشّمسُ وَاجبةٌ مِنْ ذا ولَم تُجِبِ
ما رَبْعُ مَيّةَ مَعمورًا يُطيفُ بِه
غَيْلانُ أَبْهَى رُبىً مِنْ رَبْعِهَا الخَرِبِ
ولا الخُدُودُ وإِنْ أُدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ
أَشهَى إلى نَاظرٍ مِنْ خدّهَا التَّرِبِ
سَماجةٌ غَنِيَتْ منّا العُيونُ بها
عنْ كُلِّ حُسنٍ بَدَا أو مَنْظَرٍ عَجَبِ
وحُسنُ مُنقلَبٍ تَبدو عَواقِبُهُ
جَاءتْ بَشَاشَتُهُ عَنْ سُوءِ مُنْقلَبِ

فقد أخذ يتلاعب بضـوء النّار الطّارئ على ظلمة الأرض العاكفـة، والّذي يتحوّل في أوج تأجّجه إلى شمس طالعة بعد الشّمس الآفلة. ثـمّ يخبو ضوء النّـار، وتغلب عليه ظلمة الدّخان، فيرين على الشّمس الطّالعة في اليوم التالي للمعركة، فيحيلها إلى ضحى شاحـب ثقيل. ورأى شاعرنا في خراب قلعة عموريـة مصدرا أغـزر للإلهـام الشّعريّ وأقوى من الدّيار المعمورة بالحبيبة العربيّة «ميّـة»، وأنّ خدّها الشّاحب الـترب أشهى للنّظر من الخدود المورّدة حمرة من الخجل؛ فقبحُ وجه عمّورية جمـال ثان لها، وحُسن جديد تتملاّه عيون المسلمين. كما أنّ مصرع الكفـار وسـوء عاقبتهم، يثلـج صدورهم، ويشفي غيظ نفوسهم.

هكذا، صارت المعاني المطروقة والألفاظ المألوفة تكتسـب الطّرافة والغرابة، منذ أن تناولها عقل ذكيّ يعدّ الشّعر صناعة باهظة

التّكاليــف، وعمــلا واعيا لا يــترك للطّبع والموهبة وحدهما. فنحن مع شاعر يعي وعيا علميا وعمليّــا الأدوات الفنيّة التي يوظفها في شعره، بل إنّه يوجد لها المصطلح المناسب الّذي يميّزها من غيرها من الأدوات. لذا، كان لزاما على المتلقّي أن يستعدّ تمام الاستعداد لاستقبــال شعر أبي تمّــام الطّائي، ومعاناة قراءته، لاكتشاف لــذة الشّعر كما تصوّرها أبو تمّام نفسه. وإلاّ فليركن هذا المتلقّي إلى طريقة البحــتريّ القائمة على الخفيف من المعــاني، وإرهاف السّمع إلى الكثير من رنين الألفاظ والموسيقى الشّجيّة.

وحتّى ننأى بنفسنا عن كلّ تعصّب لطرف ضدّ طرف آخر، أو تفضيل أحد الشّاعرين على الآخر، نقول: إنّ وجود تجربتين شعريتين مختلفتــين أو متضادّتين، يتواءم تماما وتلك النّهضة الحضارية الزّاخرة في ذلك المجتمع العبّاسيّ المتعدّد الأعراق والثقافات. كما أنّ ظهور شعريتــين متميّزتين كان مصدر حياة وثــراء للشّعر العربيّ القــديم. وكان ديوان حبيب الطّائيّ وديوان الوليد البحتريّ منهلين ثرّيّــن للشّعــراء والنقاد، لأجــل الاستلهام والاستمداد والمدارســة. والرّاجح أنّ ذينك الدّيوانين كان لهما إسهام ما في بروز شاعر كبير كأبي الطّيّب المتنبّي.

الهوامش:

١- فاضــل ثامــر: الصــوت الآخر الجوهر الحــواريّ للخطــاب الأدبــي، دار الشؤون الثقافيــة العامة، بغــداد، ١٩٩٢، ص٢٤٦.

٢- الآمديّ: الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتريّ، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، ج١، ص٦.

٣- المصدر نفسه، ص٦.

٤- المصدر نفسه، ص٦.

٥- المصدر نفسه، ص٦.

٦- المصدر نفسه، ص٤٠٠.

٧- المصدر نفسه، ص١٩.

٨- البحتريّ: الدّيوان، شرح محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٩، ج١، ص٩٩. الآمديّ: الموازنة، ٤٠١/١.

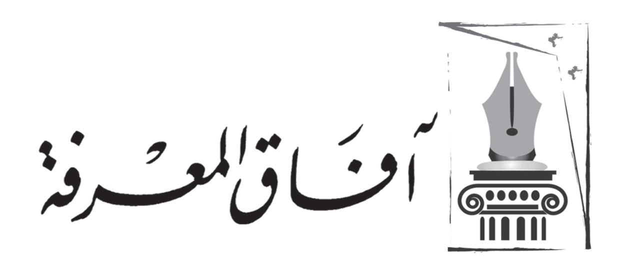
٩- عبد القاهر الجرجانيّ: أسرار البلاغة، تحقيق: محمّد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، (د.ت)، ص٢٣٥.

١٠- البحتريّ: الدّيوان، ٣٥٤/١.

١١- الآمديّ: الموازنة، ٤٠٢/١.

١٢- ابــن الأثــير: المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق كامل محمّد عويضة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ج٢، ص٣٠٧.
١٣- يوسف خليف: في الشعر العباسيّ، دار غريب، القاهرة، (د.ت)، ص١١٦.
١٤- البحتري: الدّيوان، ٢/٦٣١-٦٣٢.
١٥- عبد القاهر الجرجانيّ: أسرار البلاغة، ص١٢٥.
١٦- البحتري: الدّيوان، ١/٤٨٧.
١٧- ابن سنان الخفّاجي: سرّ الفصاحة، تحقيق عليّ فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤، ص٢١٦.
١٨- الآمديّ: الموازنة، ١/٦.
١٩- صــلاح بوسريــف: الكتابيّ والشفاهيّ في الشعر العربيّ المعاصر، دار الحرف للنشر والتوزيع، المغرب، ط١، ٢٠٠٧، ص٥٨.
٢٠- رينيــه ويليــك وأوستين وارين: نظريــة الأدب، ترجمة محيي الدّين صبحي، المؤسسة العربيــة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٧، ص١٢٨.
٢١- الآمديّ: الموازنة، ١/٤٠١-٤٠٢.
٢٢- المصدر نفسه، ص٤٠٠-٤٠١.
٢٣- أبو تمّام: الدّيوان، شرح محيي الدّين صبحي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ج١، ص٢١٢.
٢٤- أبو تمّام: الدّيوان، ١/٩٩-١٠٠.





المرأة.. والقرار الثقافي العالمي هل ثمة وعيٌ إنساني جديد؟؟

د. بغداد عبد المنعم*

البعـد الدولي للثقافة يغدو شيئاً فشيئاً بعداً مؤثراً.. ويغدو كذلك ساحة منـاورات غالباً مـا تتحصن خلف سواتر السياسـة التي قد تحرك (القرار الثقـافي) بصفته جزءاً من مشروعها السياسـي.. تَدخلُ المشكلات الثقافية إلى الدوائر الدولية فتكتسب شكلاً شمولياً، وتعتريها تأطيراتٌ واسعة يصعب استدراجُها إلى الفاعلية إلا نادراً..!!

* كاتبة وباحثة في التراث العربي (سورية).

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ولكنَّ العالمَ يبحث حقاً عن نقاط يلتقي عليها.. وعن لحظات إنسانية.. وباعتبار أن هذا البحث ليس من مهام السياسة أصلاً.. فإنَّ مثل هذه اللقاءات لا تتشكل إلا فوق دروب الثقافة حيث يتم الارتكاز إلى الخصائص العميقة للمثقف، باعتبار أن الثقافة ترتبط بحضور الإنسان الكلي.. أي بذلك الحضور الذي لا يتنازل عن الحقوق والجماليات والبناء والتطوير.. بذلك الحضور الكلي الذي تتحرك المرأةُ بداخله كجزء كائن في كل الحركة..

وحين الحديثُ في ذلك لا شك أن (منظمة أممية) تحمل عنوان الثقافة تتصدر باسمها وبما يصدر عنها من عناوين ومشروعات.. وتتحقق عندها المستويات العليا في الاتصال والمعلوماتية، فهي تشكل إحداثيات حركة وعمل فيما لو تمَّ التحرك بأسلوب مدروس وعميق نحو الهدف المُراد..

قدمت اليونسكو هذه المرة إشارةً جديدة نوعاً ما حين سلمت رئاستها إلى (امرأة) لتقول بأن التغيير القادم الثقافي وغير الثقافي سيكون للمرأة فيه دور حقيقي بصفتها فاعلةً ومباشرة..

فهل سيكون للمرأة عموماً دور عميق يرتبط بالكثافة الداخلية التي تتمتع بها..؟ وهل من المحتمل أن العالم سيعتمد عليها في إخراج ثقافي حقيقي لمشكلات العالم النوعية وغير العادية..؟؟

وبشكل عام أعتقد أن المرأة يجب أن تعمل على المناطق التي تمَّ إهمالها تاريخياً في التفعيل الثقافي العالمي.. ويجب أن تعمل بحقيقتها الداخلية الكثيفة من الاحتواء والمرونة...

رسالة.. إلى المرأة والعالم

لأول مرة منذ تأسست الأمم المتحدة تتولى إدارة اليونسكو (امرأة).. فخلال المؤتمر العام للمنظمة وفي دورته الخامسة والثلاثين (٦- ٢٣ تشرين الأول- ٢٠٠٩) تمَّ انتخاب (إيرينا بوكوفا) مديرة عامة للمنظمة خليفة للسيد كويشيرو ماتسورا.. ورأت الغالبية من الدول الأعضاء في هذا التعيين بشيراً بمستقبل ديناميكي، وبلاغا قوياً لصالح المساواة بين الجنسين.

وفي كلمتها[١] التي ألقتها بعد توليها هذا المنصب، استندت المديرةُ الجديدة إلى مرجعية فكرية اتخذتها محاورَ لمهمتها القادمة أولها -وهو البدهي والمُتَوقع- بأن توليها هذا المنصب هو رسالة ثقة إلى جميع

النســاء في العــالم. وأعتقــد أن الثقة التي تقصدها مديرة اليونسكو ليست إلا حقيقة أولية، يحيلُنا الدخــولُ في تفاصيلها إلى أنّ نقول بــأنَّ توازنات دوليــة ليست قليلة هي التــي أدت إلى نتيجة هــذا الانتخاب.. وأن الاشتغال على أية محاور ومهام سيكون على هــذه الخلفية التوازنيــة السياسية إلى حد ليس قليلا..وهنا تكون الخطة الأولية مبنية على الحنكة في تحقيق اختراق أولاً لتحقيق هدف ثقافي حقيقي لاحقاً..!!

وكان ثمــة إشارة مهمــة ذكرتها المديرةُ الجديدة في كلمتهــا لتمكين المرأة، فوجَّهَتْ خطابهــا إليهــا وأوصتْها بأمريــن يلزمان التفعيــل الثقــافي: المعرفــة والسلطة، لأن الارتــكاز إلى كليهما بآن معــاً (باعتقادها) سيؤدي إلى المسير والتقدم..

ولكــنّ، أعتقــد أنَّ الساحــة الثقافيــة العالمية (وإلى حد ما العربية) ازدحمتْ بمثل هذه المناقشــات، غير أن الأمــر ليس بهذا الوضوح.. وليســ بهذه السهولة.. فغالباً ما يتحول المثقــف إلى موظف أو مروِّج.. فهذه التوصية إلى المــرأة يتوجب نبشها وقراءتها تفصيليــاً، والتحريــك الاستراتيجي بحيث لا تنضــم المــرأة إلى الجــزء التقليدي من العلاقــة بــين الثقافة والسلطــة.. بل تبدأ بحياكة علاقة جديــدة تجلس فيها الثقافة على العرش لأنها مصدر التخليق والتحفيز والتنشيط المستمر في الحقيقة الإنسانية.

ولكون (المديرة الجديدة) امرأة.. ولكونها من دول المستضعفــين في الأرض (بلغاريا) فإنهــا تدعو إلى (الحذر مــن العولمة) ولعل هذا المحــور من أهم المحــاور الفعلية التي يمكــن الاشتغال عليهــا لأن الخصوصيات الحضاريــة في العــالم كثــيرة وإحضارهــا وتوكيدها – مع تَحَقُّقٍ يبدو حتمياً في كثافة الاتصــال العالمــي – وذلك يعنــي إمكانيةً جديدة لطــرح عناوين متكاثرة من التراثات المادية وغير الماديــة لأمم الأرض وبيئاتها.. وتوكيــد السمات الخاصــة ولو تمَّ ذلك وفي الوقت الحاضر على الأقل ضمن مجال حوار عولمي مفروض ومهيمن.

وعلى الرغم من أنه ثمة عناوين ساطعة شكلت مهاماً أمميــة للثقافة وأضحت هذه المهمــات تمــر بكثافة من نوافــذ الإعلام، فحُمِّلــت هــذه المؤسسة الأمميــة بمهمات التعليــم والتربيــة ومحــو الأميــة، وشؤون المحيطات والعنايــة بموضوع الماء، وتسخير التكنولوجيــات الفضائيــة لخدمة التراث

العالمي الثقافي والطبيعي، وإعلان مبادئ أخلاقية بخصوص تغير المناخ، والتنوع الثقافي والحوار بين الثقافات، والحث على تعزيز الوعي بتاريخ الحضارات والاهتمام بالشباب وثقافة السلام..

كما بدأت هذه المنظمةُ الأممية برفع الشعارات، فهذا المؤتمر الأخير كان شعاره «التوطيد والانفتاح على رهانات المستقبل» وأن المؤتمر فرض نفسه «سلطة مرجعية حقيقية للتفكير والتبادل». وفي مجال الثقافة، حدد المؤتمر أولويتَيْن اثنتين: صون وإدارة التراث المادي وغير المادي، ثم تعزيز أشكال التعبير الثقافي، واللغات، والتعدد اللغوي والحوار بين الثقافات، واعتبار عام /٢٠١٠/ عاماً للتقارب بين الثقافات. وتقرر أيضا إنشاء عدة مراكز مكرّسة للتراث وموضوعة تحت رعاية اليونسكو. وفيما يتعلق بالاتصال والمعلومات طلب المؤتمر العام الاستمرار في تنفيذ أنشطة لصالح حرية الصحافة، وأكد من جديد دعمه للبرنامج الدولي لتنمية الاتصال وتحقيق سجل ذاكرة العالم.



والتأكيد في كل هذه العناوين على وجهين في هذا الأداء الأممي..وجهٌ يظهر الخصوصيات ووجه يظهر التشابه والمشترك..وهذه البرامج الواسعة دخلت في (ولاية) المديرة الجديدة.. وأضحتْ رسالتُها إلى المرأة وإلى العالم حِمْلاً ضخماً يحتاج بعد إعلانه إلى آليات تفعيل هائلة وإلى نوايا لا تحرفها عن أهدافها الإنسانية.

خصائص المرأة.. هل تنتجُ وعياً نوعياً؟؟

ربما تَشَكَّلَ في (بصيرة المرأة) أولُ أدوارِها

السامية في تصدير الجمالِ إلى الطبيعة حيثُ أنَّ الجمالَ حركةٌ وتجادل..ثُمَّ ارتقاء، وتاريخياً امتدّ هذا الدور الأساسي الفطري إلى دورها الحضاري دون أن يمتلك هذا الدور حقَهُ من التأريخ والتسجيل(٢)!!..

كانت تلك الأدوارُ الأساسية والتي فيها الحياتي الصِرف ومنها ما يحملُ بعداً وظيفياً وجمالياً أيضاً، ومنها أدوارٌ ذاتُ طبيعةٍ أمومية كونية.. ويبقى أنْ نقول أنَّ هذه الأدوارَ القديمة – الجديدة للمرأة هي ثروةٌ تأسيسية تقومُ عليها (حياةُ الوطن) ولكنّ، تأبى التطوراتُ في الأبعاد الحياتية للمرأةِ نفسها إلا بأن تطالبَها ببلورة ذاتِها وصقل أبعادها لتُكملَ ليس الدائرةَ الحياتية فحسب، وإنما الدائرة الحضارية الثقافية.. وإنَّ الانتقال من الأبعاد الخامية المستوية إلى انحناءاتِ وارتقاءاتِ التجسيد.. هذا الانتقال يخلقُ من المرأة ليس كائناً حياتياً وحسب، بل كائناً ثقافياً وسياسياً أيضاً.. كائناً صانعاً للقرارات لأنهُ خلال ذلك لابد من أن تكون المرأة في مركز الفعل حتماً..

ذلك أنَّ المرأة هي أحدُ طرفي الثنائية المولدة للحياة الإنسانية بمشكلاتها البدائية إلى حروبها الطاحنة.. وإلى عطاءاتها المتنوعة على الأرض.. فالمرأةُ هنا ليستْ مفهوماً تنظيرياً يُراحُ ويُغدى به.. بل هي كيانٌ يتحرك في تيارات القوانين والقوالب الإدارية والبانوراما المجتمعية المدنية بأختامها وتوقيعاتها..

هل الثقافة – مثلما السياسةُ – هي التي تحتاجُ إلى (المرأة) ليغدو للعالم شيٌ أكثر حقيقةً وحياةً واستمراراً..! وليغدو للعالم أيضاً ما هو أهم بكثير من سفك الدماء على قارعات الطرق..؟؟

والآن، تحتاجُ (الثقافةُ) إلى المرأة احتياجاً أكثر مباشرةً.. ربما كان اقتناصاً من تلك الأدوار العلوية الأساسية ليغدو للعالم لونٌ أكثر هدوءاً وحناناً..وأكثر إيجابيةً.. يحتاجُ العالمُ أن تخرجَ (المرأةُ الحقيقية) إلى مراكز القرار..المرأة بجوهرها الأمومي الراقي وليس المرأة المصنوعة على مقاساتٍ ذكورية محدودة بخطوطٍ سياسية أو أيديولوجية..

العنوان الإعلامي العربي والمرأة

حاربت الصهيونية بوجهها النهائي الظاهر وغير النهائي المندمج بكوامن أوروبية وأمريكية حاربتْ بشراسة تجاوزت كل الحدود وصول أي مرشح عربي إلى هذا المنصب (إدارة اليونسكو).. وعلى الرغم

من التنازلات التي يقدمها الحضور العربي أممياً بشكل عـام فإني أعتقد أنَّ التوازنات المدروسة هي المطلوبـة أكثر من تنازلات لا تفيد..وثَبُـتَ أنها لا تفيـد.. بل هو اعتمادُ إعلامٍ مدروس داخل هذه المنظمة وتصدير (العنـوان الإعلامـي) المؤثـر في العقليات المحركة داخل مثل هـذه المنظمات الدولية (لوبي عربـي مقابل اللوبي الصهيوني).. فـ مثلاً اللوبي الصهيـوني يشتغل بكثافة على المجالات الصحفيـة والتلفزيونية.. ويُصَدِّر للحديـث في مشكلة قائمة كاتباً حصل على جائـزة نوبل مثـلاً.. وهذه قصـة تاريخية قديمة اتخذت الصهيونيةُ فيها قراراً مبكراً بحيـث يمسكون بمسألة القرار حتى مرحلة ما قبل وصوله إلى الأمم المتحدة..

لقد تمَّ وضـع شعراء عالميين (من خارج المركزيـة الغربية تقريباً) مثل طاغور وبابلو نيرودا ضمـن برامج عالميـة للاحتفاء بهم لأنهـم وحسـب تبريـرات اليونسكو بصدد انتقائهم: بأنهم عَرفـوا من خلال نشاطهم النضـالي وأعمالهم الأدبيـة كيف يواجهون تناقضـات النظام العالمي غـير المتكافئ.. وكيـف يشكلون إدراكاً جديـداً لمجتمعاتهم وللعالم عنها.. ولكنّ، لماذا لم يُضِفْ الحضور العربـي الثقـافي في اليونسكو شاعـراً أو أديباً عربياً يمثل هـذه الجغرافيا المركزية الشاسعة الممتـدة على قارتين معاً.. ألم يكن هنـاك شاعـر أو أديب عربـي عرف كيف يواجه تناقضات النظام العالمي غير المتكافئ وأن يكوّنَ إدراكاً جديداً..بل ويحقق حضوراً عالمياً..؟؟ أين الـدور العربي العالمي المؤثر الذي يضـع خطة واحدة حاشـدة لتحقيق قرار يفيد منه الوضع العربي كليةً؟؟

لا شـك أنَّ إنضاج هـذا الحضور يكون بتركيز الحضور العربي الأممي باستراتيجية مُوحَدة يُعمـل على تفعيلها الدائم وتتضمن (الـتراث العربي) ليسـ بتناولاته الشمولية ودفاعاته التقليدية، بل عبر التركيز الدقيق.. مثـلاً: تقديمات من الشعر العربي يمكن أن تبدأ من الشعراء العرب الكونيين في مرحلة ما قبل ظهور الإسـلام (المرحلة الجاهلية) وإظهار الأهمية الكونيـة العميقة لشعرهم (لواحد منهم أو لمجموعة) وطرح ذلك ضمن مصطلحات نقدية حديثة تصل أُذنَ العالم.. مثلاً: امـرؤ القيسـ واللوحـات الشعرية للمـرأة والبيئة.. امرؤ القيسـ والسياسة.. البعـد الإنساني في شعرية عنترة بن شداد.. وتقديمهم تقديماً يليق بما صنعوا – والتخلص

من العقد الشعبويـة والقوالب المصطلحية الأدبية الضيقة التي حُشروا بها..- ومتابعة ذلك باختيار شاعر يمثل كل مرحلة تاريخية عربية وطـرح تأثيرهم الإعلامـي الشديد وبقائهم في الذهنية العربية والإسلامية حتى الآن.. ويكون ذلـك ضمن محور هو: تمكين الشعـراء العرب الكبار مـن اللوحة العالمية ضمـن سياق ثقافي- إعلامـي.. ومتابعات تتضمن صنع حضورٍ لهم ثم تعميق، وتمكين هذا الحضور لمجموعـة كبيرة من العناوين والأسماء العلميـة والأدبية والإدارية.. عبر آلية ناجعة من الدخول في المصطلح الأممي (الغربي) ثم الخروج منه وربما عليه..

وخلال ذلـك الاشتغـال بكثافـة على تمكين وتصحيـح الحضور التاريخي للمرأة العربية في تسجيلات ومتابعات اليونسكو.. الشاعرات- النَسَّابَات- المُحَدِثات- أجهزة التمريض التـي كانت ترافق الجيوش وكلها مـن النسـاء (ألا نلاحظ كيـف تمَّ إحضار اسمي جـان دارك والأم تيريزا إلى مرتبات عليا..) - الملـكات والأميرات بإطار جديد بعيداً عن الأسطرة وإظهار المقدرة السياسية والقياديـة عندهن بأحداث محـددة تماماً وإطلاقها ضمن عناوين ذات إيقاع إعلامي عالمـي مؤثر يُمَكِّنُ مكانتهـن التاريخية من الخـروج من الغشـاوات والتفاهات الأزلية التي رزحـتْ تحتها...وهنـاك الطبيبات.. وكل ذلـك ولم ننتقل بعـد إلى آليات التفعيل أمميـاً للواقع الحـالي للمـرأة العربية..!! واعتبار ذلك مهمة ثقافية مستمرة للحضور الثقـافي العربي الرسمـي في تكسير الفكرة (الاستشراقية) الكبيرة والعميقة التي ابتناها الغربُ عن الشرق والمرأة العربية (والشرقية) وذلك بوضع برنامج تنفيذي لأفكار إعلامية جزئية وخطـط جزئية مـن الاستراتيجية العامة.

ذلك يعني الانتقال السريع ولكن الدقيق والمدروس مـن سوية السرديـات التاريخية (سويـة داخليـة) والتي لا تقـدم كثيراً من الحقائق الجوهرية أو الحقائق الإبداعية.. ومن ثم الخروج من السوية النقدية التقليدية والدراسـات التي تمت منـذ نهايات القرن التاسـع عشر عليهـا (وهي سويـة داخلية أيضـاً).. والانتقال كذلك بعيداً عن السوية الاستشراقية، - وكل هذه الانتقالات لا تعني الرمـي والتضييـع لكل ما سبـق، بل تعني تجاوزات نوعية إلى عتبات جديدة - لنصل إلى السوية الإعلاميـة التصديرية الأممية

(وهي سوية خارجية) مع كل آلياتها المستمرة بالتكاثر والتحديث وإصدار (العنوان العربي الإعلامي الجديد) من كل ذلك، ومنه العنوان الإعلامي الخاص بالمرأة العربية التاريخية ومن ثم الحديثة.. سيكون تصديرٌ متواصل لمجموعات من الرؤى والسحائب التي استمرت بأمطارها وتهطالها فترات طويلة من عمرنا التاريخي..

منذ بدأ القرنُ الجديد ارتبط الإعلامُ ارتباطاً وثيقاً بكل شيء.. وهو ليس ارتباطاً إيجابياً دوماً، وارتباطه بالمرأة يحمل خصوصيات متناقضة وأحياناً متداخلة.. لكنه في النهاية منحها نافذة مستمرة مما مَكَّنَهَا مبدئياً من تحقيق بضعة أهداف، أحدها أن هذه النافذة قدمت لها مقداراً كبيراً من المعلومات كانت في كل العصور السابقة مُحْتكرة ومُخَبَّأة.. وقدم لها إمكانية الاتصال غير المحدود، وهذا الأمر أيضاً كان محتكراً أكثر من السابق وإلى حد بعيد.. والإعلام كذلك، مَكَّنَ المرأةَ من إظهار أدائها وعملها مما أدى مع مرور الوقت إلى حيازتها على ثقة الناس والمتلقين واحترامهم والتعامل معها ومع عملها تعاملاً جدياً وفعالاً.. وبدأت التقاليد التفكيرية القديمة المتشكلة عن (المرأة) بالانقشاع شيئاً فشيئاً.. وبدأت بالتحول التدريجي إلى كائن إنساني حقيقي..

أخيراً:

هي تساؤلات.. ومقترحات أولية.. محاولة في قراءة ما حدث من زاويتنا.. ولئن أرسَلَتْ مديرةُ اليونسكو رسالةً إلى المرأة، وألقت على العالم بنقاط ثقافية كثيفة قائمة على الإيجابيات الواسعة والاحتواء الشامل.. فإنَّ من حقنا أن نطرح الأسئلة: هل سيُبنى وعيٌ إنسانيٌ جديد حقاً..؟ وهل سيكون للمرأة تأثير نوعيٌ في ذلك..؟ وهل سيكون القرار الثقافي الأممي قابلاً للتنفيذ الفعلي..؟ وهل يتمكن الحضور العربي الأممي من تعميق وتقوية وتحديث الفاعلية الثقافية العربية عالمياً؟؟.

الهوامش:

١- جاء في خطاب التنصيب الذي أدلت به السيدة بوكوفا:

«إن وصولي لهذا الموقع الرفيع هو رسالة ثقة إلى جميع النساء في العالم. إنه إشارة إلى أنه يجب أن يصلن إلى المعرفة وإلى السلطة، حتى يتمكن من المساهمة في عطاء المجتمع، وفي مسيرة العالم». وأكدت أنها تريد أن تنشر الفهم بأنه لا

يمكن لأية تنمية أن تكون من دون العمل من أجل المساواة بين الجنسين. وأضافت «شرق، غرب، شمال، جنوب: سأبـذل أقصى جهدي حتى أبني معابر لا تحصى بين هذه الجهـات من العالم، التي باتت مدرجة في سلم العولمة. هـذه العولمـة التي ينبغي أن نبقى حذرين تجاهها، لأنها حتى وإن كانت محـرّرة، وساعدت الملايين من الناس على الخروج من البؤس، فإنها تحمل في ذاتها خطر اللباس الموحد لعالمنا المتنوع» وأكدت المديرة العامة الجديدة على النوع الجديـد من الوعي للإنسانيـة: «لأن التنوع الثقافي والحوار بين الثقافات يساهمـان في نشوء وعي جديد بالإنسانية حيـث يتصالح العالمي مع المحلي، وعبر ذلك نبدأ بإعادة بناء عالمنا.. بالنسبة إلي فإن الوعي الإنساني إنما هو شغف بالسمـاح والمعرفـة وتنوع الثقافات. إنه يترسخ في الأخلاق كما في المسؤوليـة الاجتماعية والاقتصادية. يتجسد في مساعدة الأكثر عوزاً. إنه في صلب الالتزام ضد التحديات الجامعة، وبالأخص احترام البيئة».

٢- في اللحظـات المهمـة تغيب المرأةُ عن فعل التأريخ -أي أن تقوم هي بعملية التأريخ-.. فيتشوهُ حضورها ويُخْتَزَل إلى أبعد حد. لم تُسجَّلْ حركةُ المرأة العربية تاريخياً إلا نادراً، فتكاد تخلو كتبُ التراجم والتأريخ من أسمائهن وذلك لا يمكن أن يعكس الحقيقة ويبدو أن الأسباب وراء هذه الظاهرة تحتاج إلى دراسة منفصلة، وقد يكون من الاحتمالات الـواردة: أن النساء أنفسهن لم يقمن بعمليات التأريـخ فأُهْمِلَتْ أسماؤهن وأصبحت تلك عادةً أن لا تظهر أسماءُ النسـاء، رغـم أن أسماءً نسائية من الصف الأول ظهرت في حياة الرسـول صلى الله عليه وسلم وفي المرحلة التالية حين بدأ تسجيل الحديث والسنة.

أمَّا لاحقاً فإنَّ معجماً تراجمياً عربياً لعله الأكثر أهميةً لم يذكر سوى أسماء أربعة من أعلام النساء واللواتي عملن أحياناً في سلك السفارات والسياسة..

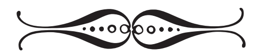
انظر (على سبيل المثال لا الحصر):

- معجم الأدباء، ياقوت الحموي:

ج ١ ص ٢١٩ – ٢٢٠.

ج ١ ص ٢٧٤ – ٢٧٥ – ٢٧٦.

ج ١٦ من ص ١٦٩ إلى ص ١٧٤.



آفاق المعرفة



الفن.. وفلسفة الخط العربي

معصوم محمد خلف*

إن مـا جاءت به الحضـارة الإنسانية من إبداعات خلاقة إلى يومنا هذا تعود إلى العمل الدائب والمستمر الذي مارسه الإنسان منذ وجوده على الكرة الأرضيـة فكل ما أنتجه هـو مطلب وكل ما حصل عليـه من قيم حضارية ومكتشفـات جاءت من خلال مواصلة العمل ولولا العمل لما استطاع أن يصل إلى هذا المستوى الحضاري الذي وصل إليه في عصرنا الحاضر.

* باحث وخطاط سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

فمنــذ أقــدم العصــور لعبــت الفنون التشكيلية على اختلاف حقولها دوراً حاسماً في المجتمعــات الإنسانية فهــي لم تكن المرآة التــي عكست ظــروف مجتمعاتهــا فحسب وإنما كانــت ومازالت كعامل تربوي مهم في تربية الإنسان والرفع مــن مستواه الفكري والثقافي.

والفن بالمعنى العام هو جملة من القواعد المتبعة لتحصيل غاية معينة، جمالا كانت أو خــيرا، أو منفعة، فإذا كانت هذه الغاية هي تحقيق الجمال سمي بالفــن الجميل، وإذا كانــت تحقيــق الخير سمي بفــن الأخلاق، وإذا كانــت تحقيق المنفعــة سمي الفن بفن الصناعة.

والتشكيل العربي للفنــون حالة ثقافية تتضمــن المــوروث الاجتماعــي والدينــي والقومي في إشارات رمزية ومضامين هائلة تستوعب جميع فئات المجتمع.

وهي على جانب كبير من الأهمية لأنها النواة التي منهــا تنطلق الفعاليات الثقافية والفنيــة في إعطاء زخم هائل للبناء الثقافي والحضاري للأمة.

فالفنون هي ذاكرة الأجيال وهي الحاملة لعبق الحياة من خلال ما تبوح به من الشعور بذواتنــا، والتعرف على حقيقــة مشاعرنا، فهي أشبه ما تكون بمــرآة حقيقية للنفس، تنعكس على صفحتها كل أهوائنا وعواطفنا وانفعالاتنا وأفكارنا.

وهي ترجمة حقيقية للمشاعر التي يتم سردها إلى الآخر بصورة يتداخل فيها الكم الهائل من الأبجديات التي تكوّن مادة هامة من مواد التخاطب والتفاعل والبناء.

ونجــد أن «جويو» يــرى أن الفن نشاط «جدي وثيق الصلة بالحيــاة، فلا يمكن أن تكون الأعمال الفنية مجرد مظاهر ترف أو موضوعات كمالية، بل هي ضرورات حيوية وأنشطة جادة وموضوعات نافعة، والموضوع النافــع يولد بعض المشاعــر الجمالية ليس لأنه نافع، بــل لأنه في الوقت نفسه موضوع جميل».

وهذا ما دفع «جون ديوي» إلى الربط بين النظر والتطبيق وبــين الفن الجميل والفن النافــع؛ إذ رأى أن أي فلسفــة أو فهم للفن محكوم عليها بالفشل إذا شيدّت على أساس من الثنائيات الزائفة بين الفن والطبيعة أو الفن والعلم، والفن الجميل والفن النافع.

ولكي يكشف هذه الثنائيات الزائفة رأى ضرورة المضي نحو فهم حقيقي للفن يدمج

هذه الثنائيات في وحـدة. وقد كان حرصه على ربط الفن بالخبرة هو الذي جعله يقيم هذه العلاقة (أو الوحدة) بين النافع والجميل على أساس أنهما يمثلان مظهرين من مظاهر النشاط الإنساني الواحد. فالفنون الجميلة ذات أهمية عملية، من وجهة نظر «ديوي» لا تقل عن بعض الصناعات التكنولوجية.

إذاً فالفـرق بين العمل الفنـي والعمل الصناعـي لا يرجـع إلى خصائص محددة في العمـل الفني أو العمـل الصناعي وإنما يرجع إلى نظرتنا نحن أو إلى موقفنا تجاهه، فقد يكون موقفـا عمليا تارة وموقفا تأمليا جماليا تـارة أخرى. وهـذا يفضي بالطبع إلى أنـه قد يمكن للآنية التـي نشرب فيها أو الحذاء الذي نلبسه أن يتحولا إلى عملين فنيَـين بمجـرد أن نجعل منهمـا موضوعا للنظرة التأملية الجمالية.

والفنـون تتنـوع وتتعـدد وفي النوعية تتأكد عمليات الإدراك الإبداعية لاكتشاف الجوهـر والمتميز والمبهر فـالإدراك يسوق للأعمق لإمكان الإحاطة والشمول واستنباط الدلالات الفلسفيـة والجمالية والتي تشكل رؤى الفنان الذي ينقش إبداعه المتجدد على مفردات الزمن ولذلـك انبجست أشكال لا حصر لها من الفنون التي تعدت الشكل إلى الجوهر،

ولم تهمل تلك الفنون أي مادة طبيعية أو صناعية أو تقنيـة إلا وتوسلت بها وتعاملت معها في تناغم مذهل تـبرز صورة أو شكلاً يظـل أبد الدهر فناً معبراً عن ذات الإنسان وحدسه وتطلعاته.

فالفن هو الذخيرة التي يقف عندها المرء مصطبغاً برداء الجمال، حيث تتكامل لديه الرؤيـة في الدخول إلى عـوالم خفية لم تكن في الحسبان، ونتيجـة للحبكة الفنيّة تندرج تلك العوالم لتشكل رافداً آخر يعطي للجوهر الثقافي الصورة الأكثر قرباً إلى الوجدان.

وهـي ترجمة حية للواقـع الذي يعيشه الإنسـان بتفاصيلها المختلفة، فالعمل الفني هو انعكاس للحياة الاجتماعية والاقتصادية وهو دعامة أساسية لأي حضارة كانت، وكلما تطور الفكر البشري وازدادت تطلعاته انعكس ذلـك إيجاباً علـى النتاج الفنـي، فتعددت صوره وتوضحت ملامحه، وتنوعت رؤاه.

وهي لغة عالمية تحاور وتتجاوز كل الحدود ولا تعـترف بالفوارق أيّاً كانت، وبالتالي فإن المعارضـ الفنية تجوب البـلاد كسفير يمد يد المحبـة والسلام من أجـل تفاهم أعمق



وصلات أقوى بين الشعوب.

فالفنون بطبيعتها التكوينية، تدعو للارتقاء والسمو الروحي وبناء جسور التواصل بين المبدعين والمجتمع من خلال الإشراقات والإيحاءات التي تكتنف جوهرها الأصيل، لتأخذ وزنها الاجتماعي بين الناس في صياغة هدفها واستيعاب مضامينها نحو تغيير الواقع الذي نعيشه نحو الأحسن والأجمل والأكمل.

كما يعيش الفن والفلسفة جنبا إلى جنب فى سباق محمود من أجل إيجاد الحلول للمشكلات البشرية التي تعانى منها المجتمعات على الأصعدة كافة وقد يوصف بعض الفلاسفة أو الفنانين أحيانا بأنهم «مهرجون» أو «مجانين» ويتعرضون للعديد من القلاقل والمتاعب في حياتهم ثم تظهر الحقائق بعد ذلك ليتضح أن هؤلاء قد ظلموا ظلما فاحشا وأن عبقريتهم ونبوغهم وصراعهم ضد أخطاء المجتمعات قد ساقتهم إلى هذا الاتهام. وتمتلئ حياة كل من الفنان والفيلسوف بالمواقف الصعبة نتيجة قناعة أي منهم بالتيار الذي يحاول دائما أن يقف به عند حدود واقع مر دون أن يحاول اختراق هذه الحدود أو يسعى لمجابهة الأفكار البائدة التي ترسخت في الأذهان وأدت إلى إذلال الشعوب وشعورها الدائم بالكبت والحرمان.

كذلــك فاللغــة نســق مــن الإشــارات والرّموز، يشكل أداة في المعرفة، وتعتبر اللغة أهم أدوات التفاهــم والاحتكاك بين أفراد المجتمــع في جميع ميادين الحيــاة. وبدون اللغة يتعذر نشــاط الناس المعرفي. وترتبط اللغــة بالتفكــير ارتباطــاً وثيقــاً. فأفكار الإنسان تصاغ دوماً في قالب لغوي، حتى في حال تفكيره الباطني. فقط في اللغة تحصل الفكرة علــى وجودها الواقعي. واللغة ترمز إلى الأشياء المنعكسة فيها.

الفن والجمال

لقد استُخــدم الفن دائمــا للتعبير عن «الجمال» في كل مجالاته ومظاهره، وخاصة في الحس والشعــور الإسلامي، وبالضرورة حــين يكون عنصر الجمــال عميقا في هذا الوجود ومقصودا لذاته يتبدى واضحا في كل كائناته «الجامدة» وغير الجامدة، والإنسان -وهو خليفة الله في الأرضــ- مُطالَب بأن يفتــح حسه لهذا الجمــال ليلتقي أجمل ما في نفسه -وهو حاســة الجمال- بأجمل ما في الكون، ويُنتج من هذا اللقاء تلك الألوان المتنوعــة من الفنون والإبــداع، فتصير تلك الفنون أنواعا من التعبير عن ذلك الجمال. ومن هنا كان التلازم بين الجمال والفن، فلا تصور للفن بلا جمال ولا تصور للجمال بلا فنّ.

وسواء أكان الفنان بإزاء لوحة تشكيلية، أم بإزاء مقطوعة موسيقية، أم بإزاء قصيدة غنائيــة فإنه في كل هذه الحالات إنما يقدم لنــا «موضوعا جماليــا»، مكتمــلا، متينا، متجددا. والفنان الحقيقي يقدم لنا إعجازًا فنيًا، يجعــل الفكرة تتجسّد في الطبيعة كي تستحيــل إلى فكرة باطنيــة تنبع من أعماق وجودنا. فــإذا بنا نستشعر نضــارة الرّبيع ونشوة الحيــاة، وكأن جسدنا نفسه قد أخذ يتراقص علــى سحر تلك الفكرة التي مسنا بها الفنان.

لذلك فالجمال هو الشعور بروعة الشيء مــن خلال نظرتنا الثاقبــة إليه مع انسجام تام مع الخيال لكي تظهر الصورة أو اللوحة التعبيرية التي نراها في أجمل مظهر.

هنا يحدث تناغم واضح وخاصة بتوفر عامــل الإحساس الذي يؤكد جمالية المنظر وروعتــه حيث يخلق نوعاً من التأثير المباشر على النفس ويجعلها أكثر توافقا مع ما تعبر عنــه اللوحــة أو المكان المنظــور، فللجمال علــم خاص به وكذلك للفــن علم خاص به أيضــا وعلم الجمال هــو علميهتم بدراسة

طبيعــة الشعور بالجمال ومــا ينتج عنه من تأثيرات إيجابية وإيحائية وخاصة في مجال الفن التعبيري حيــث تناولته نظريات أدبية وفلسفية طرحت الكثير من العبارات الدالة على معــاني الجمال مــن الناحيــة الفنية والفسيولوجية ولهذا تمَّ ربط الجمال بالفن لأن الجمال له علاقــة مباشرة بالأحاسيس والوجدان أما الفــن فهو تكوين وخلق شيء ملموس ومحسوس مثــل اللوحات الفنية أو الأبيــات الشعرية أو الموسيقــى، لقد أوجد الفلاسفــة عــدة تعاريف للجمــال والفن، (هيجــل) ذكر أن الجمال هــو ذلك الجني الأنيس الــذي نصادفه في كل مكان و(جون ديوي) الذي يعتبر من الفلاسفة الذين تركوا بصمة واضحة في تاريخ الفن والفلسفة قال إن الجمال هو فعل للإدراك والتذوق الفني، الفن لــه حقل واســع في مخيلــة المفكرين والفلاسفة نظرا لارتباطه الوثيق بالجمال، فاليونانيون القدماء هم أول من عرفوا الفن وأقاموا لــه أبراجاً في حياتهم الفكرية وقد عرفــوه بأنه نشاط عام ونافــع ومؤثر على الإنسان وجسدوه في حياتهم الأدبية وخاصة في مجال الشعــر والموسيقى كما جسدوه في نشاطاتهم الحياتية التــي تشكل لهم حركة الجسد والفكر مثل البناء والحدادة وبعض المهن الأخرى التي اجتمع في تكوينها الفكر والفــن والجمال ومن الفلاسفة الذين أثروا الفــن وأعطوه بعــداً إنسانياً نجــد أرسطو الذي رأى أن الفن هو محاكاة بين بني البشر والآلهة وهنــاك (ستيورت مل) الذي حاول تقريــب مفهوم الفن بعبارته القائلة أن الفن هو السعي وراء الكمال في الأداء ،

وعلم الجمال هو فرع من فروع الفلسفة وقــد ظهر هذا العلم في نهاية القرن الثامن عشر وتناوله عدّة كتاب وأدباء وأدلوا بدلوهم في هذا الموضوع واتضح أن أكثر الآراء جاءت تقــول بأن الفن والجمــال عاملان مفيدان لحياتنا حيث تسمح لنــا بحرية التعبير عن عواطفنــا ومشاعرنــا ويجعلاننــا في حالة ارتباط مباشر بين أنفسنا والآخرين ومعرفة تفاعل حواسنا مع خيالاتنــا باعتبارنا بشر لنا أحاسيســ ومشاعر تحرك فينا الإدراك بقيمة الفن والجمال.

إن الفن كفــن هو نشاط ذهني وروحي ينــم على وجود حالات مــن الإبداع الذاتي بداخلنا نعبر عنــه وفق مواهبنا واتجاهاتنا وميولنــا مما يخلق نــوع مــن التأثير على الآخريــن. والفن هو نتــاج لطاقات فكرية

وهو أحد وسائل الاتصال الثقافي ، والجمال جمال الروح والروح تسكن جسد الإنسان والفكر أيضا داخل الإنسان وبالتالي وجدت حلقة اتصال لنضوج ثقافة تثري حياة الإنسان والإنسان كائن جمالي يشعر ويتحسس طعم الجمال منذ صغره وتكبر تلك الأحاسيس مع كبر سنه وتتوسع مداركه العقلية والفكرية ، كما أنَّ التذوق الفني والإبداع عنصران أساسيان لتكوين الصورة الجمالية للفن بشكل عام .

ولقد مارس الفنان المسلم عمله بحرية مطلقة، كما يقول المستشرق «غرابار»، هذه الحرية المطلقة التي جعلت أي عنصر قابلا للتطور في أي اتجاه: «وهكذا كانت للفن العربي الإسلامي في بداية الإسلام إمكانيةُ نموّ جديدة لا توجد لها، وإمكانية تطور كبير، تشهد عليها واجهة «قصر المشتى» بوضوح، مما يعطي فكرة عن خاصة مميزة للفن الإسلامي في عهد تكونه، وهي «الحرية». فليس هناك نهاية وليست هناك حدود أخرى سوى إرادة الفنان».

وتجلت عبقرية الصانع المبدع في الفن الإسلامي المجرد في تزيينٍ أغنى بها القطع المستعملة والمصنوعة من الخزف أو من الخشب أو الزجاج أو السجاد. ولقد بدأ هذا التزيين الذي تجمعت فيه حصائل لا حد لها في متاحف العالم، والمقتنيات الخاصة، بأشكال وطرق تختلف باختلاف المادة التي صُنع منها.

فالفنون مظهراً من مظاهر حياة الإنسان ونشاطه، فهي إلى جانب حياته الفكرية وسلوكه الأخلاقي مقوّم من مقوّمات وجوده في العالم.

والفنون تعبير عن رؤى إبداعية ذات رسالة نبيلة قادرة على صياغة عالم يسوده الحب وتتسع فيه رقعة الحب و الحوار وتضيق فيه مساحات التوتر والكراهية.

ولكي نفهم الأثر الفني لا بد أن نتعرف على عناصره ونحللها بإرجاع كل عنصر إلى مصدره بجميع تياراتها المختلفة، رغماً أنها تبقى قاصرة عن البيان إلا من خلال معرفة ذات الفنان.

فبالأثر الفني يتم الدخول إلى محراب الإبداع من حيث العلاقة الوشيجة بين الفنان وأثره الفني، ليصبح الفنان من مجرد إنسان، إلى فنان بالمعنى الصحيح، ولكي ندرك الفن بمعناه الشمولي الذي هو الصورة الحقيقية لخبرات المجتمعات من

انبثاق اللحظـة الإبداعية إلى النسيج الذي يشـرف على الناس بحضـور قوي وبراهين قاطعة.

كما ويسعى الفنـان عبر القيم الجديدة والمفاهيم المتنوعة إلى تأسيس مفهوم خاص للجمالية كعالم مستقل يعارض سيادة مفهوم واحد للتلقي، فبقدر تعدد المتلقين يمكن أن تتعدد قراءات العمل الفني لأن العمل الفني أصبح يفسـح مجالاً للاختـلاف الإبداعي ولا يـرد إلى وحدة مـا، فالتغير الذي حدث في هذا العصر قـد أدى إلى اختفاء الأشياء الراسخة والدائمة.

فالكتابـة من أهم الانجازات الحضارية للإنسانيّـة، فانتشار الكتابـة قسّم الشعوب إلى قسمين: بين المالك للكتابة والفاقد لها، وهذه حقيقة تدل على أهمية الكتابة.

فقد كتـب الإنسان لغاته الأولى على كل المواد التي تحيط به تقريباً، حيث كتب أهل سومر حروف لغتهم الأولى على ألواح الطين وحفـر المصريـون القدمـاء رسومهم على الحجر.

واستخدمـت القبائـل الأفريقية جلود الحيوانات، واستعان سـكان المايا القدامى في أمريكا بلحاء الأشجار، وأوسع اليونانيون بالكتابـة على الفخار، ولايـزال أهل إيران حتـى الآن يبثون أشواقهـم في ثنايا خيوط السجاد وعلى جداريات مداخل المساجد.

وقد دافع الفنان الفرنسي المسلم الفونس إيتـان دينييه عن الكتابة بالحروف العربية، مصورًا خطيئة الذين أرادوا إبدال خط آخر بهـا قائلاً: «الكتابة العربيـة هي أرقى نوع فني عرفه الإنسـان، وأجمل خطّ يستطيع المـرء أن يقول فيه من غـير مبالغة: إن له روحًـا ملائمة للصـوت البشـري، موافقة للألحان الموسيقية».

كما وصف الكتابة العربية بأنها: «عبارة عن مفتاح يكشف عن ألغاز الحركات القلبية الدقيقـة، وكأنَّ حروفهـا خاضعة لقوة روح ساريـة، فتراها تارة تلتف مـع بعضها على أشـكال هندسية بديعة مـع محافظتها على جميع الأسرار المودعة فيهـا، وطورًا تراها تنطلق وتقـف بغتة كأنها معجبـة بنفسها، وتـارة تراها تنطلـق جارية تتعانـق، وتارة تتفرق».

ويضيـف: «كلَّمـا تأملـت في أشكالهـا الجذابة أخذت أفـكاري إلى أحلام بعيدة، ولا يلزمنـي أن أكون مستعربًـا ولا ساحرًا لأتمتـع بجمالهـا الساحر الفريـد، بل كل

إنسان توجد فيــه روح الفن تأسر قلبه هذه الكتابة». ويؤكد أن الخط العربي يمتاز على سائر الخطوط بكتابته من اليمين إلى اليسار اتباعا لحركة اليد الطبيعية، فنجد الكتابة أسهــل وأسرع من الكتابــات التي تكتب من الشمال إلى اليمين؛ ولهذا كان الفنان الكبير (ليوناردو دافينشي) يرسم ويكتب من اليمين إلى اليسار اتباعا لقاعدة الخط العربي.

الروح والجسد في الخط :

لكي نتعامــل مع الخط العربي علينا أن نتعلــم التعامل مع اللغــة العربية أن ندرك مــدى أهميها ومدى روعتهــا وجمالها.. لا أعنــي أن نتخصص فيهــا ولكن أن نجعلها شيئًا يوميًــا في حياتنا وفي تعاملاتنا لتبقى الوعاء الذي يحفظ الحوار الجاد والمؤثر.

ومــن تلــك المؤثــرات والعوامــل التي رأى فيهــا «مارتن لنجــز» الاختصاصي في المخطوطــات العربية، سببــاً مهماً في ثراء الخط العربــي، الإحساس بضرورة التماثل والمواءمة ما بين الكلمــة المسموعة والكلمة المكتوبــة، فإذا كانــت الأولى روحــاً فلتكن الثانية الجســم المجسد لجمال الروح، وهو ما نبه إليه ياقــوت المستعصمي بقوله: «إن الخــط هندســة روحانية وإن ظهــرت بآلة جسمانيــة» ويكون للعين ما لــلأذن من وَلَه بهــا، وتماثل في الإبــداع المتبــادل بينهما، حتى صار المتعلمون من المسلمين يتفاضلون بجمــال خطوطهــم وحســن كتاباتهم، كما يتفاضلون بعلــو مراتبهم في العلوم والفنون والآداب. وكان لمدارس الخط من العناية ما يوشك أن يكون لمثلها في الأدب واللغة، وكان على الخطاط أن يوسع من قراءته في الدين والحكمة والأدب والشعر ليختار من الكلام ما هو حقيقي للإبداع في خطه.

وإن هذه المواءمة ما بين الكلمة المسموعة والكلمــة المكتوبــة اللتين تقدستــا بكونهما حملتا القرآن الكريم هدى للناس أفردت كل نوع من أنــواع الخطوط للإيفاء بغرض من الأغراضــ، وخصته باستعمالات معينة راح يتطور من خلالهــا، ويسعى لإبراز محتواها ودلالتها المعنوية، فلكتابة المصاحف والشعر والحكم خطوطهــا، وللدواوين والمراسلات خطوطها أيضاً، وحسب الخط الكوفي دوره في إيضــاح ذلك بما كان لكل نوع من أنواعه ما يخصه بتوجيه معين (فالكوفي التذكاري) استخدم في الغالــب لكتابة الآيات القرآنية الكريمــة أو الحكم، وتثبيت تواريخ الوفيات والولادات وما شابه ذلك (الكوفي المصحفي)

انتسب بصفته هذه إلى شيوع نسخ المصاحف الكبيرة وعلى الأخص في القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت الهجرة النبوية، و(الكوفي البسيط) خص بالمادة التحريرية التي تبرز المعنى بيسر قراءة حروفه، بينما تحول (الكوفي المورّق) الذي شاع على أيام الفاطميين فعرف بالتوريق الفاطمي، و(الكوفي المخمل) و(الكوفي المضفر) المنسوب إلى شكل الضفيرة و(الكوفي الهندسي)..إلخ. إلى تأكيد النوازع التزيينية تبعاً لتطور الواقع الاجتماعي وتعمق الحس الجمالي وقل مثل ذلك بالنسبة للخط (الديواني) و(الثلث) انطلاقاً من أبسط أشكالهما الانسيابية، وإلى أعقدها في طغرائية السلاطين العثمانيين، وما تفرع عنها من تشكيلات تجريدية على جانب كبير من الغنى الأدائي.

وفي أحيان في حرف أو جزء من حرف اتخذ له شكلاً، حيث وقف (الألف) كالسيف رهيف القامة وقد اعتلته قبضته، أو حيث تصير نهايات بعض الحروف مناقير معقوفة لصقور، وهكذا يصير للكلمة ما يطرحها بعداً في الرمز، كمفردة الشاعر حين تمد بنفسها إلى أكثر من غرض في الدلالات الإيحائية أو الإيمانية.

كما إن الخط العربي لم يعد ذلك الحرف الكلاسيكي الذي تخط به الكلمات لتأدية معنى كلام معين بل أصبح من أرقى وسائل التعبير التشكيلي في العالم، كونه يحتوي على رموز وأشكال في مدلولاتها العميقة، تتطور باستمرار حيث تمزج باللون فتفصح عن خبايا عدة يختزلها الواقع الفكري، المعرفي والثقافي العربي.

إن امتزاج اللون بالحرف لبناء فضاء منسجم متماسك ينجب الحركة حينا، والسكون والصمت أحيانا، إذ يتجاوز المساحة للتعبير عن المشاعر وتجسيد الأحاسيس. وهو ما ليس بالأمر الهين، وإنما يخضع لمراحل ويصنع بتجربة وحرفية وموهبة.

فالخطاطون من عشقهم للخط العربي مارسوه وجالوا في محتوياته فعلموا الحقيقة الناصعة في جوهرها.

وإن فلسفة الخط العربي قادت البشرية إلى حقب التاريخ الإسلامي وغاصت به في أعماق المعرفة، وبه قيس مدى مقدار التطور الذي عاشه المسلمون في حقب خلت من التاريخ. بل إنه عنصر رئيسي في صنع الحضارة الإسلامية.

الخط العربي وعبق الحضارة:

لقـد كان الخط العربـي وسيظل حلقة وصل وجسـر تواصل بين الشـرق والغرب، إنـه لم يعدم الجواب حـين مساءلته من كلا الطرفين. إنه كما اعتبره البعض خط تلاق لتقريـب المفاهيم ونبضـا للتحول من العالم المتناقض إلى عالم تستكين فيه الروح.

وفي محاضـرة قيمـة للشاعـر والفنان محمد سعيـد الصـكار ألقاهـا في مدينة انتوربن البلجيكية بدعوة من مؤسسة ثقافة ١١ أضـاء الفنان جانبـا أساسيا من الدور الحضاري للخط العربي في الثقافة العربية المعاصـرة، وتحـدث عـن دوره في التقنية الرقميـة والاتصالات الحديثـة. والصكار الشاعر والفنـان غني عن التعريف، خاصة في ميدان الخط والأبجدية العربية.

والذي بـدا لنا نحن المتتبعـين لنشاطه الفكري والفني أحد الرموز الثقافية العراقية المنتجة في ميادين أخرى كالتصميم إضافة إلى الشعـر والخط والرسم. ابتدأ محاضرته بالحديـث عـن فكـرة الفرق بـين الخط والكتابة فقدم تصورًا قيّمًا عن قدم الكتابة على الخـط، فالكتابة كما يرى فعل إنساني يرتبط بحياة الإنسـان وأساليب تعبيره عن المحيط وما يراه ومـا يفعله ثم عن الكيفية التي يعبر بها عن الكون وعن القدر والمجهول فالكتابة طريقة فنيـة وفكرية للدخول إلى باطن الإنسان.

كمـا هي تعبير عن خارجـه. وقد وجد الإنسان في فهم الكتابة كطريقة تعبير واحدة من مقومات حياته ذاته. ولم نجد شعباً دون آخر لم يفكـر بالكتابـة وإن تأخرت شعوب عـن أخرى. لذلـك فالصوت الـذي نقرأه في الحـرف مثلا، هو الشـكل الذي يتخذه الحـرف أثناء الخط، فشـكل حرف السين مثـلاً هو صوت السين. ومن هنا بدأ الخط بمهمة التعبير عن الأصوات ومن ثم ليتحول لاحقـاً إلى تعبير بصري فني وجمالي امتاز به خطاطون دون بقية الكتّاب.

مـن هنا كانت الكتابـة أقدم من الخط بآلاف السنين فتاريـخ الكتابة تاريخ طويل يمتـد منذ خلـق الإنسان حتـى اليوم، وله بعـد ذلك تدرجات في المعرفـة فهي ليست خطوطا على جـدران الكهوف ولا هـي فعل اليـد على حائط أو قماش، إنما هي جوهر العلاقـة بين الإنسان مفكـراً والحياة مادة للتعبير. ولن ننسى مـا لتنوع وتطور الحياة اليومية من قدرة على جعل الكتابة قرطاساً

لحيـــاة الإنسان. في حين أن الخط هو تنويع فكري وثقافي وجمالي على الكتابة وعدَّ في زمن الإسلام جــزءاً من جوهر العلاقة بين الإنسان والله سبحانه.

إلا أن الظاهــر لا تقف عند الفرق بين الكتابــة والخط، بــل تعدتهــا إلى سياقات أخــرى، منها أن الخط جزء من فكر مجتمع فعندمــا ارتبط بالصوفيــة مثلا اقترب من الترميــز لظواهــر اجتماعيــة وحاجات لم تكن معروفــة، ثمة مناجاة بين حرف الألف والله، ومناجــات أخــرى بين حــرف الواو وفــن الالتفاف وثمة تناسق بين حرف النون وانحناءة السماء، ولهذا فقد أخذت الحروف أشــكالا تعبيرية عن السحر والتعبد والنطق ولم يكن عبثا أن تتحــول الحروف إلى رموز طقسيــة ودينية مبهمة كمفتتح بعض السور القرآنية مثل (كهيعص وألف لام ميم، ونون والقلم وما يسطرون) وغيرها، وهذا القسم بالحــرف الذي هــو ابتداء جــزء من قيمة الحــروف غير المعروفة حتى الآن في التعبير عن الإرادة الإلهية.

ثــم عــرج المحاضر علــى العلاقة بين الفلسفة العربية الإسلامية والخط فأوضح أن اللغــة العربيــة تحتفظ بميــزات بنائية مهمة وكبــيرة، الخط هو أحد هذه الميزات، ولذلك نجده تنوع واختلف وتعدد وأصبحت له مدارس وخطاطون ونماذج وأسماء وكلها تصــب في مهمــة توصيل الثقافــة العربية الإسلاميــة لشعــوب وأقــوام جديدة. وفي هذا الإطار الواسع تحدث الصكار عن دور الخطاطين العرب في تسويق وانتشار الدين والقــرآن والشعــر. ولما استــوت الخطوط العربيــة علــى نمــاذج، تنوعــت أشكالها وتعددت مهماتها فدخلت العمارة الإسلامية كجــزء مــن الزخرفة المعروفــة وكجزء من بناء للعلاقــة بين الله وأمكنــة العبادة كما دخلت الكتب والمؤلفــات خاصة ودورها في الاستنساخ القــديم وعند الوراقين، ودخلت الدواويــن لتصبــح واجهــة حضارية لكل المؤسســات العلمية والمدنية.وتجد دولا عدة جعلت مــن واجهات مطاراتها الكبيرة مكانا لعرض لوحات بالخطوط العربية كجزء من الارتبــاط بين القــديم والحداثة. وللصكار أكثر من لوحة في بلدان العالم.

ثم قدم في الأمسية تصورا جميلا باعتبار أن الحضور كلهم من البلجيكيين الذين يتكلم بعضهم اللغة العربية عن تطور العلاقة بين

الثقافات من خلال تعميــق الإحساس بفن الخط وأوضــح أن الثقافة الغربية لم تعرف قيمة وفنون الخطوط إلا في فترة قريبة جداً لا تتجاوز الخمسين سنة الأخيرة، ولكنها ما أن بــدأت حتى أخذت دورهــا في الثقافة الغربية وفي صناعة الكتاب واللوحات حتى دخلت ميادين تصنيع فنية وتشكيلية وتقنية حديثة وأصبح لها فنانوها المعروفين.

وفي السياق نفسه تحدث الفنان الصكار قائلاً: فالحرف في البنية التشكيلية العربية أصبح لــه تاريخ طويــل فالنساخون العرب الأوائل مثل عبد الحق البغدادي والبسطامي الذي جعل للحرف كتابا وتصورات فلسفية ودينية وعــد لكل نبي حرفا خاصا به الذي هو طريقتــه في التفكير. ولما انتشر الإسلام ودخلت شعوب عدة فيه تمكن عدد كبير من الفنانين الخطاطين، خاصة الفرس والأتراك من الخط وجودوا فيه وعدَّ الذين جودوا في الخطوط العربية من غير العرب ثروة كبيرة في الثقافــة الإسلامية المنتشرة. لذا فالخط ليس وليد التقنية الرقمية الحديثة، ولا هو رغبة يد في تجويــد الكلمات، بل هو فن له مقومــات اللوحة الحديثة، ولــه قدرة على إمكانية التنوع البصري على أشكال أخرى. لــذا يمكن أن تشكل بعض الكلمات خطوطا للوحة، ويمكن أن تدخل بفعل التنوع واتساع معرفة الفنــان وقدرتــه في تركيبة لوحات حديثة كمــا يفعل الصكار ونجــا المهداوي وضيــاء العزاوي وقاســم الساعدي ومحمد مهر الديــن وخالد الساعــي ومحمد غنوم وغيرهم.

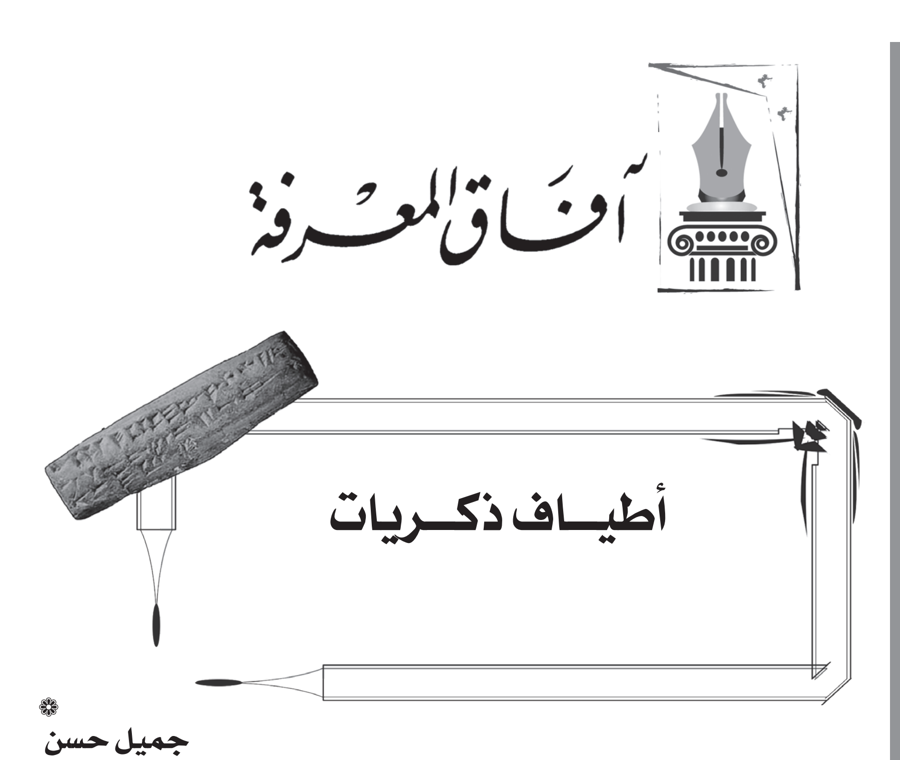
كمــا إن التعامــل مع الخــط في الفن التشكيلــي العراقي في السنــوات العشرين الأخــيرة نقلة نوعية في بنيــة اللوحة الفنية خاصة عنــد الفنان شاكر حســن آل سعيد الذي درســ إمكانية الحروف فنيا وجماليا وعدهــا ضمــن تصــوره الفني عــن البعد الواحد في اللوحة.

وأخــيراً إن الخط العربــي كشكل، كان طوال رحلته عــبر القــرون الماضية ملتقى حوار مستمر بين العلــم والفن يعمق وعينا بهندسته، ويرهــف حسَّنا بجماليته، ويرغم العين علــى أن تتبع كل حــرف من حروفه وكيفية تداخل بعضها ببعض بما يغير مراكز اللوحة باستمرار، فيخيل إليك «أنه يتحرك وهو جامــدٌ» وفي ذلك خصيصته التشكيلية الرائعة.

مراجع البحث:

- فلاسفة وفنانون. رجاء النقاش.
- الجمال والفن. أحمد الهدار، شبكة الشمس الإلكترونية.
- مجلة سيسرا العدد الأول ٢٠٠٨ نادي الجوف الأدبي، المملكة العربية السعودية. الفنان التشكيلي المغربي (محمد البندوري) حاوره نور الدين بازين.
- الأدب الإسلامي. إنسانيته وعالميته، الدكتور عدنان علي رضا النحوي. دار النحوي، الرياض،
- الخط العربي، أصوله، نهضته، انتشاره، الدكتور عفيف البهنسي، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية.
- موسوعة الخطوط العربية وزخارفها، معروف زريق، دار المعرفة، دمشق.
- أطلس الخط والخطوط، حبيب الله فضائلي، ترجمة: محمد التونجي، دار طلاس، دمشق.





أطيـاف ذكـريات

جميل حسن ❁

هي أطياف ذكريات، وليست مذكرات. تلتقطها ذاكرة الثمانين من شريط العمــر المغتني بتجــارب الحياة. كل ذكرى تمثل واقعةً ومعنــى. أما الواقعة فمسؤوليــة الراوي الذي هو أنــا لأنها حصلت معي. وأمّــا المعنى فمتروك للقارئ يشرحه ويشكله كيف يشاء.

- الواقعــة الأولى حصلت في عــام ١٩٤٢ وكنت تلميذاً في الصف الرابع الابتدائي في مدرسة أبي العلاء في مدينة (جبلة) التي كان أبي -رحمه الله-

❁ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

قد نقلنـــي إليها لأن مدرســـة القرية كانت بمعلــم وحيد لصفوفهــا الخمسة، فلم نكن نستفيد منها إلاّ القليل. ولأنّ المعلم نفسه لم يكن كثير العطاء.

أذكــر مـــن تلــك الواقعة وقفــةً طالت للمرحوم أبي على طريـــق المدرسة في أحد أيام الشتاء، مع معلم صفي المرحوم (إبراهيم شكري). أبي ذلك الفلاح البسيط ذو الثياب الرثــة يقف مع معلم مـــن أبناء المدينة، كان ذلــك مبعث شعــور متعـــدد الانفعالات في نفسي أنا ذلك الولد الذي كنته.

سمعــتُ- فيما بعـــد- من أبـــي يحكي لجيرانـــه في القريـــة أنه قـــال للأستاذ: إنه ينـــوي أن يعيـــدني إلى مدرســـة القرية لأن نفقات تعليمي في المدينة تكلفه فوق طاقته، فقال لـــه المعلم: لن نسلمك إيـــاه. فهو ولد ذكـــي ومجتهد. إذا أعدتـــه للقرية ستقضي عليـــه. ضح لأجله. سيرد لـــك نفقاتك عليه كلّها وأكثر بعد أن يكـــبر. وتكون قد أنقذته من حياتكم وأعمالكم القاسية في الجبل.

وهكذا أنقذني معلمي –رحمه الله- من أن أكـــون فلاّحاً فقيراً أعيد سيرة والدي، أو عاملاً زراعياً بائساً بسحنته الهزيلة.

❁ ❁ ❁

- الواقعـــة الثانيـــة جـــرت في مدرسة (التجهيـــز) في اللاذقيـــة، في عام ١٩٤٤ في الصف السابـــع، وكان مدرس اللغة العربية الأستاذ المرحوم أديب طيار الذي كنا نشرب كلماته في عقولنا كما يُشرب الماء الزلال.

كان ذلـــك في أوائل فصـــل الربيع حيث بدأ الأستاذ يعطينا درساً في (الإنشاء) فكتب على اللوح بيت البحتري المشهور:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً

من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقبل أن يباشـــر محادثتنا حول الموضوع قُـــرع علينا البـــاب ودخل (الناظـــر) وقال للأستاذ: «وزير المعارف الفرنسي في الإدارة- (ومديرنا نفسه كان فرنسياً)- وسوف يقوم بجولة على الصفوف).

وفور مغـــادرة (الناظـــر) التفـــت إلينا الأستاذ بابتسامته التي لم تكن تفارق وجهه، وقال بلهجـــة صافيتا التي تميل لفظ الألف بين الفتح والكسر:

«اختلـــف الحيل (الحال) يـــا شبيب (يا شباب)».

ثمَّ محا مـــا كان كتب. وكتـــب مكانه ما يلي:

«الاتحـــاد يولد القوة» ثم كتـــب قبالتها «Lunion fait LA Force».

وما هي إلاّ دقائق حتى قرع الباب ثانية وفُتح ليبرز ذلك الوزير الفرنسي بقامته الطويلة وشعره الأشيب وبزته الزرقاء (المقلّمة). ووقفنا لتحيته بإيعاز من الأستاذ، فصافحه الوزير وقرأ ما على اللوح ثمّ ودّعنا منحنياً قليلاً مع ابتسامة، على صغرنا فهمناها.

فعقب أستاذنا قائلاً: «لقد وصلت الرسالة».

ونقل المحاورة إلى الموضوع الجديد.

❀ ❀ ❀

- الواقعة الثالثة جرت في الثانوية الأرثوذكسية في حمص عام ١٩٤٧م حيث كانت أحوال الوالد المادية قد تحسنت قليلاً، فنقلني -مع أخ له غير شقيق- رافقني ورافقته -سنوات تعليمنا- في الابتدائي والإعدادي- ووضعنا في مدرسة داخلية (أي تقدّم الإقامة والطعام والتعليم للطلاب لقاء أجرٍ معين) ليضمن نجاحنا في الشهادة المتوسطة. وكان يدرسنا النصوص الأدبية المرحوم الأستاذ أحمد نورس السواح (أبو فراس)، فكان يعيد لنا سيرة أديب طيار بظرفه وفكاهته مضافاً إليهما النكهة الحمصية المعروفة بالبساطة والعفوية والطيبة.

وأذكر أنه كان يأتينا بنصوص أدبية من خارج الكتاب المدرسي ضمن موضوع الدرس في المنهاج، وكان يعتمد الحوار وسيلة أساسية في تأدية الدّرس. وفي إحدى الحصص الدرسية قال: خذوا قلماً وورقة فأخذنا. فقال: قارنوا لي بين هذا النص لجميل بثينة، ونص عمر بن أبي ربيعة الذي درسناه فيما مضى، من حيث المعاني والألفاظ وروح الشعر!. ومعكم الحصَّة الدرسية إلى آخرها.

وأذكر أنه رضي عما كتبته وقرأه على زملائي في الصف.

وهكذا وضع ذلك الأستاذ الرضي أيدينا على بدايات أساليب النقد الأدبي.

❀ ❀ ❀

- الواقعة الرابعة جرت في مدرسة دار المعلمين في حلب، وكانت كذلك مدرسةً داخلية تقدّم لطلابها الإقامة والطعام والتعليم، وكل ما يحتاجونه من الكتب والقرطاسية مجاناً، مع معونة شهرية قيمتها خمس وعشرون ليرة سورية للطالب لمصروفه الشخصي لقاء تعهد مكفول يقدّمه الطالب بأن يخدم التعليم معلماً ابتدائياً بعد تخرجه ثلاثة أمثال المدة التي يقضيها في

دار المعلمين حيث كان الطالب يقبل بعد حصوله على الشهادة المتوسطة ومثوله أمام لجنة قبول برئاسة مدير الدار تقدّر وتقرر أهلية المتقدم بلياقته البدنية، وقدراته العقلية ليكون معلماً حقيقياً. وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات، تنتهي بامتحان تخرّج.



وكان مدير دار المعلمين آنذاك المربي الكبير المرحوم عمر فوزي عيسى خريج جامعة السوربون في باريس -كما قيل لنا- بقامته الباسقة ووجهه الأبيض وشعره الأشهب المائل إلى الشقرة.

وكان يتمتع بأخلاق عالية، ودماثة كبيرة، وأناقة في المظهر، ولطف في المعشر، محصناً ذلك كلّه بصرامة تجعله إذا قال فعل.

أذكر أنه دخل علينا ذات مرّة إلى قاعة الطعام وقت الغداء. وبعد أن طاف على موائدنا مائدة مائدة استدعى المحاسب ومشرف الطعام، فحادثهما على انفراد، وقد بدت على وجهه علامات انفعال واضحة ثم التفت إلينا وقال بصوت هادئ لطيف ممزوج بشيء من الشدة: «يا طلاب!. أضربوا!. لماذا تأكلون هذا الطعام. إنه ليس طعامكم. هو أقل مما خُصّص لكم. أنتم طلاّب. لتكونوا غداً معلمين. ويجب أن تزودكم دار المعلمين إلى جانب العلم وأصول التربية والتعليم بكيف يُربى الإنسان على الحق والأمانة

واحــترام الكرامة. أضربــوا ضدي أنا عمر فــوزي عيسى لعــلَّ الــوزارة تسمع بخبري فترســل من يفتشــ علــيّ ويحاسبني على تقصيري معكم، وأكلي حقكم».

ومنــذ اليوم الثاني تحســن نوع طعامنا وزادت كمية الوجبة فيه.

❁ ❁ ❁

- الواقعــة الخامســة في دار المعلمــين نفسهــا حيــث كان أستاذ مــادة «التشريح والفيسيولوجيــا» مصرياً، واسمــه «توفيق عمار». وكان هادئ الطبع صارم المظهر، وفي الوقت نفسه. لطيف المعشــر. كان حريصاً علــى أن تكــون دروســه كلّهــا في المختبر، ونــادراً ما أعطانا درساً من مادته نظرياً في الصف.

مــرّة، وقد شرح لنــا الأرنــب حياً بعد تخديــره، وأعاد الدرس إيــاه في الحصص التاليــة وزعنا على فصائل وسلّم كلّ فصيل أرنبــاً حياً فذاكرنا قليلاً فيما كنا قد رأيناه في المــرة الماضية، ثم جعــل كلّ فصيل يقوم بتشريــح الأرنب الذي بين يديه بدءاً بتثبيته علــى لوحــة التشريــح وتخديــره وانتهاءً بالتعــرّف علــى أعضائــه وأحشائه وعمل الفيسيولوجيا في أعضــاء الأحشاء (حركة الأمعــاء الدودية- حــركات المعدة - اتساع الحجاب الحاجز وانكماشه- حركات القلب في انقباضــه وانبساطه- حــركات الرئتين وهما تحتضنان القلــب بينهما- إلخ) وقال لنا: «مــن يميت الحيوان في أثنــاء العملية تحسم له علامات». ثــمّ تركنا نعمل، وأخذ يجول علينا ينظر فيما نعمل دون أن يتدخل إلاّ عند الضرورة.

وهكذا فعــل مع الدجاج، ومع الضفدع. وأذكــر أني قمــت بهذه التجــارب جميعها لتلاميذي في المدارس الابتدائية التي عملت بها قبــل أن أنتقل إلى التعليــم الثانوي أي خلال عشر سنوات في التعليم الابتدائي.

❁ ❁ ❁

- الواقعــة السادسة في «بشراغي» وهي القريــة الجبلية التــي عُينت فيهــا معلماً وحيداً لمدرســة ذات خمسة صفوف. بالعام الدراســي ١٩٥٠-١٩٥١. وقــد كان ذلــك العام بداية «دراما» شبه مأساوية في حياتي أنتجت في إحدى مراحلها ملحمة «بشراغي» الشعرية الصادرة عــن وزارة الثقافة ضمن الجزء الثاني مــن «ملاحم على الورق» عام ٢٠٠٥م.

وسأكتفي هنا بمراحل ثلاث أذكر فصولها

الثلاثة فيما يلي- بكل صدق وأمانة: المرحلة الأولى: مرحلة تعييني في تلك المدرسة ولم أكن قد بلغت العشرين من العمر. لكنّ الإعداد الجيد الذي تلقيته وزملائي في دار المعلمين على يد «عمر فوزي عيسى» وزملائه ظهر أثره البالغ في تلك السنة الدراسية.

فقد أخذ تلامذة المدرسة الخمسون حظهم من التعليم والتربية ما جعل التلامذة التسعة الذين قدّمتهم لامتحان الشهادة الابتدائية ينجحون جميعاً. ولم يكن حظ الصفوف الأربعة الأدنى بأقل من حظ هؤلاء من العناية والتعليم.

أضيف إلى ذلك أني فتحت مدرسة ليلية لمكافحة الأمية في القرية أتى إليها شباب القرية ممن هم أقل من سن الخامسة والثلاثين حيث لم يكن قانون خدمة العلم قد صدر بعد.

القنديل كان من عندي حيث كنت أسكن الغرفة الثانية من بناء المدرسة. واللوح والمقاعد موجودة بطبيعة الحال. وما كان على الشباب إلاّ أن يجمعوا من بعضهم ثمن علبة طباشير أو أكثر في الشهر.

وهكذا لم ينقضِ ذلك العام الدراسي وفي القرية أميّ واحد من ذلك العمر. وأقلهم حظاً من التعلم الذي أتى أميّاً أميّة كاملة وصل إلى ما وصل إليه تلامذة الصف الأول النظاميون (أي خرج وهو يقرأ ويكتب ويحسب).

في مطلع العام الدراسي التالي فوجئت بنقلي إلى أنأى قرية في الجبل على تخوم الغابات. وعندما حزمت أمتعتي المتواضعة في بشراغي التي تولى نقلها بعض شباب القرية خرج أهلها معي يبكون ويندبون وكأنهم يودّعون جنازتي إلى المقبرة.

قضيت في مدرستي الجبلية الجديدة شهراً و (نزلت) إلى المدينة ماشياً أربع ساعات لقبض راتب كانون الأول عام ١٩٥١م سلمني المحاسب راتباً محسوماً منه ١٠٪ وقراراً بنقلي تأديبياً من محافظة اللاذقية إلى محافظة الجزيرة مع حسم١٠٪ لمدة ستة أشهر، جزاء قيامي بنشاط دعائي لحزب البعث العربي الذي لا أتبرأ من تهمة الانتماء إليه. لكنني أقسم صادقاً إني لم أقم بأي نشاط حزبي، مكرساً نشاطي كله للقضية التعليمية وإصلاح ذات البين بين أي متخاصمين من أهل القرية.

وللقارئ العزيز أن يتصور رحلة الضنى والعذاب لمعلم في العشرين من العمر عليه أن

يبيت ليلة في حلب وليلة في دير الزور قبل أن يصل إلى الحسكة. التي وصلتها وفراشي يقطر من ماء المطر على ظهر (البوسطة).

المرحلة الثانية في الحسكة. المدينة التي لم يكن فيها آنذاك مشروع ماء للشرب. وكان فيها معمل كهرباء على ضفة الخابور جرفته مياه الخابور في أول فيضان لها. فكنا نستضيء بزيت الكاز.

هناك تحضّنني ورعى غربتي مدير المعارف الأستاذ عبد الجبار عدي من (آل عدي) الحمويين النبلاء -رحمه الله- إن كان قد توفي وستر الله له بقية عمره إن كان ما زال حياً. وعينني في إحدى مدرستي الحسكة- نفسها.

بعد ثلاثة أشهر من عملي الشاق هناك، وبنفس الحماسة والاندفاع الذي كنته في بشراغي، تابعت في الحسكة. أوصى لي رئيس الديوان وكان شهماً هو الآخر اسمه (حسن بربندي) من دير الزور لآتيه فاطلع على إضبارتي التي وصلت للتو من اللاذقية. فقرأت فيها ما أذهلني. تقريراً تفتيشياً ملخصه ما يلي:

«نُمي إلينا أن معلم مدرسة بشراغي السيد جميل حسن يقوم بنشاط مخرّب لحزب البعث العربي، وقد شقّ أهل القرية حتى جعلهم يقتتلون فيما بينهم وهجرّ بعضهم من القرية. فشخصنا نحن المفتشين (إ. ج و م. غ) إلى قرية بشراغي (وأقسم على أنهما لم يدخلاها على مدى عمرهما) واتصلنا بعدد من الأهالي فأكدوا لنا ما كان قد نُمي إلينا. وقد شاهدنا في درج طاولة المعلم منشورات حزبية تؤكد ما قلناه «والمعلم لم يكن عنده لا في الصف ولا في بيته طاولة».

وكما ظلّ تلامذة بشراغي الذين تبوأ بعضهم مركز رفيعة في الدولة أوفياء رغم مرور أكثر من خمسين سنة، كذلك بقي تلامذة الحسكة وأهلوهم الذين رعوني واحترموا لي إخلاصي لأبنائهم رغم مرور تلك السنين الطوال أيضاً.

وهذا ما عزاني وعوّض علي مرارة الاغتراب وشظف العيش.

المرحلة الثالثة في «الفجيرة» بدولة الإمارات العربية المتحدة التي كنت فيها موجهاً اختصاصياً لمادة اللغة العربية معاراً من وزارة التربية في سورية ما بين العام الدراسي ١٩٧٨-١٩٧٩ والعام الدراسي ١٩٨١-١٩٨٢ وأمسك عن الدخول في هذه

المرحلــة محيــلاً القارئ المهتــم إلى ملحمة «بشراغي» التي ذكرتهــا آنفاً، ليقرأ فصلها هناك.

❁ ❁ ❁

– الواقعة السابعة جرت معي عام ١٩٦٠ عندمــا حصلت علــى الإجــازة الجامعية وتقدمت إلى مسابقة انتقاء المدرسين.

الواقعة ذات شقين. الشــقّ الأوَّل يتعلق بــالأوراق المطلــوب تقديمهــا إلى الــوزارة لأقبــل للدخول في المسابقــة. والشق الثاني يتعلق بمثولي أمام لجنة القبول. فيما يتعلّق بــالأوراق كان يُطلب من المعلــم أن يحصل علــى موافقة مديريــة التربية في محافظته فقــط لأنه أصلاً من مــلاك وزارة التربية. إلى جانــب إخراج قيد مــن النفوس وطلب القبول.

وعندما قدّمت الأوراق إلى وزارة التربية في دمشق قال لي الموظف: «تحتاج إلى وثيقة من مديريتك تبين سنــوات خدمتك» وعبثاً حاولت إقناعه بــأن هذه الوثيقة ليست من الأوراق المطلوبة في إعلان المسابقة. راجعت مدير التعليم الثانوي فنهرني، وقال: «موظفنا لا يلعب». وأجبروني على العودة إلى اللاذقية فحصلت علــى وثيقتهم المطلوبة وعدت بها إلى دمشــق متكلفاً ما يمكــن أن يتصور من عناء السفــر آنذاك بين دمشــق واللاذقية ذهابــاً وإياباً. وعندما قدّمــت الأوراق إلى ديوان الــوزارة تسلّمها منــي موظف آخر، فانتزع الورقة التي أجبرتني على السفر بين دمشق واللاذقية، ثم مزّقها ورماها في سلة المهمــلات، وقال: «هذه لا لزوم لها». ولجنة المقابلة التي مثلــت أمامها كانت مؤلفة من الأستاذ الدكتور «جــودة الركابي» والأستاذ «بسام كرد علي». رحبا بي بكل لطف وقالا: «تفضل! اجلس». وأعطياني كتاب «الأمالي» لأبي علي القــالي مفتوحاً على نص شعري لم أعــد أذكر اسم شاعــره، وقالا: «انظر في هــذا النص، واقــرأه لنا كأنــك تقرؤه على تلاميذك في الصف». أخذت الكتاب وقرأت النصــ دون تعــثّر أو خطأ. فقــال الدكتور جــودة: «أيمكنك إعطاؤنــا فكرة عن مجمل معاني النصــ؟» ففعلت. فســألاني إعراب بعضــ الكلمات فأعربتها. أخــيراً قدّما لي ورقــة بيضــاء وقلماً قائلــين: «قطع البيت الأوّل وسم لنا بحــره» فقلت: «لا حاجة إلى التقطيع. هــو على البحر المتقــارب، وفيه الزّحاف الفلاني». عندها قال الأستاذ بسام: «بالتأكيد أنت شاعر» فأجبت على استحياء:

«أكتب الشعر أحياناً» فطلب بإلحاح أن أقرأ شيئاً مما أحفظه من شعري فقرأت ثلاثة أبيات من قصيدة في الغزل. فقالا: «شكراً. يكفي. مع السلامة يا أستاذ».

وهكذا كنت الأوّل بين المقبولين وعيّنت في محافظة إدلب لأن محافظتي لم يكن لها نصيب من تلك المسابقة.

❁ ❁ ❁

- الواقعة الثامنة جرت لي مع أستاذ الجيل المفكر الكبير المرحوم «أنطون مقدسي» الذي كان وقتها مديراً للجنة التأليف والترجمة والنشر في وزارة الثقافة عام ١٩٩٨- على ما أذكر.

أرسلت إلى اللجنة مخطوطاً في الدراسة الأدبية بعنوان «نديم محمد.. سيرة حياة وقراءة شعر» وأنا أتوجّس خيفة من رفضها فأنطون مقدسي لا أعرفه ولا يعرفني. وقد قال لي يومها الأستاذ أسعد صقر: «أنا أعرف أنطون جيداً. إنه لا يجامل أحداً، ولا يشرك برأيه أحداً».

وبعد مضي ثلاثة أشهر تقريباً وأنا أترقب إبلاغي قراراً برفض المخطوط، أتاني من يقول لي: إن الأستاذ أنطون يطلب مني أن (أمرّ عليه) في الوزارة عندما أذهب إلى دمشق. وحيث كنت متقاعداً وليس لدي ما يمنعني من السفر سافرت من الغد يرافقني أحد أبنائي.

سألت عن الأستاذ فقيل لي: ذاك هو الجالس وراء مكتبه في الغرفة المقابلة. قرعت بابه، وحييته فردّ التحية بتثاقل واضح ولهجة (ناشفة) فالأستاذ كان كالمومياء (جلداً وعظماً) لكن بحضور ذهني عجيب.

فقلت: أنا فلان مؤلف كتاب نديم محمد. فقال: «إي اقعد» فقعدت، وانتظرت صدور الحكم. وللقارئ أن يتصور دهشتي وفرحتي الباطنية عندما قال لي الأستاذ: «كتابك جيد». ثم عقّب قائلاً: «هذا هو النوع من الكتابة التي أريدها عن نديم محمد. فنديم كان صديقي ورفيقي في الحزب العربي الاشتراكي. وكم سهرنا الليالي الطوال مع بعضنا». وطلب تعديل منهج الدراسة من الأسلوب النقدي إلى الأسلوب التاريخي التطوري الذي يماشي تواريخ دواوين الشاعر. فنفذّت ما طلب وأعدته للأستاذ في غضون شهر فتبناه، وتولّت الوزارة مشكورة طبعه ونشره.

حيث صدر عام ٢٠٠٠م.

❁ ❁ ❁

– الواقعة التاسعة جرت لي في صيف عام ١٩٥٤م في قرية جبلية، وكنت أشارك بقصيدة من ثلاثين بيتاً في حفل تأبين المرحوم الشيخ عبد اللطيف سعود كبير القضاة الشرعيين في المحافظة، وكان صديقاً لوالدي يزوره كلّ صيف مرّة أو مرّتين فيمكث عنده يوماً أو يومين، وكنت وعمي «أسعد صقر» (أخو الوالد غير الشقيق» نتقرّب من الشيخ وهو يحادث الوالد في الشعر والقرآن الكريم وبعض القضايا الدينية. وكنا نحبه لأنه كان يؤثرنا ببعض الحديث فيقرأ لنا من شعره، ويسألنا بعض أسئلة الإعراب وشرح أبيات الشعر.

في الحفل المذكور عندما جاء دوري، وصعدت إلى المنصة فوجئت بما لم أكن أتوقع، وقد أربكني، إلاّ أنني تماسكت. لقد كان الشاعر الكبير ذو الصيت العريض المرحوم «بدوي الجبل» يتصدّر الصف الأمامي بين الحاضرين. وهاتي يا أعصاب الشاعر الشاب الذي هو أنا، أسعفي وصاحبك أمام أكبر شاعر في البلاد.

بالطبع تركز توجهي إلى «البدوي» في القراءة وأصبحت كأني تلميذ أسمّع درساً في المحفوظات للأستاذ ولكنّ ما شجعني وساعدني على التماسك بعض إيماءات الشاعر برأسه استحساناً لبعض الأبيات.

وعندما نزلت عن المنصة وقف الشاعر الكبير –رحمه الله– فصافحني وشدّني فأجلسني إلى جانبه، ومال على أذني وقال قولته التي لا أنساها: «يا بني!. أنت مشروع شاعر جيد. انتبه لنفسك. اقرأ كثيراً: ونوّع قراءاتك !. وفقك الله». وكان والدي بين الحاضرين فامتلأ قلبه سروراً وغبطة. وفي طريق العودة سألني: ماذا قال لك الأستاذ؟ فأخبرته الخبر. فازداد غبطة وسروراً وحكى الواقعة أكثر من مرة لأبناء القرية.

– الواقعة العاشرة التي سأجعلها الخاتمة جرت لي في عام ١٩٦٨ في السفارة البريطانية في باريس.

كانت قيادة الحزب قد أوفدتني لزيارة بعض المنظمات الحزبية في أوروبة الغربية.

وكان لابدَّ أن أزور منظمة الحزب في انكلترا، والعلاقات الدبلوماسية مقطوعة بيننا. فقصدت سفارتهم في باريس وبرفقتي صديق تونسي يتقن اللغة الفرنسية. بقصد الحصول على تأشيرة دخول إلى انكلترا.

رحب بنا القنصل البريطاني بتهذيب، ثمّ تناول الجواز، ولما علم أني سوري سألني:

مـــاذا تبغي مـــن زيارتك «لنـــدن». قلت له: سياحـــة. قـــال: ولكنّ العلاقـــات مقطوعة بيننا. فقلت: العلاقات تقطع بين الحكومات اليـــوم لتوصل غداً حسب الطقس السياسي أما العلاقات بـــين الشعوب فلا تقطع لأنها تواصـــل حضـــاري. فظهـــر الإعجاب على وجهه، وهنا سألني:

أنت مـــاذا تعمل في سوريـــة؟ فقلت له: أستاذ أدب. هنا اعتذر وكرر اعتذاره، ومهر الجواز بالتأشيرة، ثم خـــرج من وراء مكتبه وودّعنا إلى الباب.

ولا أكتـــم قارئي أنّ دمعـــة راودتني وأنا أدخل مصعـــد المبنى، وســـؤالاً تلاها يقول بيني وبين نفسي:

أنا أستـــاذ أدب في بلاد تقطع العلاقات الدبلوماسيـــة مع بلاد هـــذا القنصل، وقد احترم عملي هذا الاحترام كله. يا ترى!. ماذا يساوي أستاذ الأدب في بلادنا العربية؟

❁ ❁ ❁

لقـــد حاولت جهدي ألاّ أوحي بأي معنى أو مغـــزى للقارئ الكريم فعسى أن تكون قد وصلته الرسائـــل المتوخاة من هذه الأطياف كلها. وله أطيب التحية والمحبة.





غوركي يتحدث عن تشيخوف

نصر الدين البحرة ❁

كان أنطــون بافلوفيتش تشيخوف على علاقة طيبة مع معظم الكتاب في زمانــه، ولكن الأقــرب إلى قلبه وعقله بينهــم كان مكسيم غوركي الذي كان يتردد عليه ويــزوره باستمرار. وهذا مامكنه من أن يسبر أغواره ويطلع على أحوالــه حتى الصحية، وأن يقدم شهادة كتابية عن تشيخوف عام ١٩١٤ أي بعد عشر سنوات من وفاته. وهي منشورة كاملة في المجلد الأول من المؤلفات المختارة الصادرة عن دار التقدم في موسكو عام ١٩٨١.

❁ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

ذات يوم نشر تشيخوف قصة قصيرة عنوانها «مع سبق الإصرار» وفيها قدم الصياد «دينيس غريغورييف» الذي ضبطه حارس السكك الحديدية متلبساً عند الكيلو ١٤١ بفك برغي كبير من تلك التي تثبت بها القضبان الحديدية على القواعد. وقبض عليه ومعه البرغي المذكور.

محاكمة الصياد «دينيس»

ينقل تشيخوف بعض وقائع جلسة المحاكمة. يُسأل الصياد: لماذا فككت البرغي ؟فيقول لو لم أكن في حاجة إليه لما فككته.

- وماحاجتك إلى البرغي

- البرغي ؟نحن نصنع من البراغي ثقّالات لصنارات الصيد

- اسمع ياأخانا. لاتتظاهر بالغباء وتكلم بصراحة. كفاك كذباً بخصوص الثقالات..

- أنا عمري ماكذبت، فلماذا أكذب الآن!؟ وهل يمكن ياصاحب السعادة أن تصيد بدون ثقّالة !؟

في النهاية، يقاد الصياد إلى السجن، وهو يصيح: أيها القضاة، إذا حكمتم فلتحكموا بالعدل، بالأصول.. وليس هكذا بلا ذنب.. حتى لو حكمتم بالجلد فليكن.. المهم بالحق.. بالأمانة.

كان واضحاً من سياق القصة أن تشيخوف يقف إلى جانب هذا الصياد المسكين، ويتهم القاضي بعدم تفهم موقفه وتقدير ظروفه. وهذا ماجاء النائب العام يناقش فيه تشيخوف بعد أن قرأ القصة. وقد حضر غوركي وسمع الحوار، وقد جاء فيه أن الصياد متوحش ولم يدرك جريرة فعله كما يقول النائب العام: «ولو أني عاملته كشخص تصَّرف دون فهم، واستسلمت لمشاعر الشفقة، فكيف إذاً أضمن للجميع أن دينيس لن يعود إلى فك براغي القضبان ويتسبب في حوادث القطارات؟!»

لو كان تشيخوف قاضياً

واختصر تشيخوف رأيه بكلمات معدودة:

- لو كنتُ قاضياً لبرأت دينيس.

- على أي أساس؟

- كنت أقول له: أنت يادينيس لم تبلغ بعد مرتبة المجرم الواعي. اذهب ابلغ

وكما هو الحال في قصصه فإن تشيخوف غيّر مجرى الحوار، فسأل النائب العام فجأة: هل يعجبك الفونوغراف؟وإذ ردّ بالإيجاب، فإن تشيخوف أعطى رأيه في هذا النموذج من الناس أو الموظفين المسؤولين، قبل أن يعني الفونوغراف: أنا لاأطيق الفونوغرافات. إنها تتحدث وتغنيّ دون أن تحّس بشيء.

بثور على مقعد العدالة!

وينقل غوركي عن تشيخوف قوله بعد انصراف النائب العام:

– أمثال هذه البثور، على مقعد العدالة، هم الذين يتصرفون بمصائر البشر ويقدم غوركي رأي تشيخوف في الثقافة، من خلال حديثه عن واقع المعلمين المزري: «بدون شعب مثقف ثقافة واسعة ستنهار الدولة كالبيت المشيد من آجّر لم يُشو جيداً. عندنا – المعلم –عامل يدوي. شخص قليل الثقافة. يمضي إلى تعليم الأولاد في الريف، بنفس الرغبة التي قد يمضي بها إلى المنفى»

كان تشيخوف متشائماً رغم حسه الفكاهي وظرفه ولكنه «التشاؤم المرهف لشخص يعرف قيمة الكلمة، قيمة الأحلام» يقول غوركي:

«مضينا إلى البيت على مهل وفي صمت. كان ذلك يوماً صافياً حاراً. وتعالى هدير الأمواج وتراقصت عليها أشعة الشمس. وتحت الجبل عوى كلب برقة وهو يشعر بالرضا لسبب ما. وضع تشيخوف ذراعي تحت ذراعه وقال ببطء وهو يسعل:

– إنه لشيء مخجل ومحزن، ولكنه صحيح: فكثير من الناس يحسدون الكلاب.»

المعلم الفقير والمعلم المتبرجز

بلى، لقد رثى تشيخوف للمعلم، البائس الفقير، لكنه في المقابل لم يوفر من تهكمه وسخريته، ذلك المعلم المتبرجز المتفذلك المتفاصح، وهو ينتقي الكلمات بعناء شديد يحاول أن يتحدث بصورة أسلس أو (أكثر ثقافة) أو يركز كل قواه بوقاحة الأشخاص مفرطي الحياء «على حد تعبير غوركي الذي يتابع ذاكراً ماقاله ذلك المعلم، وهو جالس قبالة تشيخوف، بصوت غليظ:

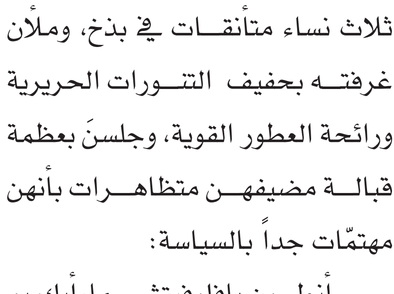
– من مثل انطباعات الوجود هذه على امتداد الموسم التربوي، يتشكل ذلك المركب السيكولوجي الذي يقضي تماماً على أية إمكانية للموقف الموضوعي من العالم المحيط. والعالم بالطبع ليس إلا تصوراتنا عنه.

تشيخوف والنساء المتحذلقات

– ومثلما يفعل الرسام الماهر، إذ يصور الملامح بضربات سريعة من ريشته ، فإن تشيخوف اختصر تعليقه على هذا الهراء كمايلي:

– قل لي من فضلك، من الذي يضرب الأولاد في ناحيتكم؟

على النحو ذاته سخر تشيخوف من النساء المتحذلقات. يقول غوركي: «ذات مرة زارته



ثلاث نساء متأنقــات في بذخ، وملأن غرفتــه بحفيف التنــورات الحريرية ورائحة العطور القوية، وجلسنَ بعظمة قبالــة مضيفهــن متظاهــرات بأنهن مهتمّات جداً بالسياسة:

- أنطــون بافلوفيتش، مارأيك بم ستنتهي الحرب؟

وتنحنح تشيخوف، وفكر قليلاً، ثم قال بصوت ناعم ونبرة جادة رقيقة:

- على الأرجح.. بالسلام

- نعــم طبعــاً. ولكــن مــن الذي سينتصر؟ اليونانيون أم الأتراك ؟

- أعتقد أنه سينتصر من هو أقوى.

- ومن هو الأقوى برأيك؟

- مــن يتغــذون أفضل، ومــن هم أكثر ثقافة.

- ومن تحب أكثر اليونانيين أم الأتراك؟

وحســم تشيخــوف، على عادتــه، هذه المهزلــة بسؤال السيدة التي طرحت السؤال الأخير، وهو يضحك ضحكة قصيرة مهذبة

- أنا أحب المرملاد. وأنت هل تحبينه؟

ودخلت النسوة الثــلاث، دون أن ينتبهن مطلقــاً إلى سخريــة تشيخــوف العميقة، في حديثــه عن المرمــلاد ورائحته الجميلة للغاية.. ثم وعدنــه وقد هممن بالانصراف بأنهن سيرسلن إليه المرملاد..



الابتذال والعيش دون هدف

كانــت هنــاك، كمــا يوضــح غوركي، مسألتــان تقلقان تشيخــوف: الابتذال وأن يعيشــ الإنسان دون هــدف أو رسالة: يأكل وينام ويعمــل مثل حصــان المطحنة. يقول غوركي:

«كان تشيخــوف يتمتــع بفــن اكتشاف الجوانب المبتذلة وإبرازها أينما كانت، هذا الفن الذي تخلقه فقــط الرغبة الحارة في رؤية النــاس بسطاء جميلين متجانسين» ثم يتابع:

«منذ البداية استطاع أنطون تشيخوف في قصصه الأولى أن يكتشف في بحر الابتذال الكابي، مزحاته المأساوية الكئيبة: يكفي أن تقرأ بانتباه قصصــه القصيرة «الفكاهية»

حتى تقتنع بأنه ماأكثر ماكان – تشيخوف – يراه في حزن، ويخفيه في خجل، من أشياء قاسية ومنفِّرة وراء الكلمات والمواقف المضحكة.»

ويستدعي غوركي إلى الذهن النحات الفرنسي (رودان Auguste Rodin ١٨٤٠–١٩١٧) الذي استطاع أن يعبر.. حتى عن القبح تعبيراً جميلاً، فيقول: كان وهو يحقق كل ماهو مبتذل وقذر، يصف كل حقارات الحياة، بلغة نبيلة لشاعر.

في كل قصة آهة خافتة

ويستطرد مؤلف (الأم) قائلاً: «في كل قصة قصيرة من قصص انطون بافلوفيتش الفكاهية، أسمع آهة خافتة من قلب نقي إنساني حقاً، آهة إشفاق يائسة على الناس الذين لا يعرفون كيف يحترمون كرامتهم الإنسانية، ويعيشون كالعبيد مستسلمين دون مقاومة لقوة غاشمة، ولا يؤمنون بأي شي، اللهم إلاّ بضرورة أن يتناولوا كل يوم حساءً أكثر دسامة قدر المستطاع»

إنها إذاً مأساوية توافه الحياة التي لم يستطع أحد قبله أن يرسمها للناس بهذا الصدق

كتب تشيخوف في إحدى رسائله إلى الكاتب الروسي صديقه سوفورين:

«ليس هناك ماهو أكثر مللاً ولاشاعرية، كما يقال، من الصراع العادي في سبيل البقاء، والذي يحرمك من بهجة الحياة ويدفعك إلى الكآبة»

ولذلك فإن غوركي يبدي دهشته: «فكيف استطاع أن يحتفظ بروح الفكاهة ؟ولم ير الحياة إلا سعياً مملاً للبشر من أجل الشبع والسكينة. وكانت المآسي العظيمة تختبئ عنده تحت طبقة سميكة من الواقع العادي؟»

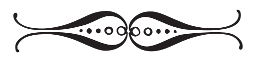
فلاح يتحدث عن الطبيب تشيخوف

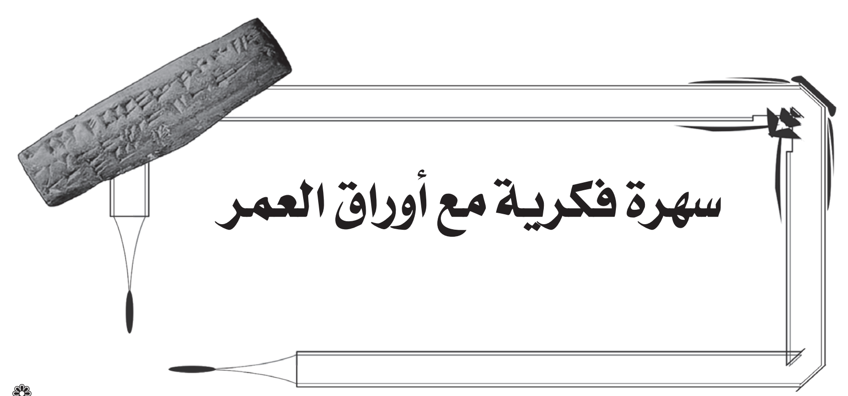
التقى الكاتب تيليشوف يوماً في عربة الدرجة الثالثة في القطار بفلاح مسافر إلى إحدى القرى، فدار بينهما حديث لم يلبث أن وصل إلى تشيخوف على نحو ما. روى هذا الفلاح أن الطبيب تشيخوف عالج زوجته العجوز وشفاها، وعالجه هو أيضاً وشفاه. ولمّا قدم له أجراً رفض قبوله رفضاً باتاً، فقال له: ياعزيزي أنطون بافلوفيتش، كيف ترفض الأجر، ومن أين ستعيش إن لم تتقاض مني ومن غيري أجراً؟! وعلق الفلاح قائلاً: إنه شخص غريب الأطوار مشوش الأفكار.

كان طرف من مأساة تشيخوف مع المرض الذي عايشه زمناً غير قصير، أنه طبيب ويعرف الحكاية، وهذا ماعبر عنه غوركي أخيراً:

«كان طبيبــاً ومرض الطبيب دائماً أشد وطــأة من مرض مرضاه، فالمرضى يشعرون فقط بتدمير الداء لأجسادهم، أما الطبيب فعلاوة على ذلك فإنه يعرف بعض المعلومات عن هذه العملية، وهذه إحدى الحالات التي يمكن فيها اعتبار المعرفة عاملاً على تقريب ساعة الموت.»

في أحد أيــام تشيخوف الأخــيرة، زاره تولستــوي وغوركــي حاضر. كانــت حرارة تشيخوف في ذلك اليوم مرتفعة، وقد جلس متورد الخدين، وقد أحنى رأسه وراح ينظف عويناتــه باهتمام. أبــدى تولستوي إعجابه بإحــدى قصص تشيخــوف، وكان يتحدث بتأثير عميق، والدموع تترقرق في عينيه.





سهرة فكرية مع أوراق العمر

سمية اليونس غانم ❁

أوراق العمر عنوان جميل لكتاب هو سيرة حياة في الإعلام والفن والدبلوماسية. يتضمن الكتاب أربعة عشر فصلاً في كل منها عرض ممتع، لموضوع متنوع من محطات فكرية هي حياة الدكتور (صباح قباني).

من الصعب التلخيص لهذه الأوراق، والبالغ عددها (٣٧٣) صفحة في عدة صفحات، وربما استطعت الإحاطة بهذه الأوراق بأربع مراحل هي كالتالي:

❁ كاتبة ومحامية سورية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

١- مراحلة الطفولة والدراسة.

٢- تأسيسه لمديرية التلفزيون السوري.

٣- العمل الدبلوماسي ومهامه.

٤- الموهبة الأدبية والفنية.

فالكاتب بقلمه المميز استعرض تاريخ مرحلة هامة من حياته، واكب فيها أحداثاً وطنية حدثت في القرن الماضي.

ما أن تبدأ بالقراءة في الصفحات الأولى حتى تبقى مستمراً من قراءتك حتى تنتهي منها دون أن تدرك أن ذلك استمر ساعات طويلة.

فالأسلوب السهل والعبارة الواضحة الناطقة بشفافية التطور الاجتماعي والمهني الذي حصل في سورية منذ ذلك الحين، من خلال العمل المهني لوالده في معمل الحلويات، وكيف تطور هذا العمل وانتقال من مصر إلى سورية، كأول معمل للحلويات بهذه المواصفات في دمشق.

أولاً - مرحلة الطفولة والدراسة:

أما عن الحياة اليومية لأسرته، فقد رسم بدقة منزله، وبركة الماء الرخامية، وأصص الزهور والورود والفل والياسمين، وشذا الأحجار العتيقة المضمخة بعبق الرائحة الزكية لهذه النباتات. إذ يقول:

«في رحاب هذه الجنة الصغيرة ترعرعنا، وكبرنا، أنا وأخوتي، ونما إحساسنا بالجمال والنظافة، والأناقة من هذا (البيت المظلة) كما وصفه الأخ[1] في شعره وفي نثره اللذين كان يعتد بأنهما مكتوبان بأبجدية ياسمين بيتنا الدمشقي..».

ويعود مرة أخرى بعد وصفه جمالية المكان وعطر أزهاره، إلى عبق الإرادة الجبارة لوالدته (أم معتز) في إدارة هذا البيت بمسؤولياته المتعددة، التي تعتمد بالدرجة الأولى على الجهد الشخصي لها. إذ يقول:

«ولا أزال أتساءل حتى اليوم كيف كانت تنهض صباح مساء دون كلل ولا تذمر.. فالأجهزة الكهربائية المتوفرة بين أيدي سيدات اليوم لتسهيل الأعمال المنزلية لم تكن تعرفها أمي ولا قريباتها من النساء، فلا آلات تغسل الثياب، أو تكنس الغبار، ولا طناجر بخارية، تطهو وتخلط، ولا مواقد كهربائية أو أفران إلكترونية تعمل بضغط زر»[2].

وبريشته الجميلة يرسم لك صورة أخرى لا تقل روعة عن المناظر والمشاهد التي تتخيلها من خلال ربة المنزل. وهي

«تنظيــم المواعيد الاجتماعيــة، في وقت لم يكن هناك هاتف يسهل التواصل بين الأهل والأصدقاء».

ويصف لك العــادات والتقاليد السائدة في تلك الفترة إذ يقول:

«إلى جانب ضيفات أمي في يوم استقبالها، كان يتقاطر إلى بيتنا زائرات من نوع مختلف تدخــل علينا من وقت لآخر ولعدة أيام تهب علينا نسائم جديدة ومختلفة من حياتنا نحن أطفال البيت فمنهن مــن تسحرنا بطريقة سردها الممتع والمشوق لقصص من حكايات ألــف ليلة وليلة. كنّــا نتحلق حولها في أحد زوايا غرفة المعيشة وكنا نجلس مبهورين أو مشدوديــن إلى الحكايا التي تسردها واحدة بعــد أخرى ونحــن نتمنــى ألا تنتهي لأنها سترجع إلى بيتها البعيد بعد أيام»[٣].

كما كان الكاتب أميناً في نقل صور أخرى عــن زوار بيته أو بالأحــرى زوار والده وهم مــن السياسيين الناشطــين معه من (الكتلة الوطنية) ويشرح لنــا تارة عن نشاط كتائب (القمصان الحديدية) الذي كان والده أحد مموليها الرئيسيين.

ويتابع قوله:

«بعــد أن نجحــت الكتلــة الوطنية في منتصف ١٩٣٦ من تنظيم أطول إضراباتها، التي استمــرت سبعين يومــاً، اتجهت نحو إحداث منظمة شبابيــة أطلقت عليها اسم (القمصــان الحديديــة) وذلــك إمعاناً في إظهــار قوتها وقدرتها النضالية على سلطة الانتداب الفرنسية.

وكان زعمــاء الكتلة الوطنيــة حينذاك يتطلعــون مــن وراء ذلــك إلى خلــق نــواة لجيشــ وطني يكــون لسوريــة عندما تنال استقلالها»[٤].

وتارة أخــرى يصور لنا: «البيئة الوطنية والغنية والحافلة بالمحبة والجدية والأصالة وحب الجمال، وكيف انطلق ليبني مستقبله المشرق الزاخــر بالنجاح، وينقل لك حوادث طريفــة، وروايات صغيرة ولطيفة يعيش من خلالها في جو الحديث الممتع والعفوي الذي يتمتع به، مع أقرانه وأصدقائه أثناء زيارتهم لوالده مــن اجتماعاتهم الخاصــة. فينسج وشاحــاً أنيقاً للحــدث الذي يرويــه سواء تحدث عــن (الدكتور أحمــد السمان) وهو خريــج السوربون من فرنسا وتشجيعه للعلم ومتابعة الدراسة الجامعيــة في فرنسا بعد نيله شهادة الحقوق لنيل درجة الدكتوراه في الحقوق».

«ولا يسعني إلا أن أذكر الأستاذ الدكتور أحمد السمان في عام ١٩٦٢. عندما كان عميداً لكلية الحقوق، وأستاذاً لمادة الاقتصاد السياسي، وهو يشرح لنا موضوع النقد والسياسة النقدية، وكيف كنا نقف حوله أنا وزملائي طلاب السنة الثانية -كلية الحقوق- باحترام وتقدير، ونحن ضجرون، خائفون، من عدم النجاح بهذه المادة الهامة والجافة، إلى جانب صعوبة الأفكار الجديدة في نظرية النقد.



فيبسط لنا بطريقته الرائعة، وأسلوبه الشيق والممتع، يشرح لنا ويطلب منا المزيد من الجدية، والبحث في المراجع العلمية لتزداد معرفتنا بهذا الموضوع أو سواه من المواضيع الهامة، وينهي حديثه معنا، بلطف: أنتم مسؤولون عن عدم نجاحكم في هذه المادة وغيرها من المواد.. أنتم شباب الوطن المستقبل الناجح (النجاح هو نتيجة الجدية والاجتهاد)..

وهنا نقف مع الكاتب بين السطور وهو الطالب المجتهد في مراحل دراسته حتى يصل إلى الجامعة -كلية الحقوق- وتدرجه في دراسته العلمية، وحرصه على متابعة دراسته في فرنسا والمفاجآت التي تعرض لها أثناء وجوده خارج الوطن، وكان لوفاة أستاذه المفاجئ من فرنسا والمعاناة التي تضاعف من جراء ذلك، والإصرار والمتابعة لإتمام رسالته العلمية والوصول بجده واجتهاده إلى درجة الدكتوراه بنجاح وتفوق، وعودته إلى الوطن للعمل من جديد في سورية.

فالمعاناة المتنوعة أعطته القدرة على تذليل الصعاب للنجاح في كل عمل يكلف به سواء كانت هذه المهمة داخل القطر أم خارجه.

ثانياً- تأسيسه مديرية التلفزيون السوري:

يروي الكاتب كيف أخبرته زوجته بأنه وقع عليه الاختيار لتأسيس مديرية التلفزيون إذ يقول: «قالت لي زوجتي لقد وقع عليك الاختيار لتكون مديراً للتلفزيون، أي تلفزيون الذي تتحدثون عنه؟.. وكيف سأتولى مرفقاً ليس موجوداً في بلدنا».

«وقلت في نفسي لا بد أن تكون هذه الإشاعة دارت في بلدنا أثناء غيابي»[٥].

وبعد أن تبلغ رسمياً تكليفه بذلك بدأ بكل جدية بمرحلة التأسيس لإحداث محطة تلفزيونية، وإن هذه المهمة ليست بالأمر السهل؟..

فالمنهجية التي وضعها لتنظيم المراحل التي يحتاج إليها هذا الصرح الهام والذي يتطلب العديد من التجهيزات المتنوعة لبناء محطة البث إلى جانب الأطر الفنية والإدارية للقيام بهذه الأعمال التي لم تكن معروفة من قبل الآن في سورية إذ يقول:

«هذه الشاشة الصغيرة، هذا الزائر الدائم في ردهات المنزل يتطلب منا حسن الانتقاء لكل برنامج ودقة الأداء له وهذا يتطلب التأهيل والتدريب الجيد»[٦].

وأمام هذه المهمة المليئة بالتحديات بدأ العمل المتواصل حق لا يخيب آمال الناس الذين يتطلعون بشوق إلى اليوم الذي سيرون فيه التلفزيون يضيء لأول مرة من بيوتهم وفي حياتهم يوم ١٩٦٠/٧/٢٣ وذلك مع التلفزيون المصري إبان عهد الوحدة. إذ يقول:

«اعتبرنا أن الشاشة الصغيرة التي ستدخل إلى بيوت الناس هي نافذة انفتحت أمامهم على العالم عالم الثقافة والحضارة والمعرفة لذلك كان الاهتمام الأول، المواطنات والمواطنون ممن لهم ظروفهم أن يزودوا بمختلف أنواع العلم والمعرفة وهو ما يتعين أن يتزود به الإنسان في هذا العصر.

كنا نفكر بالعديد من الجيل السابق ونسائه الذين لم يأخذوا من العلم شيئاً أو أخذوا منه نذراً يسيراً لا يكفيهم لمواكبة العصر. على الرغم من أنهم يعيشون في النصف الأخير من القرن العشرين»[٧].

واستعان بمجموعة من الخبراء الإداريين ومذيعين ومخرجين ومساعدي وإخراج وقسم التصوير السينمائي والفوتغرافي والتلفزيوني والديكور والهندسة حوالي (٥٦) شخصاً أذكر منهم أ.ناديا الغزي- دريد لحام- هيام طباع- سامي جانو- عبد الهادي البكار.

وأخيراً تمَّ الافتتاح في الموعد المحدد له ١٩٦٠/٧/٢٣ وأوضحت كلمته التي ألقاها بهذه المناسبة ما يلي:

«إن هذا الصديق الذي تحتفلون به اليوم هو كأصدقائكم له ميزات كثيرة وهنات كثيرة فاغفروا له ونحن في أول الطريق وستبذل خير ما عندنا حتى نصل إلى خير ما ترجونه إلى خير ما ندعم وحدتنا الوطنية ووحدتنا الكبرى»(٨).

وبعد مضي السنة الأولى للتجربة الناجحة طلب إنهاء تكليفه وهو صاحب مبدأ وموقف شريف، صادق مع نفسه في كل عمل يقوم به.

ثالثاً- المرحلة الدبلوماسية:

وعاد للعمل في وزارة الخارجية، وتدرج في المهام الموكلة إليه، وتميز بإدارته في كل مهمة يكلف بها وترك بصماته في الإدارة والتوجيه، والتدريب لإنجاز هذه المهمة أو تلك على أحسن وجه، في نيويورك أو واشنطن أو أندونسيا..

كما أعطى القارئ الفكرة الواضحة لماهية العمل الدبلوماسي، والعوامل التي أثرت فيه وتغيير المفهوم التقليدي له. مع شرح واضح عن تطور وسائل الاتصال بين الدول والنهضة العلمية، والاختراعات الباهرة الق أحدثت تغيرات في الأنشطة الإنسانية، والاجتماعية والسياسية.

وأضاف إلى ذلك الرأي السديد الذي يساهم في نجاح السفير والقيام بالمهمة السياسية، إذ يقول:

«إن نجاح العمل الدبلوماسي يتطلب دائماً المعرفة الواسعة والثقافة المتنوعة وتوسع آفاق قراءاته، فلا يظن أن مواضيع السياسة الدولية وحدها محور الاهتمامات بل عليه أن يلم بشيء من المعرفة الإنسانية ويتابع التطورات الثقافية والعلمية والفنية والتكنولوجية. فهو لا يدري متى سيسأل أن يدلي برأيه من أحد هذه الموضوعات خلال لقاءاته الدبلوماسية والسياسية»(٩).

ويعود ليؤكد ذلك يقول:

«نرى أن تمثيل الدولة الموفدة لا يعني تمثيلها فقط في الاحتفالات والمناسبات، بل هو بالأحرى تمثيل فكرها وروحها، وحضارتها، وحماية المصالح لا يعني فقط حرفية المصالح التجارية والاقتصادية والمالية لدولة الدبلوماسي. حمل المصالح تعني قبل كل شيء الحرص على عظمة هذا الدبلوماسي وكرامته وسمعته»(١٠).

«أما عن دور الإعلام من دعم العمل الدبلوماسي فعلى السفير أن يكون إعلامياً قبل كل شيء. والذي يعرف أن أجهزة الإعلام من البلد المضيف بأقصى طاقاتها، وإمكانياتها المفتوحة أمامه لأنها اليوم أجهزة تدفق المعلومات وتشكيل الآراء»(١١).

ومع العرض الشيق والدقيق والموجز ينتقل من فكرة إلى أخرى. فتارة يشرح عن «مدينة نيويورك وتاريخها وكيف كانت قبل ٣٠٠ سنة جزيرة صغيرة من أكواخ يقطنها عدد قليل من الهنود الحمر إلى مدينة جبارة يتحرك فيها ملايين البشر، وتضم أكبر المؤسسات المصرفية في العالم التي يتداول فيها بلايين الدولارات. في حين أن الهولنديين الحمر حين استردوها منهم عام (١٦٢٦) أكثر مما يعادل بعملة اليوم (٢٤ دولاراً) وهي مجموعة من الأطواق من الخرز الملون وأطلقوا عليها اسم (نيو امستردام) وبعد أن بقي الهولنديون فيها ٤٠ عاماً، انتقلت ملكيتها إلى مستعمرين آخرين البريطانيون الذين جعلوا اسمها (نيويورك) تكريماً لدوق (يورك) شقيق (شارل) ملك بريطانيا».

ولا يخلو أسلوبه الشيق من سرد نكته أو طرفة تضحك وأنت تقرؤها إذ يقول:

«صوَّر رسام الكاريكاتور في إحدى المجلّات رجالاً آتين من القمر يقول أحدهما للآخر وهما يشاهدان رجل فضاء أميركياً يتقدم نحوهما حذار أن يضحك علينا هذا الرجل الأميركي، ويفعلها ثانية فيدفع لنا أربعة وعشرين دولاراً فقط ثمناً للقمر»(١٢).

ومع أوراق العمر المضمخة بأريج التجارب المتنوعة نسافر مع الدكتور (صباح قباني) إلى واشنطن الذي كان في مهمة فيها مرتين متباعدتين، وقد استطاع أن يترك بصماته في العمل الجاد والمنظم وأثناء مهمته الدبلوماسية في واشنطن وبعد قضية (ووتر غيت) استقال نيكسون من منصبه كرئيس جمهورية للولايات المتحدة الأميركية. وتمَّ تكليف الرئيس (فورد) نائبه رئيساً بدلاً عنه.

ونوه الكاتب على أن الخطوط العامة الاستراتيجية الأميركية ستبقى هي هي ومن منظورها يتصرف الرئيس في البيت الأبيض، سواء (نيكسون) أو (فورد)!

وإن على العرب ألا يربطوا مصير قضيتهم بأشخاص بل بقوتهم الذاتية وحدها ودون تأثير هذه القوة على الدول الكبرى ورؤسائها وحكوماتها كما شرح وبدقة

الأحـداث الجارية في تلك الفترة بعد حرب ٦تشرين الأول، عام١٩٧٣، ودور الإعلام في نشـر ذلك عالياً. كمـا أن علاقته الوشيجة مع الإعلاميين واهتمامهـم بمواقفنا نتائج جيـدة تمثلت في أن صحفهم تفرد صفحات بكاملها لردود السفير بمقالات مسيئة إلينا كعرب، وفلسطينيين أو سوريين كانت تظهر هـذه المقالات من وقـت لآخر في الصحف ونشاطه الدبلوماسي على الصعد كافة، وقد تميـزت بالطرح الجـريء الواضح مع وزير خارجية أميركا (كيسنجر).

ويؤكـد أن مصلحة الوطـن هي الأولى، وإنك وراء مبـادرات لا نوافق عليها، فقال تأكد أن لسورية نصيب من الأمر وأن دورها آت. فقلـت: تأكد أننا مهتمـون لأي مبادرة سلام.. وهنا أعاد كيسنجر كلماته المعروفة أنَّنا نقدر دور سورية ونحترمه[١٣].

وإن هـذا النشـاط السياسـي انعكس إيجابياً فقد لبى دعوة الإعلاميين الراغبين في زيارة سورية وطريقة التعامل معهم.

كمـا حرص السيّـد السفـير الدكتور (قبـاني) على استعادة العقار المبني من عام ١٩٠٨ والمسمـى (الكولونيـاي) المؤلف من ٣أدوار وطابق أرضي وحديقة واسعة. وكان لأسرة الرئيس الأمريكـي السابع والعشرين (تافـت) وقد اشتراه مـن ورثته عام ١٩٤٦ الأستـاذ ناظم القدسي عندمـا كان سفيراً لسوريـة في واشنطن وبقي مقـراً للسفارة السوريـة ثم لسفـارة الجمهوريـة العربية المتحدة حتى عام ١٩٦٢ حين وقع الانفصال بين مصر سورية.

احتفـظ المصريون بالعقـار وخرج منه الدبلوماسيون السوريـون. وتمَّ طلب العقار من قبل رئاسة الجمهورية السورية من رئاسة الجمهوريـة المصرية، وبالفعـل تم استلام العقار وهو بحاجـة إلى إصلاحات جذرية، وقد استمرت عمليات الإصلاح سبعة أشهر. وقال الدكتور قباني:

«لقد نشرت الصحـف تجديدنا للعقار وفـوز الشركـة هوليـاني (بجائـزة١٩٧٦) المخصصـة للمؤسسـات الهندسيـة التي تحافظ على المبـاني التاريخية. وتم الشكر أيضاً لسورية باسم أسرة تافت مع الإعجاب الشديد بما أنجزناه»[١٤].

ولم تقـف جهـوده علـى تجديـد مبنى السفـارة بل حرص أيضـاً على شراء عقار آخر كان يسكنه قريب من السفارة. ويقول: «وهكذا أصبح لسورية عنوانان ممتازان

لعقارين تملكهما في حي السفارات بواشنطن الشهير بالعراقة والأناقة. الأول السفارة والثاني سكن السفير».

وكم كانت سعادتي كبيرة عندما زرت هذين الموقعين الجميلين للسفارة السورية في واشنطن أثناء زيارتي لابنتي رفيف زوجة سفيرنا في واشنطن الدكتور عماد مصطفى، للتهنئة بولادة الحفيدين (سيدرا) و(سُرّى).

ولقد تحدث عن هذه الإنجازات أبناء الجالية السورية الذين مازالوا يتذكرون الروح الوطنية العالية التي يتمتع بها السفير الدكتور صباح وحرصه وحفاظه على الأموال العامة والإنجازات التي استطاع أن يحققها أثناء مهمامه الدبلوماسية ومازالوا يذكرونه بكل احترام وتقدير لمواقفه الوطنية الصادقة ومقدرته على معرفة حقيقة العمل الدبلوماسي..

كما سمحت لي الظروف أيضاً أن أزور (شقيقه الدكتور رشيد قباني) عميد الجالية السورية في واشنطن الذي تبوأ العديد من المناصب الدبلوماسية في أميركا اللاتينية، وأميركا الشمالية وهو صديق شخصي لوالدي، ويتميز بحسه الوطني والإنساني، تجاه أبناء الجالية السورية في واشنطن التي لا يزال يقيم فيها.

رابعاً- الموهبة الفنية والأدبية:

لقد أراد الكاتب أن يحترف الفن، فمنذ يفاعته، كانت أحلامه تنسج له هوايته بأن يصبح رساماً أو نحاتاً.

ولكن الحياة أخذته في دروب مختلفة، كان لبعضها صلة بالفن (كالإذاعة، التلفزيون، الدبلوماسية).

فلكل فن أصوله، ومبادؤه، أما الشبه الكبير بين الدبلوماسية، والتمثيل، إذ يقول: «الممثل يتقمص في المسرحية انفعالات ليست هي انفعالات لشخصيته الحقيقية، وكذلك الدبلوماسي يضطر أحياناً، أن يسبغ على وجهه مظاهر الفرح والسعادة في حين يكون من داخله يتمزق غيظاً ممّن يحادثه.

كما أن الممثل يردد على خشبة المسرح عبارات ليس هو كاتبها، وكذلك الدبلوماسي، فإنه كثيراً ما يدلي ببيانات وأقوال لم يكتبها هو بل هيئت له من وزارة الخارجية في بلده»[١٥].

مع نجاحه في مهمته الدبلوماسية إلا أن الميل للفن ظل يلازمه، ويسكنه كهواية وقد علم نفسه بنفسه، كلاً من فن (الرسم الكاريكاتوري، التصوير الضوئي)، ثم صقل هذه الموهبة حين عمل في نيويورك، فانتسب

في وقت فراغه إلى مدارس خاصة بهذا الفن الأصيل.

وأقام معرضاً للتصوير الضوئي، وكتب له شقيقه (الشاعر نزار قباني) ما يلي:

«عندما نثر (صباح قباني) مئات الصور التي رسمها لبلادي أمامي لأكتب عناوينها شعرت أن جميع أشجار التوت، والحور، والصفصاف، والزيتون، والورد البلدي تنبت في راحة يدي.. وأن الخراف الربيعية تترك بعضاً من صوفها الأبيض على أصابعي.

صارت يدي وهي تقلب الصور، يداً أخرى عليها يسقط المطر، وتكبر سنابل القمح، ويسرح الرعيان ويدبك الراقصون، ويغني الحصادون، وتملأ القرويات من ينابيعها الجرار، وتتناثر عليها مضارب البدو، وإيقاعات المهباج، وعبق القهوة العربية الأصيلة صارت يدي مسرحاً تمتزج فوقه الألوان والأصوات والأهازيج كأنها نشيد واحد هو (نشيد الأرض). صور (صباح) الجميلة أهدتنا وطننا الجميل مرة ثانية»[١٦].

ورسم بريشته الشفافة مجموعة من (الصور الكاريكاتورية) لبعض أصدقائه، توج فيها مقالاته الأدبية اختار منها: د.أحمد السمان، سعيد الجزائري، فؤاد الشايب، شاكر مصطفى، عبد السلام العجيلي، نزار قباني، كما كتب عن مذكراته (أوراق العمر). قالت عنه الأديبة غادة السمان:

تكتشف في مذكرات، صباح قباني، أديباً بنثر مرهف، ومشرق، وسلس، جذا، ولغة شعرية راقية مسكونة بالحنين، من دون الحزن بل يحاول إبهاج قارئه بكثير من حسن الظل في زمن ثقيل الظل.

إن علاقة (قباني) مع الوطن هي قصة حب كبيرة، فهو يجد أن عمره صار جميلاً بالآخرين.

وقال عنه الإعلامي (سعيد لبيب) صباح قباني يجيد فن الحكاية التي يسردها لنا بعبارة رشيقة نابعة من قلب ينبض بالحب والحياة.

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن هذه الأوراق أهداها لزوجته (مها) اعترافاً لها بدورها الهام في حياته. وكانت -ولاتزال- سنده في كل ما عمل وأنجز، فهي مثال للزوجة المثالية والأم النموذجية، والغلاف بريشة ابنته (كرمى).

وأنهي ما كتبت عن هذه المذكرات الشيقة والممتعة بما قالته الأديبة غادة السمان:

«مذكرات صباح قباني، تستعصي على التلخيص لأن صاحبها قام بذلك وهو يخطها كمن يقطر حقلاً من الياسمين الشامي في زجاجة عطر».

الهوامش:

١- نزار هو الشاعر نزار قباني شقيق المؤلف.

٢- ص٤٨.

٣- ص٥٥.

٤- ص٥٥.

٥- ص١٤٣.

٦- ص١٥٣.

٧- ص١٧٣.

٨- ص٢٠٠.

٩- ص٢٢٢.

١٠- ص٢٢٦.

١١- ص٢٢٦.

١٢- ص٢٣٤.

١٣- ص٢٨٤.

١٤- ص٣٠٤.

١٥- ص٢٣٢.

١٦- ص٣٣٧.





جورج تراكل GEORG TREKL
١٨٨٧-١٩١٤
رائد الشعر التعبيري الألماني

محمد جدّوع ❁

خلال عمـره القصير الـذي لم يتجـاوز السابعة والعشريـن عاماً، وفي تجربـة شعرية لا تتعـدى السنوات الخمـس تصدّر (جورج تـراكل) ريادة التعبيريـة الشعرية الألمانية بجدارة واقتدار، وذلك من خلال جمالية التعبير بالصـور والرموز ودلالاتهـا من جهة، وعبر استخـدام الموسيقى اللغوية في بنيـة القصيدة بدل الشـكل القواعدي للجملة في النظـم السابق من جهة أخرى، كما استعاض في تجريبيته الشعرية عن التسلسل المنطقي في مضمون القصيـدة بالقوة التأثيريـة والإيحائية السحرية للصـور المجازية والرموز

❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

التي زودها بقـــدرة إغواء واستدراج تدهش القارئ/ المتلقي وتولّد لديه انطباعاً سحرياً يدرك من خلاله القوة الجاذبة الآسرة التي تحلت بهــا أشعار (تــراكل) وقصائده على الرغــم من كآبته الدائمــة، وألوانه السوداء الحالكة، وتآويلــه الملغّزة المحيّرة وتشاؤميته (الشوبنهاورية)، وشططه النيتشوي، وصولاً لموته الهيدجري.

ولّدت هذه الفرادة الشعرية -التراكلية- جيـــلاً من الشعراء الألمــان الذين تصدروا الساحـــة الشعريـــة الألمانيـــة بـــدءاً مـــن: (غوتفريد بن) مروراً بـــ (انغبورغ باخمان) و(باول تسيـــلان) وانتهاءً بـــ (سارة كيرش) كمـــا تأثر به العديد مـــن الشعراء الأجانب على امتداد المعمورة، مثلمـــا جذبت أشعار (هولدرن) فلاسفة الوجودية. حظيت أشعار (تراكل) هي الأخرى بإعجابهم نتيجة للنجاح الذي حققته قدرتها التصويرية للمكابدات الوجودية مما دفع بالفيلسوف الألماني (مارتن هيدجر) لتأليف كتاب (إنشاد المنادى) درس فيه أشعار كل من هولدرن وتراكل.

وجيزة سيرته الذاتية:

ولد جورج تراكل[1] في مدينة (سالزبورغ) النمساوية لأبويـــن ألمانيين، كان والده يعمل بتجارة الحديد، وعلى الرغم من اهتماماته التجاريـــة، إلا أنـــه أحاطـــه بـــكل الرعاية والاهتمام على عكس والدتـــه التي عاملته بالقســـوة المشوبة بالكراهيـــة حيناً وبالحب الأمومي حيناً آخـــر. مما ولّد لدى (تراكل) نفوراً من أمه وتعلقاً جنونياً بأخته كتعويض عن الحنـــان الأمومي، كما انعكست علاقته السيئـــة بوالدته على تحصيلـــه الدراسي- الابتدائـــي، وعلـــى الرغم من تـــودد والده وأخته له إلا أنه حاول الانتحار وهو في سن الخامسة من عمره محـــاولاً الغرق في بركة عميقـــة بالقرب من منزل الأسرة، وزيادة في الرعاية والاهتمـــام أدخله والده في مدرسة خاصة لتعليـــم اللغة الفرنسيـــة التي كانت لغـــة المخاطبة في الأوساط الأرستقراطية - الروسية والألمانيـــة- وقتذاك وبعد الانتهاء من مرحلـــة التعليم الثانوي أرسله والده إلى (فيينـــا) لدراسة الصيدلة التي أتمها بنجاح عـــام /١٩١٠م/ إلا أن وفـــاة والده في العام ذاتـــه نغّصت عليه نشـــوة التفوق كما ساهم عوزه المادي في سوداويته وغربته عن محيطه الاجتماعي، ومع علاقته الجيدة مع مجموعة (اتحاد الأكاديميين للفـــن والأدب) والدعم الذي تلقاه من الكاتب الكبير (كارل كراوس) والفيلسوف الشهير (لودفيغ فيتجنشتاين) إلا أن ذلك لم يمنع (تراكل) من الانعزال والتوقع مدمناً على تناول المخدرات والخمور، وعلى الرغم من حياتـــه المضطربة وغير المستقرة

إلا أنه بدأ حياته الشعرية عام ١٩٠٩م حسب الأسلوب الشعري المتداول –آنذاك– في بنية القصيدة الشعرية من حيث تحقيق الشكل النحوي من وزن وقافية مبتدئاً في نظمه الشعري ترانيم ومقطوعات شعرية قصيرة ملحنة، وذات نفحات وإشارات دلالية من الكتاب المقدس[٢] ومنها مقطوعة (سونيا).

الأجراس السوداء مسموعات:

سونيا، خُطاها، هدّوها الحنون

.. ..

شمس الأيام الخوالي تلمع

فوق سونيا، فوق جفونها البيضاء

الثلج الذي يندي خديها

واجمة رموشها.. ص١٥٩

وكما أسلفنا فإن وفاة والده هيَّجت مشاعره المتوجسة وأعصابه المتوترة فازدادت دنياه اسوداداً، وأصبح اللون الأسود لونه المفضل عما عداه من الألوان وهو ما عبّر عنه في قصيدة[٣](وحي وفقد):

غَريباتٌ هنَّ طُرقاتُ الخدين المظلمات

.. ..

وفاة أبي جعلت مني

الابن الأبيض، وبإرعاشٍ أزرق

هبط من الأُكم هبوب الليالي

تأسي أمي القاتم والمقضي

ورأيت إلى الجحيم، الأسود في قلبي.. ص١٦٣

ومما زاد في ليله الطويل، وحوّل صمته وأساه إلى صراخٍ وعويل، نشوب الحرب العالمية الأولى التي رأى فيها أن الألمان يساقون إلى مصير فاجع لا دليل لهم حتى إلى ليلهم الطويل. هذا الواقع جعله يسخر لماذا أُصبح ألمانياً ؟ (أتألّمن) وهو ما عبر عنه في[٤] مقطوعته الشعرية (لقاء):

في طريق الغرباء كلانا ينظر في الآخر

وعينانا المتعبتان تتساءلان: ماذا فعلت بحياتك؟

اهدأ! اهدأ !.. واترك الآخرين يشكون

البرد أصبح يحيط بنا من كل جانب

الغيوم تنهمر في الأبعاد

هذا ما جعلني أتألمن

نحن لم نعد نتساءل طويلاً

ولم يعد هناك أحدٌ يرشدنا إلى طريق الليل.. ص١٧٨

أما عن مرض الكآبة السوداء[٥] (المالنخوليا) الذي ألمّ به فقد خصه بنشيد يحمل اسم المرض ذاته –المالنخوليا– يصف فيه الآخرين وكأنهم وحوش تود افتراسه بوحشية:

ظلال مزرقة

أُوه، عيونهم السوداء التي تنظر إليَّ طويلاً

مرافقةٌ لي في طريقي

.. ..

تتأهب للموت الرزين المكفهر

أيادٍ شبقية، تمتص من نهودٍ حمراء

شفاهٌ متهالكة، وفي الظلام تغتسل
منزلقةً في غواية الطفل الشمس
الرطيب.. ص١٧٩

وتراكل لا يكتفي باللون الأسود أو يود الاستغناء عنه بل يلجأ لتسويد الأبيض حتى الثلج، والماء سوّدَهُما في أنشودتيه[٦] (هذيان) و(على حافة بئر قديمة) حتى رائحة الظلال على المرآة تستدعي الإقياء لأنها مقرفة برائحتها السوداء المنتنة:

الثلج الأسود الذي من السقوف
يتساقط
.. ..
الرأس يتكسر إلى قطع ضخمة
ويتأمل
للظلال التي في المرآة رائحةٌ مقرفةٌ
لابتسامةٍ باردةٍ لعاهرةٍ ميتة.. ص١٨١

هذا في (هذيان) أما (على حافة بئر قديمة) فللماء تأويل أوحد هو اللون الأسود:

(تأويلٌ أسود للماء:
حياة متكسرة في فم الليل
متلهفاً في وسائد سوداء
الغلام ذو الظلال الزرقاء
.. ..
ربما قمر، يصعد درجات بخفة وهدوء
أصوات الراهبات اللطيفة في كنيسة متهدمةٍ
لوحة بكاء السماء الزرقاء
تذوبُ شيئاً فشيئاً..) ص١٨١

أما قصيدتا (أصوات الموت السبعة) و(غرودك) فهما نواحيتان على قتلى وجرحى معركة[٦] (غرودك) التي ذهب ضحيتها مئات القتلى والجرحى الذين استطاع أن ينقذ منهم حوالي تسعين جريحاً بما توفر لديه

من عتاد طبي ودوائي في قصيدة (غرودك) ينوح على قتلاها وجرحاها:

المساء الغابات الخريفيات

يدوين بأذرعة موت

والسهول المذهبات والبحيرات الزرقاء

والشمس التي تسوّدُ في العلو:

الليل يقفل على المحاربين

المائتين، تأسي جنون أفواههم المطحونات

في لجب الحقول الهادئات

.. ..

الأخت الكبرى تعبر كالشبح صمت الغابة

مقبلةً لتحيي أرواح الأبطال

الهامات المضرجات:

وتقرع تحت الحشائش نايات الخريف الداكنات

.. ..

شعلة الروح المتوقدة، شرٌ عظيم يغذيها اليوم

الأبناء الذين سيولدون.. ص٦٦

- لكن هل يكتفي؟.. (تراكل) بالحزن الصامت والنواح الصارخ على قتلى وجرحى (غرودك)

- بالتأكيد لا، لقد كانت معركة (غرودك) قاصمة الظهر ونهاية العمر بعد ما هاله منظر القتلى والجرحى، وحينما رأى أحدهم يجهز على نفسه بسلاحه منهياً عذابات جراحه اتخذ قراره النهائي ووضع حداً لروحه المعذبة بتناول جرعة كبيرة ومميتة من الكوكائين في ١٩١٤/١١/٣م، منطلقاً من اعتقاده الراسخ بأن درجة (التعالي) لا تتأتى وتتم إلا بالموت وهو الموت الذي يتعالى فيه الإنسان على واقعه الوجودي -حسب رؤية (هيدجر)- وهو الموت الهيدجري وهو الموقف الذي اتخذه الشاعر اللبناني (خليل حاوي) الذي انتحر بعيد دخول القوات الإسرائيليّة بيروت عام ١٩٨٢م.

تجربته الشعرية:

تعتبر تجربته الإبداعية أنموذجاً فريداً في تاريخ الشعر العالمي عامةً والألماني خاصة، فحياته القصيرة، أبدعت إنتاجاً شعرياً فريداً ووفيراً، فعلى الرغم من تأثره بالشعر الألماني المعاصر -آنذاك- الذي استمده من تجربة الشاعر المبدع والمتميز (هولدرين) ومن قراءته لشعر كل من (هاينريش هاينة- نوفاليس- بودلير- رامبو وفيرلين) إضافة لتأثره الشديد بفلسفة (نيتشه) الذي يرى في الفناء إعادة للحياة من جديد، وإذا قارنا حياة (تراكل) الشعرية وقوتها التأثيرية ضمن فترة عمرية قصيرة نجد ما يشابهها في× شعرنا الجاهلي (طرفة بن العبد) وفي شعرنا المعاصر (السياب وأبو القاسم الشابي) آخذين بعين الاعتبار اختلاف موضوعاتهم -ثيماتهم- الشعرية وظروف حياتهم المعيشية، لكن غزارة التجربة التأثيرية في

الأجيال اللاحقة تبقى القاسم المشترك بين الشعــراء الأربعة (تراكل- طرفة- السياب- الشابي).

خصائص تجربة تراكل الشعرية:

اكتسبــت هويتها الإبداعيــة من خلال المراحل التالية:

١- **مرحلــة التجريــب:** تعتــبر تجريبية (تــراكل) الشعريــة فيمــا يخصــ الشعر التعبــيري سابقة لكل المحــاولات الشعرية- التعبيريــة التــي تركّز على همــوم الإنسان المعاصــر ومكابداتــه الحياتيــة والنفسية وهواجسه وآماله وطموحاته في تحققها، وفي انكساراتها وهــو ما عاناه (تراكل) شخصياً لهذا لا يمكن فهــم مقطوعاته الشعرية إلا في ضــوء الإلمام بمسيرته الشخصية وهو ما منحها هويتها (التراكلية).

٢- **مرحلــة التطويــر:** وتتمثل في ترانيم ومقطوعــات وقصائد تميــز تطور تجربته الشعريــة إلى الأدوار التي تأثر فيها قبل أن يتسنم ريادة المذهب التعبيري.

٣- **دور الكتــاب المقدس:** فمــن حيــث الأسلــوب / الشكل نظم (تــراكل) بداياته الشعرية على شاكلة سفــر (نشيد الإنشاد) التوراتي مبتدأً بمقطوعات وأناشيد شعرية قصيرة- ترانيم- تعتمــد التسلسل المنطقي من حيث العرض، والوزن والقافية من حيث الجرســ الموسيقي كما لا تتعــدى أسطرها أصابع اليد الواحــدة في أغلب المقطوعات وتكاد تخلو من الصور المجازية والاستعارية والرموز ذات الدلالات المتشعبة.

فترنيمــة[٧] (ليــل) تقــارب في أسلوبها الإصحاح الثالث[٨] من (نشيد الإنشاد):

أزرقُ عينيّ انطفأ هذه الليلة

وذهب قلبي الأحمر ! أواه ! كانت

الشمس تحترق بهدّو

ومعطفكِ الأزرق أُسدل على الصديق

الذي كان يدلجُ أحمرَ ثغركِ ختمَ

وُلوجَهُ في الظلمات

في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته

إني أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع..

أطلب من تحبه نفسي فما وجدته

.. ..

من هذه الضائعة في البرية كأعمدة دخانٍ معطرة

بالمر واللبان وبكل أذرّةِ التاجر.

ومثلما تأثر[٩] (تراكل) في التوراة لا يخفى تأثره الشديد بالعهد الجديد (الإنجيل).

وهــو ما تجلى في قصيــدة (تجلّ) التي نقتطف منها:

حين الماء يغدو خفياً يغادركِ وجهٌ أزرق، في

شجر التّمور يرنم عصفورٌ صغير

راهبُ يضمُ

بعذوبة.. يديه المائتتين

ملاكٌ أبيض يحل على مريم لرؤيتها

٤- دور المناظرة والمماثلة:

وسنورد مقاربتين شعريتين لكل من (بودلير) الذي سبقه عمراً وإبداعاً و(هولدرن) الذي عاصره تجربةً، أما مشابهات (تراكل) في موضوعاته في ما يخص الطبيعة وفصولها فتتماثل مع موضوعات (بودلير) في ديوانه (أزهار الشر) حيث وردَ فيه مقطوعات شعرية تتناول الطبيعة وتجلياتها الفصلية والمناخية مثل (إيقاع المساء) و(أغنية خريفية) و(ضباب ومطر) و(غسق الصباح) و(غروب الشمس الرومانسية) نجد المواضيع ذاتها عند (تراكل) مثل (قلبي عند المساء) و(مساء شتاء) و(ليل) و(في الربيع) و(الخريف المتّجلي) و(الصيف الذي ولّى) و(ليل الشتاء) و(الشمس) وفيما يلي مقاربة (غروب الشمس) لبودلير مع مقطوعة (الشمس) لتراكل:

غروب[11] الشمس الرومانسية

كم الشمس جميلة عندما تشرق طازجة

مثل انفجار يطرح علينا تحيته الصباحية!..

.. ..

أتذكر !.. رأيت كل شيء، زهرة، نبعاً، ثلماً

يغمى عليها تحت عينيها مثل قلبٍ يختلج..

فلنركض نحو الأفق، تأخرنا، فلنركض سريعاً

لنلتقط على الأقل شعاعاً منحنياً !..

لكنني ألاحق عبثاً الإله الذي ينسحب، الليل

الذي لا يقاوم يؤسس مملكته

أسود، رطب، منحوساً، وممتلئاً رجفات،

تسبح في الظلمات رائحة قبر.

أما مقطوفة (تراكل) من قصيدة (الشمس)[12] ففيها يقول:

كل يوم تطلع الشمس من وراء الأُكم،

هاهو الجمال، الغاب، الجنون المغبَرّ

الإنسان، صياد أو راعٍ.

محموم يشرئب في البحيرات الخضراء السمك

تحت السماء المستديرة.. وحين يدنو المساء،

يدنو بصمت

نكون على بيّنةٍ من خيرٍ، بعضه، والشر، حين

يحلّ المساء،

المسافر يرفع بسكون هدبه المثقلات.

الشمس سُكَّ الوادي إلى أفول.

أما المقاربة الثانية فهي بين (هولدرن) في قصيدته (إلى ربات المقادير)[13] وبين قصيدة (أصوات الموت السبعة) لـ (تراكل) وفي ما يلي نقتطف منهما بعض المقاطع:

إلى ربات المقادير

أيها المقتدرات، امنحنني صيفاً واحداً

وخريفاً واحداً لينضج نشيدي، وحتى

يستطيع قلبي المتخم من اللهو الألذّ

وحتى

إقتبال أن أموت..

.. ..

آه! مرحباً، إذاً، صُمات الظّلال !

سأكون رضياً، وحتى لو قيثارتي خانتني في

وصلي برفقتها إلى هناك

مرةً إذن أكون كالآلهة حييت، بدون ازدياد..

ص١٢٧

أما (أصوات المـوت السبعة)[١٤] فيظهر فيها تراكل على الرغم من تأثره بـ(هولدرن) الذي تتسلـح قصيدته مع وجوديته بتتابعية الصورة ومنطقيـة المعـاني وتسلسلها، أما (تراكل) فتتفـرد قصائده عما سواها- كما أسلفنـا- بالتفـكك وتعتمد علـى إيحائية الصـورة أكثر مـن تسلسليتها المنطقية وهو ما تؤكـده لنـا مقبوسات (أصـوات الموت السبعة):

يحدّر الليل ويزَرّق الربيع، ويمضي كائنُ طيفٍ بالمساء..

.. ..

النّسم النّديُ يهدهد غصن التفاح وأزاهره

وعمّا كان ضمّة ينحلُ في الفضة ويذوي مائتـاً في أعمـاق الأعين المظلمـات، تغور الأنجم وتضيء أغنية الطفولة الناعمة:

في النور، كان يتحدر النائم إلى الغابة السوداء

وترتل في البعيد أنبع زرقاء

.. ..

والقمر كان يُطردُ من عرينه حيواناً أحمر،

والتأسّي المسوَّدِ بالزّفرات ما عاد يفيض عن

شفاه النساء،

أكثر إشراقاً، الغريب الشاحب

رفع اليدين نحو نجمه

ومن منزله المحطم مضى

بعضٌ من موتٍ بصمات،

واَها للرَجل، كل شخصه أنتن في شكله؛

فهناك تتجمع معادن باردة.. ص١٦٤ - ١٦٥

٥- دور الريادة:

وفيما تتضـاءل تأثيرات الكتاب المقدس من جهة، ومؤثرات الشعراء الذين عاصرهم أو الذين تأثر بهم مـن جهة أخرى. ويتميز هذا الطور المرحلي بالخلـط بين التسلسل المنطقـي في قصائـده من جهـة، والرموز والصـور ذات الاستعارات المجازية من جهة أخـرى، وتتمثل هـذه المرحلـة في قصيدة (ثلاثة أحـلام) نكتفي ببعض المقبوسات[١٥] التالية من كل حلم:

حلم -١-

يؤلمني أنني حلمت بتساقط الأوراق

وبغاباتٍ بعيدة وبحيراتٍ سوداء

بكلمات حزينة لها صدىً غريب

غير أنّي لم أستطع فهم معانيها

مثل تساقط الأوراق وتساقط النجوم.

هكذا رأيتني ذاهباً آتياً

إنه حلمُ وصدىً خالد لا يموت

غير أني لم أستطع فهم معانيها.. ص١٧٦

حلم -٢-

في روحي مرآةٌ سوداء

صور وبحارٌ لم أرها

مهجوراً، كمثل بلادٍ رائعةٍ حزينة

ذائباً في الأزرق بشكل تقريبي

روحي ولدت سماء أرجوانية، تقطر دماً

ملتهبة حتى القاع لشمسٍ متهاويةٍ جبارة.

ونادراً ما كانت تدبّ الحياة فيها من خلال

حدائق متلألئة.. ص١٧٧

حلم -٣-

ابتهاجات مميتة

وروحي منابعٌ سوداء

انتجت صور ليالٍ هائلة

متأثرة بأغان مجهولة

وأنفاس مؤلمة لقدرات أبدية

روحي ارتعشت ذكريات سوداء

.. ..

في البحار العميقة وفي الليالي

وفي أغانٍ سحيقة وبدون بدايةٍ أو نهايةٍ.. ص١٧٧

٦- دور الفرادة والتميّز:

وتبدأ من عام ١٩١٢م حتى وفاته ١٩١٤م وفيها يُطلِّق (تراكل) جميع المؤثرات التي ساهمت في إغناء تجريته الشعرية ويبتدع من خلالها تجريبيته الشعرية - التعبيريّة وذلك من خلال صياغة أسلوب خاص به يعتمد على لا منطقية القصيدة، بحيث تظهر بلا ترابط أو انسجام في بنيتها النصية، لكن ما يمنحها ديمومة التقبل واستمرار الصلاحية والتأثير الصور الإيحائية ذات الدلالات المفتوحة التي تبدو وكأنها طلاسم سحرية لا ترابط بينها ولا انسجام، بحيث يتطلب فك رموزها الطلسمية التي تبقي تأولاتها مفتوحة وذات دلالات اخطبوطية متشعبة.

ومع أن قصائده في هذه المرحلة -التفرد- تبدو كلوحة ملصقات مجمعة -(كولاج)- إلا أن طريقة تركيبتها النسجية تجعلها متشابكة لا انفصام بين لحمتها وسداها، وذلك بفضل بانوراميه الصورة الرمزية والمجازية مما يمنحها جمالية ذات مضامين دلالية مشرعة على كل الاحتمالات، إضافة إلى حليتها الأسلوبية المعبرة التي سنورد بعضاً من صورها: (**السواد في الأجْبه.. والأنجم تهوي.. طفلُ طيفٍ أسود.. هزيع في غرفة الحجر.. صبر المنتهى القاتم.. الشر حين يحل المساء.. في المساء تظهر هدأة الشكل على النافذة.. العذوبة السوداء.. آه من احتراق النور بصمت**).

ومن قصائده في هذه المرحلة التي تتضمن التشابك والتفكك من ناحية، والاعتماد على الصورة المجازية من جهة أخرى وتمثله المقطوعة التالية من قصيدة[١٦] (تأسٍ):

موت، سبات، نسورٌ عابسات

ليالٍ يخفقن فوق هامي

صورة الرّجل المذهبة

في موجها المجمد ستلجُبُه

الأبديّة، وفوق صخور الأبحر الراعبات، يُهشم،

مضرّجاً الجسد، والصوت الراكن ينتحب

فوق البحر

أختٌ وفؤادُها المثقل بالعواصف

ليتكِ ترين، القارب وغصيصه

الهالك تحت الكواكب

وجه الليل الكالح.. ص١٦٧

وختاماً لا بد من التأكيد على أن (تراكل) شاعر مُشِكل لا يُقــرأ ولا يُستوعب، إلا من خـــلال قراءته قراءة كلية التي ضمها ديوانه المسمى (من كأس ألمٍ ذهبي) الذي نشره أحد أصدقائه ولكن بعدٍ مماته بما يقارب الربع قرن حيث نشر عام ١٩٣٩م. ومع هذا العمر القصـــير إلا أن عطـــاءه الوفـــير أهله ريادة التعبيريّة الألمانية بكل جدارة واقتدار.

الهوامش:

١- إنشاد المنادى: مارتن هيدجر، ت. بسام حجار، ط١ المركز الثقافي العربي، الرباط، بيروت ١٩٩٤.

٢- المصدر السابق، صـ ١٦٣.

٣- المصدر السابق، صـ ١١٦.

٤- مجلة نزوى الفصلية العدد /٣٤/، مؤسسة عمان للصحافة والأنباء والنشر والإعلام، نيسان ٢٠٠٢.

٥- النقد والمجتمع، حوارات وتحرير وترجمة فخري صالح، دار كنعان، ط١، دمشق ٢٠٠٤.

٦- المصدر الرابع، صـ ١٩٦ وما بعد.

٧- المصدر السابق.

٨- الكتاب المقدس، إصدار جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى، بلا تاريخ للطبعة والمكان.

٩- المصدر الأول نفسه.

١٠- بودلير، سلسلة أعلام الفكر العالمي، لوك ديكون، ت. كميل داغر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

١١- المصدر السابق، صـ ١١٢.

١٢- المصدر الأول، صـ ١١٧.

١٣- المصدر السابق، صـ ١٦٦ وما بعد.

١٤- المصدر السابق، صـ ١٥٥.

١٥- المصدر الرابع، ١٧٨ فما بعد.

١٦- المصدر الأول، صـ ١٦٨.

(*) مجلة الحياة التشكيليّة، العدد الأول، السنة الأولى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٠م.



الأصول السورية للموسيقى الكنسّية

مار أفرام السوري- رومانوس الحمصي- يوحنا الدمشقي

فايز مقدسي *

يتبوأ أفرام في عالم الشعر والموسيقى مكانة عالية. ولقد كتب مؤلف كتاب اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية (السورية) مار اغناطيوس أفرام الأول برصوم عن الشعر السرياني في القرون الأولى للمسيحية فقال ما مفاده أنه ينصب عموماً حول الزهد في الدنيا والعودة إلى التوبة. وهي مواضيع شعراء كبار أمثال أفرام ومار اسحق ويعقوب السروجي وابن قيقي. غير أن المؤلف يضيف أنه لكل جزء منهم جواهره المكنونة ويتيماته المصونة. ويقول إن هناك قصيدة للشاعر ابن قيقي يرثي بها نفسه تعد من أروع ما نظمه الشعراء.

* شاعر وباحث سوري- باريس.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

من أغراض الشعر السرياني شرح الكتاب المقدس والأبحاث اللاهوتية. وهناك أيضاً وصف الطبيعة وشعراء هــذا النوع كثيرون نذكر منهــم داوود بن بولس وله قصيدة في وصف الأشجار وثمارها. وقصيدة لأنطوان التكريتي يصــف فيها جمــال مدينة رأس العــين. وكذلك قصيدة لــداوود الحمصي السوري يصف فيها صعوبة الغربة. وقصيدة لابن العــبري يصف فيها الربيــع والورود. إضافــة إلى المدائــح الدينية ولأفــرام باع طويل فيها فقد جمع بين دقة الرسم وروعة الوصــف وحســن الصنعة وجمــال المعنى. وهناك أيضاً قصائد الصداقة والشوقيات ولابن العبري في هذا النــوع قصائد تذوب عذوبة وسلاســة. ثم يأتي شعــراء الطبقة الوسطى ومنهم، والكلام دائماً لمؤلف اللؤلؤ المنثور، أنطــوان التكريتي وحزقيال الملطي واللبناني شمعون من طور عابدين وعندهم حلاوة الديباجة والجزالة والفخامة وإحكام التأليــف باستثنــاء اللبنــاني الــذي تكلف الصنعة والقافية فأفسدت جمال قصائده. أما الشعراء الذين سبقوا الجميع وفقد أكثر شعرهم فمنهم وفا الآرامــي[1] وبارديصان منتصف القرن الثالث[2]. فقد قيل في شعر أفرام الكثير. جاء في كتاب طاقات سريانية لمار سويريوس اسحــق ساكا أن مار أفرام لم يبتكر لغة، ولكنه استقل بلغة حتى نعتت بلغة مار أفرام. لغــة لا مثيل لها ولانظير حيرت الألبــاب وملأت النفوســ بالعجب العجاب وإلى اليوم لم يستطع أحد أن يكتب مثل هذه اللغــة التي تدنو من مرتبــة الاعجاز. وقال فيه الشاعر السوري الكبير يعقوب السروجي والذي جاء بعده إنه كان نبعاً غزيراً وينبوعاً فياضاً. وكتب فــؤاد البستاني حول قصيدة الفردوس لأفــرام فقال في مجلة المشرق من لنا بصوفي مصطفى وشاعر إلهي سوى مار أفرام ينقلنا على أجنحة الشعر ورؤى النبوة بأناشيــده إلى مرابع الفردوســ ليرينا قبل (دانتي) بألف سنة، وقبل الشاعر الإنجليزي (ملتون) بـ١٥٠٠ سنة مالا عين رأت ويسمعنا ما لا أذن سمعت.

نماذج من قصائد أفرام من أناشيد الميلاد

- مقتطف:

«كيف أدعوك أيها الغريب عنا والذي صار منا.

هل أدعوك ابناً،

هل أدعوك أخاً،

هل أدعوك خطيباً،

هل أدعوك رباً؟

أنتَ يا من ولد أمه ولادة ثانية من الماء.

أنا أم لأنني حبلتُ بك.

أنا خطيبة من أجل قدسك.

وأنا أم وابنة يا ابن العلي الذي أتى وحلّ فيَّ وصرتُ أمه.
وكما ولدته مولوداً آخر ولدني هو أيضاً ولادة ثانية.
هو ارتدى جسدَ أُمه وهي ارتدتْ جسده.

أُمك يا ربنا لا يعرف أحدُ كيف يدعوها.
أيدعوها بتولاً؟
ها أن ابنها حاضر.
أيدعوها متزوجة؟
لم يعرفها رجل.
وإذا كنا لا ندرك أسرار أُمك فكيف ندركك أنتْ؟»

❁ ❁ ❁

- أنموذج آخر
«لقد أعطتنا مريم خبز الهناء بدلاً من خبز الشقاء الذي أعطته حواء.
أكل حمل الحق حمل الفصح، فسارع الرمز ودخل بطن الحق.
في خبزك تخبأ الروح الذي لايؤكل.
في خمرك يسكن النار الذي لا يُشرب.
الروح في خبزك والنار في خمرك
أعجوبة مذهلة قبلتهما شفاهنا.
في خوف ومحبة لنقترب من دواء الحياة كأناس فهموا أن قلبنا اهتز بموته، وأنفسنا تشتهي سره.

❁ ❁ ❁

إن البتول دعتني كي أرنّم سر بتوليتها العجيب.
فأعطني يا ابن الله منك عجيبة بها أغني على كنارتي وأرسم صورة بهية لأمك.
البتول مريم ولدت ابنها بالقداسة، وأرضعت حليبها مُرضع البرايا.
وحملت ركبتاها حامل الكون. وهي بتول وهي أم.

❁ ❁ ❁

عن كتاب أفرام والكنيسة السريانية.
المطران يوسف المنير.

- ابتهال.
اللهم اخلق فيَّ قلباً نقياً عفيفاً طاهراً بسيطاً لايفكر بالشر ولاتأوي إليه الشهوات.
قلباً نقياً لايعرف الضغينة ولايغتاب قريبه.
قلباً نقياً يملأه الحب دائماً، وفي كل حين يبغي الآمان والسلام لكل إنسان.
قلباً نقياً يحب الصوم والسهر وإذلال الجسد والعمل والتعب دائماً.
قلباً نقياً يحب التواضع ويلزم السكينة والبشاشة مع الجميع.
قلباً نقياً يحب الصدقات ويوزعها ويشفق على ذوي الحاجة ويرأف ببني جلدته؟
يامحب البشر ضع فيَّ مثل هذا القلب، واغرس فيه مهابتك كالغرس النامي.

❁ ❁ ❁

- في الفردوس (مقاطع)
بعين الفكر شاهدت الفردوس وإذا بقمم الجبال جميعها لا تطال علوه الشاهق.

إنه يتلألأ بنوره الوّهاج ويجذب المرتقين إليه ببهاء جماله. تعبق جوانبه بالروائح الطيبة.

وغيومه المجيدة تظلل الذين يستحقون الدخول إليه. يمتطي الأبرار سحباً ويطيرون في الجو صاعدين إلى الفردوس ليرثوه كلٌّ حسب جهاده. قاعه للتائبين. وسطه للأبرار. وقمته للكاملين. والعرش لرئيسه.

❁ ❁ ❁

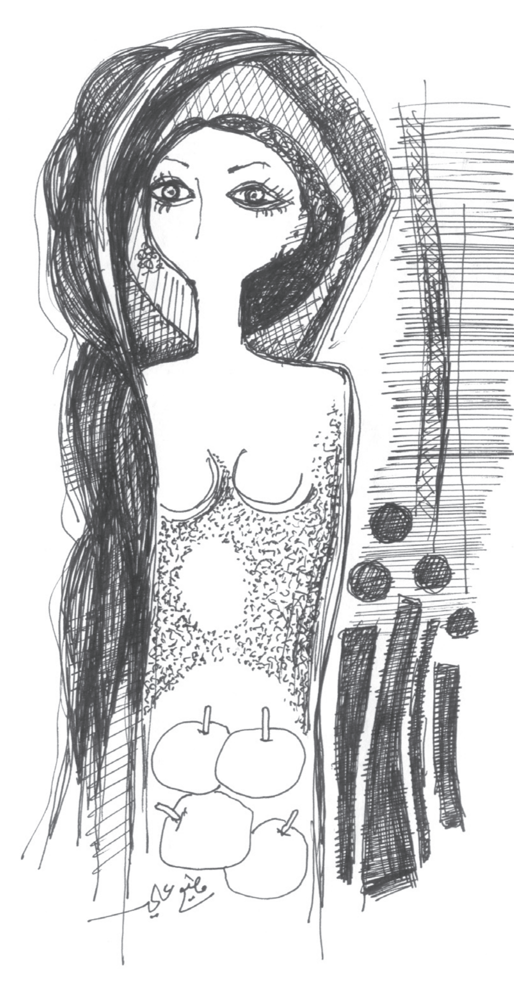
- مختارات:

اللهم امنح علماً من يحب العلم، واجعل الأستاذ الذي يحسن التعليم عظيماً في ملكوتك.

إن الذي يحب العلم يكون دائم النشاط، ومن يحب الكسل لا يستطيع النجاح.

فاقتن لنفسك أيها الإنسان الاجتهاد فإنه كنز العلم العظيم، وتجنب الكسل لأنه حافل بالخسائر.

اقتن الذهب بمقدار أما العلم فاكتسبه بلا حد لأن الذهب يكثر الآفات وأما العلم فيورث الراحة والنعيم. إن الحكمة أفضل من الزينة، والعلم خير الأمور وأن شاباً حكيماً خير من ملك شيخ جاهل. لتكن لك الكتب بمنزلة



موائدك فتشبع لذة. ولتكن بمثابة فراشك فترقد في راحة.

❁ ❁ ❁

الحسد سهم نافذ يقضي على راميه.

إذا دس الحارث الزوّان بالزرع حصد منه شوكاً.

من يمتلك ذهباً خالصاً لا يخشى امتحانه بالنار.

لايفارق المرجانة جمالها أينما كانت.

إذا شاء رب البرايا قام الولد الواحد مقام الكثيرين.

❁ ❁ ❁

النماذج عن كتاب سيرة مار أفرام السرياني. مار اغناطيوس زكا عيواص الأول.

وذلك نقلاً عن المجلة البطريركية السريانية ١٩٣٧. إضافة إلى ترجمة أسقف بولس السمعاني.. لبنان ١٩٤١.

❁ ❁ ❁

مقاطع من قصيدة (مدراشا) لأفرام السوري في شهر قيامة المسيح نيسان/ إبريل تبين مدى التشابه مع قصائد رأس السنة السومري البابلي (اكيتو) الذي كانوا يحتفلون به في نيسان أيضاً من كل سنة.

«**جد علينا أيها الرب المبارك بقليل من فيضك.**

في هذا الشهر الذي أغنت هباته جميع البرايا.

لقد انبسطت آلاؤك عليهم قاطبة.

فازدانت الجبال بأعشابها، والحقول بزروعها.

وزخر البحر بأصدافه، والبر بحيوانه.

وازدانت السماء بنيريها، والبسيطة بزهورها.

فنيسان زينة الأرض. وعيده جمال البيعة المقدسة.

هذا هو شهر نيسان الذي يمنح الشبع.

ينتهي بالصائمين إلى حيث الأشياء الثمينة.

ويلقي نير الصيام عن رقاب المجاهدين الساهرين.

ويقود الناس والحيوان إلى القوت.

(..)

إن نيسان يحيك للأرض لباساً موشى بشتى الألوان.

فتظهر الخليقة متشحة بحلة من الزهور، وطيلسان من الورد.

إن الأرض (أم آدم) ترفل في نيسان وعليها ثوب لم تنسجه الأيدي.

وهي تبتهج لأن مولاها قد هبط إليها فيه.

وفيهُ رفع ابنها.

فالأرض في حفلين حفل سيدها وحفل ابنها.

(..) هنيئاً لك نيسان فقد شهدت حمل الرب وموته وقيامته.

(..) في نيسان تنشد أناشيد الحمد للحي الذي نزل وحل بين الأموات.

(..) اللهم فليأتنا نيسان بزهره يارب السلام، وأيار بزنبقه

وحزيران بحزمه وتموز بحنطته وآب وأيلول بالعناقيد في سلالها

وتشرين وتشرين الثاني بالمعاصر وكانون وكانون الثاني بالراحة

وشباط وآذار بالصوم.

(..) هذا مطلع العام في ترتيب الشهور.

نيسان رأس شهور السنة ورأس أعيادها.[3]

❁ ❁ ❁

في قصائد الزواج المقدس السومري وفي قصائد البعل وعنـات الكنعانية (أوغاريت) يقـرأ المرء أناشيد تشبـه قصيدة أفرام إلى حد بعيـد خاصة فيما يتعلـق بموت البعل ونزوله بـين الأموات ثم قيامتـه من الموت في نيسـان وتجـدد دورة الطبيعـة بعودته إلى الحياة. وهنـاك مقطع يدل على قيامة البعل من الموت وعودة الخصوبة إلى الأرض ويقـول النص الكنعاني «إن السموات تمطر سمناً والسواقي تسيل عسلاً».

من خلال المختـارات الشعرية السابقة نـرى أن الشعر كان يتدفق مـن قلب أفرام بسهولـة وسلاسـة دونما تكلـف أو صنعة معقدة باستثناء ما هو لازم لصنع القصيدة لتكون منغمة صالحـة للترتيل، ولكي تكون، علـى الرغم مما انطوت عليـه من دلالات عميقـة وصوفية، سهلـة في انسيابها سهلة علـى الحفـظ وينشدهـا الجميـع. لذلك لانستغرب ما قالـه تيودوريطس «الأسلوب الذي استعملـه أفـرام في الطقوس زادها ازدهاراً ورونقاً وبهـاء». وكتب عنه يعقوب السروجي قائلاً إنه حصر في عبارات قليلة الكثـير من المعاني الكبـيرة.[٤] والحقيقة أن أفـرام خلف تراثاً أدبيـاً موسيقياً وصل في بعضه إلى قمم صوفية وروحانية عالية وإلى حـبّ إنساني-إلهي عز نظـيره على الرغم مـن أن أكثر مـا كتبه ووضـع موسيقاه كان حول تعاليم الكنيسة وأسرار الإيمان وطقوس البيعـة. وزد إلى ذلك حربـه المستمرة على من كانـوا أصحاب بدع أو هراطقة بالنسبة إلى تعاليـم الكنسية الرسمية أمثال الشاعر والموسيقـي والفيلسـوف السـوري الكبير (بارديصـان) والغنوصـي السـوري الكبير (مارقيان) الذي دعـا إلى تخليص العقيدة المسيحية مـن الآثار اليهودية رافضاً الكتب التوراتية. ولقد اقتبس أفرام عن بارديصان الكثير من ألحانه وأشعاره بعد أن غير معاني كلماتها لتوافق العقيدة الرسمية.

غـير أن هذا لا يمنع كـون أفرام واحداً من عظماء الشعـراء والموسيقيين السوريين في القـرن الرابع الميلادي حيـث أن شعره وكتاباته حافلة بالرموز والصور التي تتنقل بين المحسوس والمجرد وبين الواقع والاستعارة التاريخية. هناك أيضاً صور جريئة وأسلوب سلس وخيال مذهل في بعض الأحيان. ولقد لاحظ البحاثة باهتمـام التشابه الكبير بين أسلـوب أفرام وبين الشعر السومري القديم (أسلـوب الحوار) وقـد تُرجم أكـثر شعره وأناشيده من السريانية إلى اليونانية منذ عهد بعيد فأضحت جزء من اللتيورجية الكنسية الشرقيـة والغربيـة خاصة بعـد أن نقلها القديـس السوري الكبـير والعلامة الشهير

يوحنا الذهبي الفم إلى مدينة القسطنطينية ثـم منها إلى روما. لعـلَّ يعقوب السروجي، وهو بدوره واحـد من شعراء سورية الكبار، لم يبالـغ حين قال عن أفـرام إنه تاج الأمة السريانية وبتسمية أصح، السورية. أما أفرام الموسيقي فهو على نمط أفرام الشاعر ولقد كتب العديـد من الأناشيد والتراتيل (ميامر ومداريشـ) أو أناشيـد وعـبَر. ناهض في أكثرها قصائد وألحان برديصان كما سبق حتى إنه استعمل الوزن الشعري نفسه الذي نظم عليه برديصان وكان همه الأكبر دائماً محاربة ما سماه ضلال برديصان الغنوصي ومـد الكنيسة بالموسيقـى الترتيلة حتى إنه ألـف جوقة مـن الفتيات علمهـن أناشيده فصرن من المرتلات البارعـات اللواتي كن يرافقـن الطقس الكنسـي بالإنشاد. وكان، كما يروى عنـه، يقول لهن إن العذراء مريم أختكن قد فتحـت أفواهكن بعد أن سدتها جدتكن حواء وأطلقت مريم لكن الحرية في أن تنشدن وتسبحن الله.(٥)

فيمـا يخـص الموسيقـى السريانية أو السورية المسيحية يقول مؤلف اللؤلؤ المنثور أن أئمـة الديـن (المسيحي) رضـوا إدخال الألحـان إلى بيعة الله (القداسـ) لأسباب أولهـا مناهضة ألحان الوثنيين (سكان بلاد الشام والرافدين غير المسيحيين) وأصحاب البدع والهرطقـة الذين قاومهـم الشعراء المسيحيـون السوريـون وعارضوهم بأشعار جزلـة دينيـة أدبيـة قضت علـى الأشعار والألحان الفاسـدة. (قصائد أفرام من ٤٣ إلى ٥١ ومـن ٧١ إلى ٧٧ تشتمل على جدل ضـد برديصان وارقيـون الغنوصي والنبي البابلي ماني».

كلام مؤلـف اللؤلؤ المنثـور يبين لنا إلى أي حـد حفظت تلك الأشعار والألحان التي صيغت علـى نمط الشعر الوثني والموسيقى الوثنية أشعار وموسيقـى أسلافنا القدماء من سومريـين وبابليين وحثيـين وكنعانيين وآراميين. وطقوس أسبوع الآلام (آلام المسيح) يشبه دراما مسرحية موسيقية شعرية حافلة بالطقوس. وتبدو إلى حد بعيد مستعارة من الطقوس الوثنيـة الكنعانية والرافدية التي كانت ترافق مراحل موت البعل أو دموزي أو أدونيس وقيامتـه أو بعثه من الموت ومآثره. يقول طـه باقر حول هذا الموضوع إن أوزان الشعر البابلي (وقبلـه السومري) وأساليب تأليفه ونظمه قد أثرت كثيراً في أشعار الأمم القديمة التـي كان اتصالها مباشرة أو غير مباشرة بحضارة الرافدين القديمة.(٦)

ولقد اتخـذ السريان كما فعـل اليونان ثمانيـة ألحان سموهـا (أكاديا) فيها الحار والبارد والرطب واليابس وفيها أيضاً اللحن

المطرب والمحزن والمنبه والمنشط. ونقلاً عن يعقوب المارديني فالألحان الأول والخامس هما للأفراح والثالث والسابع للأحزان والرابع والثامن للجهاد الروحي والثاني والسادس للتذلل والتواضع. كل ألحان السريان جُمعت في كتاب كبير يدعى (بيث كاز) أي مخزن الألحان أو دار الموسيقى. وهو يحتوي على كل الصلوات والقالات السهرية التي يعود أكثرها لأفرام وجزء منها للشاعر شمعون الفخاري وغيره. ويحتوي الكتاب أيضاً على ما تبقى من الأناشيد أو المداريش الأفرامية. وهناك أيضاً التخشيفات أيّ الابتهالات والتي تنسب إلى رابولا مطران الرها والمعبرانات (الموسيقى الجنائزية) وأنواع أخرى منوعة كلها دينية الطابع.(٧)

إن احتفاظ الكنيسة السريانية بالألحان والأناشيد القديمة أمر عالي الأهمية لأن الكثير من هذه القصائد المغناة هي تراتيل طقسية دينية وأغاني حب عاطفية كانت معروفة في كل أرجاء المشرق قبل ظهور المسيحية بزمن بعيد. وهو أمر لفت انتباه أحد العاملين في هذا المجال نوري اسكندر فكتب يقول إن الوجه الآخر للألحان الكنسية السريانية هو الألحان المعروفة من قدود وموشحات. ولما درس وقارن الموسيقى الإسلامية والريفية والشعبية وجد أن كثيراً من الألحان المشتركة بين التراتيل السريانية والألحان الشعبية من قدود وموشحات (ينبغي أن نضيف أغاني الميجانا والعتابا والروزانا) كلها تنتمي إلى جذور سورية قديمة(٨) ولما عكف البحاثة المختصون على دراسة المقامات الموسيقية المعروفة في الشرق وجدوا أن أسماءها القديمة (الآرامية) أدل على طبيعة كل مقام من الأسماء الشائعة اليوم. وعلى هذا النحو فإن مقام البياتي لا يدل اسمه على مادته أو على الأحاسيس التي ينبغي أن يتركها في النفس حيث أن اسم بياتي ليس له دلالة معينة وينجلي الغموض إذا علمنا أن الاسم مشتق من اسم المقام الأول في الموسيقى السورية القديمة وهو (بيا) ويدل الاسم السرياني على معنى عزى وفرج الهم وادخل السلوى إلى النفس فيصير له معنى. وكذلك المقام الثاني الذي يُدعى الحسيني، والاسم لامعنى له في هذه الحال، ويتضح معناه موسيقياً عندما نعرف أنه محرّف عن اسمه القديم (حوسنا- حوسونو) والكلمة تعني بالسريانية العطف والإحسان. لذلك يُستعمل هذا المقام في التضرع وطلب الرحمة. المقام الثالث (العراق) تصحيف عن اسم العراق القديم (اوروك). المقام الرابع الرست لا معنى له في اسمه هذا. ولكنه يكتسب معناه في اسمه القديم الآرامي

والـــذي يعني ثبّــت ومكّن الأســاس. المقام الخامس (الأوج) ليس معناه العلو والارتفاع بل الزهور والنباتات العطرة. المقام السادس (عجــم) معناه الغريب أو الأعجمي فهو في هذه الحال لا يدل على شيء. أما بالآرامية فهــو يعني الرجوع أو النزول. وهو موسيقياً يبتدئ من مركزه الأعلى ثم يهبط موسيقياً وبالتدريــج. إلى قراره. وهــذا الأمر يوضح معنى اسمــه القديم. المقام السابع (الصبا) فهو بالعربية النسيم ولا معنى له موسيقياً. أما الاســم بالآرامية فهو الفــرح والصفاء والانشراح. المقــام الثامــن (الحجاز) يدل جغرافياً اليوم على الحجاز. أما أصل الكلمة في الآرامية فهو (حجو) أي اسم مكان الحج الديني وأضيفت الزاي في وقت متأخر وصار بعد الإسلام حجــاز. وقد اقتبسه المسلمون عن السوريين القدماء وجعلوا تلاوة القرآن قائمة عليه في كثير من الأحيان.

تحدثنا عــن أفرام الشاعــر والموسيقي ويبقــى أن نقــول كلمة في أفــرام الناسك. لقــد احتــذى في نسكه بقــول المسيح «**من كان عطشانــاً فليقبــل إليّ ويشرب. ومن آمن بــي تجري مــن بطنه أنهار من مــاء الحياة**» إنجيــل يوحنا ٧/٣٧. وهذا مــا فعله أفرام الناسك في تجربته النسكيــة. فهذا الرجل الذي ولــد في نصبين قــرب القامشلي في سورية في مطلع القرن الرابع. وكانت حياته موزعــة بين الجانــب الروحــي. أيّ التأمل والصلاة والانقطاع عن ملذات الحياة، وبين الجانب العملي التعليمي من مدرسة الرها/ اليــوم تسمى أورفا/ حيث ازدهرت المدرسة على أيام أفــرام وقصده العديد من الطلبة ليلتقوا العلــم اللاهوتي على يديه. ويحكى أنه كان، وبعد انتهاء الدروس، يختلي بنفسه في صومعته ويعكف علــى الصلاة والكتابة والتأمــل. وظل كذلك حتى وفاته سنة ٣٧٣. وســوف نختتم الحديــث عن أفــرام بهذه القصيدة التي، في رأينا الشخصي، تلخص كل جماليات شعر أفرام وتجربته النسكية- الصوفية.

«كــم من مرة جعتُ وكان جسدي بحاجة إلى الطعام ولكنني عزفــتُ عن تناوله لكي أستحق الطوبى التي سينالها الصائمون.

لقــد عطش جسدي الذي جُبل من طين الأرضــ ورغــب في الماء ليرتــوي. فأهمتله لكي يستحق أن يمضي ويتلذذ بندى فردوس النعيم.

وإذا كان الجسد يراودني في شبابي، فإني كنتُ أروضه يوماً بعد يوم حتى النهاية.

أقمتُ نفســي للمسيح وبهــا قدمتُ له أتعاب أعضاء جسمي بخوراً وعطوراً.

اعتــبرتُ العطش وكأنه لم يكــن إذ رأيتُ سيدي بسبب خطيئتي يشرب الخل.

لم أعر الأطعمة أهميــة ونبذتُ الخمور

إذ وضعتُ نصب عيني وليمة ملكوتك أيها السماوي.

رومانوس الحمصي

بين الأشخاص الذين قاموا بدور عظيم الشأن في مجال الموسيقى والأناشيد الشعرية الكنسية بعد بارديصان (القرن الثاني) مار أفرام السوري (القرن الرابع) هناك شخصية ندر الحديث عنها هي شخصية الشاعر والمؤلف الموسيقي والمرتل المعروف باسم (رومانوس الحمصي) نسبة إلى مسقط رأسه مدينة حمص في سورية. والذي عرف في التاريخ باسم رومانوس المرنم أو المرتل. وهو يُعتبر من أباء الكنيسة. أيّ المؤسسين الأوائل للعقيدة الكنسية المسيحية. كما يعتبر من كبار اللاهوتيين والشعراء والمنشدين الذين تحدثوا عن اللاهوت. ومن سوء الحظ أن المعلومات المتوافرة عنه تاريخياً شبه نادرة. جلَّ ما نعرفه عنه أنه ولد في مدينة حمص في منتهى القرن الخامس. تعلم ودرس الثقافة اليونانية والسريانية في مسقط رأسه ثم انتقل إلى بيروت حيث تابع الدراسة ووصل إلى مرحلة عليا فيها. وكانت له عظات دينية شهيرة. حوالي العام ٥١٨ ترك رومانوس بيروت إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية حيث أقام في دير قريب من إحدى الكنائس التي كانت تُسمى كنيسة أم الله أو، وباليونانية Theotokos. وفي هذه الكنيسة تمَّ الحدث الكبير في حياته حيث ظهرت له العذراء مريم في العلم وأعطته ورقة ملفوفة (وفي رواية أخرى طير) وطلبت منه أن يأكلها. فلما فعل شعر بحلاوة فائقة في فمه. ولما استيقظ في صباح اليوم التالي راح ينشد بصوت حلو أناشيد موسيقية وشعرية على نحو أخاذ مترنماً بهذه الكلمات (اليوم وضعت العذراء المتسامي). ومن ثم فقد تحولت عظاته في المصلين في الكنيسة إلى قصائد موقعة وموزونة ومغناة وبقى على ذلك حتى وفاته سنة ٥٥٥ أو سنة ٥٣٠ حسب مصادر أخرى بعد أن ترك أكثر من ألف نشيد لم يبق منها إلى اليوم سوى مئة. وعلى هذا النحو يُعتبر رومانوس ابن حمص اليوم واحداً من كبار مؤلفي الأناشيد الليتورجية الكنسية وهو في ذلك يماثل بارديصان وأفرام السوري.

وكان رومانوس، كما كان بارديصان وأفرام من قبله، يستعمل في عظاته الشعرية المغناة أسلوب الحوار. ومن الملفت للانتباه أن أسلوب الحوار في القصائد كان معروفاً منذ أيام السومريين في الألف الثالث قبل الميلاد. ويطلق على أناشيد رومانوس باليونانية اسم كونتاكيا. Kontakia أو (قنداق) أي الوتد الخشبي الصغير الذي تلف عليه ورقة مدون عليها نص مقدس ما أو سفر من الأسفار. وتعتبر أناشيد رومانوس

مـن الأسس الأساسية التـي قامت عليها الموسيقى الكنسية في الشرق ومن ثم في الغرب.

من الأمور الملفتة للانتباه أن رومانوس، وتماماً كما فعل أسلافه القدماء من سومريين وبابليين وكنعانيين فإن الأحرف الأولى من كل مقطع من قصائده يجتمع منها اسم المؤلف أو الشاعر. وكل نشيد من أناشيد رومانوس يتألـف من مقاطع يتراوح عددها مـن ١٨ إلى ٢٤ مقطعـاً علـى وزن شعري واحـد. وكل مقطع ينتهـي بلازمة لا تتغير تتكـرر باستمرار وحتـى ينتهي النشيد مما يذكرنا بقوة بأغاني وأناشيد الميجانا والعتابا والروزنا القديمة، والتي هي تراث موسيقي شعـري غنائي مشترك بـين كل أقاليم بلاد الشـام والرافدين والتـي بُنيت على النمط نفسه والتي كانـت في أكثرها أناشيد دينية قديمة تحولت مع الزمن وتبدلت كلماتها مع الزمن وأضحت أغـاني حب دنيوية لا تزال شائعة إلى يومنا هذا.

وإلى القارئ أنموذجاً من أناشيد رومانوس التـي بقيـت وهو يحمـل عنـوان الجمعة العظيمة ويأتي على شـكل حوار فاجع بين مريم العذراء وابنها يسوع على الطريق نحو الصلب «مريم: إلى أين تمضي يا ولدي لماذا تمضي إلى الموت على عجل؟ ويلي عليك يا ولدي ما كنت لأصدق أنني سأراك على حال كهذه(...)

يسـوع: لم تبكي يا أمي. ألا يلزم أن أتألم، ألا يلزم أن أموت حتى أخلص البشر؟

دعي عنـك الآلام يا أمـي ولا تتنهدي. أنت التي نلت اسم الممتلئة نعمة».

لقد انتشرت أناشيد رومانوس بين عامة الشعـب على أيامـه لأنه لم يلجـأ إلى اللغة اليونانيـة الرسمية الفصحـى وإنما عمد إلى استخـدام لغة يونانية بسيطة قريبة من أفهام العامة لذلك جاءت مفردات وتراكيب أناشيده بسيطة كقوله عـن يسوع إنه النور الذي يحارب الظـلام. أو «أنا أحترق شوقاً لكي أحملك كمصباح بين يديّ. فمن يحمل مصباحـاً بين البشر يستنير دون أن يحترق. أنرني إذن أنت المصباح الذي لا ينطفئ».

لقد جاء كلامـه بسيطاً وواضحاً منغماً تماماً كما طلب في إحدى صلواته

«اجعل كلامي واضحاً يا مخلصي وافتح فمي».

أو كمـا جـاء في قنـداق العنصرة حول أعمال الرسل الذين «بنعمة إلهية اصطادوا (هـدوا) العـالم بأسـره. استعملـوا الكلمة (المسيح) كـيراع وجعلوا الكلمـة شباكاً بها اصطـادوا العالم. كأن الكلمـة لهم مصيدة وصار جسد سيد الكون طعماً لهم».

ولمـا أن العذراء مـريم كانت قد منحته

في الحلم موهبة الشعر والموسيقى فقد كرس لها أجمل أناشيده وأطلق عليها اسم حواء الجديدة. ينبغي أن نضيف إن ألحان رومانوس تركت أثرها الكبير في الموسيقى الكنسية الغريغورية التي نقلها البابا غريغوار من بيزنطة إلى روما فشاعت ودامت إلى اليوم.

يوحنا الدمشقي

لا يمكن البحث في الموسيقى والشعر في القرون الأولى للمسيحية دون التعرض ولو بسرعة لما قام به في هذا المجال سرجون بن منصور. الشاعر والموسيقى واللاهوتي السوري الذي عُرف في التاريخ باسم (يوحنا الدمشقي). وهو واحد من كبار الذين أسسوا الموسيقى الكنسية وأضافوا عليها. ولد في دمشق سنة ٦٧٦ وتوفي سنة ٧٤٩ وكان لفترة من عمره وزيراً في العهد الأموي ثم ترك السياسة وتنسك في دير مار سابا وكان في الثلاثين من عمره آنذاك ولما كان أستاذه في اللاهوت يدعى يوحنا فقد اتخذ اسمه تيمناً به. كان الدمشقي يتكلم السريانية لغة سورية آنذاك وأتقن اليونانية والعربية في آن واحد.

كثيرون كتبوا عنه وذكروا دفاعه عن تكريم الأيقونات. وكثيرون أشاروا إلى أناشيده المنغمة التي كتبها مع أخيه بالتبني قزما الذي تنسك معه، والتي كانت تُدعى بالقوانين. قال ابن العبري ما مفاده إنه في زمن يعقوب الرهاوي وجرجس العربي ابتدأت هذه الأناشيد التي دُعيت القوانين اليونانية. وهي من وضع رجل عالم من دمشق يدعى الخوري منصور (يوحنا الدمشقي) وراهب عندهم يدعى قزما. إنه مبتدع القوانين أو نمطاً منها ألطف من الأول.. ولقد أخذت قوانين يوحنا الموسيقية تدخل كنائسنا في الشرق والغرب. والمعروف أن يوحنا الدمشقي كتب ولحن أناشيده بالوزن اليوناني (إيانبي) وهي أناشيد على نمط القوانين الموسيقية دخلت إلى الطقس الكنسي وصارت جزءاً منه. والنشيد القانوني يكتبه ويلحنه الشخص نفسه ويقال له باليونانية Hymnographes. ويعتبر الدمشقي من المبدعين في تاريخ الموسيقى الليتورجية الكنسية وأطلق عليه لقب مجرى الذهب.[٩]

الهوامش:

١- في كتاب معرفة الفصاحة يذكر أنطون التكريتي أن البحر الخامس في الشعر السرياني والمؤلف من أوزان سداسية وسباعية تزيد أحياناً وتنقص هو لرجل يقال له (وفا) من فلاسفة وشعراء الآراميين القدماء.

٢- انظر بحثاً مفصلاً حول بارديصان لفايز مقدسي في مجلة المعرفة، العدد٥١٧، ٢٠٠٦م.

٣- نص قصيدة أفرام عن كتاب /تاريخ الأدب السرياني. كامل مراد- محمد حمدي البكري.

٤- كتاب مار أفرام والكنيسة السريانية. يوسف المنير.

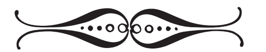
٥- لم يعتمد الشعر السرياني- السوري القديم القافية. وهي لم تدخل الشعر السرياني حتى القرن التاسع تأثراً بالشعر العربي.

٦- انظر قصائد بابلية قديمة، ف.مقدسي، المعرفة، عدد ٥٢٣، ٢٠٠٧.

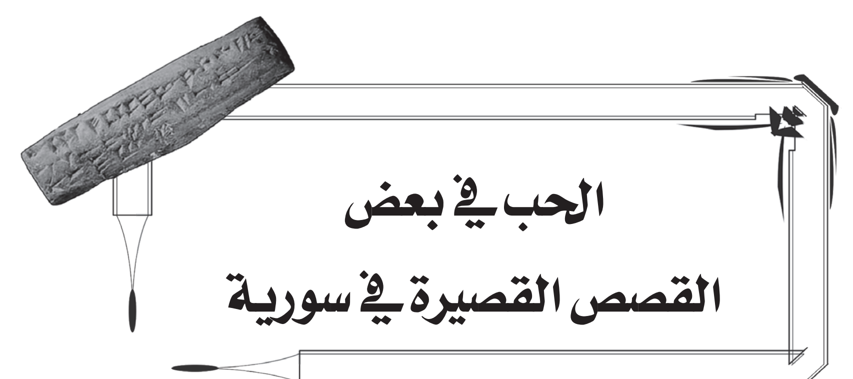
٧- هناك تقارب ما بين أناشيد أفرام وبين كتاب المزامير التوراتي. وبعد المقارنة وجد المختصون أن أصل العديد من تلك المزامـير هـو بابلي قديم. وقسم لا بأس به آرامي الصبغة. إضافة إلى بعض الأناشيد المصرية القديمة. والمؤكد اليوم أن المزامـير التـي تنسب التوراة أكثرها إلى داود (القرن الحادي عشر ق.م) قـد تمَّ تدوينها حوالي القرن السادس ق.م لذلـك لا يمكن أن تعـود إلى داود. ويبدو اسمه وكأنه أقحم إقحاماً في مطلع أكـثر المزامير. كما أن بعض الإشارات تـدل على أنها كتبت في بابل بعد السبـي. حيث أن المزمور ١٣٧ يذكر الأنهار التي تسقي بابل. وتبين للمختصين أن المزامـير التوراتية ليست صيغة شعرية- موسيقية مبتكرة حيث أنه تمَّ العثور على الكثير من النصوص المسمارية الرافدية والكنعانية القديمة مكتوبة في صيغة الأناشيد والمراثي والابتهالات. وكذلك الأمر فيما يخص نشيد الإنشاد فهـو يعود في أصولـه إلى المدونات السومرية، وإلى أغـاني وأهازيج الأعراس الكنعانية القديمـة. للتوسع انظر كتاب المزامير. Les Psaumes تأليف وترجمة (من العبرية القديمة إلى الفرنسية) F.Lalou & P.Calame.

٨- الموسيقى السريانية، المطران ي.إبراهيم ون.اسكندر.

٩- للاطلاع على الفكر اللاهوتي عند يوحنا الدمشقي انظر كتاب «المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي». تعريب ادريانوس شكور.







الحب في بعض القصص القصيرة في سورية

سلوم درغام سلوم ❋

كيف رصد كاتب القصة القصيرة مشاهد الغزل والحب بين العاشقين؟ وهل صوَّر حالة الفتاة العاشقة؟ وكيف كانت النهايات الغرامية؟ هذا ما سوف نرصده في عدة مجموعات قصصية.

في مجموعة (حين يأتي زمن الربيع)(1) قصصية للأديبة سوزان إبراهيم- وفي قصة (دقائق أنطقت صمتي) قصة وجدانية أشبه بالخاطرة الطويلة تتحدّث عن دور كلام الحبيب في كسر حاجز الصمت عبر دقائق اللقاء وهنا راحت تحاور ذاتها حول حب ذلك الشخص تقول ص١٧: (كرقعة من المكعبات

❋ كاتب سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

حياتي.. يـا لتلك الدقائق كيف نمت مدناً؟ كيـف تحوّلت فندقاً أزهرت براعم الصمت وأورقت بساتين البوح؟).

أمّـا في قصة (حـين تتعـدم المساحة) ترصد الذات القلقـة وما يمرّ في خاطرها وتستنجد بالطبيعـة في استحضار التشبيه (شرفات الضوء، رائحة الفجر، الدماء بركة ألم متخثر، الظلام أفعى، اختلج مثل سمكة، الدمـع طيـور تتأهب للتحليـق، يحاصرني المـكان كقبر، رشف الذهـول كلماتي، رحت أقطف ندى حروفها..).

أمّـا قصـة (حـين يأتي زمـن الربيع) فترسم الكاتبة حلمـاً وهمياً جرى في بيتها مـع حبيبها ودائماً القصـص بضمير (أنا) المتكلم، وتبني السيناريو والإشارات كما دار الأمر في الذاكـرة من البيان الشعري قولها (الروزنامـة مشنوقة بمسمار مثبت، عربات المعاني، سراديب الذاكرة).

أمـا في المجموعـة القصصيـة «خارج الحلم»[٢] للكاتب رياض محناية تلك المجموعة ضمت سبـع قصص قصيرة، جاءت عناوين القصص كالتالي: المفكرة، الصورة الأخرى، البطاقة البيضـاء، بوابات الغربـة، اللقاء الأخير، خارج الحلم، عاشق عزة.

وطالمـا لا يمكـن أن تكـون ثمـة بنية قصصيـة إلا حيـث تكون ثمـة لغة محملة بالبيـان والبديع والرمز وهـذا له دور عند المتلقي بوصفه المصدر الأول للتفسير، واللغة لها أهمية في صياغة الأسلوب المنهجي وعبر التكثيف والتأكيـد على جوهر الفكرة بهذه الوسيلة التي يصـل القارئ من خلالها إلى فهم المادة القصصية ومن خلال اللغة أيضاً يعبر الكاتب والفرد عن أفكاره.

في القصـة الأولى «المفكرة» يتحدث عن امرأة أحبت بصدق شخصاً وهذا الشخص نسي عندها مفكرتـه، فراحت تتلمس هذه المفكرة وترسـم أحلاماً وردية تحاور ذاتها، تصف حالها بلغة شاعرية جاءت على لسان الفتـاة، نقتطف بعض الجمل، تقول: أقمت في جداول الدماء مهرجاناً للفرح /يستفيق الحلم فوق شفـاه حروفك/ تتوغل أصابعي بين خصلات كلماتـك حيناً وبين خصلات شعري حيناً آخـر/ تحترق مدائن جسدي/ الفنجان يرتعش/ الزمن يتجمد ركضت في سمائي سحب/ زغرد جرس الباب..

أشـارت هذه النبرة البيانيـة للمرأة إلى الجانب النفسـي والروحي وجسدت العشق الحقيقـي في صـوره السمعيـة والبصرية وكانت الدلالـة والعلاقة واضحة بين الدال والمدلول.

أما قصة «الصـورة الأخرى» فتتحدث عـن حالة امرأة انشق عنهـا الليل وصارت

وجهاً لوجه أمام عاشقها، وجرى تبادل أدوار العشق، كان العاشق يلتزم الجانب السكوني أحياناً وهي التي تتحدث بلغة فيها رمزية لغوية عالية، قالت: «كل الأخريات نساء وأنا المرأة». وقالت: «يرعبني صمتك.. إنه يفضح أفكاري».

ونجد أن المونولوج الداخلي للعاشق، قد وصف الحالة الخارجية لهذه المرأة وكأنه يريد أن يقدم لها قصيدة غزل بقوله:- انبثقت قامتها تملأ مساحة الحلم دهشة/ كأنها هبطت من شرفة الذاكرة/ غنى الشوق قصيدته/ غاص في عباءة الليل خرج كشعاع من ذهب/ انفرجت أصابعها عن ابتسامة والتقت شفاه اليدين/ هدأ شلال الشوق..

وعندما يصف دخول حبات العقد الموجودة في سلسال عنقها بين نهديها قدم القاص لغة بلاغية من التورية قال: «تدحرجت حبات الفضة والعقيق وكل الأحجار الكريمة متسابقة لتختبئ في نهر مسحور بين حمامتين من عبير..»

لهذا خلق القاص وسيلة مادية صوتية وحدث مشهدي عبر عن الحالة التي جرت أمامه وأسقط الفعل على الأشياء، فحبات العقد التي تتسابق - هي العاشقة- ولعل هناك الاتحاد والمقابلة لتوضيح الذات والمكونات المغرية.

وفي القصة «اللقاء الأخير» يرصد الكاتب حالة الحبيبة التي تتذكر اللقاء الأخير مع حبيبها، تتذكر كلماته تستنجد بصورته تحاور طيفه القادم إليها في وحدتها، هذا الشريط الذي تعيده في ذاكراتها «الخطف خلفاً» كما في الدراما، بدأ مع بداية تعرفها عليه إلى اللقاء الأخير نسمع إلى مناجاتها: صباحاتك لا تغسل وجه النهار إلا برائحة القهوة /تناديه بأعلى صوتها لترى كيف يذوب الفرح في نهر عينيه/.

أما في مجموعة «عسلها مّر»[٣] للقاصة أمية الجاسم العبيد فقد تحدّثت عن قضايا المرأة المختلفة في الحياة وفي القصص القصيرة رصدت الحب المقتول وخيانة العاشقة. وفي قصة «رداء المحبين» تتحدث عن موقف غرامي والتورية بكلمة رداء رداء التواصل تقول «أمسك رأسها بين يديه وصبّ أنفاسه في ثغرها المرتجف شوقاً إليه وقال «حبيبتي أنا من لبس ذاك الرداء». وفي قصة «اللقاء» ترصد ظاهرة كثرة الكلام على الهاتف ويضيع.

وفي قصة «الدمية» تتحدّث عن ياسمين فهي جامعية سافرت إلى فرنسا ونالت شهادتها، أحبت أحمد الذي تركها وحنث بالوعد بعد سفرها إلى فرنسا وعدها بأنه سيلحق بها، وبعد شهر أبلغها أن أمه



رفضت أن يسافر قبـل أن يتزوج من ابنة عمه فهي صغيرة وجميلة، وبهـذا فضّل أحمد المرأة الجاهلة على حبيبته المتعلمة، اختار الفتاة الدميـة علـى المرأة التـي تنبض بالإحساس، فاطمة التي اختارها كانت محبوسة في البيت وأفكارها تقليدية.

وأما في قصة «الجماجم تبكي» فتتحدّث عن فتـاة حبيسة البيت تعرفت على حبيب عبر الهاتف وتمَّ اللقاء أكـثر من مرة، أمها مشغولة عنها في الخياطة للنساء الراقيات ووالدها مشغول بتجارته وصفقاته الدائمة الربـح وبعد علاقة ثلاث سنوات يطلبها في منتصف الليل لتقرير مصير حبه بحجة أن أهله أجـبروه على الزواج مـن فتاة أخرى، وفعلاً تذهب لإنقاذ حبهـا، وتسمع الحوار بين الحبيب وصديقه، وهمـا يشربان كأس الحبيبـة الخاسرة، وترجـع الحبيبة حاملة جنازة الحب المقتول بعد أن سمعت أصوات الفرح في دار حبيبها.

وفي مجموعـة (نداء النصـف الآخر)[٤] للقاصـة توفيقـة خضـور تكشـف خفايا النفس البشريـة، وصدى الصوت الإنساني. لقد أعلنت من قصة (الحب تاج على رؤوس الأصحـاء) أنّ الحب الحقيقـي لا يستطيع أي إنسـان أن يكون مَلِـكاً فيه، وترى أنه لا يُمنـح إلا لمـن يقدّره ويستحقـه. قالت عن صاحـب الحب المزيّف: (وهـا قد احترقت أمامي عُرياً، بان غثك من السمين، رجولتك المؤجلة هُزمت أمامي)ص٦.

وتؤكد الكاتبة مقولـة: الحب أعمى في قصة (أعمى بـن أعمى)، وما يراه الحبيب في عيـون حبيبه، يختلف عمّـا يراه الناس، تلك الفتاة التي تعتبر عيون حبيبها ساحرة، وفيها جاذبيـة، بينما صديقتهـا تقول عن عينيه: (عيناه عقيمتان، لا تشعلان ناراً، ولا تطفئان لهيباً ولا تنبتان زرعاً ولا أعنابا ولا

تعتصران خمـــراً ولا شراباً، بليدتان باردتان زجاجيتان)ص١٧.

وقصة أخرى تبيّن معجزة الحب، وقدرته على تغيير طبع الإنسان، عندما دخل الحب عالمها تساءلت في قصة (أهذا أنا؟): (كيف انهارت كلّ السدود التي حجبتُ خلفها نفسي كل هذه السنوات؟ هل صعقها بوميض عينيه فتصدّعت؟) وبعد أن قلب كيانها كانت النهاية كما تقول: (انهارت الجدران، وامّحت المسافات، وأينع اللحم والدم فينا)ص٢١.

في مجموعة (القبلة الأخيرة)[٥] للقاصة حسنة محمود وفي قصة (الحبيبة ورسالة القمر) تعقد القاصة مناجاة ورسائل بين الحبيبة وحبيبها والمراسل هو القمر، فالحبيب في الغربة وهي تنتظره على طرف الشرفة وحدها شاردة مضطربة ومن خلال ذلك تصل رسائل الحبيب وتتجسد الإنسانية في القمر والقمر في الأجواء الريفية يحمل المعاني ويلعب الدور الكبير في الخيال والجمال والأنس.

وفي قصة (الزهرة البرية) تتحدث الكاتبة عن الفتاة الريفية الأبية التي رفضت أن تتزوّج ماجد باشا واختارت ذلك الفلاح النشيط المحب للأرض، وعلى الرغم من تدبير قتله على يد ماجد ورجاله بقيت تربي أولادها شامخة كالسنديان، وقصة (أمل) تتحدث عن خيبة الشاب الذي أحب فتاة من قرية مجاورة لقريته وعندما صمم على طلب يدها بعد تفكير طويل وجدها قد تزوجت وأصبح عندها أولاد.

في مجموعة (البحث عن الضياء)[٦] للكاتب سامر أنور الشمالي قدّمت هذه المجموعة بعض الصور التي تتحدث عن حال الصحفي وصحيفته، وحال كاتب القصة والمقالة، وقد اختار الكاتب الموقف الطريف الذي حمل الإدهاش والطرافة، وحمل النقد، وقد تضمّنت المجموعة /١٥/ قصة قصيرة، ففي قصة (جرائد ورفوف) ترصد ذلك الصحفي الذي أخبرته أمه أن فتاة سألت عنه بشأن الجرائد، وأنها سوف تعود، وراح الصحفي يفكر، وقد ترك الطعام، ولم يرتد منامته، وبقي بلباس الخروج، لكي يبقى مستعداً للقاء الفتاة، وهو يظن أنها معجبة بكتاباته، قال الكاتب سامر في وصفها بلسان الصحفي ص٤٨(ولا شك أنها حفظت اسمي لإعجابها بكتاباتي، فسألت عن الكاتب، فدلوها على منزلي. طبعاً فتاة مثقفة، وذكية، ومرهفة الحس، ورقيقة المشاعر، فإذا أحبّت تحبّ أديباً). وأخذ الصحفي إجازة حتى إذا جاءت تجده، ويمرّ الوقت بطيئاً عليه، وتأتي أخيراً ويفتح لها الباب وتقول ص ٥١(نحن جيرانكم

الجــدد رأيتك أكثر من مــرة وبيدك جرائد فــإذا لم يكن لديك مانع أريد بعض الجرائد التــي لا تحتاجهــا كي أضعهــا على رفوف المطبخ).

وفي مجموعــة (مطر وأحــزان وفراش ملــون)[7] للقاصــ حسن حميــد وفي قصة «معهــا في مساء ماطر» يرصد الكاتب حالة التشرد عند هذا الجيل، من خلال شخصية «خميســ الشايــب» سارت به فتــاة المدينة طوال الليل تحت المطر، وهو يرسم الأحلام لهذا الصيد الثمــين، هو جائع ومتعب نزل من الريف إلى المدينــة، ووجد خيبة الأمل، تصــل به الفتاة إلى باب بيتها تودعه، وعليه أن يرجع إلى غرفته على السطوح، بعد مسير طويل، وتبددت أحلامه وتلخص هذا عبارة قالها في سره ص٥٨ «وهل ينقصني؟!»

الخاتمــة: هكذا كان الحــب في القصة القصيرة، جاء في حالة واقعية وحالة خيالية، منه ما كان صادقــاً ومنه ما ابتعد أصحابه عن الصدق، ومنه مــا كان ضياعاً ومنه ما كان استقراراً، كانت النهايات بعضها سعيدة وبعضها مؤلمة، وكانت لغة القصص تميل إلى الرومانسية والسهولة في النسج القصصي.

المراجع:

١- مجموعة (حين يأتي زمن الربيع) للأديبة سوزان إبراهيم- إصدار دار التوحيدي- حمص-٢٠٠٣م.

٢- مجموعة «خارج الحلم» للكاتب رياض محناية.

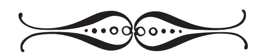
٣- مجموعة «عسلها مّر» للقاصة أمية الجاسم العبيد –دمشق- مركز الحمزاوي عام٢٠٠٠م.

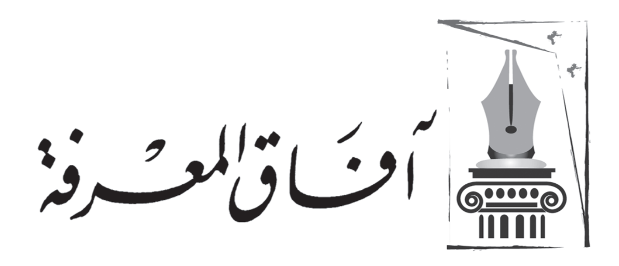
٤- مجموعة (نداء النصف الآخر) للقاصة توفيقة خضور–دار النمير،دمشق عام٢٠٠٤م.

٥- مجموعة (القبلة الأخيرة) –للقاصة حسنة محمود حمص عن مكتب الشعار للطباعة عام ٢٠٠٤م.

٦- مجموعة (البحث عن الضياء)- للكاتب سامر أنور الشمالي- دار التوحيدي- حمص ٢٠٠١م.

٧- مجموعة (مطر وأحزان وفراش ملون)- للقاص حسن حميد- اتحاد الكتاب-دمشق١٩٩٢م.







أثر الحكايات العربية الشعبية على أدب القصّ الغربي

❁
ميخائيل باري
❁❁
ترجمة: رافع شاهين

كان للثقافة العربية الإسلامية توهج كبير، ساطع على أطراف العالم القديم. وكنتيجة للاحتكاك المباشر بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الأوروبية عن طريق الحروب، وإقامة الإمارات، نشأ نوع من التلاقح الضدي الذي استفاد منه الأوروبيون وبنوا عليه نهضتهم الحديثة، وهذا المقال المترجم يسعى لإبراز أثر الحكايات العربية الشعبية على أدب القص الغربي.

في العام ١٠٨٥ أنهى المغامرون النورمانديون (التابعون للكونت روبير جيسكار R. Giscard من منطقة Hauteville، وهو من صغار فرسان المنطقة النورماندية Cotentui، الذي أضحى مرتزقا في خدمة البابا)،

❁ المترجم (❁❁) أديب ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان عبد المعطي أبو زيد.

نزع صقلية من الولاية العربية. وهكذا أسس النورمانديــون Normands في الجزيرة وفي جنوب إيطاليــا إمارتهم الخاصة. وفي العــام نفســه، أي ١٨٠٥ استــولى فرســان الفونســ السادس الكاستيلــي على الإمارة العربية في طليطلــة وقاموا بطرد المسلمين إلى الجنــوب مــن الجزيــرة الأيبرية، وفي نهايــة القرن الحادي عشــر وقعت مدينتان أساسيتــان للإســلام، باليرمو وطليطلة بين أيدي رجال الشمال، بكامل سكانهما الذين أضحوا سجناء مع ثرواتهم التي كانت موقع طمع كما مكتباتهم العامرة. وفي عام ١٠٩٩ سقطــت القدس بدورها، فأقــام الفلامند Flamands الفرنسيــون والنورمانديــون إمارات على مقاسهــم في الأرض المقدسة. لكن على الصعيد الفكري، وفي اللحظة التي ظفــرت فيها الحضارة العربيــة الإسلامية بقــوة السلاح، ستمارســ عقبها، كما فعلت اليونان سابقاً مع رومــا، تأثيراً عميقاً على مغلوبيها.

الصهر الحضاري

الصهــر الحضاري (بمعنــى فعل تأثير الحضارة العربية الإسلامية) سيكون مركزاً ومثمــراً أكثر في جنــوب أوروبة، مدعومين بالعديد من البارونات المهاجرين من الشمال ويحكمــون بــكل طمأنينة علــى مقاطعات واسعــة، مشبعة بالثقافــة الإسلامية -منه فلسطــين، التي هي مجرد شريــط ساحلي وجبهــة حربيــة مهــددة دائمــاً، بحيث لا تستطيع أن تخصب ثقافياً. فالغزو المزدوج لباليرمو ولطليطلة طبع -كما نعلم- التحول الرئيسي لتاريخ الفكــر الغربي الوسيط أو اللاتينــي. ففي القرن الحــادي عشر، كان التقديــر وبنظــر كل المشاطئــين (بالمعنى الواســع) للفضــاء المتوسطــي، مسلمين أو مسيحيــين أو يهود، أن العلــم الوحيد كان علم الأقدمين، الموجود في المؤلفات المكتوبة باليونانية لأفلاطون، ولأرسطو ولبطليموس أو لغاليــان. الرجال العالمــين من الديانات الثلاث وعلى الرغم من نفورهم من بعض، توقفوا على بذل جهد فكــري مشابه، وهو مواءمــة علــوم الأقدمين مع وحــي الكتب المنزلة أي القرآن والتلمود والإنجيل. كتابات مختلفة، لكن الإرث الفلسفي والعلمي الذي يدعيــه الأطراف الثلاثة هــو نفسه. ولكن هنــا، كان الرهبان اللاتين بشمــال أوروبة هــم الأكثر حرمانــاً، فممنــوع عليهم ولوج بيزنطة، ولم يعودوا يعلمون كيفية فك الخط اليوناني وفهم النصوصــ الأساسية للعهود الهيلينيــة القديمة. فالترجمــات اللاتينية كانت نــادرة وتعود كلها إلى حــوالي القرن الرابع والخامس والسادس من عصرنا، وفي الوقت ذاته بــدأت تخبو معرفــة اليونانية في الغرب الرومــاني، والحال كذلك، ابتداء من العام ١٠٨٥، استطــاع الرهبان اللاتين وبظــل حماية الملــوك والرجــال المسلحين

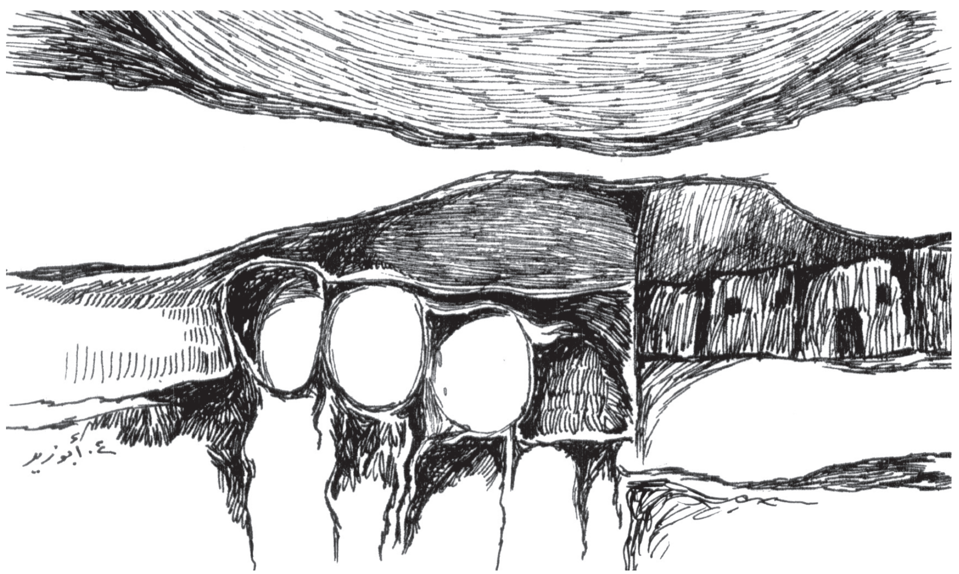
النورمانديين والكاستيليين، الدخول بحرية إلى العاصمتين المسلمتين المفتوحتين، حيث تحتوي المكتبات الفنية على النسخ العربية للنصوص الفلسفية والعلمية اليونانية، التي كانت تعتبر منذ قرون من جانب رجال الشمال. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فهناك المتبحرون بالعلوم من بين السكان المحليين -مسلمين، يهود وأحيانا مسيحيين «مستعربين» Mozarabes- الذين كانوا قادرين على قراءة (فك النصوص) وإعادة تشكيل المعنى باللغة الصقلية أو الكاستيلية حيث كان بإمكان الرهبان إعادة النقل مجدداً إلى اللغة اللاتينية العالمة بهذه الوسيلة المعروفة استطاع شمال أوروبة إعادة اكتشاف مؤلفات أرسطو التي ترجمت إلى اللاتينية لا انطلاقاً من اليونانية ولكن من العربية (حيث لم تفرض النصوص المباشرة من اليونانية نفسها إلا مع عصر النهضة).

الفكر اليوناني العربي

ونكاد لا نجد أحداً يعترض على واقعة انتشار ما اصطلح الأفذاذ من العلماء على تسميته الفكر «اليوناني العربي» في أوروبة بعد العام ١٠٨٥. ولكن الاحتكاك لم يقف حد الفلسفة فقط، فنحن كثيرا ما ننسى، بداية أن اللغة اليومية لمسلمي جنوب أوروبة لم تكن العربية الكلاسيكية -لغة البلاط والعلماء الأفذاذ- ولكن خليط من الباتوا (لهجة إقليمية محلية) الروماني وفي أسبانيا، كانت اللغة الكاستيلانية الدارجة للمسلمين تدعى Aljamiado- وقد وجدت نصوص منقولة بالحرف العربي وتعود إلى القرن السادس عشر- هذا بينما حافظ اليهود ذوو الأصول الأيبرية وحتى اليوم على لغة كاستيلانية معبرنة اسمها le ladino. إذاً، لم يكن هناك عائق لغوي للاتصال (والتواصل). فالرعايا المسيحيون واليهود والمسلمون الخاضعون للملوك في باليرمو وطليطلة لم يكونوا على وفاق إطلاقاً. في الليل يعتزل كل منهم الحيّ المنفصل الخاص به، ولكن في النهار يستطيعون الكلام فيما بينهم سواء في بلاط الأمير أو في الأسواق.

ظل القرن الثاني عشر في طليطلة وباليرمو، فترة تسامح استثنائية من جانب الحكام المسيحيين، ولا ينطبق الأمر على القرون اللاحقة، حين بدأ الترحيل أو التنصير بالقوة يقضي على المجموعات المسلمة واليهودية في أسبانيا وصقلية. لكن بين الأعوام ١١٢٦م و ١١٥٢م، وضع رئيس الأساقفة في طليطلة ريموند تحت حمايته مدرسة الترجمة التي كانت تعمل على النقل من العربية والعبرية إلى اللاتينية. منذ لحظة الاستيلاء على طليطلة انتحل ملوك كاستيلا لأنفسهم لقب «عاهل الأديان الثلاثة».

أما عملية المثاقفة فإنها تبدو شديدة أكثر لدى حكام صقلية النورمانديين، صقلية



التي هي على ملتقى الحضارات المتوسطية. وإمارة باليرمو كانت الوحيدة في أوروبة وفي العالم التي جعلت رسمياً الاستخدام المتوازي للغات العالمية الثلاث: اللاتينية والعربية واليونانية البيزنطية. والإشعاع الفكري لمدرستي باليرمو وطليطلة في القرن الثاني عشر كان من الشدة بحيث جذب باكرا الرهبان من كل شمال أوروبة وحتى العلماء الأفذاذ القادمين من الإمبراطورية الأنكلو - رومانية لم يكونوا أقل عدداً. ففي باليرمو كان هناك أديلارد دوباث Adelard debath في بداية القرن الثاني عشر وميشال سكوت Michel Scot في بداية القرن الثالث عشر.. فكل العلوم كان يعتبر مصدرها باليرمو أو طليطلة. فالسحر في القرن الثاني عشر كان يسمى «الفن الطليطلي» Ars Toletana. ولكن رهبان الشمال لم يكتفوا بنقل الكتابات الفلسفية الجافة أو الطبية فقط، ولكنهم نقلوا أيضا اعتقادات وخرافات الجنوب.

نقل العلوم والتراث الشعبي العربي

هناك أمثلة ووقائع موثقة على نقل تلك الشعوب لعلوم العرب وفنونهم وتراثهم الشعبي (الفولكلور)، فقد قدم الراهب الإنكليزي روبرت كاتون R.de Ketton أو روبرت دو شاستر المعروف باسمه اللاتيني Roberrtus Anglicus إلى أسبانيا عام١١٣٦ لتعلم اللغة العربية لكي يتمكن من ترجمة نصوص علمية عملية. وحين أصبح رئيس الشماسين في منطقة Pampelune، نقل إلى اللاتينية كتابات خيميائية (الكيمياء السحرية Al-chimie) إسلامية

وخصوصاً رسالــة الخوارزمي الأساسية في الرياضيات، ونستطيع أن نتساءل إذا لم يكن روبرت كاتون هو أول من أدخل إلى المسيحية الغربية معرفة الجبر، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فنتيجــة الطلب الملح من جانب بيــار الموقــر Pierre le venerable أب منطقة Cluny، قام روبرت بترجمة القرآن أيضــاً إلى جانب مجموعة «خرافات عربية» Fables Sarrasimes (الاســم الذي كان يطلق على العرب المسلمين والسراسنة) Les Fabulae Saracenarum (أو التراثــات العائدة إلى الخلفاء الأربعــة الأوائل)، لكي يتيــح للأوروبيــين امتلاك أفضــل لمحاربة ثقافة وإيمان خصومهم.

ولقد بقيــت ترجمة روبــرت اللاتينية للقــرآن الأولى في أوروبــة ولزمن طويل، ثم طبعه عام ١٥٤٣ مع مقدمة كتبها لوثر. وفي عام ١١٥٠ عاد روبرت إلى انكلترا حيث قام بإجراء حسابات بحســب الطرائق العربية لتحديد خط الزوال (الهاجرة) لمدينة لندن، وهــذا النقل المــزدوج الذي أنجــزه روبرت كيتــون -علوم وتــراث ثقــافي عربي- بين منطقة Pamplune والعاصمة لندن جعلنا نقارب نقطة أساسية مجهولة كلياً من طرف الجمهور المثقف، وهي أن الفولكلور العربي في جنوب أوروبة، يقدّر العلوم والفلسفة، قد لوّن عميقاً أدب نصارى الشمال منذ القرن الثاني عشر.

تلاقي أساطير العرب والغرب

نادرون أيضا هــم المختصون في العصر الوسيط الذين أشاروا مثل نيكل Nykl إلى التقارب في الموضوعات المعالجة بين الشعر العربي الأندلسي والشعر البروفنسالي وإلى الإثبات -كــم فعل آســين بلاثيوس Acin Palacios وتســرولى Cerulli، وعلــى التلاقــي العظيم لأساطير مــا وراء البحار بين دانتي Dante والإســلام، لكن وغالبا في المجال الأكثر تواضعــا وألفة للحكاية الـ Fabliau أي الحكايــات الشعبيــة نجد أن الأثر العربي قد ترك أكثر طابعه، لدينا كمثل أولي تقنيــة السرد ذات الأصــل الهندوسي Hindone التــي تقوم على تشبيك سلسلة مــن الحكايا الواحــدة ضمــن الأخرى مع حكاية- تمهيد تلعب دور الإطار فعن طريق الفرس والشرق الأوسط العربي وصلت هذه التقنيــة الأدبيــة في العصــر الوسيط حتى أسبانيا.

فألــف ليلة وليلــة لا تمثل ســوى عيّنة شعبية مــن هذا الجنس مــن الأدب، حيث نجد نموذجاً قدّره الإعلام المسلمون أنفسهم حق قــدره وهو منظومة الحكايــا الشعبية حول الحيوانات أي كليلة ودمنة ذات الأصل الهندوسي البعيد والتي ترجمت إلى العربية منقحة في القرن السابع من جانب الإيراني ابن المقفع ثــم نقلت في القــرن الثامن إلى اللاتينيــة ومن ثم إلى الكاستيلانية بوساطة

ترجمــة أسبانيــة عبرية قبــل أن تصل إلي ممارسة التأثــير في الفرنسي لافونتين La Fontaine.

المرجعية العربية

فلننظر هنا في المسار المدهش لأحد العلماء الأفــذاذ من القرن الثاني عشر على مفترق كل حضارات، زمنــه، بين منطقة Laragon (في إيطاليــا) وانكلــترا، بين اليهوديــة والمسيحية والإســلام بين علم الفلــك والحكايا الشعبية، حيث يمكن اعتباره أهم من نشر التاريخ الأدبي لأوروبــة. يتعلق الأمر بأحــد المتعلمين اليهود المنتمــي إلى منطقــة Aragon والذي اعتنق المسيحية عــام١١٠٦ وأطلق علــى نفسه اسم العماد Petrus Alphonsus. هذا الكاهن، ذو الثقافــات الثــلاث: العبريــة، اللاتينــي، والعربيــة، كان مــن المفترض أن يذهب إلى انكلترا عام ١١١٥ بدعوة من الملك هنري الأول حتــى يدرس علم الفلك العربي. لكن قبل ذلك وفي الأرضــ الايبرية، استطاع بــدرو الفونسو أن يكيــف في اللغة اللاتينيــة التقنية السردية للشرق مع كتــاب desciplina clericalis، هذا النص عبارة عن مجموعة قصص أخلاقية ورمزيــة موجهة كما يدل العنــوان على ذلك، لتثقيف وتربيــة الرهبان، لكن المهــم بالنسبة إلينــا هــو أن الفونســو تبنــى ولأول مرة في اللغــة الأوروبية، طريقــة الحكاية -الإطار مع القصصــ المتشابكــة المعروفة عنــد العرب، والقصصــ نفسها سردها عجوز عربي لتأنيب ابنه اللامبالي. واســم الأثر الأدبي Arabus castigavit filium وخاصــة كان باهــرا، واعتبر أوروبياً بحتــاً، وانتشرت تقنية الحكاية -الإطار والقصص المتشابكة عبر الغرب خلال العقــود الأربعة الأخيرة للعصر الوسيط، وصل عدد القصص التي استقرت (تداخلت) تراوح بين ١٠٠ و١٠١ و١٠٠٠ و١٠٠١، وتلاشت غالباً في مؤلفــات مثل Dom juan Manuel في أسبانيــا وفي القصص المجهولــة الكاتب مثل Novelliono وفي Cento novelle في صقلية وفــي تسكانــة وفي Deecameron العائد لبوكاتشيه Boccace الذي غدا نموذجاً بدوره chaucer في انكلترا ولـ nouuvelles duxve sieclecent (مئة قصة جديدة للقرن الخامس عشر) الفرنسي، وأخيراً لمارغريت دو نافار M.de Navarre. هذا من أجل القول إن ولادة نــوع أساسي من الأدب الوسيط يبقى خارج إطار الفهم دون مرجعيته العربية.

❁ ❁ ❁

- هــذا النصــ مأخــوذ مــن منشــورة autrement، وهــي دوريــة شهرية بصفة كتاب دوري يعالــج موضوعات محددة، وهذا النص من عدد كان قد خصص لمدينة طليطلة (القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر).

الهوامش:

(❁) كاتب وباحث من IHESS.



الوقاحة الفكريّة

أحمد مثقال القشعم ❁

ليس غريباً على مجتمعٍ يموج بالتّطرّف والإرهاب والعنصريّة أن يكون محتكراً للوقاحة، فمن ضروريّات من يحمل هذه الصّفات والمورّثات أن يكون وقحاً، هذا الكلام لا أقوله لمجرّد وصف ذلك المجتمع الإسرائيليّ الغارق بالعدوانيّة حتّى أذنيه، بل أقول ذلك بعد أن قرأت كتاباً بعنوان: (ما يفوق الوقاحة– حول إساءة استخدام اللاساميّة وتشويه التّاريخ)، مؤلّف الكتاب هو الباحث المعروف: (نورمان فنكلستين)، وقام بترجمته الأستاذ:

❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

(أيمن حدّاد)، والنّاشر هو: (شركة العبيكان للأبحاث والتّطوير)، سنة /٢٠٠٨م/.

فمن هو (نورمان فنكلستين)؟..

هو الباحث والكاتب المعروف في جامعة (ديبوول) مدرّساً للعلوم السّياسيّة، ومن كتبه المشهورة (صناعة الهولوكست ٢٠٠٠م)، و(أمّةٌ تحت المحاكمة ١٩٩٨م مع الباحثة روث بيتا بيرن)، و(صعود وأفول فلسطين ١٩٦٦م)، و(الصّورة والخيال في صراع إسرائيل- فلسطين ١٩٩٥م).

هذه المؤلّفات التي لاقت الكثير من الرّواج بسبب كشفها للدّجل والتّزوير الذي يحصل في المنظّمات الدّوليّة، وكيف تختفي الحقائق، وكيف تسوّق الأمور كما يريد أصحاب القرار، وكيف يتمّ الكذب على الشّعوب.. ويعتمد كتاب (ما يفوق الوقاحة- حول إساءة استخدام اللاساميّة وتشويه التّاريخ) على المقارنة والأبحاث والتّقارير والوقائع لدحض مقولات إسرائيل، وفي فصلٍ معنونٍ بـ: (أكبر كذبةٍ انطلت على النّاس)، وهو الفصل الذي يبدأ من الصّفحة /١٦٥حتّى ١٧٣/، يتناول الباحث بالنّقد العلميّ كتاب: (مرافعة لإسرائيل) للكاتب: (آلان ديرشويتس)، الذي يريق ماء وجهه وحبر دواته في الدّفاع عن إسرائيل، وتقديم هذه المرافعة القانونيّة للعالم كلّه عن براءة إسرائيل من كلّ ما وصمت به من خروقاتٍ للقيم والأديان والحقوق، ولذلك يقول (نورمان فنكلستين) عن هذا الكتاب:

((في عام /٢٠٠٣م/ نشر (آلان ديرشويتس)، وهو بروفيسور في القانون في جامعة (هارفرد) كتابه: (مرافعة لإسرائيل)، وأصبح الكتاب فور صدوره كتاباً مؤثّراً، ومن أكثر الكتب مبيعاً في البلاد، وحسب التّقارير خصّصت المنظّمات اليهوديّة الأمريكيّة نسخةً من الكتاب لجميع خرّيجي المدارس الثّانويّة اليهود، وقامت بتوزيعه بكثافةٍ على الجامعات، في حين قامت وزارة الخارجيّة الإسرائيليّة بشراء آلاف النّسخ لتوزيعها في العالم.. وقامت بعثة إسرائيل إلى الأمم المتّحدة بتوزيع مئات النّسخ إلى رؤساء بعثات الدّول في الأمم المتّحدة والمسؤولين العاملين فيها..)).[1]

والمثير في الكتاب هو العنوان: (ما يفوق الوقاحة- حول إساءة استخدام اللاساميّة وتشويه التّاريخ) المنطبق انطباقاً تامّاً على الحالة التي يتناولها بالبحث، فهو لم يجد أصدق من هذا العنوان ليردّ به على ذلك

الكاتب الـذي يدوس علـى النّواميس كلّها ليبيّض سجلاّت إسرائيل السّوداء، ويبيّن لنا هذا الباحث (نورمان) سبب ذلك قائلاً:

((أنّ كلمـة (Chutzpah)، وتلفـظ: (خوتزبـاه)، المستخدمـة في عنـوان هـذا الكتـاب ليست كلمـةً إنكليزيّـةً، وإنّما هي مـن لغة اليديشـ.. فهي تعنـي مزيجاً من الوقاحة والجـرأة وقلّة الحياء.. وبناءً عليه فـإنّ استخدام عنوان: (مـا يفوق الوقاحة) هو إشـارةٌ إلى ذلـك الكتاب، ومـا قام به مؤلّفه..)).[٢]

ويمكنني من خلال مـا ورد في الكتاب، وخاصّـةً في فصل الأكذوبـة: (أكبر أكذوبةٍ انطلـت على النّاس) أن أحدّد الغرض الذي قصـده (آلان ديرشويتس) مـن تأليف هذا الكتاب، ومـن تقديم هذه المرافعة إلى العالم كلّه بكلّ وقاحةٍ ليدافع عن إسرائيل، ويبيّض كلّ صفحاتها السّـوداء وسجلّهـا الدّمويّ الرّهيـب، ولذلـك نختصر تلـك الأهداف المتوخّـاة من الكتاب بالنّقـاط التّالية التي أوردها (نورمان):

- المساعدة على تنقية أجواء العالم حول إسرائيل من خلال تقديم دفاعٍ حقيقيٍّ مباشرٍ ضدّ الاتّهامات -كما يرى- في حقّها.

- سلبيّـة مؤيّدي إسرائيـل الشّديدة في وجه الهجمات غير المبرّرة على إسرائيل.

- الدّفاع عن إسرائيل أمام محكمة الرّأي العامّ.

- التّذرّع بمكافحة (اللاساميّة الجديدة) لتجنيب إسرائيل أيّ انتقادٍ.

- الكشـف عن الأكاذيـب التي ينشرها أعداء إسرائيل كما يرى.

- فضح الأكاذيب التي يظهرها مناصرو السّلام الإسرائيليّون.

- رفع معنويّات الجمهور الصّهيونيّ أمام الحقائـق، وتبرير الجريمـة بمنطق الدّفاع عن النّفس.

- التّلاعب بالوثائق الأساسيّة والدّوليّة، وتغيير الوقائع والأحداث.

- استشهـاد (ديرشويتسـ) بالوثائـق والمصادر السّخيفة والكاذبة.

- الخروج بنتائج ومزاعم معدّةٍ مسبقاً، ومقولبـةٍ بالقالـب الذي يناسـب الجسد الإسرائيليّ.

- الاعتمـاد على مؤهّلاتـه الأكاديميّة للتّأثير على طلاّبه والقرّاء.

ومؤلّف الكتاب لا يكتفي بهذه الأكاذيب، بـل يـرى أنّ إسرائيـل مـن أعظـم الأمم



المتحضّرة التي تعرّضت لـكلّ هذا الانتقاد من العالم، وهي تعيش في عالمٍ يكرهها، ويرى أنّ العالم كلّه يتآمـر عليها، ويسوّد صورتها، لهـذه الدّرجـة من الوقاحـة التي لا يمكن أن توصـف بالكلمات أبـداً يصل عقل هذا الأكاديميّ من السّخف، ويستهتر بكلّ عقول العالم التي تعرف كلّ هذه الأساليب الملتوية، والارتباطـات الذّيليّـة لمثـل هــذه الفئات المأجورة، فالأمّـة الإسرائيليّة في نظره هي نسيج وحدهـا، وهي الأمّة التـي تعرّضت لكلّ الكوارث والنّكبات، ولكنّها -كما يرى- خرجت كالمارد المنطلق من قمقمه، أو كالتّنّين النّاهض من رماده:

((هــي أنّــه لا يوجد أيّة أمّــةٍ في تاريخ العـالم واجهت تهديـداتٍ مشابهة لوجودها -خارجيّـةً وداخليّـةً- قد أظهـرت جهوداً أكبر، أو حتّى مقاربة من حجم تلك الجهود، لم يحدث لأيّ أمّـةٍ متحضّرةٍ في تاريخ العالم أن تعرّضت بصفةٍ متكرّرةٍ -ربّما تتنافى مع العدل- للشّجب المنافـق والانتقاد من قبل المجتمـع الدّوليّ، كما تعرّضت إسرائيل على مرّ السّنين..))[٣].

وبهذا يسيل مداد قلمه المسموم متباكياً على إسرائيـل، لأنّها في اعتقاده هي البراءة ذاتها، وكلّ قيـم الإنسانيّة والعدل متجسّدةٌ فيها، فـأيّ عقلٍ هــذا الـذي يحمله هذا

الجسـد؟!! وأيّ أكاديمـيٍّ هـذا الـذي لا يعرف مـن العلم وأسسـه إلاّ قول ما يروق له ولأسياده، وما يؤمن بـه ويسعى إليه؟!!، فهـو بعد البحـث والتّمحيص في كلّ أمم الأرض يجد أنّ إسرائيل جنّة الله في أرضه، هكذا يتنزّل الوحي عليه فجأةً في كلّ فصلٍ مـن فصول كتابه، وهكـذا يتحفنا بنفحاته الإيمانيّة، وبتبريكاته الإشراقيّة، فهي الدّولة التي يسود فيها القانون، ويسرح ويمرح فيها كما يشاء، وعلى العـالم أن يستفيد من هذه الدّولـة القانونيّة السّمحاء التي لا يوجد في أمم الأرض أمّةٌ تشابهها أبـداً، فهي الأمّة المختارة:

((الحصيلـة النّهائيّـة هـي أنّ الفجوة بين السّجـلّ الحقيقيّ لإسرائيل في الالتزام بسيادة القانون، والسّجلّ المتصوّر لالتزامها بسيـادة القانون هي أعظم من أيّ فجوةٍ في حالـة أيّ أمّةٍ على مـرّ التّاريخ... إنّ سجلّ إسرائيـل في مجـال حقوق الإنسـان... هو سجلٌّ ممتازٌ عموماً...)).[٤]

إن عمـل الأكاديميّ الـذي يدّعي العلم والمنطـق (ديرشويتس) هو أشبه بنافخ الكير على نفسه وغيره، أو بمن يقوم بتبييض الثّياب والمعـادن، فهو يبيّض سجـلّ إسرائيل أمام العالم كلّه، ولكنّ الحقائق تتكشّف وتنفضح، وها هـو العالم كلّه يـرى ويسمع ما يحصل على أرض الواقع بعد أن تطـوّرت وسائل الاتّصـالات والبثّ، ولم يعد بمقدور إسرائيل أن تتخفّى وراء تلك الأقنعة الكاذبة.

هكذا يبيّن لنا الباحث المنصف (نورمان فنكلستين) مـن كلّ ما تقـدّم أساليبَ ذلك المؤلّـف (ديرشويتـس) الـذي يحتال على الوقائـع، ويتلاعب بها، ويلوي عنق التّاريخ، ويحرق كلّ حيثيّـات التّاريخ ليجعلها مداداً يكتب به أمجـاد إسرائيل وعدالتها ونصاعة سجلّهـا في مجال حقـوق الإنسـان، مفنّداً مزاعمـه، ومضيفاً إليهـا حقائق الاحتلال التي لم يعد بمقدور العالم كلّه أن يتجاهلها:

- ((منذ بدايات الانتفاضة التي حدثت بين عامـي /١٩٨٧- ١٩٩٣م/، ما عاد من الممكن تجاهل الأمر..)).[٥]

لقد أخذ العالم كلّـه ينتبه إلى ما يجري في فلسطين مـن خرقٍ وانتهـاكاتٍ لحقوق الإنسـان، فما يحـدث هو أشبـه بالمجزرة الحقيقيّة، ولكنّ عشّاق إسرائيل لا يبصرون ولا يسمعون، ويسكتون ولا ينطقون، فالحبّ القاتل يجعل العاشـق الولهان يتغاضى عن كلّ مـا يبدر مـن المحبوب كرامـةً لعينيه،

وفـداءً لـه، ولذلك لم يعد من الممكن ستر جرائم الاحتلال، وذلك بسبب المنظّمات التي تعمل داخل فلسطين وخارجها، وهي منظّماتٌ إنسانيّةٌ لا تخضع لأحدٍ، وهذا ما يجعل عملها مستقلاًّ ونزيهاً:

((مراقبة سجلّ إسرائيل في مجال حقوق الإنسان في المناطق المحتلّة من قبل عددٍ كبيرٍ من منظّمات حقوق الإنسان، بعضها يعمل في إسرائيل ذاتها.. مثل منظّمة (بتسيلم= مركز المعلومات الإسرائيليّ لحقوق الإنسان في المناطق المحتلّة)، واللجنة العامّة لمناهضة التّعذيب في إسرائيل، ومنظّمة أطبّاء لحقوق الإنسان، ومنظّماتٍ أخرى تعمل على مستوى العالم، مثل منظّمة العفو الدّوليّة، ومنظّمة (هيومان رايتس ووتش)، كما أنّ إسرائيل خاضعةٌ للمراقبة من قبل الأمم المتّحدة ووكالاتٍ أخرى مسؤولةٍ بصفةٍ عامّةٍ عن مراقبة الالتزام بقانون الإنسان..)).(٦)

ونجد أنّ المنظّمات التّابعة للأمم المتّحدة قد زادت وتيرة ملاحظاتها وشجبها للسّلوك الإسرائيليّ، وما يجري من أحداثٍ داميةٍ للفلسطينيّين:

((أشارت منظّمة العفو الدّوليّة حول انتهاكات حقوق الإنسان في أثناء الانتفاضة الثّانية.. أنّه جرى عددٌ كبيرٌ من التّحقيقات بخصوص الوضع في إسرائيل والمناطق المحتلّة..)).(٧)

هذه المنظّمات المعروفة تشكّل عقبةً في وجه أكاذيب إسرائيل، ومن ينافح عنها كأمثال (ديرشويتس) الذي يصمّ أذنيه، ويغمض عينيه عن كلّ شيءٍ يصدر من هذه المنظّمات والهيئات، وإذا تحدّث عنها، فإنّه يتحدّث بلسان النّاقد والمهاجم لها، لأنّ ما تقوله لا يروق له ولأمثاله، ونرى هؤلاء يهاجمون هذه المنظّمات، ويتّهمون أعضاءها بتهمٍ ملفّقةٍ، ولعلّ منها أنّ كلّ من يمسّ قداسة إسرائيل يكون معادياً للسّاميّة:

((لم يستشهد (ديرشويتس) –ولو مرّةً واحدةً– بأيٍّ من منظّمات حقوق الإنسان الرّئيسة لدعم مزاعمه، وليس السّبب أنّه لا يرغب في الاستشهاد بها، بل لأنّه لا يستطيع ذلك.. أو أنّه –وبازدراءٍ جليٍّ للقواعد الأكاديميّة– يقوم ببساطةٍ باختلاق الدّلائل، ولو قام بالاستشهاد باستنتاجات منظّمات حقوق الإنسان الرّئيسة لكان عليه أن يجعل عنوان كتابه: (مرافعة ضدّ إسرائيل.. لا يكتفي (ديرشويتس) بتجاهل استنتاجاتٍ من منظّمات حقوق الإنسان بصفةٍ منتظمةٍ،

بـل يعمـل إلى القدح بها من أجـل أن يبرّر تجاهله لعملهـا.. ولكنّه وكمناصرٍ لإسرائيل مناصرةً عمياء، ليس أمامه سوى معارضة تلك المبادىء..)).[٨]

إنّ (ديرشويتس) يتقنّع بجلد الحمل ليقدّم نفسه للآخرين على أنّه مناصرٌ ومدافعٌ عن حقوق الإنسان، ولكنّ قلبه وأحاسيسه تشبه قلوب الذّئاب والتّماسيـح، ذلك أنّه عندما تقـوم إسرائيل بجرائمها، فإنّه يبدأ بالدّفاع عنها بأنيابه وأظافره، وتزداد لهجته ضراوةً وشراسـةً على المنظّمـات الدّوليّة، ويتّهمها بالكذب والتّزوير، وهذا هو أسلوب العاجز، فـلا يجد إلاّ الهجوم قبـل أن تبدأ محاكمة أحبابه على ما اقترفت أيديهم الآثمة:

((فكون الاحتلال الإسرائيليّ يعتمد على القوّة الوحشيّة، لا يمكن الدّفاع عنه في حال الإقـرار بانطباق القانون الـدّوليّ.. فبينما يقدّم (ديرشويتس) نفسه في الولايات المتّحدة علـى أنّه منافحٌ عن الحقوق المدنيّة.. نجده يدافع بصفةٍ متواصلةٍ عن أشنع الانتهاكات الإسرائيليّـة لحقـوق الإنسـان.. ويدّعـي (ديرشويتسـ) أنّ منظّمـة العفـو الدّوليّة كذبت بشدّةٍ بخصوصـ السّجلّ الإسرائيليّ في ممارسة التّعذيب.. وجّه (ديرشويتس) في كتابه الثّاني: (جرأة) اتّهاماتٍ شبيهة لمنظّمة (الحـقّ)، وهي منظّمـةٌ فلسطينيّةٌ معروفةٌ معنيّةٌ بحقوق الإنسان..)).[٩]

والعجـب كلّ العجـب هـو موقـف (ديرشويتس) تجاه منظّمة (هيومان رايتس ووتشـ) المعروفة، وهـذا الموقف يعلّق عليه (نورمان فنكلستين) من خلال بعض الأسباب المتعلّقـة بطبيعة هذه المنظّمـة ذات الوزن الدّوليّ، وكون مقرّهـا في أمريكا، وبأكذوبة معاداة السّاميّة، وغير ذلك من مبرّراتٍ غير منطقيّةٍ:

((ومن الأمور الكاشفة أنّ (ديرشويتس) يصمت صمتـاً مطبقاً عن منظّمة (هيومان رايتس ووتش) علـى الرّغم من أنّها منظّمةٌ مهمّـةٌ، ووزنها أكبر مـن وزن منظّمة العفو الدّوليّـة.. وليس من الصّعب معرفة السّبب الكامـن وراء هذا الصّمـت، إذ أن منظّمة (هيومان رايتس ووتش) هي منظّمةٌ مقرّها في الولايات المتّحـدة الأمريكيّة، وبناءً عليه فـإنّ شجبهم –بوصفهـم لاساميّين عمليّاً– يتطلّب وقاحةً..)).[١٠]

أمـام هـذه الحالـة المحرجـة لـ (ديرشويتسـ)، ما هـو موقفه اليـوم أمام تقارير ومشاهدات منظّمة: (هيومان رايتس

ووتشن) وتقرير القاضي (جولدستون) بملاحقة قادة إسرائيل بجرائم الحرب أمام المحكمة الجنائيّة الدّوليّة، وذلك أثناء العدوان الوحشيّ الذي جرى على غزّة أخيراً، هل سيكون مصير هذه التّقارير مثل مصير التّقارير السّابقة، والتي يصف حالها (نورمان) في أدراج الهيئات الدّوليّة، ويرثيها قائلاً:

((إنّ التّقارير التي تصدرها منظّمات حقوق الإنسان، والتي تتميّز بمصداقيّةٍ عاليةٍ، تظلّ على الرّفوف تجمع الغبار، ولو تمّ نشر استنتاجات هذه التّقارير نشراً واسعاً، فمن الواضح أنّه سيجعل من الاحتلال الإسرائيليّ أمراً لا يمكن الدّفاع عنه أخلاقيّاً..)).(١١)

ولا يكتفي (ديرشويتس) بتزوير الوقائع وتبرير الجرائم، بل يعود أدراجه إلى التّاريخ، فيسترجع أحداثاً تاريخيّةً باليةً، ويستند على خرافاتٍ وأوهامٍ توراتيّةٍ ونصوصٍ أسطوريّةٍ لا علاقة لها بالواقع، ويحاول أن يربط بين الماضي والحاضر، مستفيداً ممّا ورد في الكتب القديمة من بعض الإشارات التي يوظّفها لصالح الفكرة التي يسعى إليها، وإذا أعيته النّصوص، فمجال الخيال الخصب عنده يفتح له ذراعيه ليهيم في أوديته وشعابه كما يحلو له، وليبتدع صوراً وقصصاً وخرافاتٍ ما أنزل اللّه بها من سلطانٍ، فشهادته الأكاديميّة -كما يرى- قد أباحت له خرق كلّ قواعد البحث، ولذلك وصل إلى درجة العصمة في تحليلاته وأبحاثه، وهذه هي الهيستريا الفكريّة والخلل العقليّ:

((يعمد (ديرشويتس) في فصول كتابه المكرّسة للجانب التّاريخيّ إلى إعادة استخدام خرافاتٍ باليةٍ حول صراع إسرائيل-فلسطين، ويبتدع خرافاتٍ جديدةً..)).(١٢)

وفي تعليق (نورمان فنكلستين) على (ديرشويتس) وكتابه يذكر كثيراً من المثالب والمآخذ الدّالّة على دفاعه المستميت عن إسرائيل، وينتقد المنهج الذي يدّعي أنّه منهجٌ علميٌّ وأكاديميٌّ، ويرى أنّ الكاتب يجهل ما ورد في كتابه، وهذا يعني أنّ الكاتب قد سرق هذه المعلومات المعلّبة مسبقاً، أو أعطيت له، فوضعها في كتابه دونما تحليلٍ وتفكيرٍ أبداً، وعلى الرّغم من كلّ هذه الأكاذيب والخرافات الواردة في الكتاب، فما تزال الجهات الدّاعمة لإسرائيل تتناول هذا الكتاب بالمدح، وتثني على مؤلّفه، وكأنّه

بطلٌ مــن أبطــال العهود القديمــة، وتلجأ تلك المؤسّســات والمعاهد المرتبطة بإسرائيل إلى تلميــع الكتّــاب والمثقّفــين الموالين لها، والمؤمنــين بما تقول إيمانــاً أعمى، وتعطي الأمــوال الطّائلة لوسائــل الإعلام والكّتاب والصّحفيّــين لكي يمدحوا الكتــب المؤيّدة لإسرائيل ويثنوا عليها ويشجعوا النّاس على شرائها وترويجها وقراءتها:

((إنّ هذا الأستاذ يجهل ما ورد في كتابه.. يكون الكتــاب مليئاً بالأخطــاء المكشوفة.. وعلــى الرّغم من كلّ ما سلف، فإنّه يتواصل كيل المديح للمؤلّف والكتاب؟!!!..)).(١٣)

هــذا الأكاديمــيّ الحاصل علــى هذه الشّهــادات التي تملأ جــدران عقله وبيته، قد أصابتــه حالةٌ من الهستيريــا الفكريّة، وتضخّمت عنده الأنانيّة حتّى أصبح مقتنعاً أنّ كلّ ما يقوله هو الحقّ، لأنّ حالته الفوقيّة سيطرت عليــه، وجعلته يندفع بــلا اتّزانٍ، ففقد زمام عقله، وأخذ يسابق لجامه الفكريّ والعاطفيّ، فضــلّ وزاغ، وتاه في مستنقعات التّبعيّة والانقياد الأعمى، وهذه الحالة تعود إلى التّماهــي في الآخر، والإيمــان بكلّ ما يقوله دون تفكيرٍ أبــداً، فكيف بعد كلّ هذا نستطيع أن نأخذ شيئاً من هذا الكاتب؟!! إنّ صفة الكاتــب والأكاديميّ لا يمكن أن تطلق علــى من كان على هذه الشّاكلة من السّفالة الفكريّة أبداً:

((لقد وقــع (ديرشويتســ) في الإهمال الأكاديميّ المتعمّــد، وإن كانت جوانب هذا الإهمــال تبدو قليلــة الشّأن أمــام تزويره الفاضــح لسجلّ إسرائيــل في مجال حقوق الإنســان والمعانــاة التي يتسبّــب فيها هذا التّزوير..)).(١٤)

إنّ (ديرشويتس) لصٌّ مثقّفٌ، فهو يسرق جهد الآخرين وتعبهم، ويعتمد على الآخرين في تجميــع مادّة كتابه، وهذا مــا أشار إليه (نورمــان) في أكثر من موضعٍ، وهذه السّرقة وحدها كافيةٌ لنسف كلّ ما ورد في كتابه من أباطيل، والغريب أنّــه يسرق جهد الآخرين دون أن يشــير إلى ذلك، فأيّــة أمانةٍ علميّةٍ تلك، وأيّة أكاديميّةٍ تلك التي يتفاخر بها؟!!! لو كانت هذه الجامعات والأكاديميّات تحترم نفسها لأسرعت إلى سحــب هذه الشّهادات من أمثال (ديرشويتســ)، هؤلاء الذي لوّثوا العلم والبحث بما يحملونه من فكرٍ ملوّثٍ:

((وإذا مــا عدنــا إلى كتــاب (مرافعــة لإسرائيــل) نجــد أن (ديرشويتســ) يعتمد اعتمــاداً مكثّفاً على دراســةٍ واحدةٍ علميّةٍ

للمؤرّخ (بيتي موريس)، أو على مواقع إنترنت ومطبوعاتٍ مؤيّدةٍ لإسرائيل، لولا أنّ الفصلين الأوّل والثّاني من كتابه يشذّان شذوذاً عن هذه القاعدة..في كلٍّ من الفصلين الأوّل والثّاني من كتاب (ديرشويتس- مرافعة لإسرائيل) وكتاب (جون بيترز- منذ زمانٍ سحيقٍ)، حيث يبيّن الجدول أنّ اثنين وعشرين اقتباساً وهامشاً من أصل اثنين وخمسين وردت في الفصلين الأوّل والثّاني من (مرافعة لإسرائيل) تتطابق تطابقاً تامّاً تقريباً مع تلك الواردة في كتاب (بيترز)، بما في ذلك التّطابق في مواضع حذف الكلمات في الاقتباسات الطّويلة..)).(١٥)

إلى هذا الحدّ السّافر من قلّة الأمانة يصل الانحطاط الفكريّ، فلا يكتفي الكاتب بسرقة الأفكار، بل يسرق الفصول بالكامل، بفواصلها وإشاراتها وهوامشها، وحتّى في مواضع حذف الكلمات، أيّة عقليّةٍ هذه العقليّة، أظنّ أنّ عقل هذا الكاتب فيه شيءٌ من الهوس والتّصدّع الفكريّ، والتّشويش والفصام المنهجيّ، فهو يظنّ أنّ كلّ ما قرأه قد صار ملكاً له، وأنّ كلّ ما كتبه الآخرون هو أحقّ به، لأنّه الأكاديميّ الملمّع كثيراً.

ومن أكثر الوقاحات غلاظةً وتفاهةً واستفزازاً لكلّ إنسانٍ على وجه البسيطة ما قاله في شأن الاحتلال الإسرائيليّ، فهو يعتبره نعمةً مهداةً من إسرائيل إلى الفلسطينيّن، فقد نعموا في ظلال الاحتلال بكلّ ما كانوا يحلمون به -هذا ما يقوله- بل يقول أكثر من ذلك وأمرّ، فلنتصوّر هذا الهراء السّخيف، ولنتصوّر هذا الإمعان في الكذب وتضليل الرّأي واحتقار كلّ مشاعر الإنسانيّة، وكلّ مبادىء الأديان السّماويّة السّمحاء، كما يرى أنّ الاحتلال الإسرائيليّ هو أفضل احتلالٍ على وجه الأرض، فمتى كان الاحتلال نعمةً وعدالةً أيّها الأفّاك؟!!!:

((في كتاب (مرافعةٌ لإسرائيل) يؤكّد (ديرشويتس) أن الفلسطينيّين حصلوا على منافع ملموسةٍ من الاحتلال الإسرائيليّ.. على عكس أيِّ احتلالٍ حاليٍّ آخر، فوائد كبيرة للفلسطينيّين، كما أدّى إلى تقليصٍ في معدّلات وفيات الأطفال..)).(١٦)

ولكنّ أصوات الحقّ المبدئيّة أخذت تتعالى في كلّ بقاع العالم، وصارت الشّهادات الحيّة خير وسيلةٍ لإثبات أباطيل المحتلّ، فهذه الباحثة: (سارة روي) من جامعة (هارفرد) تقول شهادتها حول الاحتلال الإسرائيليّ الغاشم:

((بــأنّ الدّمــار الذي لحــق بالاقتصاد الفلسطينـــيّ في ظلّ الاحتـــلال الإسرائيليّ يتجـــاوز الدّمار المعتـــاد الـــذي عانت منه الشّعوب التي تعرّضت للاستعمار..)).[١٧]

عندما يفقد الإنسان سيطرته على عقله وعواطفه، ويخرج من دائـــرة الإنسانيّة إلى الوحشيّة، فإنّه لا يتورّع عن أمرٍ ما، ولا يقف عند حدٍّ معـــيّنٍ، تخيّل أكاديميّاً يرى جرائم الاحتلال في فلسطين، ثمّ يلقي بتبعاتها على الفلسطينيين، ويحمّل ذلك للأطفال والنّساء والشّيوخ، فتمعّن معي بتلك العبارات التّافهة السّخيفــة في قضيّة قتل الأطفـــال، وتأمّل وقاحة المنطق المرتفعة إلى أعلى مستوياتها، ذلك حـــين يقارن بـــين القتـــل الفلسطينيّ وبـــين القتل الإسرائيلـــيّ!!! فهل هنالك من عهرٍ أخلاقيّ وإنســـانيٍّ أكثر من هذا العهر الفاضح والدّنيء؟!! وأيّ عقلٍ وضميرٍ وقلبٍ متحجّراتٌ عند هـــذا المشوّش المستهتر بكلّ القيم والأديان والأعراف والمواثيق؟!!:

((لإظهـــار مسؤوليّة الفلسطينيّ الكاملة عـــن مقتل أطفالهـــم يصـــرّح (ديرشويتس) قائـــلاً: كلّما كسر القادة الفلسطينيّون الأمر المحرّم باستخـــدام الشّباب كإرهابيّين، كلّما زاد عدد الشّباب الذين يقتلون ويصابون... ويقع الذّنب بها بصفـــةٍ كاملةٍ على مرتكب الإساءة، وليس على هـــؤلاء الذين يدافعون عن أنفسهـــم دفاعاً مشروعـــاً ضدّ مطلقي القنابـــل والمهاجمـــين الانتحاريّـــين الذين يتصادف أنّهم من الشّباب.. لا يمكن المقارنة بين القتل الذي يقوم به الفلسطينيّون والقتل الذي يقوم به الإسرائيليّون..)).[١٨]

في هذه العجالة أتمنّى أن أكون قد أوصلت فكـــرةً عن هذا الكتاب الذي يموج بالدّعارة الفكريّة، ويتيه في مهـــاوي الضّلال والعمى والتّعصّـــب، ولا أرى -حسب اعتقادي- أنّ عباراتـــي بقادرةٍ على أنّ تصف هذا الكتاب والمؤلّف، فالعبارات تقصر، والألفاظ البذيئة تستحي وتلـــوذ بالفرار، لأنّ بـــذاءة المؤلّف والكتاب أكبر حجماً، وأشدّ شراسةً ووحشيّةً، ولكنّني هنا أستودعكم بتعليق المفكّر العالميّ الكبير: (نعوم تشومسكي) على كتاب (نورمان فنكلستـــين) قائلاً، علـــى الغلاف الخارجيّ الخلفيّ للكتاب:

((كتابٌ موثوقٌ ومهمٌّ وحافلٌ بالمعلومات، يقـــدّم (نورمان فنكلستـــين) تفاصيل وافيةً وتحليلاً شاملاً يتميّز بعمـــقٍ تاريخيٍّ كبيرٍ، وبحـــثٍ حصيفٍ لنطاقٍ واســـعٍ من القضايا المتعلّقة بإسرائيـــل والفلسطينيّين والولايات المتّحدة..)).[١٩]

الهوامش:

١- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

٢- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

٣- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

٤- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

٥- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

٦- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

٧- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

٨- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

٩- مـا يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

١٠- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

١١- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

١٢- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

١٣- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٦٥حتّى ١٧٣/.

١٤- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /٣٢٧/.

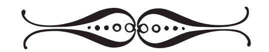
١٥- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /٣٢٨/.

١٦- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /٢٨١/.

١٧- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /٢٨٢/.

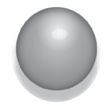
١٨- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- ص /١٩٢و١٧٧/.

١٩- ما يفوق الوقاحة- تأليف (نورمان فنكلستين)- ترجمة: (أيمن حدّاد)- السّعوديّة- الرّياض- شركة العبيكان- ط /١/- سنة /٢٠٠٣م/- /الغلاف الأخير/.





حوار العدد



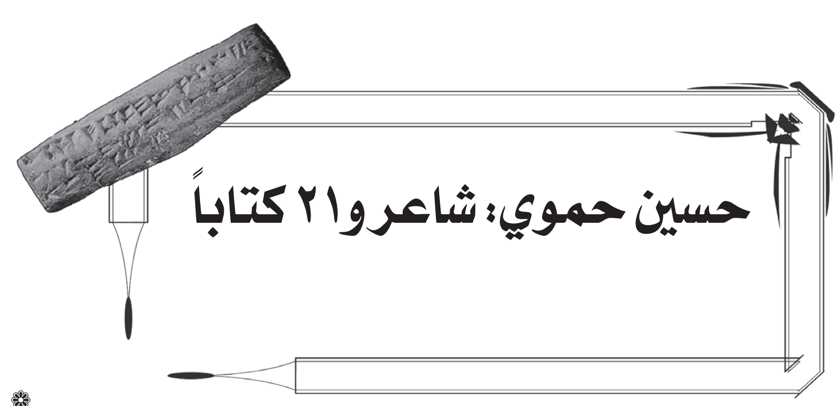
مع حسين حموي:

شاعر و٢١ كتاباً

حــــوار: عادل أبو شنب



حوار العدد



حسين حموي: شاعر و٢١ كتاباً

إعداد: عادل أبو شنب*

من السلمية بلد الشعراء، جاء فكان شاعراً وثائراً وعضواً في مجلس اتحاد الكتاب العرب ومكتبه التنفيذي، ولأنه أمضى ١٦ سنة فيهما عرف من هم الأدباء الحقيقيون، ومن هم المزيفون الذين يحبون ركوب الموجة من أجل مصالحهم الشخصية. حسبه أنه كشفهم، وهو ماض في مشروعه الثقافي الذي أخلص له، وأعطاه حياته. له ٢١ كتاباً بين نثر وشعر، وهو يعتبرها كأولاده. إنه الشاعر حسين حموي المقيم في دمشق والسلمية بالتناوب. وقد وجهت إليه سؤالي الأول، عن مولده ونشأته ودراسته فأجاب:

* أديب وقاص سوري.

• ولــدت عام ١٩٤٣م في بلــدة ريفية، تتكئ على زند العاصــي، وتنام في أحضان جبــل البلعاس علــى تخوم صحــراء بادية الشام، بلدة اشتهرت بحب الشعر والشعراء تدعى (سلمية) التي قصدها (المتنبي) حين ضاقــت به الأرض واشتدت عليه المطاردات ردحاً من الزمن، وتنقل بين بساتينها واستقر فيها (ديك الجن)، وترعرع في كنفها شعراء وأدباء وفلاسفة كان لهم آثار بصمات واضحة في الإبداع الشعــري والفكري أمثال عارف تامر، ومصطفى غالــب، وإبراهيم فاضل، ومحمد الماغوط، وعلي الجندي، وإسماعيل عامــود، وأحمد الجنــدي، وسليمان عواد، وسامــي الجندي، وفايز خضــور والقائمة تطول. نشــأت في كنف هذه البلدة، ودرست في مدارسهــا جميع المراحــل الدراسية ما قبل التعليــم الجامعي، ثم انتقلت إلى حماة للدراســة في دار المعلمــين، وبعــد التخرج، تابعــت تحصيلــي العلمي في كليــة الآداب بجامعة دمشق، فحصلت على إجازة باللغة العربية، ودبلوم تربية مــن كلية التربية، ثم تابعت تحصيلي العلمي في الجامعة اللبنانية ببيروت، ونلــت شهادة الماجستير في الآداب، وكان عنــوان رسالتي (الاتجــاه القومي في مســرح عدنان مــردم الشعــري) وقد كان كتابكم (بواكير التأليف المسرحي في سورية) من أهــم المراجع التي ساعدتني على إنجاز تلــك الرسالــة. بعــد ذلك منحــت شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة العلوم العربية الإسلامية في كراتشي بالباكستان.

بــدأت حياتي المهنية معلمــاً وحيداً في قريــة السيحة في الجزيــرة السورية العليا (الحسكة) ثم انتقلــت إلى القامشلي مديراً لمدرسة المنصور وبعد إنهاء خدمتي الإلزامية انتقلت إلى دمشق مدرساً لمادة اللغة العربية في ثانويــة يوسف العظمة، ثــم انتقلت إلى الاتحــاد العام لطلبة سوريــة أميناً للسر في مكتب الثقافة والإعلام، وأمينا لتحرير جيل الثــورة بعد ذلك انتقلــت إلى جريدة البعث رئيساً للقسم الثقافي فيها ثم أمينا للتحرير فيهــا، وبعد انتخابي عضــواً لمجلس اتحاد الكتــاب العرب بدمشــق، أسندت لي مهمة إدارة النشــاط الثقافي، ثــم أعيد انتخابي دورتين متتاليتين عضــواً للمكتب التنفيذي أسندت لي فيهمــا إدارة الجمعيات الأدبية ورئاسة تحرير الأسبوع الأدبي.

ثــم انتقلــت إلى وزارة الثقافــة مديراً للتأليــف والترجمة، ورئيســاً لتحرير مجلة المعرفة، وبعــد أن أحلت علــى التقاعد ما زلت أمارس نشاطي عضواً في مجلس اتحاد الكتّاب العرب، ومقرراً للجنة الأدب العربي في المجلس الأعلى لرعايــة الآداب والفنون

والعلــوم الاجتماعية، حتى تاريــخ إدماجه في مجلســ البحث العلمي. كما أنني ما زلت عضواً لهيئــة تحرير الأسبوع الأدبي، وعدد من الدوريات المحلية والعربية.

كتبت المقالة والدراسة الأدبية في العديد من الصحف والدوريــات المحلية والعربية، وشاركت في العديد من الندوات والمؤتمرات والمهرجانــات الشعرية والأدبيــة في سورية ولبنان والأردن واليمن وتونس وليبيا ومصر والاتحــاد السوفياتــي (سابقــاً) وبلغاريا، وإيطاليا.

- مـا هـو جديـدك الـذي صـدر حديثـاً، أو الـذي سيصدر هـذا العام: وما هو مضمونه؟

• بين يدي الآن مخطــوط للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي بعنوان (عنقاء مغرب) أقوم بمراجعته، وتحقيقه بشكل مختلف عما حاول بعض المحققين أمثال الدكتور سليمان المدني تناول هذا المخطوط، كما أنني أشتغل منــذ سنتين علــى كتاب حــول موضوعات الإبداع والابتكار وحمايــة الملكية الفكرية، وقطعت شوطاً لا بأس به في الوصول إلى أهم المراجع والمصادر المتعلقة بهذه الموضوعات يضــاف إليهما كتاب نقدي حول (القصيدة التشكيليــة) وموقعها من الحداثة الشعرية، مستفيداً من أهم النتاجات الشعرية المدللة على هذا النوع من الكتابة وهو مشروع قديم جديد كنت قد أشرت إليه في مقدمة ديواني (بياتريســ والبحر) لا سيمــا بعد أن توافر لــدي العديد من الشواهد الحية المعبرة عن هذا النوع مــن الكتابة الــذي تتداخل فيه الأشكال الشعرية بمــا يشبه تداخل الألوان والمساحات في اللوحة التشكيلية، ولعل هذه المقارنة بين القصيدة واللوحة، تكون فاتحة البحت والتمحيص في العلاقة التكاملية بين الألفاظ والألوان عند النقاد المعاصرين.

- حبـذا لو تحدثنا عـن مؤلفاتك الشعريـة والنثريـة، وأيهـا يعـبر عنك إبداعياً وفكرياً؟

• قــد صدر لي مــن المؤلفــات الشعرية والنثريــة واحــد وعشــرون كتابــاً، ثــلاث مسرحيــات، (منسية، ليلة القتل، التاريخ في قفص الاتهام).

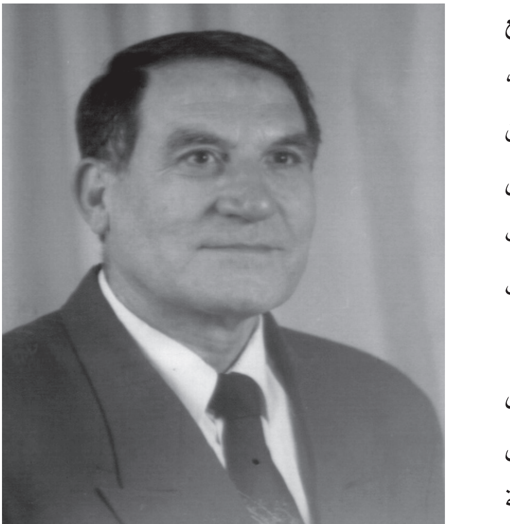
ثمان مجموعات شعريــة: (أمطار لوجه العاشق، قابيــل وسفر البحــر، الصعاليك وإرهاصات فوق الرصيف الضيق، إيقاعات من ذاكرة الأيام، بياترس والبحر، مكاشفات عروة بــن الورد الدمشقــي، فاطمة وطيور الفجر المهاجرة، وردة المجرات).

عشــرة كتــب في الدراســة والتحقيــق والنقد: (الخطاب الثقافي والمشهد السياسي في مواجهــة الغــزو الصهيــوني، خطرات

من دفــتر الصحافة، منافــع الأغذية ودفع مضارها، تحقيق وشرح ديوان بشار بن برد، من وحي أفكارهــم، شاعران معاصران من اليمن (الــبردوني والمقالح)، الاتجاه القومي في مسرح عدنان مــردم الشعري، مقاربات نقديــة ج ١، مقاربات نقدية ج ٢، مئة كتاب وكتاب).

لا أستطيــع بهــذه العجالــة أن أعطي مضامين هــذه الكتــب واحداً واحــداً بل أستطيــع الإلماح إلى أن المجموعات الشعرية الثمانيــة تتنوع فيها الأشكال الحداثوية بما فيها القصيــدة التشكيلية التي أشتغل على عناصرها الفنية هذه الأيام كقصيدة تؤالف بين الأصــول التقليدية للقصيدة التي تقوم علــى نظام البيــت العربي المقفــى الموزون وعلى التنويعات العروضية التي تقوم عليها قصيــدة التفعيلــة، وفي الوقــت ذاته على الجزر النثرية، والموسيقا الداخلية لقصيدة النثر، والنص المفتوح.

أمــا الكتــب المتعلقــة بالــتراث والنقد والتحقيق والمسرح فهي تقوم على أساسيات المنهج العلمي الأكاديمي المعتمد في الرسالات الجامعية باستثناء المسرحيات المستوحاة من إرهاصات الواقع العربي وقضاياه المصيرية (ولا سيمــا قضيــة فلسطــين) فمسرحية (منسية) وهي مسرحية شعرية، تصور مأساة



فلسطــين منذ العــام ١٩٤٨م إلى محادثات الكيلومتر ١٠١ عام ١٩٧٣م، وكيف أصبحت قضية فلسطــين الأم التي قامت من أجلها حرب الإنقاذ عام ١٩٤٨م من القضايا المنسية وحل محلهــا الحديث عن الحــدود ما قبل الخامس من حزيــران عام ١٩٦٧م. وكذلك مسرحية (ليلة القتــل) التي تصور المقاومة الباسلة في قلعة الشقيف عام ١٩٨٢م، وكيف تمكن المقاتلون وعددهم ٣٤ مقاتلاً فقط من الصمود خمسة أيام في هذه القلعة وتمكنوا من إيقاف جحافل العدو الصهيوني، ومنعها من الدخــول إلى بيروت بسبــب مقاومتهم العنيــدة، واستشهادهم حتى آخر مقاتل في تلــك القلعة وعندما دخل شارون إلى القلعة لم يجــد إنسانــاً حياً فيهــا، بل وجد ٣٤ جثة

شهيد مسجاة عند كل سلاح كان يقاتل به ذلك الشهيد أما المسرحية الثالثة وهي بعنوان (التاريخ في قفص الاتهام) فهي تدعو إلى عدم اليأس من المقاومة، وتمجد البطولة والشهادة، وتحث على وحدة الصف العربي في مقاومة العدو الصهيوني الذي لا يفهم إلا لغة القوة، ولن ينسحب من أرض عربية احتلها إلا بفعل المقاومة.

وسألته هذا السؤال المحرج:

- أنت من الجيل الثاني في اتحاد الكتّاب العرب، جيل ما بعد المؤسسين لأن الاتحاد تأسس عام ١٩٧٠ وأنت انتسبت إليه عام ١٩٧٨م فهل أفادك انتماؤك إلى اتحاد الكتّاب العرب؟ وكيف؟

• يفترض أن يكون اتحاد الكتّاب العرب في سورية بيتنا الثقافي الذي يجمعنا تحت سقفه كأسرة إبداعية واحدة، ويفترض بهذه الهيئة الثقافية التي تضم الطليعة والنخبة المبدعة والمثقفة في وطننا أن تكون القدوة والمثال لجميع الهيئات والمنظمات والمؤسسات الثقافية والإعلامية بكل المعايير الديمقراطية، والأخلاقية والاجتماعية. وأنا حين انتسبت إلى هذا الاتحاد، كان همي الأول والأخير أن أستطيع الانتقال بمشروعي الثقافي الذي حلمت به من أيام يفاعتي وشبابي كمشروع ذاتي إلى مشروع جماعي أنفذه مع إخوتي وزملائي حملة راية الحرف والكلمة. ولم يكن موضوع الربح أو الخسارة أو الفائدة الشخصية من دوافعي، وحين تسنى لي أن أشارك في صنع وصياغة بعض القرارات، كنت دائماً صوتاً معترضاً لا بل أقف في وجه من يحاول أن يجير الاتحاد لمصالحه الخاصة، وأن يوظفه كبقرة حلوب لاكتساب المال والشهرة وما إلى ذلك. ولا أقول إنني نجحت في جميع المواقف والآراء التي حاولت إيصالها، ولا أقول فشلت. ففي أي مؤسسة توجد عثرات وإخفاقات يكون سببها أولئك الذين لا يفكرون إلا بمصالحهم الخاصة، ويعملون بعقلية فردية متسلطة، وكأنهم أصحاب تلك المؤسسة، ورثوها عن آبائهم، ويورثوها من بعدهم لمن يشاؤون، ويخيل إلي أنني من خلال عملي في الاتحاد قرابة سبعة عشر عاماً كعضو مكتب تنفيذي وعضو مجلس اتحاد استطعت أن أميز بين المبدع الحقيقي المسكون بالهم الوطني والقومي والإنساني، وبين المبدع الآخر الذي لا يبحث إلا عن خلاصه الفردي، ومكاسبه الخاصة ولا أعطي لنفسي صفة النزاهة المطلقة والأخلاق الصوفية الرفيعة فأنا إنسان أخطئ وأصيب، وقد تكون أخطائي أكثر من حسناتي لكنها على كثرتها أو قلتها

لا يمكـن أن تنازعني إيمـاني أنني حاولت قدر المستطاع في أي مـكان عملت فيه، أن أكون مواطنـاً صالحاً، وخادماً أميناً للأدب والثقافة والقيم التي أحملها، ولم أكن مختالاً جباناً أسكت عن الحق، أو أسمح لأحد ممن أعمل معهم أن يغتـال الحقيقة أو يزورها، وهـذا خلف لي عدداً غير قليل من الأعداء، بعضهم مكشوفون في العلن وبعضهم يكيدون لي بالخفاء حتى الآن.

وسألته:

- مـا رأيـك بنتـاج زملائـك بـكل صراحـة؟ ومـا هو وجـه النقـد الذي توجهه لهم؟

• ليس هناك مستوى واحد للإبداع، حتى لدى المبدع ذاته، فهناك مستويات مختلفة في نتـاج هذا المبدع أو ذاك، والأغلب الأعم في كل ما ينتج علـى الساحة الثقافية من أدب على اختلاف أجناسـه ومن فيه على تباين أشكالـه لا يوازي حجـم التحديات الكبيرة التـي تواجهها أمتنـا، حتـى الدراما التي (يطنطن) بها بعض الفنانين ومنتجو الدراما ما زالـت بالقياس إلى المهـام الكبيرة التي يجب أن تقوم بهـا في هذه المرحلة الصعبة التـي تمر بها الأمة، أقل بكثير مما يجب أن تكون والحال هو نفسه في السينما، والمسرح، والفن التشكيلـي والغناء والموسيقا، أما عن الأدب، والنقـد، والشعر والكتابة من خلال مطالعاتي أبعد مـا تكون عن أداء واجباتها في الارتقاء بالذوق الفنـي، وفي مضامينها في البحـث عـن القضايـا الجوهرية التي تعيد بناء الإنسـان العربي من جديد، وفق المعـادلات الكونية، والمخاطـر الصهيونية التي تحيق بهذه الأمة، حتى الآن بكل أسف مـا زال عدد كبير من الأدمغـة المبدعة إما مهاجـراً في مواكب العقـول المهاجرة خارج القطر، وإمـا غائباً أو مغيباً ليس فاعلاً في الحركة الثقافية والإبداعية والذين يحاولون أن يبرزوا عضلاتهم على أنهم القادرون على الفعل والحركة، وأنهم الأجدر والأكفأ في تبوء الصفوف الأولى والظهور على الشاشات أو على صفحات الجرائد والملاحق ليسوا أكثر من شلل وكانتونـات ثقافية مخربة للثقافة، ومعيقـة لأي عملية حراك ثقافي مستقبلي، وأناهـا المتورمـة، والتسابـق للوصول إلى الكعكـة، وقضم ما تستطع قضمه منها، هو من الأمراض التي تكاد تكون مزمنة في وطننا وبدلاً من أن يكون هناك جيش من المثقفين والمبدعين، العاملين النشطين كل في ميدان إبداعـه، للارتقاء بالوعي المعرفي لمجتمعنا، يقتصر الأمر على عدد ضئيل، يريد أن يؤكد حضوره من خـلال ثقافة الإلغاء والإقصاء والتشفـي من المبدعين الآخريـن. متناسياً

أو متجاهــلاً أو جاهلاً وجــه النقيض بين ثقافة الإيثار والتعاون والمشاركة في الخندق الثقافي الواحد وبــين الثقافة القائمة على الكراهية والإقصاء والاستئثار.

- ما رأيك بالحركة الأدبية في سورية وفي مراحل تطورها أو تراجعها؟

• كما ذكرت آنفاً البنى والأدوات والعناصر والمؤسسات التي تتشكل منها الثقافة، وتقوم على سواعدها أية نهضة أدبية أو فكرية أو فنية ليست كما ينبغي، ولكي لا تكون أحكامنا عامة وجزافاً نشــير إلى أهم المعوقات التي تحــول دون صعود الحركــة الأدبية بموازاة الحركات الأدبية والثقافية في بعض الأقطار العربيــة التي كانــت بلاد الشــام برقعتها الجغرافية والتاريخيــة الواحدة منهل تلك الحركات الأدبيــة والفكرية، وأهم روافدها عبر التاريخ.

فــإذا مــا نظرنــا إلى واقــع المؤسسات والهيئات المعنية بالعلــوم والآداب والفنون، نجد أنها في الأغلــب الأعم منها تشكو من جهــل القيمين عليهــا، أو تقاعس العاملين فيهــا. أشــير على، سبيل المثــال لا الحصر (الجامعــات، المراكز الثقافيــة، الدوريات المتخصصة، الترجمــات، دور النشر العامة والخاصــة، المجلس الأعلــى لرعاية الفنون والآداب والعلــوم الاجتماعيــة الذي تبخر وأصبــح في خبر كان المحذوف بعد أن ألحق بمجلس البحث العلمي، مع أن مهمة المجلس أكثر اتساعاً وشمــولاً في اختصاصاته، ولو تمَّ تفعيله بالشــكل الصحيح، لكان المجلس الوحيــد الذي يستوعب جميــع الإبداعات والابتــكارات والاكتشافــات والإضافــات العلمية والأدبية والفنية التي تنتجها الأدمغة الفاعلة لا بل الفعالة في المجتمع. وقس على ذلك، فكيف تنهض حركــة أدبية أو ثقافية أو فكريــة أو فنية على أيدي من لا يدركون أهمية الأماكن التي يعملون فيها.

باختصــار شديــد هنــاك تراجع على المستويات كافة التعليمية والإبداعية، ولا بد مــن مراجعة شاملة، وتقويم موضوعي بعيد عن أي غرض آخر للواقع الثقافي بكل أدواته وبناه وعناصره ثــم وضع الخطط والبرامج الاستراتيجية لكل هيئــة ومؤسسة، ومتابعة دقيقــة وصادقــة في تنفيذ تلــك الخطط والبرامج على الوجه الأكمل.

- هــل ترى أزمــة في انتشــار وسائل حديثــة على مسألة النشر، بعد انتشار الإنترنت؟

• لا شــك أن الكتــاب الالكــتروني أخذ أبعاده بعد ظهور الإنترنت، ولكن ذلك لايعني أن حركة الكتــاب، وانتشــاره، والاستمرار في وجــوده، أصبــح لا مبرر لــه. إن اختيار

الموضوعات الهامة، والمضامين ذات السمات الحيوية الخاصة، الحاملة لأنسام التجديد، والتحديث في المجالات العلمية والأدبية والفنية كافة، ومناقشة تلك الموضوعات بأسلوب أدبي رفيع، والوقوف عند أهم الإضافات. أو الآراء النقدية أو العلمية الجديدة، يجعل من الكتاب مرجعاً لا غنى عنه لأي باحث وأي طالب علم ومعرفة، أما إذا اقتصر الأمر على اجترار ما هو متداول، وتكرار ما جاء به الأقدمون، ففي هذه الحالة يفقد الكتاب مبرر وجوده، ويتراجع للخلف أمام وسائل الاتصال الحديثة التي بدأت تقدم خلاصة تلك الكتب مجتزئة منها ما يناسبها ويناسب خططها الإعلامية والثقافية. الأزمة قائمة وأسبابها ليس فقط الإنترنت بل دور النشر اللاهثة وراء الربح، والكتب الرائجة وبعض الأسماء التي لا تحمل مشروعاً ثقافياً بل تسعى لتحويل الكتاب إلى سلعة رابحة مهما كانت الدواعي والأسباب، يضاف إلى ذلك العوائق السياسية والاقتصادية بين هذه الأقطار.

وكان هذه السؤال:

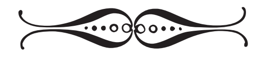
- ماذا توجه للأدباء الجدد على صفحات المعرفة؟

• لا أحب أن أكون في الموقع الذي يقف فيه المعلم قبالة السبورة، فأنا كأي أديب وشاعر من هذا القطر، أستطيع أن أتحدث عن تجربتي الشعرية وعن المشروع الثقافي الذي حملته منذ أمسكت بالريشة وقررت الكتابة والتعبير عن الجوّاني في صدري، وعن المخزون الفكري الذي أحمله في دماغي، أستطيع القول باطمئنان، إن أي مبدع أو مثقف أو حتى أي إنسان لا بد له أن يحدد خياراته في الحياة، وهذه الخيارات تُعرف بشخصية صاحبها، فالذي اختار أن يكون رجل أعمال أو معلماً أو طبيباً أو مزارعاً أو حرفياً عليه أن ينجز مشروعه بمنتهى الأمانة والإخلاص، فما بالك عندما يكون صاحب الاختيار شاعراً أو فناناً أو كاتباً أو مثقفاً؟ لا بد أن يكون مشروعه عظيماً، بحجم الهموم الوطنية والقومية والإنسانية التي يحملها كدليل، وإنسان فعال في محيطه، والدليل لا يكذب أهله، والإنسان الفعال لا يقبل أن يكون هامشياً، وعلى قدر الهمم والطموحات يكون الجهد والسعي الجاد لتحقيق ذلك المشروع الثقافي الذي اختاره وأعد له لوازمه وعدته التي تشبه إلى حد كبير عدة المحارب التي تبدأ من مطرة الماء، ثم التزود بالصبر والإيمان، والإرادة والشجاعة في الدفاع عن الحق والحقيقة ضد أعداء الحق والعدالة والحرية في أي مكان من هذا العالم، وليس مطالباً أكثر من

ذلك بعد أن يقــول كلمته الجريئة الصادقة الخالصة لوجه الحق والحقيقة، ويجسدها سلــوكاً ووقفاً حياتياً حتى آخر شهيق وزفير من عمره.

ويخيل إليّ أن التاريخ العام وتاريخ الأدب والإبداع بشــكل خاص قدم لنا نماذج كثيرة وعظيمــة من هــذه القامــات العالية التي أخلصــت لإبداعها، وكانــت الأنموذج الذي يحتذى بــه للراغبين بالانضمــام إلى هذه الشريحة المثقفة من المجتمع، وخير ما أختم به وصية أحــد الشعراء لولده الذي أراد أن يسلك الدرب التــي سلكها والده عن طريق الإبداع قائلاً له:

يا بنيّ
يا أيها الصوت الأبيّ
مهلاً رويدك
لا تكن وجهاً بلا لون،
ولا ضوءٍ، ولا عينين
كن أنت أنت،
ولا تكن أحداً سواكْ.
ستكون أنت بما جنته يداكْ،
فعلام تشكو من جراحكْ،
والمدى رحب،
وهذي الأرض لم تنبت سوى العشب الندي
فأنت من طينٍ جُبلتَ
وأنت من طهرٍ عجنتَ
وعلى يمينك قلعة شمّاء تطبع فوق خدّ الشمس،
صورة أمةٍ كتبت بسفر المجد أوّل أحرف البيت العتيق.
وعلى يسارك شامخٌ،
تتنفس الصحراء من أنسام سارية له عند العشيّ
ما من لغات غير صوتك والصدى
والحرف في يدك الصديق
والسيف حرفك يا بنيّ





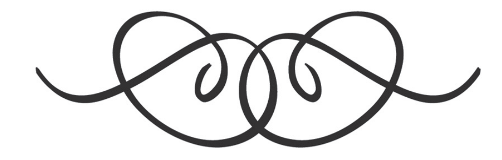
صفحات من النشاط الثقافي — إعداد: أحمد الحسين

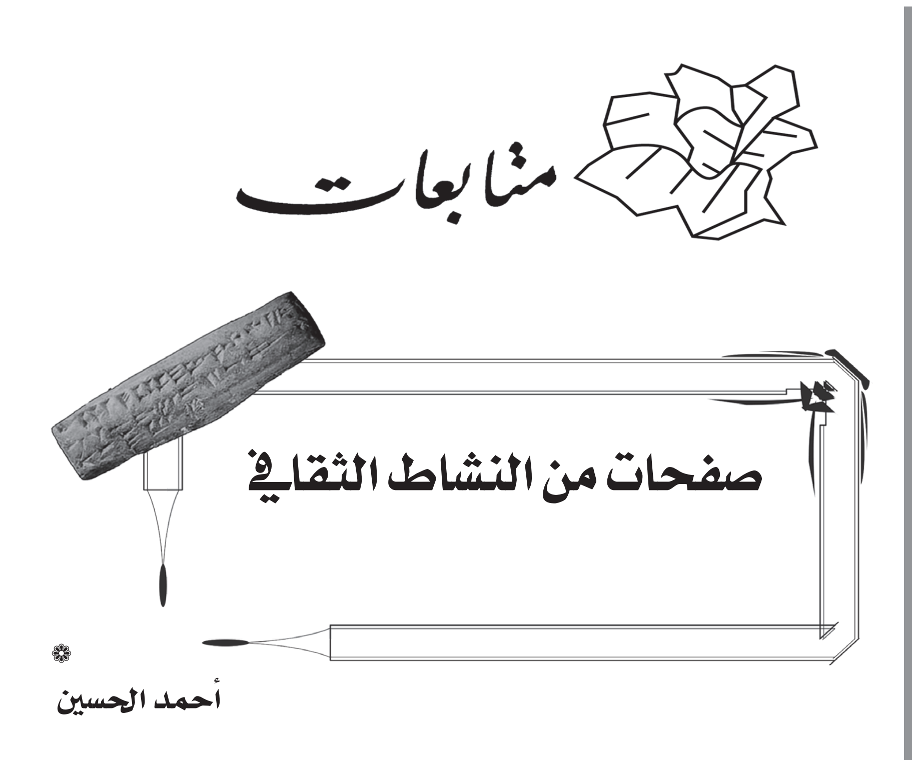
كتاب الشهر

بلاد الرافدين وعيلام — إعداد وتقديم: محمد سليمان حسن

آخر الكلام

سباق الفئران — رئيس التحرير





أحمد الحسين *

تريم عاصمة للثقافة الإسلامية:

احتفلت اليمن بتتويج مدينة «تريم» عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠١٠ وفقا لإعلان المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم «الايسيسكو» تقديرا لدورها العلمي ومكانتها التاريخية والثقافية والفكرية.

ويتضمن برنامج الاحتفالية السنوية بهذه المناسبة تقديم /١١١/ فعالية ثقافية وفنية وفكرية، منها ١٢ معرضاً تتنوع ما بين الحرف اليدوية والصور

* أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

الفوتوغرافيــة والأزياء والمــوروث الشعبي، إضافــة إلى ١٥ ملتقــى ومهرجاناً ومؤتمراً كمؤتمر دور «تريم» العلمي

في التاريــخ الإسلامي، وملتقى الطفولة العربــي والإسلامي، وملتقى دمون الشعري للشعــراء الشباب العــرب وآخر عن الفنون التشكيلية في العالم الإسلامي، إضافة لمهرجان باكثير، وليالي تريم ومهرجان الشعر الشعبي، كما يتناول البرنامج ٢٤ ندوة احتفائية بـ٢٤ علماً من أعــلام اليمن، وتنظيم أيام ثقافية لكل محافظة من محافظات اليمن، وأسابيع ثقافيــة ماليزيــة واندونيسيــة وتركية، إلى جانب المحاضرات والفعاليات الأخرى.

وكانــت المنظمــة الإسلاميــة للتربيــة والثقافة والعلوم الايسيسكو اختارت مدينة تريم لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠١٠ تنفيــذاً لقــرارات المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة الذي عقد بالجمهورية الجزائرية في شهــر ديسمبر من عام ٢٠٠٤ إذ تمَّ فيــه إقرار إقامــة العواصم الثقافية الإسلامية، حيث تمَّ ترشيح عدة مدن إسلامية تمثل المنطقة العربية والآسيوية والإفريقية لتختار منها الايسيسكــو ثلاث مدن في كل عام كعاصمة للثقافة الإسلامية.

وجــاء اختيــار مدينــة تــريم كعاصمة للثقافــة الإسلامية لعام ٢٠١٠ لما تمثله من مرجعية دينيــة وعلمية وفكرية وفنية مهمة للتاريخ الإسلامي منذ تأسيسها، وما تحتويه من منارات علمية وأربطــة فكرية كان وما زال لهــا الــدور الريــادي والبــارز في نشر العلوم الدينية والفكرية على امتداد خارطة المعمورة.

وأكد وزير الثقافة اليمني الدكتور محمد ابوبكــر المفلحي بهذه المناسبــة: أن اختيار تريم عاصمة للثقافة الإسلامية يعد خطوة مهمــة في طريق سعــي اليمــن إلى ضمها لقائمــة اليونسكو للتراث العالمي لتنضم إلى جانب مدينة زبيد إحــدى أهم مستودعات التراث اليمنــي الإسلامــي، والتي أدرجت ضمــن ثلاث مدن يمنية في قائمة اليونسكو للــتراث العالمــي عــام ١٩٩٣م، وإلى جانب مدينتي صنعاء القديمــة وشبام حضرموت التاريخيتــين، وذلــك إضافــة إلى جزيــرة سقطرى التــي انضمــت إلى قائمة التراث العالمي الطبيعي في يوليو تموز الماضي.

مــن جانبــه أوضح مدير عــام المنظمة الإسلاميــة للتربيــة والثقافــة والعلــوم «الايسيسكو» الدكتور عبد العزيز التويجري، أن الاحتفال بتريم عاصمة للثقافة الإسلامية يأتي لما تتميز به المدينة التاريخية من تراث إنســاني وحضاري كبير، كمــا يأتي عرفاناً

للـدور الكبير الذي قدمته المدينة في خدمة الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية.

واشتهرت تريم بكـثرة مساجدها حيث وصل عددها إلى ثلاثمئـة وستون مسجداً، لكن العدد تقلص ليصل في الوقت الحاضر إلى مئة مسجـد تقريبـاً، أشهرها المسجد الجامع المقام في قلـب المدينة والذي يرجع تاريـخ بنائه إلى ما قبـل ألف عام، إذ يروى أنـه بني في عهد الحسـين بن سلامة الذي ولي الحكم في اليمن عام ٣٧٥هـ وإلى جانب المسجـد «الجامع» في تـريم توجد مساجد أخـرى لا تقل عنـه جمالاً وسعـة وحسن تصميم مثل مسجد بن علوي وهو من أشهر مساجد تـريم وأكثرها زواراً بالمصليين وهو مسجد قديم أسسه الإمام علي بن علوي في حوالي عام ٥٣٠هـ، بنـي من الطين والنورة على أجمل صورة.

ومـن مساجد تـريم الشهـيرة مسجد المحضار الذي بنـاه عمر المحضار بن عبد الرحمـن السقـاف، وهـو مقصـد الزوار والسيـاح لما يمتاز به من فن هندسي جميل في عمارتـه، خاصة منارتـه الشامخة التي يبلغ ارتفاعها حوالي ١٥٠ قدماً وكان بناؤها في حوالي ١٣٣٣هـ وهي مبنية من اللبن – الطين– وجذوع النخيل، كما اشتهرت المدينة بانتشار أشجار النخيل في مزارعها وحدائق بيوتهـا ومنتزهاتها وبأصنـاف شتى ونظراً لانتشار المزارع والحدائق والمنتزهات سميت بتريم الغناء.

وقـد اشتهر عمال وبنّاؤو تريم بالأخص من بين أهالي حضرموت في مهنة البناء حيث طوعوا مادة الطين لتعطي أشكالاً وزخارف معمارية لا يصدق المرء أنها من مادة الطين، ولذلك أصبحت تريم اليوم تزهو بقصورها الساحرة الباهرة التي من أجملها وأعظمها قصر عشـه لآل الكاف وقصر المنصورة لآل بن يحيى وكذلك بمآذن مساجدها المتنوعة والمختلفة المنتشرة في كل مكان، ولعلَّ أشهرها على الإطـلاق مئذنة مسجد عمر المحضار التي تعتبر آية في الإبداع المعماري والتصميم والتنفيذ الهندسي حيـث نفذت من الطين والتبل وبأيادي تريميـة، وتعد أطول مئذنة مبنية من الطين في العالم.

ولا يقتصر جمال مدينة تريم على ذلك فقط، بل إن المدينة توصف أيضاً بأنها تعد كنـزاً للمخطوطات الثمينـة والنادرة، التي تمَّ تجميعها مـن المكتبات الخاصة ووضعها في مكتبـة الأحقاف للمخطوطـات، والتي افتتحت عـام ١٩٧٢م، وتحوي ما يزيد عن خمسة آلاف مخطوطة، كل ذلك هيأ المدينة لتتبوأ مكانة سياحية عظيمة يتهافت السياح لزيارتها من مختلف بقاع الأرض.

وتقع «تريم» المشهورة أيضا باسم «الغناء» والمعروفة بأنها لؤلؤة مدن حضرموت وفاتنة الصحــراء وعروســ الــوادي، في الجــزء الشرقي لمحافظة حضرمــوت، وقد اختلف العلمــاء والمؤرخــون حول مــرد اسم هذه المدينة التاريخيــة فحسب ما جاء في كتاب معجم البلدان لياقــوت الحموي فإن تاريخ بنائها يعود إلى القرن الرابع الميلادي، وأنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها «تريم» وهــو أحد أبناء ملك حضرموت بن سبأ، في حين تقول روايات أخــرى إن تسمية مدينة تريم جاءت نسبــة إلى «تريم بن السكون بن الأشرس بن كندة» أحد ملوك «حضرموت»، بينما يرى الزبيدي صاحب تاج العروس إنها سميــت بهذا الاسم نسبــة إلى بانيها «تريم بــن حضرمــوت».. واختطــت مدينة تريم كما يؤكــد المؤرخون العرب في القرن الرابع قبــل الميلاد، بحسب ما جاء في «معالم تاريخ الجزيــرة العربية»، أن تريم أسست في عهد الحكــم السبئي لحضرمــوت وسميت باسم أحــد أولاد سبأ الأصغــر، وهناك رأي آخر يقــول: إن تــريم اختطت في زمــن «أسعد الكامــل» من التبابعــة الحميريين في القرن الرابــع الميلادي وتتوافق هذه الرواية مع ما جاء في كتاب «شرح الصدور» للسيد علي بن عبد الرحمن المشهــور من أن حصن الَرناد بني قبل البعثة النبوية بأربعمئة عام.

وقــد ذكرها ابــن العمــاد الحنبلي في كتابه شــذرات الذهب: إن «تــريم بلدة من حضرموت أعــدل أرض الله هواء وأصحها تربــة وأعذبها مــاء وهي قديمــة معشش الأولياء ومعدنهم ومنشــأ العلماء وموطنهم وهي مسكــن الأشــراف آل باعلوي، ويذكر أنها تنبت الصالحين كما تنبت الأرض البقل واجتمع بها في عصر واحد من العلماء الذين بلغوا رتبــة الإفتاء ثلاثمئة رجل وإن بتربتها ممن شهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم من الصحابة سبعين نفرا.

ولأن مدينة تريم كانت عامرة بالروحانية فقــد احتفظــت بمكانتها كعاصمــة دينية لوادي حضرموت، حيث ما تزال مركز تنوير وإشعــاع للدراســات الإسلاميــة يقصدها طالبــو العلم من كل حــدب وصوب لينهلوا مــن علمها الغزير وما تزال على حالها منذ ظهور الإسلام وحتى عصرنا الراهن.

أما أشهر علماء الديــن الذين أنجبتهم تريم فهو العلامة عبد الله بن علوي الحداد وأبو بكر بن شهــاب والشاطري وفي العصر الحــالي أنجبت المدينــة مجموعة من خيرة العلمــاء منهم السيد ســالم الشاطري وعلي مشهــور بن حفيظ وأخوه عمر بن محمد بن

حفيظ والداعي الإسلامي الحبيب علي زين العابدين الجفري والشيخ علي سالم بكير والكثير الكثير من العلماء الأجلاء.(١)

إطلاق موسوعة الشعر الإلكترونية:

أصدرت دار الكتب الوطنية في هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث الموسوعة الشعرية التي تعتبر نافذة الجمهور إلى جواهر الشعر ولآلئ النثر.

ويأتي إطلاق الموقع الإلكتروني لهذه الموسوعة الضخمة بعد أكثر من ١٢ عاماً على الإصدار الأول من الموسوعة الشعرية (١٩٩٧)، وانسجاماً مع سياسة هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث، صاحبة المشروع والمبادرة إلى إطلاقه، ومالكة حقوق نشر مواده، في دعم الثقافة العربية، بقديمها وحديثها، والترويج لها وجعلها متاحة لأكبر عدد ممكن من القراء والمهتمين، كما يشكل خطوة إضافية على طريق تكريس العاصمة (أبوظبي) دورها كمركز ثقافي في المنطقة العربية والعالم.

ويطمح موقع الموسوعة في هذا السياق إلى أن يكون مرجعاً ومصدراً رئيسيين لكل مهتم، ليس فقط بالشعر العربي، بل بالتراث العربي بمختلف أشكاله، حيث يتضمن المئات من أمهات الكتب التراثية التي بعضها لا يتوافر حتى في صيغة ورقية، حيث تمَّ تصميم الموقع وفقاً لأحدث المعايير التقنية التي من شأنها جعل عملية التصفح عملية ممتعة ومفيدة في آن معاً، وكان الحرص خلال الإعداد لموقع الموسوعة على ألاّ يكون مجرد حيز أرشيفي، على أهمية ذلك، بل أن يكون أكثر حيوية من خلال الخدمات التفاعلية التي يتيحها، والتي تسبغ على عملية التصفح صبغة شخصية، حيث في وسع كل متصفح إيجاد حيزه الخاص ضمن الموقع، والتفاعل مع القيمين عليه، وتدوين انطباعاته وسوى ذلك من خدمات تفاعلية.

ويتضمن موقع الموسوعة الإلكتروني، على شكل أسطوانة مدمجة، ٢٦٩٣ ديواناً، يبلغ عدد أبياتها ٢٨٩٠٣٠١ بيتاً في ١٣٨٦٤١ قصيدة، كما يتضمن ١٠٨١ كتاباً من أمهات كتب التراث العربي العلمية والأدبية والتاريخية، إضافة إلى عشرة معاجم لغوية، وبذلك يكون أكبر موقع إلكتروني عربي يعنى بالأدب والثقافة حتى الآن.(٢)

المدونات في ندوة مجلة العربي:

افتتح وزير الإعلام الكويتي الشيخ أحمد العبد الله الأحمد الصباح فعاليات ندوة مجلة العربي السنوية التي اتخذت من «الثقافة العربية في ظل وسائط الاتصال الحديثة» عنوانا لها، وسط حضور بارز لعدد كبير من

الشخصيات الفكرية والأدبية والدبلوماسية العربيـة، فضـلاً عن أبرز الوجـوه الأدبية والثقافية في المجتمع الكويتي.

وأكـد الوزير الصبـاح في افتتاح أعمال الندوة أن الدور الذي قامت به مجلة العربي خلال السنوات التي مضت في نشر إبداعات العقل العربـي تحقق دون تفرقة أو انحياز، وأن إصدارات مجلـة العربي أغنت الثقافة العربيـة على مـدى أكثر مـن نصف قرن، موضحـاً أن ثمة دوراً آخـر تلعبه «العربي» فهي تقوم مرة كل عـام بجمع نخبة مختارة مـن الكتاب والإعلاميـين العرب كي يحلوا ضيوفاً على البلاد ويناقشوا قضايا الثقافة المعاصرة، مشيراً في الوقت ذاته إلى أن الثورة التـي أحدثها تطور هذه الوسائط تتمثل في أنهـا بعد أن كانت وقفـا خاصا للحكومات والأنظمـة أصبح جزء منهـا تحت سيطرة الأفراد، موضحاً أن الإنترنت فتحت المجال حراً لكل إنسان ليعـبر عن نفسه بطريقة لم تتوافر مـن قبل، مضيفاً أننـا كأمة عربية نعيشـ في مأزق حضـاري يهـدد وجودنا وكياننا القومي.

مـن جهتـه قـال رئيس تحريـر مجلة «العربي» الدكتور سليمان إبراهيم العسكري: إن أهميـة هذه الندوة تنبـع من أنها تجمع نخبة من العقول العربية المبدعة التي تقيم الثقافة العربية من ناحية والوسائط الحديثة مـن ناحية أخرى، وأشـار إلى أن الحوارات المثمرة التـي ستشهدها الجلسات ستنطوي على أهمية عنصـر الفكر والثقافة وتعميق الإنجاز الفكري في الساحـة العربية، وألمح إلى تخصيص بعض جلسات الندوة لمناقشة موضـوع (المدونات الإلكترونيـة) والتطرق لإبداعات القائمين عليها وحدودها ورقابتها بعد أن أصبحت خـارج الحدود الجغرافية المتعارف عليها.

وفي كلمته باسم المشاركين العرب تحدث المفكر المصـري السيد ياسـين عن ضرورة الاستفادة من الطاقات الشابة التي وجدت في التدويـن نافذة تطل منهـا علينا بعد أن أغلقـت الكثير مـن الأبـواب والنوافذ في وجهها، وطلب مـن المجتمع الثقافي العربي ضرورة إعـادة هذه الطاقات مـن الفضاء الافتراضـي إلى أرض الواقع، مشيراً إلى أن المجتمـع الصناعي تحكمه وحـدة السوق، وأنـه لا بد من إعادة صياغـة العلاقة بين حريـة السوق وواجبات الدولة، موضحا أنه ليس هناك مجتمع معلومات بغير ديمقراطية وشفافية وحرية تداول المعلومات.

وتضمـن حفـل افتتاح نـدوة «العربي» فيلماً توثيقياً يحكي تاريخ المجلة ومسيرتها الثقافيـة والأدبية وخدمتهـا في إثراء اللغة

العربية على مــدى ٥٠ عاماً، وتخلل الحفل تكريم عدة جهات مختــارة لهذا العام وهي مؤسســـة الإنتاج البرامجـــي المشترك لدول الخليج العربية، ومركز البحوث والدراسات الكويتيــة، وموقع جهة الشعــر، وقناة النيل الثقافية المصرية، وموقع الوراق الإلكتروني، كمــا شمل حفــل الافتتاح أيضــاً معرضا لـ «رســوم فناني العربي» وشــارك فيه كل من الفنانـــين التشكيليين: حلمـــي التوني وأمين الباشا ومحمد حجي ومحمد أبو طالب.(٣)

مؤتمر حول دور المرأة في التراث:

أقــام المجلس الأعلــى للثقافة المصري مؤتمراً ناقش فيه دور المرأة في التراث الفني المعاصر، حيث تنــاول المشاركون في المؤتمر العديد مــن المحاور التي تكشــف عن دور المرأة ومكانتها في التراث الفرعوني، والتراث القبطــي، والتراث الإسلامــي، وفي العصر الحديث، وتناولت أولى جلسات المؤتمر عدة موضوعات تمحــورت حول الحب في مصر القديمة، والمرأة في العصر البطلمي، ووضع المــرأة في العصر الروماني، إلى جانب بعض الموضوعات المتنوعــة ومنها: فيرنا القبطية وتأثيرها على المجتمع السويسري وورقة حول أفراح سيوة، ونماذج لمصريات معاصرات.

وجــرى في فعاليــات المؤتمــر تقــديم مجموعة مــن الأبحاث المتصلــة بالمرأة في الفن القبطــي والمنسوجات، وبملابس المرأة في العصــر القبطي، والمــرأة في النصوص القبطية والمرأة في الأمثال الشعبية، وظاهرة العنف مع المرأة.

كما شملــت فعاليات المؤتمر موضوعات متنوعة تمحورت حول المــرأة والفن ومنها: المرأة كعنصر تشكيلي في التصوير الجداري الإسلامي، والــدور التنموي للمرأة، ومكانة المرأة في الإسلام، وسيكولوجية المرأة.

ما يجدر ذكــره أن المؤتمر أتى بمناسبة احتفــالات اليوم العالمي للمــرأة وقد أقامه المجلس الأعلى للثقافة بمتحف الفنانة عفت ناجــي إحدى رائــدات الحركــة التشكيلية المعاصــرة، ويقــع المتحــف في حــي سراي القبــة، حيث سكن الفنان سعد الخادم رائد الدراسات والفنون الشعبية، وزوجته الفنانة عفت ناجي التــي تبنت في أعمالها استلهام عالم الأساطير الشعبية.(٤)

عبده خال يفوز بجائزة بوكر العربية:

فــاز الروائــي السعــودي عبــده خال بالجائــزة العالميــة للرواية العربيــة «بوكر العربيــة» لعــام ٢٠١٠ عن روايتــه «ترمي بشرر»، وتمَّ الإعلان عن اسم الفائز بالجائزة في العاصمة الإماراتية (أبو ظبي)، بحضور

حشـد مـن المفكريـن والنقـاد والناشرين والكتاب والصحفيين العرب والأجانب.

وقـال رئيس هيئـة التحكيـم، الكاتب الكويتي طالب الرفاعي: لقد مارست لجنة التحكيـم عملها خـلال المراحـل المختلفة للجائزة محتفظة باستقلالية قراراها ونزاهة تعاملها مع جميع الأعمال الروائية المتقدمة للجائزة، مع التأكيد على وجود روايات جيدة وممتعة لم يكتب لهـا الوصول إلى القائمتين الطويلـة أو القصيرة، موضحـاً أن الرواية تصور برمزية فائقـة عوالم السلطة المطلقة بقدرتهـا على تدمير الأشخاص والنفوس والأمكنة.

وقد اعتبر الناقد جابـر عصفور رواية ترمي بشرر، مواصلـة في مسيرة عبده خال الخلاقة، حيث نعثر فيهـا على شخصيات ملعونة ومعطوبة بالكامل، بلا هوية واضحة أو ملامـح تميزها. شخصيات في تضاد مع شروط المـكان، مؤكـداً أن الكتابة الروائية عند صاحب «مدن تـأكل العشب» هي فعل فضائحـي بامتيـاز، لأن التاريـخ الرسمي الذي لا يكتـب الفضيحـة (في مستوياتها المتعـددة) يغدو تاريخاً مزوّراً أو مشكوكاً في صحة أجزاء منه.

على صعيـد ردود الفعل حول فوز هذا الكاتب المثابر، اعتبر وزير الثقافة السعودي عبد العزيز خوجة أن عبده خال سفير المملكة في الإبداع، وقال: إن فوزه بهذه الجائزة يعكس حيوية الحراك الثقافي السعودي، فيما قال الروائي الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل إن عبده خـال يستحق الجائزة، وفقاً للأعمال التي كتبها وتعتـبر، من وجهة نظره، هادفة وفيها مواقف انتقاديه للواقع الاجتماعي، في شـكل جريء، مشيراً إلى أن عبده خال، كان منذ بداياته يبشر بهذه الطاقة الروائية.

وأكـد الناقد سعـد البازعي أن صاحب (الأيـام لا تخبئ أحداً) مـن الأسماء التي ينبغـي أن نفتخر بها، فهو مـن القلة التي تحـترف الكتابـة السرديـة، وبجديـة يقل نظيرهـا في السعوديـة. وأعماله منذ البدء جديرة بالاهتمـام والتقدير النقديين، على رغـم ضآلة الاهتمام النقـدي الذي حصل عليـه وتوجّه ذلـك الاهتمـام في كثير من الحـالات إلى أعمـال مثيرة، إمـا لأسباب سياسية أو لأسباب اجتماعية ضعيفة الصلة بالكتابـة السردية. وأشـار البازعي إلى أن عبده خال ظـل الأكثر وفاءً للكتابة الروائية وممـن كتبوا الرواية في وقـت لم تكن بدأت فيه طفرة الكتابة الروائية التي نراها اليوم، والتـي جعلتها أقرب إلى الموضـة منها إلى الانشغال الإنسـاني والإبداعي الكبير، وقد بلغت في هذا السياق حداً غير مسبوق.

ويعبّر الناقد صالح زياد عن ابتهاجه بهذا الفوز، لافتاً أنه سيلفت النقاد والقراء إلى قراءة عبده خال، وسيفتح للرواية الفائزة – وربما- لغيرها من أعماله باب الترجمة إلى لغات أجنبية، مشيراً إلى أن هذا ليس مكسباً لعبده خال فقط إنما هو مكسب للثقافة والإبداع السردي تحديداً في المملكة.

أما الناقد مبارك الخالدي فقد أكد استحقاق عبده خال الجائزة، موضحاً أنه لا يطلب من أي نص سردي سوى أن يكون ممتعاً وشائقاً في المقام الأول، ويمنح المتلقي فرصة لتحليق المخيلة وتيقظ الذهن، وفي رأيه أن رواية (ترمي بشرر) خذلته لأنها لم تقدم له المتعة التي كان ينشدها.

وتدار الجائزة بالتشاركية مع مؤسسة جائزة بوكر البريطانية، وبدعم من مؤسسة الإمارات للنفع الاجتماعي، ويشار إلى أن ١١٣ رواية عربية من ١٧ دولة تنافست على الجائزة هذا العام، ويحصل المرشحون الستة، في القائمة المختصرة، على ١٠ آلاف دولار، أما الرابح فيفوز بـ ١٥ ألف دولار، وفاز بالجائزة من قبل بهاء طاهر عن «واحة الغروب»، ويوسف زيدان عن رائعته «عزازيل». [٥]

جوزيف حرب يفوز بجائزة الأدب اللبناني ٢٠١٠:

فاز الشاعر اللبناني جوزيف حرب بالجائزة الأولى التي منحها مجلس العمل اللبناني في (أبو ظبي) لعام ٢٠١٠ وذلك بمناسبة احتفالات بيروت عاصمة عالمية للكتاب.

ونال الشاعر الكبير (حرب) جائزة الأدب اللبناني التي أعلنها في بيروت رئيس المجلس ألبير متى عن كتابه الشعري «زرتك قصب فليت ناي» المكتوب بالمحكية اللبنانية ويعتبر هذا الكتاب الصادر عام ٢٠٠٩ عن دار رياض نجيب الريس الرابع للشاعر حرب بالمحكية اللبنانية بعد «مقص الحبر» عام ١٩٩٥ و«سنونو تحت شمسية بنفسج» عام ٢٠٠٤ و«طالع عبالي فل» عام ٢٠٠٧، ويعد الكتاب الفائز بالجائزة الأولى هو الكتاب الشعري الثالث عشر للكاتب حرب بعد أن صدرت له مجموعات شعرية كرست مكانته الرفيعة في الشعر العربي عموماً واللبناني خصوصاً منذ بداية نشره «شجرة الأكاسيا» عام ١٩٨٦ تلته «مملكة الخبز والورد» عام ١٩٩١، «الحضر والمزمار» عام ١٩٩٤، «السيدة البيضاء في شهوتها الكحلية» عام ٢٠٠٠، «المحبرة» عام ٢٠٠٦، «رخام الماء» ٢٠٠٨، «كلك عندي إلا

أنت» عام ٢٠٠٨ و«أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها» عام ٢٠٠٩.

يذكر أن جائزة مجلس العمل اللبناني وقدرها خمسون ألف دولار منحت لستة فائزين يقدم نصفها للفائز الأول ونصفها الأخير يوزع على خمسة فائزين هم فؤاد الحاج عن «حماري والكومبيوتر» وحسن عبد الله عن «فرح» والهام منصور عن «تركت الهاتف يرن» ومحمد علي شمس الدين عن «اليائس من الوردة» وحسن داوود عن «مئة وثمانون غروباً». [٦]

معرض الرياض الدولي للكتاب:

افتتح وزير الثقافة والإعلام الدكتور عبد العزيز خوجة، معرض الرياض الدولي للكتاب الذي تطلقه العاصمة السعودية بشكل منتظم كل أول ثلاثاء من شهر مارس سنوياً.

وأكد الخوجة خلال تفقده أجنحة المعرض أن السوق السعودي والأجواء المهيأة للناشرين في المعرض أتاحا مشاركة عدد كبير من دور النشر هذا العام إضافة إلى سقف الحرية الحالي آملاً أن يتيح معرض العام القادم (٢٠١١) مساحة للناشر الإلكتروني وسط هذا الكم الكبير من دور النشر.

شاركت في المعرض هذا العام ٦٥٠ دار نشر من داخل المملكة وخارجها، منها دور نشر هي وكيل لأكثر من ٢٠ دار نشر أجنبية، بصنوف العلم والمعرفة والآداب والثقافات، إضافة إلى حلول دولة السنغال «ضيف الشرف»، تلك الدولة التي قال عنها مدير معرض الرياض الدولي للكتاب الدكتور عبد العزيز صالح العقيل: إن السنغال حاضرة في الثقافة بقوة بثراء حراكها الثقافي في القارة الأفريقية بسماتها العربية الإسلامية المتميزة، فهي ذات تأثير كبير في نشر الثقافة العربية والإسلامية في أفريقيا.

ويرى المعنيون بالشأن الثقافي أنه منذ انتقال مسؤولية تنظيم المعرض من وزارة التعليم العالي إلى وزارة الثقافة والإعلام عام ٢٠٠٧ بات معرض الرياض الدولي للكتاب يكتسب زخماً، واهتماماً واسعين محلياً وعربياً، وتسلط عليه الأضواء بكثافة، إضافة إلى ما يحدثه من ضجيج في ظل مواقف بعض المتشددين حياله، وهو ما يحدث جدلاً مفرغاً من الموضوعية والمعرفة طبقا لآراء كثير من المراقبين الذين يتطلعون هذا العام إلى تجاوز ما اعتبروه فتوراً في البرنامج الثقافي المصاحب للمعرض في الدورة الماضية، حيث شهد معرض هذا العام حضوراً كبيراً لكتّاب الطفل ومشاركة المرأة عبر الإعداد والحضور والندوات، حيث تمَّ تخصيص الجناح (٣٧) للطفل، ويتميز

بتقـديم أنواع من المحتوى الفكري التعليمي والإرشادي والترفيهي بأسلوب متعدد مشوق وجميل سمته الألوان والوضوح تحت عناوين وإصـدارات عديدة تشمل اللغة الإنجليزية، مشيراً إلى حرص المعرض على إقامة أنشطة موجهة كمكتبة مفتوحة للقراءة الحرة، وركن للأعمـال الفنية، ولقاء مـع كتّاب وكاتبات متخصصـين ومتخصصـات في الكتابـة للطفـل، إلى جانـب أنشطة عـن الأساليب الحديثة في الكتابة للطفل. (٧)

تونس تكرم الطاهر الحداد:

كرمـت السفـارة التونسيـة ببريطانيا الطاهر الحـداد بعد ترجمة كتابه /امرأتنا في الشريعة والمجتمع/ إلى اللغة الإنجليزية، وذلـك بحضور عـدد من السفـراء العرب ببريطانيـا ومجموعـة مـن الدبلوماسيين وممثلين عن منظمـات، وإعلاميين، وعدد من الأكاديميين.

وقد افتتحت السفـيرة التونسية حميدة مرابط العبيـدي النـدوة التكريمية بكلمة شكـرت فيهـا بشـكل خاص المحاضرين الدكتـور دانيـال نيومان والدكتـورة رونق حسني اللذين حصلا علـى تكريم الرئيس التونسي زيـن العابدين بن علي سنة ٢٠٠٨ بمناسبة عملهما الممتاز في مجال الدراسات الإسلاميـة، ولاشتراكهمـا في تأليف كتاب «النسـاء المسلمـات في القانـون والمجتمع» الذي هو ترجمة لكتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» للطاهر الحداد.

و أشـارت السفـيرة التونسية في كلمتها إلى أن احـترام حقـوق الإنسـان له جذور وتاريـخ عميق في تونس حيـث القناعة بأن حقوق الإنسـان تشمل الرجال والنساء على حـد سواء، وهذا ما جعل حقوق المرأة جزءا من التقاليد، مشيرة إلى دور الطاهر الحداد في انطـلاق مسيرة تحرير المرأة،ثم القوانين التي أصدرت منـذ ١٩٥٦ والتغييرات التي عرفتها مجلة الأحوال الشخصية.

وفي مداخلتـه استعرض الدكتور دانييل نيومـان الذي يترأس القسم العربي بجامعة دارم مسـيرة الحـركات الفكريـة الداعية لتحريـر المرأة في العـالم العربي من رفاعة الطهطـاوي إلى قاسـم أمـين ورأي بـيرم التونسي في المرأة الغربية في عصره، مؤكداً أنه بعد دراسته لكل هؤلاء استخلص أن أول مـن دعا فعليا لتحرير المـرأة والمساواة بما للمفهـوم المعاصر مـن مقاييس هو الطاهر الحداد، وهكذا تكون مسـيرة تحرير المرأة في العـالم العربي قد بدأت فعلياً من تونس، وأضاف الدكتور أن كتـاب الطاهر الحداد يعتبر إلى جانب أنه عمل روائي قيم إضافية علمية.

أما الدكتورة رونق حسني وهي أكاديمية بريطانيــة من جــذور عراقية فقــد بدأت مداخلتهــا بمقولة طه حســين الشهيرة عن الطاهــر الحداد وهي «لقد سبق هذا الفتى زمنه بقرنين» ثم استعرضت محتوى الكتاب والأفــكار الراديكالية التــي يحملها، وآراء الكاتــب المعتدلة في مجال الديــن والقانون والطلاق والزواج وحقوق المرأة في عصره.

يذكــر أن الطاهــر الحــداد مــن روّاد عصر النهضة، ولد عــام ١٨٩٩، ودرس في كتاتيب تونس العاصمة، وتخرج من جامعتها «الزيتونــة»، وعمــل ماسك دفاتــر في أحد دكاكين سوق العطّارين ثــم كاتبا بالجمعيّة الخيريّــة، وقد نشــر العديد مــن المقالات الجريئــة في الصحــف التونسيــة كجريدة «الأمة» و«مرشد الأمة» و«إفريقيا»، كان من الــروّاد المبكرين للحركــة النقابية، وأصدر كتــاب «العمّال التونسيــون وظهور الحركة النقابيــة» عام ١٩٢٧، الــذي صادرته إدارة الأمن فور صدوره.

وقد أثــار كتابه المشار إليه حين صدوره عام ١٩٣٠ ردود أفعال شديدة، حيث كفرته بعض الجهات الرجعية والأصولية، واتهمته بالإلحــاد والزندقــة وجرَّدته مــن شهادته العلميــة وطالبــت بمنعه من حــق الزواج وبإخراجه من الملة، وتمَّ منعه من العمل.

مــات الحــداد في ريعان شبابــه يوم ٧ ديسمــبر /كانــون الأول سنــة ١٩٣٥، لكن الشعــب التونسي ونخبته المثقفــة والمتنورة فكرياً قدرت عاليــاً الدور الريادي، فقامت بتكريمــه على أكثر من صعيــد، كان أهمها تضمــين مجلة الأحــوال الشخصيــة، التي صــدرت عــام ١٩٥٦، الكثــير مــن أفكار واقتراحات الطاهر الحداد، الذي قال عنه آنذاك وطه حسين: «لقــد سبق هذا الفتى زمنه بقرنين». [٨]

الكوني والترجمة:

في ندوة نقدية جمعت بين الروائي الليبي إبراهيم الكــوني، واليوت كولا مترجم رواية الكــوني «التــبر» إلى اللغــة الإنكليزية، قال الكــوني: إن روح المؤلــف تبقى في الترجمة، بقدر مــا تكون هذه الترجمة جيدة، ليصبح الكتاب من وجهــة نظره خاصاً بالمترجم في النهائية.

وأشــار الكوني إلى أنــه من هذا المنطلق كانت الجوائز في رواياته تمنح للمترجم، إلاّ في سويسرا كانوا يصــرون أن يمنحوها له، وهو ما يجعل المترجــم يحزن لذلك، وبهذا كان يتنــازل، كنت أتنازل لهــم عن القضايا المالية فالجوائز ليست مالية، كما يقول.

ويضيف الكــوني: إن ترجمة النص إلى الأجنبية تعتبر احتفاء بهذا النص، فإصدار

الكتــاب في الغــرب يعني حدثــاً يواكب ولا ينســى، في كتابتك التي تتزايد كل عام، وكل هذا ناتج عن حضور النقد في أوروبة الذي يجعلك تضاعف قدراتك التخيلية.

وعــن رأيه بترجمة أعمالــه إلى ٤٠ لغة أكــد الكــوني أن الهدف مــن الترجمة هو التواصل مع الآخر، قائلاً: يجب أن نتعلم في حياتنا كل يوم، وأنا أعيش في أوروبة منذ ٤٠ عاماً، وكنت هناك منذ كان عمري ٢٠ عاماً، فأنا إنسان متلــق أعطتني الحياة أكثر مما أعطيتها، لأنني قرأت كل الثقافات.

وأكــد الكــوني علــى أن الحضــور في الثقافات الأخــرى شرط ملازم لأي مثقف، وحــول الصحــراء قــال: نحــن لا نرى في الأشياء إلا ظلال الأشيــاء المفقودة، وأنا لا أكتب عن الصحراء كمــكان، بل هي رديف وجودنــا الإنســاني، والمــدى هــو الوجود، والمغامــرة وأضاف: للأسف انتشرت أعمالي في أوروبــة واليابان، لأنهــم يشعرون بهذا، لأنهم أســرى البحث عــن الحقيقة، هناك روايات سهلة وأخرى صعبة وفي أوروبة تجد الأخيرة الرواج الأكــبر فالنص الذي يحكم وليس الانطباع.

وتحــدث كولا عــن تجربتــه في ترجمة الكوني مشــيراً إلى أن الصحراء التي كثيراً ما يكتب عنها الكــوني تعتبر في الغرب رمز للخــلاء، لكنها عنــد الكوني أبعــد من أن تكــون بيئة، بأنها تشبه فكــرة البحر، مثلما فعــل همنغواي في روايتــه العجوز والبحر، ولذلك عندمــا ترجمت الكوني كان علي أن أبحر في آداب أخــرى، ومن هذا المبدأ قال كولا: ترجمت الكوني لأجل أن أطرح الأبعاد العميقــة، والرمــوز، الموجــودة في الرواية، وأبعادها. [٩]

كافكا بلغة الضاد:

صــدرت عــن دار الشــروق في القاهرة ترجمة عربية لرواية مصــورة مأخوذة عن رواية المحاكمة لفرانتس كافكا الذي يعد من أكثر الكتاب تأثــيرا في الأدب الغربي ويرى كثــيرون أن غموض أعمالــه منحها أهمية مستحقة.

والرواية التي رسمتها الفرنسية شانتال مونتلييه وأعدهــا ديفيد زين ميروفيتز هي معالجة أخــاذة لرواية كافكا على حد تعبير دار الشــروق التــي نشــرت الرواية بترجمة فادي عوض ومراجعة أحمد محمود.

وتدور الأحــداث الغامضة للرواية حول «جوزيــف ك» الذي يلقى القبض عليه ذات يــوم بسبــب جريمــة لا يعرف عنهــا شيئا ولا يشرحــون لــه تفاصيلها ويظــل باحثا عــن أسباب اعتقاله ثم يجــد نفسه ضحية لسلسلــة من الإجــراءات الغامضة الباعثة

علــى التشوش والأقــرب إلى عبث خال من المنطق كأنه كابوس.

وقــال الناشر: إن الروايــة التي تقع في ١٢٧ صفحــة كبيرة القطــع متاهة قضائية تبتلع مواطنــاً بريئاً.. لوحة شديدة الوضوح للبيروقراطيــة المتسلطة التــي تدهس حياة مواطنيهــا المغربــين. ولهذا فــإن المحاكمة مناسبة لمقتضــى الحــال الآن مثلما كانت دائما.

ويعد كافكا -١٨٨٣-١٩٢٤- رائداً لتيار عبر عن الاغتراب النفســي والاضطهاد في أعماله ومنها: المسخ والقلعة، ويقول الناشر: إن كافــكا رفضــ نشــر معظــم أعماله في حياته، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك حينما أوصى صديقه المحرر ماكس برود أن يحرق كل أوراقه بعد موته. لكن برود آثر ألا ينفذ وصية صديقه، ونشر برود المحاكمة في العام التالي لوفاة كافكا. (١٠)

سو تونغ يفوز ببوكر الآسيوية:

فاز الكاتــب الصيني ســو تونغ بجائزة مــان لهذا العــام، وهي النسخــة الآسيوية من جائزة بوكــر، متفوقاً على مجموعة من الكتاب الهنود.

وتتمحــور الرواية التي حملــت عنوان قارب الخلاص حول محاولات موظف منبوذ من الحــزب الشيوعي لإعــادة بناء حياته، حيث تــدور أحداثهــا حول حيــاة مسؤول حزبــي يغــازل النساء ويخصــي نفسه بعد نفيه على مــتن زورق نهري مع ابنه الصغير إثر الأحداث الصاخبــة للثورة الثقافية في أواسط ستينيات القرن الماضي.

واعتبر ســو في أول تعليق لــه بعد نيله الجائزة إنه يشعر أن الحكم بمنحه الجائزة اتصف بالاستقلالية، موضحاً أن الأمر مهم بالنسبــة لــه لأنه لا يعد نفســه من الكتاب المشاهير.

وتتصف كتابات سو بالسوداوية وتستمد شعبيتهــا مــن استفزازيتها، لكنهــا تعرّضه بالمقابل للمتاعب مع السلطات في بلاده.

ووصفت لجنة التحكيم المكونة من ثلاثة أعضاء بينهم الكاتبان الهندي بانكاج ميشرا والإيرلنــدي كــولم تويبين، رواية ســو بأنها أسطــورة سياسية متعلقة بالمتشردين، علاوة علــى أنها «حكاية رمزية عن الرحلات التي نقــوم بهــا في حياتنا، والمسافــة بين قارب رغباتنا والأرض الجافة لإنجازنا».

ولســو العديــد من الروايــات الأخرى، وتعد روايــة زوجات وخليــلات التي كتبها عام ١٩٨٩ الرواية الأكثر شهرة بين أعماله، وقد تحولت إلى فيلم بعنوان «ارفع الفانوس الأحمر» للمخــرج الصينــي تشانغ ييموو، وكتب سو ســت روايات منهــا رواية «الأرز

وحياتـــي كإمبراطـــور» التي صـــدرت عام ٢٠٠٦، وتهدف جائزة مان الآسيوية الأدبية إلى التعريف بكبار كتّـــاب المنطقة ومنحهم منبراً للوصول إلى جمهور دولي أوسع. (١١)

إحـــــالات

١- وكالة الأنباء اليمنية «سبأ» WWW.SABANEWS.GOV.YA.

٢- وكالة أنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET

٣- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM.

٤- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG.EG.

٥- موقع ميدل ايست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

٦- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG.

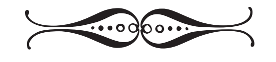
٧- وكالة الأنباء السعودية WWW.SPA.GOV.SA.

٨- وكالة الأنباء التونسية WWW.AKHBAR.TN.

٩- موقع القناة WWW.ALQANAT.COM.

١٠- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM.

١١- موقع قناة الجزيرة WWW.ALJAZEERA.NET.





بلاد الرافدين وعيلام

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن*

منذ البدء في الكتابة التاريخية، والعمل على الحفر الأثري، بدأت ملامح تشكل أولي لتاريخ المنطقة السورية وبلاد الرافدين، وبدأت الدراسات تظهر الواحدة تلو الأخرى، سواء أكانت بالعربية أم باللغات الأجنبية.

قرأنا بعض الدراسات عن الحضارات: السومرية والبابلية والآشورية والكنعانية والفينيقية والآرامية.

لكن قلة هي الدراسات التي قدمت عن المحيط الجغرافي لهذه المنطقة عن العلاقات بين الحضارات السابقة الذكر ودول الجوار.. كان الأمر وما

* باحث سوري.

يزال يحتاج للعديد من الدراسات المقارنة. لكن ذلك لم يمنع من ظهور دراسات مقاربة معرفية أولى عن حضارات الجوار: بلاد عيلام، وبلاد الحثيين، والميتانيين وغيرهم من الأمم والشعوب.

وبدأت هذه الدراسات بمقاربة خجولة لمجمل هذه العلاقات على الصعد كافة: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية.

كتابنا لهذا الشهر، يبحث في وجه من أوجه هذه العلاقة، بين حضارتين متجاورتين. عنوان الكتاب: بلاد الرافدين وعيلام -العلاقات الحضارية في التاريخ القديم. المؤلف الدكتور نصار سليمان السعدون، باحث وأكاديمي عراقي، متخصص بالتاريخ القديم لمنطقة بلاد الرافدين. يقع الكتاب في /٣٤٥/ صفحة من القطع الكبير، وصدر عن دار إنانا للطباعة والنشر بدمشق للعام /٢٠١٠/.

نحاول في هذه العجالة تقديم لمحة موجزة عن الكتاب، بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

❁ ❁ ❁

١- تاريخ العلاقات بين بلاد الرافدين وعيلام في الألف الثالث قبل الميلاد

تقع بلاد عيلام إلى الشرق من جنوب العراق، وكانت على اتصال به منذ العصور المبكرة. أطلق السومريون على هذه المنطقة اسم (NIM-KI) والذي يعني الأرض المرتفعة. أما التسمية الأكادية فهي (إيلامتو Elamtu) وهي مشتقة من العلو والصعود، أي الارتفاع. وفي العيلامية فإن التسمية تعني «أرض الإله». كما ورد اسم عيلام في التوراة والإنجيل.

أما الموقع الجغرافي، فإنه خضع لمد وجزر من كرمنشاه في الشمال الغزبي إلى طريق خراسان الكبير القادم من بغداد في الشمال. ومن وجهة جغرافية كانت عيلام امتداداً طبيعياً لسهول الرافدين.

الطرق التي كانت تربط بلاد عيلام مع العالم الخارجي وبلاد الرافدين تمّر عبر منفذين: من مدينة سوسة نحو محافظة ميسان ثم مدينة بابل. ومن سوسة وبابل إلى الوسط العراقي.

المناخ قريب من مناخ بلاد الرافدين من حيث درجات الحرارة العالية باستثناء المناطق الجبلية. وتروي أراضي عيلام مجموعة من الأنهار: الكرخة وويز والكارون والمارون وزهرة.

تكوينها البشري كان مفتوحاً لمجيء موجات عدة من السكان الجوابة للشرق الأدنى القديم. ولكن ما تؤكده الأبحاث أنهم كانوا أقواماً متقدمة على الأقوام الإيرانية من الفرس.

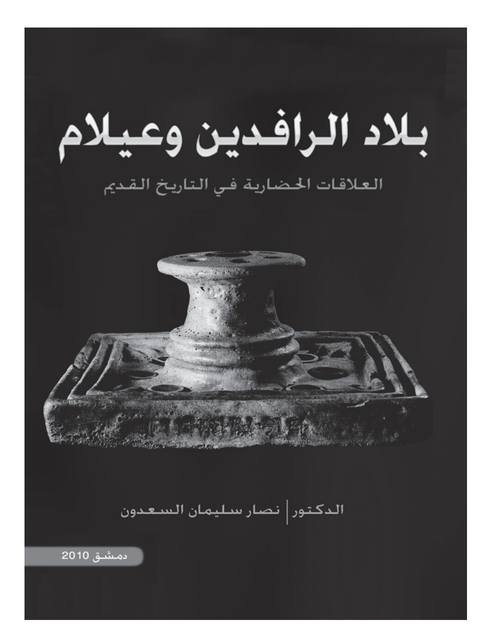
المراكــز العيلامية الأهــم في الجغرافية هـي: سوسة وأنشان وشيماشكي.

تؤكـد الكشــوف الأثرية وجــود علاقة مبكــرة بين العيلاميين وبــلاد الرافدين منذ العصر الحجري الحديث في العراق وفي بلاد عيــلام في مدينــة (برسيبوليس). وفي خلال عصر فجر السلالات نلاحظ بروز الأحداث الحربيــة الموثقــة والــدلالات علــى النفوذ السومري في بلاد عيــلام. علاقة برزت بين الاقتصاد والصراع العسكري.

في العصر الأكادي حققت بلاد الرافدين نفوذاً قويــاً في بلاد عيــلام إلى الحد الذي جعل اللغة الأكادية تحل محل اللغة العيلامية، بدءاً من سرجون الأكادي (٢٣٧١- ٢٣١٦ق.م) مروراً بريموش بن سرجون وما نشتوسو أخيه، ثم نارام –سين، وشار –كالي –شاري.

في العصــر السومــري الحديــث تسببت هجمــات الكوتيــين في إنهاء حكــم السلالة الأكدية، وقد سقطت بلاد عيلام مع الأكاديين. مع سلالة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ق.م) طرد الغزاة الكوتيــين في أول حرب تحرير عرفها التاريخ ووحد ملوك بــلاد الرافدين وعيلام ومن ملوك تلك الفترة: أور–نمو، شكلي، أمار –سين، شو–سين، أبي – سين.

❁ ❁ ❁



٢-تاريخ العلاقات بين بلاد الرافدين وعيلام في الألف الثاني قبل الميلاد

تمتــد هذه المرحلــة من العصــر البابلي القــديم (٢٠٠٠-٥٩٥ق.م). شهــدت هــذه الفــترة قيام عدة دويلات متعاصرة حتى قيام حمورابــي. وفي بلاد عيلام كان نظام الحكم عبارة عن اتحاد وإمــارات أو دويلات بإدارة أحد الأمراء المعينين من قبل البابليين.

في سلالة بابل الأولى التي بدأت (١٨٩٤-١٥٩٥ق.م) وكانــت مرحلــة أمورية أسست دولــة لها في بابل. أما بلاد عيلام فقد قامت فيهــا سلالة جديــدة عرفت باســم السلالة (الإيبارتيــة=١٨٥٠ق.م). وقــد تمتعت بلاد عيلام في هذه الفــترة بالاستقلال السياسي عن بلاد الرافدين.

في العصر الآشوري القديم (٢٠٠٠-١٥٠٠ق.م) أسس الآشوريون مملكتهم في شمال بلاد الرافدين. تولّى الحكم عدد من الملوك منهم (شمشي أدد الأول) الذي تمكن من السيطرة على بلاد آشور مؤسساً إمبراطورية امتدت من جبال زاغروس حتى المدن السورية شرقاً إلى الأراضي الشمالية من بلاد عيلام مقاوماً الانفصال عن مملكته. وقد كانت العلاقة بين العيلاميين والآشوريين عدائية.

بدأ العصر البابلي الوسيط (١٥٠٠ق.م) في بلاد بابل على أثر انسحاب الحثيين. كان عصراً طويلاً ومستقراً. وعرف باسم السلالة (الكاشية) طوال أربعة قرون. وكان يقابله في بلاد عيلام الملك (تاتا TaTa) من السلالة الإيبارتية. وفي هذه الفترة فتحت بلاد عيلام وعاصمتها (سوسة) بعد صراع عسكري طويل.

ما حدث في الفترة البابلية حدث في الحقبة الآشورية إذ وصل الجيش الآشوري إلى العاصمة (سوسة) والأقاليم المجاورة لها.

❁ ❁ ❁

٣- تاريخ العلاقة بين بلاد الرافدين وعيلام في الألف الأول قبل الميلاد.

شهد العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ق.م) تعاظم الدولة الآشورية. إذا امتد نفوذهم إلى معظم بلدان الشرق الأدنى القديم. كما كانت الدولة الآشورية في حالة صراع مع العيلاميين، حالات صراع امتازت بتدخل عيلامي في الشؤون الداخلية من خلال التحالف مع حركات انفصالية، والتي انتهت بتدمير عاصمة عيلام القديمة (سوسة). وبقيام الدولة البابلية الحديثة (٦٢٦-٥٣٩ق.م) تواصلت هذه الدولة مع من سبقها (الدولة الآشورية) في حكم البلاد بمنجزاتها السياسية وتراثها الحضاري. من أهم ملوك هذه الدولة الآشورية: شلمنصر الثالث.

في الإمبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٤-٦١٢ق.م) اعتلا (تغلات بلاصر الثالث) الحكم، والذي سمّي أبو الإصلاحات، وخاصة الجيش. وقامت السياسة الخارجية على أساس أربع مراحل: المرحلة الأولى (الانتهاك)، والثانية (الهجوم)، والثالثة (الهدنة القصيرة)، والرابعة (التدمير) وفيها حطمت الإمبراطورية الأرمنية والعيلامية. ومن أشهر قادة هذه الفترة (سرجون الثاني) وسنحاريب وأسرحدون، وآشور بانيبال.

٤- الجوانب الحضارية لعلاقات بلاد الرافدين مع بلاد عيلام

شهدت أرض بلاد الرافدين قيام حضارة عريقة امتد أثرها إلى دول الجوار عبر عصور حضارية مختلفة. اتسمت بالمبتكرات والعطاءات الفنية والحضارية، والتي كثيراً ما أثارت حقد الأقوام المجاورة.

لقد عُدت بابـل مهداً لحضـارة الشرق الأدنـى القـديم. فهنـا اخترعـت الكتابة، وأصبحـت الآداب والعمارة والفنون العراقية القديمة أمثلة تحتذى.

كشفت التنقيبـات الأثرية التي جرت في العاصمـة العيلامية وأماكن أخرى، عن عمق الصلات الحضارية مع بلاد الرافدين.

لقد وجـدت في عيلام العديد من الفنون المقلدة للنمـاذج الرافدية القديمة، فالتجارة حملـت معها معالم الفن. وقـد برز ذلك في: الفخـار والأختـام الأسطوانيـة، والنحـت والعمارة.

أمـا التأثـيرات الثقافية فقـد برزت في أوجه عـدة منها: اللغـة، إذ تميزت حضارة بلاد الرافدين أنها مهـد اللغات العالمية من سومرية وبابلية وآشورية. وقد تأثر العيلاميون بالكتابـة السائدة في بـلاد الرافدين وظهر الخط العيلامـي القديم الذي هـو تصوير للخـط السومري (المسمـاري)، وحلّت اللغة الأكادية محـل اللغة العيلاميـة واستخدمت الأسماء الرافدية.

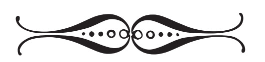
في الجانـب الديني تميـز بالتداخل بين الدين العيلامـي والرافدي مـع خصوصية عيلاميـة. برزت في التبجيـل والاحترام غير العاديـين للأنوثة النسوية الخالدة وفي عبادة الأفاعي.

في الجانب القانـوني اكتسحت الحضارة الرافديـة العالم كلـه من خـلال التشريعات القانونيـة (أورنمو) لبـت عشتـار، أشنونا، حمورابي). وقد أثر ذلـك على بلاد عيلام. فقد اعتمد القادة (العيلاميون) على القانون الرافدي المكتوب، على الرغم من وجود قانون عيلامي شفوي.

العلاقـات الاقتصادية كانـت أساساً في مجمل العلاقـات الأخرى، وقد ظهرت بشكل جلي في التجارة. فقد ارتبطت بلاد الرافدين بطـرق تجاريـة عدة مـع الـدول المجاورة. وخاصـة بلاد عيلام من جهة الشرق. وبرزت التجارة بقوة في مجال المواد الأولية كالأخشاب والأحجار الكريمة والمعادن من بلاد عيلام.

❁ ❁ ❁

ما قدمناه قراءة أولية للكتاب في خطوطه العامة. نعتقد أن ما يحتويه الكتاب يثير مادة قرائية هامـة في تاريخ العلاقـات الدولية. ومـادة خصبة لدراسة التطـورات التاريخية للجغرافيا السياسية للدول. من خلال صراع يتخذ سمة (صراع الحضارات).





ســـباق الفئـــران؟!

رئيس التحرير

قال محدثي: لقد أصبح في وقتنا الراهن، الحديث عن الأخلاق ومكارمها نوعاً من التخلّف والتجمّد في سلفية فكرية غافلة وفاشلة.

قلت: صحيح أن العصر متماد في المنطق المادي الذي لا يحسب حساباً لحدود الأخلاق، فالحق مع الأقوى وله، والقوة مع الغني وله، والنجاح يسرح ويمرح في ملاعب المال ورأسه، وذنب الغني مغفور لأن في

الغنى وبه إبداعاً محصّناً لا تتوصل إليه بلادة الفقر، فالفقر بليد على الأرض المتخلفة.. ومع كل هذا وذاك، ما زالت أصوات الخير كثيرة والدنيا مذ كانت لها شرورها، وتبقى الأخلاق أساس التوازن وبها حرمة الوجدان والفكر السليم.

قال محدثي: ولكن الوعي الإنساني والفكري مازال عاجزاً عن فرض القيم الأخلاقية في حياة الناس، كأن الحق لا يلتقي بالحقيقة، وكأن الخير جزء من وعي طوباوي.. أي خلل هذا الذي يضرب عمق أعماق وجودنا..

قلت: إن منطق الحساب المادي يعمّ العالم، والتردي الاجتماعي والاقتصادي يؤدي بالضرورة إلى التردي الأخلاقي، وقراءة التاريخ الحديث والمعاصر هي أسوأ ما يمكن للإنسان أن يفعله، لذلك دعنا نعود إلى التاريخ القديم الذي يخبرنا أن التاريخ لا يمكن أن يقف ثابتاً عند وضع واحد، بل لا بد من أن يتحرك، إلى الأمام أو إلى الخلف، ونحن في عالم اليوم نتحرك إلى الخلف. والظروف العامة السائدة هي التي تقرر المخرج من هذه الظروف ومن الحقائق المعروفة أن مفكري عصر النهضة في أوروبة هم الذين حركوا عجلة التاريخ في الطريق السليم بعد طول تعثر وركود، وكانت نهضة الفكر العلمي والأخلاقي هي التي حرّكت الناس إلى ذلك أي إنها هي التي حركت التاريخ والحضارة ودفعتهما إلى السير في طريق مستقيم يتجه إلى الأمام بدلاً من الدوران في الدائرة المفرغة العقيمة.. لقد عكف الفلاسفة على التاريخ يدرسونه ويستخرجون الأحكام والنظريات من تجارب الأمم، ومن خلالها استطاعوا أن يبدعوا فكراً جديداً واسع المدى.. البحث هو الذي قصّر الطريق وساعد على قيام نهضة فكرية علمية شاملة.

قال محدثي: أحدثك عن التردي الأخلاقي، فتقودني إلى التاريخ القديم وعوامل النهضة الأوروبية؟!

قلت: ولكن النهضة الأوروبية اعتمدت على أفكار «مونتسكيو» و«فيكو» و«دالامبير» وغيرهم الأخلاقية.. هذه الأفكار التي انتقدت بشدة منطق «سباق الفئران للوصول إلى ثراء أكثر» وكانت ترى أن السعي لكسب العيش عن طريق

العمل المثمر مثل فلاحة الأرض وزراعتها، وممارسة الصناعات اليدوية، وتوفير حاجات الجماعة من البضائع عن طريق المتاجرة في غير إسراف.. تؤدي إلى سعادة أكبر مما تؤدي إليه الثروات الكبيرة المتجمّعة في أيدٍ قليلة..

فساد الأخلاق أوصلنا إلى الطريق المسدود وإلى الحالة التي نحن عليها، عندما ندرس التاريخ ندرك جيداً حجم العمل الكبير الذي قام به أجدادنا في العصرين الأموي والعباسي، وندهش من عظمة الإنجاز والإبداع الذي تمَّ بفضل الأخلاق، وأقول واثقاً أن الأخلاق الحميدة، كانت وراء جميع المنجزات الحضارية التي قام بها العرب خلال التاريخ فجميع الحضارات التي قامت لديهم من سومرية وآكادية وبابلية وكنعانية وعمورية وآرامية وتدمرية ويمنية وإسلامية هي حضارات أخلاقية، الكلمة فيها كان لها فعل السحر..

